

فِي سِلْسِلَةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ٢

عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الله

صَلِّ عِمْ مَعَ الْمَلَأَحِيَّةِ

حَتَّى الْعَظَمِ

دَارُ الْقِسْلَمِ - قِسْلَمِ



8129461



في سلسلة
الأعداء لله
٢

صِلْ مَعَ الْمَلَاحِدَةِ

حتى العظم

تأليف
عبد الرحمن بن جبنة الميداني

دار الفاء
دمشق

الطبعة الخامسة
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دش - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

لولا أنّ الإسلام حق بذاته ، مؤيد بتأييد
الله ، محفوظ بحفظه ، لم تبق منه بقيّة
تصارع قوى الشرّ في الأرض ، التي ما تركت
سبيلاً من المكربه إلّا سلكته ، ولا سبباً لا إطفاء نوره
إلّا أخذت به ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة على خاتم أنبيائه
وإخوانه الأنبياء والمرسلين، حَمَلَة رسالات الهدى،
وَدُعَاة الخلق إلى الحق.

اللهم ألهمنا الصواب، وآتِنَا الحكمة وفصل
الخطاب.

اللهم ملأ

إلى كل مفتون بتزييفات المبطلين، مخدوع
بزخارف أقوال الملحدين.

إلى كل ناشد للحقيقة الكبرى في الوجود،
حريص على النجاة، طالب للسعادة الخالدة.

إلى الشباب المؤمن الذي يؤدّ أن يدمغ
الملاحدة بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة.

أقدم هذا الكتاب الذي يمكن أن يعتبر معركة
جدلية مع طائفة الملحدين المعاصرين، جنود
الشياطين، وأجراء اليهودية العالمية، التي تكيد لكل
حق، ولكل أمة، ولكل خير، ولكل فضيلة.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا
الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ووفقنا لما تحب
وترضى، واجمع كلمة المسلمين على الهدى
والتقوى، وانصر أولياءك على أعدائك، وأيد جندك
على جند إبليس، وحقق وعدك إذ قلت وأنت لا
تخلف الميعاد:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ
الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨).

(الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول)

الفضل الأول

مقدمات

لولا واجب حماية المسلمين
من تضليلات المضلين، حتى
السخفاء والتافهين، لما كان كلام
(د. العظم) يستحق النظر فيه، ولا
الالتفات إليه.

(١)

تصدى لمحاربة الإسلام متصدّون كثيرون بوسائل مختلفة، فتحطّموا وتكسّرت على حقيقته الثابتة المتينة نظرياتهم وجدلياتهم وأقوالهم المزخرفة، وتكشفت بنوره تزييفاتهم وأكاذيبهم وأباطيلهم وظل الإسلام بحقه ونوره يتحدى كل مخالف له، ويصرع كل مصارع، ويطحن كل محارب.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾.

(الصف / ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول)

هذا وإنني ما زلت أعتقد أنه من غير المستحسن إثارة معارك جدلية مع الملحدين من أعداء الإسلام، حتى لا تعطيههم هذه المعارك فرصة لنشر آرائهم بين أبناء المسلمين، وحتى لا تكسبهم هذه المعارك دعاية يستغلونها لنشر أسمائهم، وترديد أفكارهم وآرائهم الباطلة، وإهمالهم يتساقطون تساقطاً ذاتياً أمام سلطان الحق المالىء للوجود، وينساهم الزمان كما نسي أسلافهم، وتطوهم الحقائق طي رفاة الهالكين، ما زلت في هذا الاعتقاد إلى أن ألح عليّ فريق من أهل الغيرة على الإسلام، أن أكشف زيف بعض الملاحدة المعاصرين الذين تصدوا لمحاربة الإسلام في جذوره الكبرى، بمكتوباتهم ومنشوراتهم التي حاولوا أن يضعوا لها هالة البحث العلمي، والنقد الحر الجريء، وبرر لي هؤلاء الأجرة من أهل الغيرة ضرورة العمل، وأنه قد أصبح واجباً إسلامياً متحتماً، باعتبار أن طائفة من طلائع فتياننا وفتياتنا قد أثرت في نفوسهم وأفكارهم بعض أباطيل هؤلاء الملاحدة وسفسطاتهم ومغالطاتهم، حتى نقلني إلحاحهم من موقع الرفض إلى موقع التردد، وبقيت متردداً حولاً كاملاً، حتى أعاد هؤلاء الأجرة الغيورون عليّ إلحاحهم في صيف عام ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م، فاستخرت الله، وعزمت على تحقيق الطلب، وكتبت هذا الصراع العلمي المنطقي المحتشم، التزاماً بأداب المناظرة والجدال والتي هي أحسن، ما لم يستدع ردّ الضربة الباطلة بكفئتها من الحق.

ورجوت من هذا الصراع أن يحقق الله سنته التي أعلنها بقوله في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد والسداد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(٢)

لوعرف كثير من الملاحدة أن اليهود المقنعين يحرثون على أكتافهم وظهورهم مزارع سياستهم، ولا يدفعون لهم مقابل ذلك إلا الغرور بالنفس والأجر اليسير، والفحش الكثير، والخمر والحشيش، والمواعيد الكاذبة، والأوهام الخداعة، لاستقام تفكيرهم، وتيقظت بصائرهم، ولرجعوا إلى صفوف المؤمنين بالله، يكافحون الإلحاد ومن يغذيه أو يدفع إليه.

إن اليهود الذين وضعوا أو دعموا ما أسموه بالنظريات المناقضة للدين، وزعموا أنها حقائق علمية زوروا وبهتاناً، وأدخلوها ضمن حشد التقدم العلمي المعاصر، أرادوا أن يخدعوا بها أجيال المثقفين ليخرجوهم من صفوف أمتهم ويستخدموهم جنوداً يدمرون بهم كل الموارث الإنسانية والتعاليم الربانية.

ألا فليعلم هذه الحقيقة شباب مضللون سائرون في طريق الإلحاد، أو واصلون إلى غايته، أو متطلعون إلى السير فيه.

(٣)

قرأت طائفة من مكتوبات ملاحدة القرن العشرين، فرأيتها حشداً من المغالطات الفكرية المقرونة بزخرف من القول، والمقنعة بقناع العلمانية. فهي تحاول أن تدلي قارئها بغرور إلى مواقع الباطل، مغشية بصره وبصيرته حتى لا يرى

وجه الحق الجميل، ثم تنتقل به من تضليل إلى تضليل، مستخدمة عبارات الأمانة العلمية، وغوغائيات كلمات التقدم الصناعي والتكنولوجيا، ومعطية أحكاماً قطعية على مذاهب ومبادئ لا تمثل إلا وجهة نظر معينة لفئة من العلمانيين، تخالفها وتناقضها وجهات نظر أخرى تدعمها مدارس علمانية كثيرة، من علمانيات القرن العشرين نفسه، قرن التقدم المادي على اختلاف جوانبه واختصاصاته.

وتسير جدلياتهم ضمن هذا المنهج من المغالطات والغوغائيات والتقريرات، والعبارات التي تتصنع الهدوء والمنطقية، وتستغل كل ثقل التقدم العلمي الذي أحرزه إنسان القرن العشرين لأنفسها ومذاهبها، مع أن التقدم العلمي والتكنولوجيا بعيد كل البعد عن دعم مذاهبها، أو تأييد إلحادها بالله، وجودها اليوم الآخر، لدى تحري الحقيقة بصدق، في كل مجالات التقدم الصحيح الحق، في العلوم المادية والتكنولوجيا. وتدس جدلياتهم في بعض عباراتها نفثات الهزء والسخرية، وتبجححات التعاضم بالتقدم العلمي والصناعي، وذكر الأسماء الأجنبية المعروفة في ميادين المعارف والعلوم المادية وسيلة للتأثير على الضعفاء المراهقين في عقولهم ونفوسهم، الذين لا يصمدون لاستهزاء المستهزئين من أهل الباطل، وتستهيهم مظاهر الاستكبار والتعاضم، وتخدعهم دعاوى المعرفة والتقدم العلمي الحديث، وتؤثر في نفوسهم الأسماء المشهورة في ميادين العلم.

وأمام هذه المغالطات والغوغائيات الجدلية، ذكرت قول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾

(٤)

قرأت فيما قرأت مقولات «نقد الفكر الديني» للدكتور صادق جلال العظم، الحائز على لقب «دكتور» من الذين دسوا الكفر في فكره إذ منحوه هذا اللقب، فرأيت في مقولاته عجباً من المغالطات والأباطيل والافتراءات، وسائر وسائل الجدل بالباطل لدحض قضية الحق.

وكننت قلت في نفسي قبل أن أقرأ مقولاته بإمعان: لعله باحث أخطأ وجه الصواب، وعاب بانحرافه الحق الذي لا يعاب، ولكنني بعد أن قرأت كتابه رأيته نموذجاً من التضليل المراد، القائم على المغالطات والأكاذيب والادّعاءات الباطلة، وستر وجه الحق الديني الذي تصدى لمحاربته علناً، وتزيين وجه الباطل الإلحادي الذي حمل لواء مناصرته والتبشير به.

وقد كنت قرأت علوم الفلسفة والمنطق والمناظرة، ومررت فيها على ما يسمونه (بالمغالطة) وما يسمونه (بالفسطة) فإذا سئلت عن أمثلة لهما لم ينجديني الخيال إلاّ بأمثلة محدودة، رغم الكدّ الذهني الذي أبذله، فلما قرأت مقالات «نقد الفكر الديني» ظفرت منها بأمثلة كثيرة للمغالطات وأنواع السفسطات التي تعمّدها كاتبها الناقد (د. العظم) ليضلّل بها من يطالع كتابه من مراهقي الفتيان والفتيات، من أجيال الأمة الإسلامية، خدمة متحمّسة للماركسية والداروينية والفرويدية وسائر النظريات بل (الفرضيات) اليهودية الإلحادية، وهو في كل ذلك يتستر بعبارات التقدم العلمي والصناعي، والمناهج العلمية الحديثة، ولا يقدم من البيّنات إلاّ قوله مثلاً: إن العلم يرفض هذا، أولاً يسلم بهذا، أو يثبت هذا، دون أن يطرح مناقشات علمية نقدية تتحرى الحقيقة.

فمن غريب ما فعل في منطق الشاذ أنه جمع كل الأديان، وكل ما فيها من حق وباطل، وكل ما نسب إليها من ضعيف وقوي وفاسد وصحيح، وقال: هذه هي الأديان، ثم وجه النقد اللاذع للباطل الظاهر، وللضعيف البين، وللفساد المعروف فساد، ثم صنع من ذلك مقدمة فاسدة استنتج منها إبطال الدين كله.

لقد رأى في مقدمته الفاسدة أن الاتجاهات الدينية يوجد فيها ما هو باطل مخالف للحقائق العلمية، التي توصل إليها البحث العلمي (ووضع الأديان المختلفة كلها في دائرة واحدة) ثم زعم أنه لما كان الدين كله يمثل جبهة واحدة، وقد وجد الباطل في جانب من جوانب هذه الجبهة، ولما كان الدين متماسكاً الحلقات متى انتقض بعضه انتقض كله، فالنتيجة التي يستخلصها الفكر العلمي هي أن الدين كله مشكوك به، ولا يصح الاعتماد عليه ولا الأخذ به.

هذه هي حجة (د. العظم) في إبطال الدين كله، ولست أدري هل يقبل إنسان يملك الحد الأدنى من التفكير المنطقي السليم هذا النوع من الاستدلال العظمي الذي ليس له أسر^(١) يشده، ولا لحم يملؤه، ولا إهاب يزينه، أو تجري فيه دماء حياء أو حياة.

على هذا القياس العظمي نستطيع أن نبطل العلوم المادية كلها، ونجعلها شيئاً غير موثوق به مطلقاً، فنقول: إن الاتجاهات العلمانية التي تعتمد على البحث العلمي المدروس بأناة واختبار وتجربة للوصول إلى الحقائق هي اتجاهات باطلة مزيفة، بدليل أننا نلاحظ عند أصحاب هذه الاتجاهات نظريات متناقضة، ونلاحظ بعضها فاسداً قطعاً، وبعد هذه المقدمة نُصدر وفق القياس العظمي حكماً قطعياً عاماً على كل الاتجاه العلمي، ونقول: هو اتجاه مشكوك به، باعتبار أن فيه نظريات باطلة، وبما أن أصحاب الاتجاه العلماني يُمثلون جبهة واحدة، ومتى ظهر الفساد في بعضها فلا بد أن يكون الفساد أو الشك شاملاً لها كلها، وبناءً على ذلك فالالاتجاه العلماني باطل كله!

لو قال هذا الكلام واحد من المتدينين لقال الناس جميعاً - وفيهم المتدينون أنفسهم - : هذا إنسان فاسد العقل فاسد التفكير.

أما سيادة العظم فيقول مثله تماماً عن الاتجاه الديني كله، وهو يتظاهر بحرصه الشديد على الأمانة العلمية التي تنشئ الحقيقة، ثم لا يجد بين العلمانيين الماديين من يوجه له نقداً أو تصحيحاً منطقياً، فأين الأمانة العلمية التي يزعمونها ويتبجحون بها؟!

أهذا أمانة علمية؟ أم هو مغالطة، وخيانة للعلم، وخيانة لأصول العقل السليم والمنطق السديد؟

هل يصح في أصول العقل السليم تعميم مثل هذا التعميم؟ إن هذا التعميم

(١) الأسر: الجملة العصبية.

الفاقد لا يفعلُه بَقَال ولا بائع خضراوات، بل نرى البَقَال يصنف بقوله، ويميز بين الفاسد والصحيح منها، ونرى بائع الخضراوات كذلك يميز بين الفاسد والصحيح من خضراواته، ثم لا يرفض أصحاب الحوائج كل ما عندهما، ولا كل ما عند جميع البقالين وبائعي الخضراوات، لأن بعضهم يوجد عنده فاسد من بقول أو فاسد من خضراوات.

فأين المنهج العلمي الذي يتبجح به؟ وأين الأمانة العلمية التي يتظاهر بالغيرة عليها؟.

قرأت جدليات (د. العظم) وجدليات غيره من أساطين الإلحاد، فرأيت أن جدلياتهم كلها تعتمد على المغالطة الفاحشة الوقحة، أو المغالطات المقنعة بالحيلة والخداع، ولدى إحصاء هذه المغالطات وجدتها تعتمد على العناصر التالية:

- ١ - تعميم أمر خاص، والمغالطة هنا تنسب إلى بعض أفراد العام ما ليس له من أحكام بغية التضليل.
- ٢ - تخصيص أمر عام، والمغالطة هنا تنفي عن بعض أفراد العام ما له من أحكام بغية التضليل.
- ٣ - ضم زيادات وإضافات ليست في الأصل.
- ٤ - حذف قيود وشروط لازمة، يؤدي حذفها إلى تغيير الحقيقة.
- ٥ - التلاعب في معاني النصوص لإبطال حق أو إحقاق باطل.
- ٦ - طرح فكرة مختلقة من أساسها للتضليل بها.
- ٧ - تصيد بعض الاجتهادات الضعيفة لبعض العلماء وجعلها هي الإسلام، مع أنها اجتهادات منتقدة مردودة من قبل مجتهدين آخرين، أو من قبل جمهور علماء المسلمين.
- ٨ - التقاط مفاهيم شاذة موجودة عند بعض الفرق التي تنتسب إلى الإسلام، وإطلاقها على أنها مفاهيم إسلامية مُسلم بها عند المسلمين، والإسلام منها بريء براءة الحق من الباطل.
- ٩ - نسبة أقوال أو نصوص إلى غير قائلها أو إلى غير رواتها.

١٠ - كتمان أقوال صحيحة، وعدم التعرض إليها مطلقاً، مع العلم بها وشهرتها.

١١ - الإيهام بأن العلوم المادية ملحدة على خلاف ما هي عليه في الواقع.

وعلى هذا النمط تسير مغالطاتهم ضمن تلاعبات كثيرة فيها خيانة للعلم وللحقيقة.

ولكنني أرجو أن لا تنطلي مغالطاتهم وحيلهم وألاعيبهم على مثقفي هذه الأمة، وأن يكتشف الجميع خيانتهم لأمتهم وتاريخها، وخيانتهم لأنفسهم إذ باعوا نفوسهم لأعداء الحق شياطين الإنس، وأن يكون رائد هؤلاء المثقفين محبي الخير لأمتهم وأنفسهم أن يتحققوا بمضمون الدعاء التالي:

«اللَّهُمَّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ووفقنا لما تحب وترضى».

والناقد (د. العظم) قد استخدم في كتابه «نقد الفكر الديني» معظم عناصر المغالطات التي أوضحناها آنفاً، غير مكترث بالحقيقة، ولا بالأصول المنطقية الصحيحة، ولا بالبحث العلمي السليم، وأما الأمانة العلمية التي تباكى من أجلها وتظاهر بالحرص الشديد عليها فلم يُقم لها أي وزن، بل راح يطعن في الصميم لدعم قضية الإلحاد التي حمل لواءها، وانطلق يبشر بها بين أبناء الأمة العربية.

أفبهذه المغالطات تُنشد الحقيقة العلمية؟

أفبهذه المغالطات تكون المحافظة على الأمانة العلمية؟

أهذه هي الأصول المنطقية المتقدمة التي يعتمد عليها؟

إن الحق الذي تنكره اليوم أيها الجاحد لن تستطيع أن تنكره غداً يوم الدين، ولن تستطيع أن تجحده إذا أراد الله أن ينزل بك شيئاً من معجّل عقابه، وعندئذٍ لن تستطيع الشيعوية العالمية، ولا اليهودية العالمية، ولن يستطيع ملاحدة الدنيا أن ينقذك من قبضة العدل الإلهي.

إن عذاب الله لشديد، ولئن استهنت به وأنت مغرور متمتع بصحتك وقوتك، فلن تستهين به يوم يمسك شيء منه، إن ربك لبالمرصاد، وإنه لا يخلف الميعاد.

لن يضر الحق شيئاً أن يجحده جاحدوه، أو ينكره منكروه، فالله حق وبيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

ولكن إنكار الحق تبارك وتعالى يضر المنكر وحده، وجحوده تبارك وتعالى يضر الجاحد وحده، فهو بجحوده وإنكاره واستكباره يخسر نفسه وسعادته، ويقذف بهما إلى العذاب الأليم.

أيها الملحدون: اسمعوا قول الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْمَانُمُ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَانُمُ لَهُمْ لِيُزدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

* * *

الفصل الثاني

الحقيقة بين الدين والعلم

(١)

حاول الناقد (د. العظم) بمغالطاته وافتراءاته الكثيرة — أسوة بسائر ملحمي هذا العصر — أن يثبت أن الدين مناقض للعلم، ليتوسل من ذلك إلى نقض الدين كله جملة وتفصيلاً، وقد جعل هذه النقطة هي المحور الأساسي الذي دار حوله في محاربته للدين، ونقده المزعوم المزور للفكر الديني، ونقضه المزيف الكاذب لقضية الإيمان بالله من أساسها.

من أجل ذلك عقدت هذا الفصل «الحقيقة بين الدين والعلم» قبل الدخول مع العظم في المعركة الجدالية، حول النقاط التفصيلية التي أثارها في جدلياته غير الشريفة وغير الآمنة، لأكشف فيه مواقع النظر السليم إلى كل من العلم والدين، ولأحدد فيه أبعاد كل منهما، ومواطن الشبهات التي قد يقع فيها الباحثون عن حقائق العلم أو حقائق الدين، والأخطاء التي قد يقع فيها هؤلاء أو هؤلاء، وبذلك ينكشف للقارئ منهج الحق قبل أن يشهد في هذا الكتاب فصول الصراع الجدلي على النقاط التفصيلية التي أثارها العظم، فمن عرف قواعد الصواب والخطأ في موضوع ما قبل أن يشهد حلبة الصراع فيه استطاع في نفسه أن يكون حكماً، ويعرف المحق من المبطل، ويعرف المستقيم المقسط من المراوغ المخادع.

(٢)

تجوزاً في التعبير، ومتابعة لما هو دارج على ألسنة الناس، أضع هذا العنوان (الحقيقة بين الدين والعلم) لهذا الفصل، مع أن الحقيقة أن الدين الحق ليس قسماً مغايراً للعلم، وإنما هو علم عن طريق الوحي، وما جاءت به طرق الدين اليقينية هو من قبيل الحقائق العلمية، وللحقائق العلمية طرق إثبات أخرى هي الوسائل الإنسانية البحتة.

فالمقابلة إذن ليست بين الدِّين والعلم، ولكن بين طرق اكتساب العلم الذي يأتي به الدِّين، وطرق اكتساب المعرفة الإنسانية البحتة، كطريق الحس المباشر لإدراك المعارف، وهو الإدراك القائم على المشاهدة والتجربة، وكطريق العقل لاستنباط المعارف التي لا تُدرك بالحس المباشر، وهذه الوسائل الإنسانية المختلفة وأدواتها التي تستخدمها، هي منحة من الله لعباده، حتى يستخدموها في اكتساب المعارف والعلوم، ولذلك كان الإنسان مسؤولاً عنها عند الله في مجال اكتساب العلم، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ .

وهذه الوسائل الإنسانية تقدم بدورها شهادة يقينية بالحقائق التي توصلت إليها، أو شهادة ترجيحية بالمعارف التي ترجحت لديها بغلبة الظن، وكذلك الوحي الجامع لطرق اكتساب العلم الذي يأتي به الدين، هو أيضاً منحة من الله لعباده، وقد جعله الله للناس طريقاً لاكتساب طائفة من العلوم، وهي التي يطلق عليها اسم علوم الدين، ونلاحظ أن أهم ما يختص بها العلوم الغيبية التي لا تدركها الحواس الإنسانية، ولا تستطيع العقول بوسائلها إثباتها مستقلة عن أنباء الدين.

أما الحقيقة بالنسبة إلى الأمور الوجودية (غير الاعتبارية وغير النسبية) فهي واحدة، والإدراك الحسيّ يقدم شهادة بما توصل إليه من نتائج نحو الحقيقة، ويرافق الإدراك الحسيّ الوسائل المادية التي يستخدمها الحس، كالملاحظة والتجربة مع الأدوات والآلات التي ثبتت صحة شهاداتها، كالمقاييس والموازين والكواشف المختلفة، وذوات الإحساس المادي غير الإرادي الكيميائي والفيزيائي، حتى الذري والإلكتروني. والاستنتاج أو الاستدلال العقلي يقدم أيضاً شهادة بما توصل إليه من نتائج نحو الحقيقة. ولا يمكن أن تتناقض نتائج الإدراك الحسي ونتائج الاستدلال العقلي إلا واحدهما أو كلاهما مصاب بالخلل، وذلك لأن كلا منهما منحة ربانية وضعها الخالق بين يدي الإنسان ليعرف بها حقائق الأشياء، كما وضع بين يدي كل منهما وسائل البحث التي تقدم شهاداتها عن مشاهداتها، والطرق

الصحيحة التي تقصد أمراً واحداً لا بد أن توصل إلى غاية واحدة ونتيجة واحدة، أو غير متناقضة على أقل تقدير، إذ تتكامل الحقيقة مما قدمت هذه الطرق من مدركات، أو يعرف بها جزء من الحقيقة، على قدر ما استطاعت أن تكشف منها.

ثم إن الوحي الذي هو منحة من الله لعباده عن طريق النبوة هو أيضاً طريق من طرق المعرفة الصحيحة، فهو يقدم شهادة بالحقيقة، ومتى كان الخبر عن الوحي يقينياً مقطوعاً به فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يتناقض مع اليقين الذي توصل إليه الوسائل الإنسانية البحتة. ولو أمكن أن تتناقض لكان معنى ذلك أن الفاطر الحكيم لم يضع بين أيدينا الوسائل الصحيحة التي تكسبنا المعارف والعلوم الحقّة، أو لم يصدقنا فيما أخبرنا به عن طريق الوحي، وكل من الأمرين مستحيل عقلاً وشرعاً.

فإن الله تبارك وتعالى جعل وسائل المعرفة فينا مسؤولة في ميدان المعرفة والبحث العلمي، ومسؤوليتها هذه رهن بأنها من الطرق الموصلة إلى الحقيقة، كما جعلنا مسؤولين عن التسليم بما يخبرنا به عن طريق الوحي، لأن برهان العقل قد قام لدينا بأن ما يخبرنا به الرسول عن الوحي صدق وحق، والجامع بين الأمرين هو أن كلاهما يقدم شهادة بالحقيقة، وبما أن الحقيقة واحدة فإنه لا يمكن أن تتناقض نتائج الطرق الصحيحة الموصلة إليها، ومتى ظهر التناقض فلا بد أن يكون ذلك لخلل أصابها أو أصاب واحداً منها.

فمن الأمثلة ما يلي: لقد أخبرنا الله أنه لا إله إلا هو، وهذا خبر جاءنا به الوحي فقدم لنا شهادة بحقيقة وحدانية الخالق تبارك وتعالى، والبحث العلمي في هذا المجال لا بد أن يوصل إلى هذه الحقيقة نفسها، ولذلك قال الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾ (١٨)

فلدينا إذن حول هذه الحقيقة شهادة الله إذ أخبرنا بوحدانيته عن طريق الوحي والرسول، ولدينا أيضاً شهادة أولي العلم الذين توصلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق البحث العلمي.

فمن الغفلة الكبيرة والجهل بأصول المعرفة، إقامة الصراع والنزاع بين ما يأتي من المعارف الكونية عن طريق الدين، وما يأتي منها عن طريق الوسائل الإنسانية، مع أن هذه وتلك شواهد إلهية أقامها الله بين يدي الإنسان ليعرف بها الحقيقة، وهل يشهد الله شهادتين متناقضتين أو يضللنا سبحانه فيضع لنا وسيلتين تعطي كل منهما نتيجة مناقضة للأخرى في موضع واحد؟

هذا أمر لا يكون في حال من الأحوال، وحكمة الله العلي العليم الحكيم القدير تأباه.

وواجبنا لدى البحث عن الحقيقة أن نحرر تحريراً دقيقاً ما تأتينا به الوسائل الإنسانية من المعارف، وما يصلنا من أخبار الوحي .
وكلُّ مظهر للتناقض بين ما تشهد به الوسائل الإنسانية للمعرفة وما تشهد به النصوص الدينية لا يعدو أحد الاحتمالات التالية:

١ - إما أن يكون الذي نسب إلى العلم لم يصل إلى مرحلة العلم المقطوع به، كالنظريات التي لم تتأكد بعد، والتي ما زالت رهن البحث والنظر، أو التي لا سبيل إلى إثباتها بأدلة علمية يقينية، وإن اعتقدها العلماء الماديون لعدم وجود ما هو أقوى منها في نظرهم المادي البحث، ولأنه لا اختيار لهم بعد ذلك إلا التسليم بما جاء به الدين، وهم يرفضون نفسياً هذا الأخير.

٢ - وإما لأن الذي نسب إلى الدين لم يصل إلى درجة القطع في نقل النص الذي تضمنه.

٣ - وإما لأن الفهم الذي فهم به النص الديني فهم خاطيء، وهذا الفهم لا يتحمل النص الديني وزر خطئه، وإنما يعبر عن رأي من فهمه على هذا الوجه المخالف للحقيقة العلمية، التي توصلت إليها الوسائل الإنسانية، كمسألة كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس.

وهنا نلاحظ أن النصرانية لما سقطت في طائفة من المفاهيم الباطلة الدخيلة على أصل الدين، والمخالفة له، والمناقضة لأصول العقل والعلم الصحيح،

حاولت أن تتخلص من ورطتها هذه بمقالتها المشهورة: «الدين لا يخضع للعقل» وأطلق علماؤهم بين أتباعهم كلمتهم المأثورة: «أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى» وحرّموا التفكير والنظر في مسائل الدين، وفرضوا عليهم التسليم الأعمى بالإله المثلث دون مناقشة ولا نظر، مع أن أصول العقل السليم ترفض هذا رفضاً قطعياً، ولا تسلم به النفوس إلاّ مع تعطيل منطق العقل، ورافق ذلك أنهم أقفلوا باب العقل والبحث العلمي نهائياً عن كل مسألة تعرضت إليها نصوص دينهم، حتى ما كان منها متعلقاً بواقع الكون الذي تستطيع الوسائل الإنسانية أن تصل إلى معرفته.

ولما جاء الإسلام رفض هذا التثليث الدخيل على دين الله، ونادى بالوحدانية، وقدم على ذلك شهادة من عند الله، نزل بها الوحي على رسول الله محمد ﷺ، وشهادة من أولي العلم، فجعل العقل العلمي شاهداً على هذه الحقيقة، وناقش مخالفيها على أساس من العقل والعلم، واعتبر العقل في هذا سندا يُستفتى ويُستشهد به، ولو كان البحث العلمي الإنساني السليم سيوصل إلى القطع بحقائق لا يوافق عليها الذين لمّا دعاه الإسلام إلى تقديم شهادته بالحقيقة، ولمّا أرشد الله العلماء إليه، ووضع في أيديهم وسائله، ودفع بهم إليه دفعاً، فقال الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (١١)

وقال في سورة (العنكبوت / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴾ (٢٠)

وقال في سورة (الذاريات / ٥١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ...﴾ (٢١)

ولمّا ناقش الناس بدلائله (أي: بدلائل العقل)، ففي إثبات الوحدانية قال الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ (٢٢)

وقال في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَلْزَمَهُ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١١).

وفي إثبات وجود الله ناقش بالمنطق العقلي البحث فقال الله تعالى في سورة (الطور / ٥٢ مصحف / ٧٦ نزول):

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥).

إلى غير ذلك من شواهد كثيرة (١).

(٣)

الغيب ومنطق العقل

حينما يناقش علماء النصارى في مسألة التثليث أو غيرها من المسائل التي يرفضها منطق العقل، يدافعون بأن الدين لا يخضع لمنطق العقل، إذ هو فوق مستوى العقل البشري، ويجب التسليم بكل ما جاء فيه، ولو كان العقل يرفضه رفضاً باتاً لاستحالته.

وظل رؤساء الدين عندهم يهيمنون على أتباعهم بهذه الحجة، حتى قامت الثورة العلمية المادية الحديثة، ففجرت جوانب البحث العلمي في كل مجال من المجالات العلمية التي يستطيع الإنسان أن يتوصل إليها، وأيقظت الفكر النصراني من سباته الذي لازمه قرابة خمسة عشر قرناً، ثم امتد أثره إلى الأمم الأخرى، ومع هذه اليقظة العلمية أخذ المثقفون منهم يفكرون في قضية التثليث، وفي قضايا مشابهة، يقال عنها: إنها من أمور الدين التي هي فوق مستوى العقل، ويجب التسليم بها، ولو كان العقل يرفضها قطعياً ويرى أنها مستحيلة، فلم تهضمها

(١) شرح طائفة منها في كتابي: «العقيدة الإسلامية وأسسها».

عقولهم، وبدأوا يتشككون في صحة ديانتهم من أساسها، وقام الصراع المعروف بين قوتين:

قوة تقليدية لها مؤسسات ورياسات دينية وأنظمة حكم تدعمها.

وقوة أخرى أخذت سبيلها إلى النهوض المادي عن طريق البحث العلمي، ومناقشة الأمور بالعقل والمنطق وسائر وسائل البحث الإنساني للوصول إلى المعرفة الصحيحة.

وانتهت معركة الصراع بمحاصرة الديانة النصرانية وحجزها داخل جدران الكنيسة، ثم أخذت الأجيال النصرانية سبيلها إلى إنكار ديانتهم، والشك في صحتها من أساسها، وعاشت في فراغ فكري وروحي خطير، وفي هذا الجو النفسي المستعد لمثله شيء آخر نشط دعاة الإلحاد الماديون يشنون أفكارهم الإلحادية، واستغلت اليهودية العالمية هذا الواقع أو ساهمت في التدبير له، وشحنته بما يلزم من الآراء الإلحادية والنظريات الخادمة لقضية الإلحاد، فأخذ الإلحاد ينتشر في أوروبا انتشار النار في الهشيم، وتبعته شعوب أخرى، ودار دولاب الانهيار في الغرب والشرق متسارعاً بشكل خطير، مؤذن بدمار قريب تتحقق فيه سنة الله في الأمم.

والمسؤول عن كل ذلك أو معظمه العلماء بالنصرانية ورؤساء الكنيسة، لأنهم لم يصححوا العقائد المزيفة، الدخيلة على أصول ديانتهم، والتي كان اليهود من قبل قد عملوا على إدخالها فيها لإفساد أصول النصرانية، ثم لم يعمل هؤلاء الرؤساء الدينيون لإقناع شبابهم المثقف بالحجة والبرهان.

وهنا يتساءل الشاب المسلم المثقف فيقول: ما هو موقف الإسلام من العقل، ومما تثبته وسائل المعرفة الإنسانية تجاه ما جاء به الدين؟

ومن واجبتنا أمام هذا التساؤل أن نحرر الجواب تحريراً شاملاً شافياً:

أولاً: من نعمة الله علينا في الإسلام أن أصوله وأركانه قد سلمت من التغيير والتحريف، فلم يصبها شيء مما أصاب أصول الأديان الأخرى من ذلك، فليس

أمامنا مشكلة دين محرّف مخالف للحقيقة، أو مخالف لمنطق العقل والواقع، حتى نلّفق لدعمه الحجج الخرافية، على أن الإسلام لا يرضى ولا يقبل بحال من الأحوال من المؤمنين به أن يلفقوا الحجج الباطلة، أو يختلقوا الشهادات الكاذبة، ولو كان ذلك لدعم الحق الذي جاء به، لأن قبول هذا الأسلوب سيقضي على الأدلة والحجج الحقة الصادقة، وسيقضي بالتالي على الدين من أساسه، إذ قبل بمبدأ التأييد بالباطل، فالحق لا يقبل التأييد والمناصرة إلا بالحق.

ثانياً: الإسلام دين الحق، والحق لا يمكن أن تقوم الأدلة الصحيحة على إبطاله بحال من الأحوال، ولكن قد تقوم الأدلة الباطلة لإبطاله في تصورات المغرورين المخدوعين صغار العقول، على أن هذه الأدلة الباطلة لا تلبث حتى تنهار، وحسبها ضعفاً وقلة شأن أنها أدلة باطلة في أصلها، مهما طليت بالأصباغ وأنواع الزينة من زخرف القول.

ثالثاً: تنقسم المعارف الدينية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تكاليف عملية نفسية وجسدية يطالب الناس بها. ومن نعمة الله علينا في الإسلام أنها مشتملة على ما يصلح أوضاع الناس وأحوالهم، ويرتقي بهم إلى أرفع درجة حضارية إنسانية، سواء أكانت تكاليف عبادات، أو تكاليف أخلاق، أو تكاليف معاملات، أو تكاليف أخرى تدفع الناس إلى الارتقاء المجيد في سلم الحضارة الإنسانية المثلى، الخالية من عيوب الانهيار الأخلاقي والنفسي والسلوكي.

وبرهان هذا وتفصيله يتطلب شرحاً طويلاً، عرضت طائفة مناسبة منه في كتابي: «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها».

على أن الأصل في التكاليف أنها ابتلاء للإرادة، والامتحان لا يشترط فيه بشكل لازم أن يكون موافقاً لمصالح الواقعين تحت الامتحان، لكن فضل الله كان عظيماً، إذ كان امتحانه لنا في تكاليف تضمن أحسن المصالح لنا، وأوفى المنافع، وأكثر الاحتمالات دفعاً للأضرار والمخاطر وأسلمها حلاً للمشكلات.

القسم الثاني: أنباء عن واقع كوني باستطاعة الوسائل الإنسانية أن تصل إلى معرفتها على ما هي عليه في الواقع ولو بعد حين.

وما جاء في الإسلام من هذا القسم لا يمكن أن يكون مخالفاً للواقع والحقيقة، إلا ضمن احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: أن يكون فهم النص الإسلامي من قبل بعض المجتهدين أو المؤلفين فهما خاطئاً.

الثاني: أن يكون النص المنسوب إلى الإسلام نصاً غير صحيح النسبة، كأن يكون خبراً كاذباً، أو ضعيفاً لا يصح الاعتماد عليه، أو خبراً غير قطعي الثبوت، فمن الممكن دخول خطأ فيه من نقل الراوي أو فهمه، إذ يحتمل أنه روى المعنى الذي فهمه هو، ولم يرو اللفظ ذاته الذي أخبر به الرسول ﷺ، وهذا إنما يكون في أحاديث الآحاد فقط، أي: التي لم تبلغ مبلغ التواتر اللفظي أو المعنوي.

أما أن يكون الخبر الإسلامي قطعي الثبوت قطعي الدلالة، ثم يخالف الحقيقة والواقع، فهذا غير موجود حتماً، وليس من الممكن أن يوجد قطعاً.

ولكن هنا قد تقع مغالطة لا بد من التنبيه عليها، وهذه المغالطة تأتي من قبل ما ينسب إلى الحقيقة العلمية، الآتية عن طريق الوسائل الإنسانية البحتة، فكثيراً ما يدعي الماديون أن فرضية من الفرضيات، أو نظرية من النظريات قد أصبحت حقيقة علمية غير قابلة للنقض أو التعديل، مع أن هذه النظرية لا تملك أدلة إثبات يقينية تجعلها حقيقة نهائية، أو حقيقة مقطوعاً بها ضمن مستواها، وذلك بشهادة العلماء، الذين وضعوا هذه النظرية أو ساهموا في تدعيمها.

ومن أمثلة ذلك الداروينية بالنسبة إلى نشأة الكون وخلق الإنسان، فهي لا تملك أدلة إثبات قاطعة أو شديدة الترجيح، ولكن كثيراً من العلماء الماديين يقبلونها تسليماً اعتقادياً، لا تسليماً علمياً، إذ ليس لديهم اختيار بعدها إلا الإيمان بالخلق الرباني، وهذا أمر لا يجدون أنفسهم الآن مستعدين لقبوله، مادام منطوق الإلحاد هو المسيطر على اعتقادهم في بيئاتهم.

ويأتي كُسور من المثقفين (أنصاف - أرباع - أعشار) من المتأثرين بالنزعات الإلحادية فيدعون وجود التناقض بين الدين والحقائق العلمية، استناداً إلى وجود اختلاف بين بعض المعارف الدينية وبعض الفرضيات أو النظريات التي لم تصبح بعدُ حقائق علمية، وهم يزعمون كذباً أو يتصورون خطأ أن هذه الفرضيات أو النظريات قد أصبحت حقائق علمية ثابتة بشكل قطعي غير قابل للنقض، وهنا يقعون في غلط علمي فاحش جداً، ويتبع ذلك سقوطهم في ضلال اعتقادي كبير تجاه الدين وأصوله ومعارفه، علماً بأن طائفة من النظريات التي نسبت إلى العلم قد وُضعت خصيصاً لدعم قضية الإلحاد والكفر بالله، على أيدي يهود أو أجراء لليهود، وصيغت لها المقدمات والمبررات التي ليس لها قواعد منطقية علمية صحيحة.

فالواجب إذن يحتم علينا - أخذاً بطريق البحث العلمي السليم المحرر الذي أمرنا به الإسلام - أن نمعن النظر فيما قدمته شهادة العقل، ووسائل البحث العلمي الإنسانية، وفيما قدمته شهادة النصوص الدينية، وأن نخضع هذه الشهادات للضوابط العلمية الصحيحة، المتفق عليها في أصول العقل، وفي أصول الدين.

وإني لأجزم بكل يقين أننا لن نجد مسألة واحدة يستحكم فيها الخلاف بين شهادة النصوص الدينية اليقينية قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وبين الشهادة القاطعة التي يقدمها العقل، أو الشهادة القاطعة التي يقدمها البحث العلمي الإنساني البحث.

بل اليقيني من كل ذلك لا بد أن يتطابق في شهادته، متى استطاع أن يصل إلى الحقيقة التي هي موضوع البحث.

فإن وصل بعضها وبعضها الآخر لم يصل أعلن كل عن مبلغه من العلم قصّر في المعرفة أو زاد، وفي هذا لا يوجد تناقض أو خلاف، ولكن يوجد بيان جزئي وبيان أشمل وأكمل، أو بيان جزئي من جهة وبيان جزئي من جهة أخرى، وفق مثل العميان والفيل^(١).

(١) مثل أورده الغزالي وغيره، خلاصته أن عدداً من العميان قَدّم لهم فيل ليصفوه، فوقعت يد

القسم الثالث: أنباء من أنباء الغيب الذي لا تستطيع الوسائل الإنسانية البحتة أن تصل إلى معرفته على ما هو عليه في الواقع .

وهذه الأنباء الدينية الغيبية تخبر عن بعض حقائق الوجود الأكبر، فمنها ما يتعلق بخصائص الخالق جل وعلا، ومنها ما يصف بعض الحقائق الغيبية من واقع هذا الكون المخلوق لله تعالى، كالملائكة والجن والعرش والكرسي، ومنها ما يحكي أحداثاً سبق أن حدثت فيما مضى من الأزمان، وليس باستطاعة الوسائل الإنسانية أن تستعيد صورتها الواقعية، كقصة خلق آدم، ومنها ما يُنبئ عن أحداث ستقع فيما يأتي من الأزمان، ضمن واقع هذا النظام الكوني القائم، كأشراط الساعة، أو سوف تقع في نظام عالم آخر وحياة أخرى، وهو ما جاء عن الآخرة زماناً وداراً وحياة وحساباً ونعيماً وعذاباً.

وموقف العقل ووسائل البحث العلمي الإنسانية بالنسبة إلى ما جاء في هذا القسم يتلخص بما يلي :

١ - تحرير صدق الخبر وصحة دلالاته .

٢ - رفض ما لم يثبت صدقه ضمن قواعد تحرير صدق الأخبار .

٣ - رفض ما خالف أحكام العقل القاطعة، وهو ما يدخل في قسم المستحيلات العقلية، كالجمع بين النقيضين، وكوجود شريك لله الخالق سبحانه وتعالى، فأني نبأ من أنباء الغيب يثبت شيئاً يحكم العقل حكماً قاطعاً باستحالة وجوده هو خبر مرفوض عقلاً وشرعاً، وأي نبأ من أنباء الغيب ينفي شيئاً يحكم العقل حكماً قاطعاً بأنه واجب الوجود هو نبأ مرفوض عقلاً وشرعاً.

ولما قال الإمام الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى» كلمته الحصيفة الرصينة المشتملة على نظر ثاقب عميق :

كل منهم على جانب منه، ثم أخذ يصف الفيل عن طريق ما تلمسه بيده منه، فوصف أحدهم ملاسة الناب وقسوته، والآخر خشونة الذيل، والثالث ما تلمسه من الخرطوم، والرابع ما تلمسه من رجله . . . وهكذا .

«ولا تستبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور قد يظهر فيه ما لا يظهر في العقل».

عقب عليه باستدراك خلاصته: إن ما وراء العقل قد يكون بعيداً عن تصور العقل وتوهمه بُعداً بالغ النهاية، لأن العقل محجوب عنه في حدوده التي لا يستطيع أن يتعداها، لكنه لا يمكن أن يكون وراء العقل أشياء يحكم العقل حكماً قاطعاً باستحالتها، فهناك فرق كبير بين ما لا يدركه العقل فهو لا يتناوله بنفي ولا إثبات، لأنه ليس من الأمور التي يتناولها بأحكامه، وبين ما يحكم العقل حكماً قاطعاً بنفيه أو إثباته.

فمن الأشياء التي لا يمكن أن يكون وضعها فيما وراء العقل على خلاف وضعها في أحكام العقل القاطعة لأنها من المستحيلات العقلية: أن يكون لله تعالى شريك، أو أن يكون في مقدور الخالق جل وعلا أن يخلق مثل ذاته سبحانه، أو أن يجعل الحادث قديماً، أو ما أشبه ذلك.

وقد أوفيت هذا الموضوع بمزيد من الشرح والتفصيل في كتابي: «العقيدة الإسلامية وأسسها».

٤ — ما له دلائل وقرائن من العقل تؤيده فإن موقف العقل منه موقف الشاهد المؤيد المسلم.

٥ — التسليم التام في كل ما يقول فيه العقل: لا أدري، إذ ليس لدي من الأدلة الظاهرة في مقاييسي ما أستطيع أن أثبت به، كما أنه ليس لدي منها ما أستطيع أن أنفي به.

وهذا التسليم تصديق لشهادة النص الديني الثابت من جهة الرواية، وفق أصول تحقيق المستندات الأخبارية، وتصديق شهادة النص الديني له مستند عقلي قاطع، لأن العقل يقول: ما جربته من أنباء الإسلام الصحيحة النسبة بشكل يقيني لم أجد فيها إلا الحق، وكل ما وجدته فيها مما استطعت الوصول إلى حقيقته الواقعة بنفسه كان حقاً وصدقاً. ويقول العقل أيضاً: إن من يملك تغيير سنن الكون الثابتة بما يجريه من معجزات على أيدي أنبيائه ورسله، ليعلمني بأن الكون كله خاضع

لقدرته وإرادته، وليعلمني بأن أخباره التي يبلغها أنبياءه ورسله أخبار صادقة، لا يمكن أن تكون أخباره عن الغيوب التي لا أستطيع الوصول إليها بنفسني أخباراً مخالفة لحقيقة الغيب وواقعه.

لكل ذلك فإنه يجب التسليم بها تسليماً قاطعاً لا يداخله ريب.

(٤)

منهج الإسلام في المعرفة

الأساس الأول للمعرفة في الفكر الإسلامي يقوم على أن المعرفة الصحيحة هي ما كان مطابقاً للواقع والحقيقة، فما كان مطابقاً لذلك فهو حق، وما لم يكن مطابقاً له فهو باطل، وقد تكون الصورة الذهنية أو القولية مطابقة للواقع والحقيقة من بعض الوجوه، ومخالفة من بعض الوجوه، فيكون فيها من الحق على مقدار المطابقة، ومن الباطل على مقدار المخالفة.

والقاعدة الكلية التي تأتي وراء هذا الأساس هي: أن كل وسيلة صحيحة تعطينا صورة صادقة عن الواقع والحقيقة هي وسيلة يجب الاعتماد عليها والثقة بها في تحصيل المعرفة، والمرجع الأول والأخير دائماً هو الواقع، وبالواقع تقاس النتائج. وعلى هذه القاعدة قام بناء الفكر الإسلامي.

أما وسائل المعرفة التي يجب اعتمادها في الفكر الإسلامي فتتلخص بثلاث وسائل:

الوسيلة الأولى: المعرفة المباشرة، وتكون بالإدراك الحسي، ولو عن طريق الأجهزة والأدوات.

الوسيلة الثانية: الاستدلال العقلي بمختلف طرقه الاستنتاجية والاستنباطية.

الوسيلة الثالثة: الخبر الصادق، ومن الخبر الصادق الوحي، وهنا يعترضنا سؤال وهو: إذا كان الهدف الأول والرئيسي هو أن تكون المعرفة مطابقة للواقع والحقيقة، فماذا نصنع حينما تختلف نتائج وسائل المعرفة حول موضوع واحد، أو حول نقطة في موضوع واحد؟

هل نعتد وسيلة الإدراك الحسي؟

أو وسيلة الاستدلال العقلي؟

أو وسيلة الخبر الصادق؟

أو ماذا نصنع . . . ؟

ونجيب على هذا السؤال بما يلي :

حينما يكون دليل وسيلة من هذه الوسائل هو الدليل الأقوى في الموضوع فإنه ينبغي اعتماده وترجيحه، فإذا كان دليل الحسّ قائماً على مشاهدة صحيحة يقينية خالية من احتمال الخطأ، مؤكدة بتوافق الحواس في إدراكها، كان دليل الحسّ هو الذي ينبغي اعتماده، ومن ثمّ يعاد النظر في دليل الاستدلال العقلي إذا كان الخلاف معه أو يعاد النظر في دليل الخبر الصادق إذا كان الخلاف معه، وإعادة النظر في دليل الخبر الصادق قد لا تحتاج أكثر من تصحيح فهم النصّ، والنظر في تأويله بما يتفق مع النتائج اليقينية التي قدمها دليل الحسّ، وذلك لأن الغاية من استخدام وسائل المعرفة إنما هو الوصول إلى معرفة مطابقة للواقع، وليس من الممكن أن يتناقض الواقع مع نفسه، وحينما يظهر خلاف أو تناقض في النتائج التي قدمتها الوسائل فلا بد أن خطأ قد دخل حتماً في بعضها أو في كلها، وعندئذ لا مناص من مراجعة الأدلة والتمحيص فيها، وإعادة النظر وزيادة التحري عن الحقيقة لاكتشاف مواقع الخطأ أو الخلل. وتظل المراجعة مفتوحة حتى يتم اكتشاف المخطيء منها، ثم ما يثبت منها الواقع والحقيقة بصفة يقينية يكون هو الجدير بالاعتماد، ثم يعاد النظر في غيره حتى نصححه وننتهي إلى التوافق التام في النتائج، فمن المستحيل في منطق الوجود أن تتناقض الأدلة اليقينية في معطياتها العلمية، وحينما نجد التناقض في هذه المعطيات فلا بد من وجود خلل أو خطأ في بعض الأدلة أو في كلها.

وتخضع النصوص الدينية لحكم هذا المنهج العلمي، لأن الحقيقة الواقعة في الوجود هي من خلق الله تعالى، والله محيط بكل شيء علماً، وحينما يخبرنا عن شيء منها فلا بد أن يكون خبره عنه مطابقاً لما هي عليه في الواقع، لأنه يستحيل الجهل أو الكذب عليه سبحانه وتعالى.

والمشكلة قد تأتي - كما سبق أن أوضحت - من الخطأ في فهم النص الديني الثابت، وفهم النص الديني عمل اجتهادي إنساني، وهذا الفهم الإنساني للنص قد يصيب وقد يخطئ، فإذا أخطأ الاجتهاد في الفهم فليس معنى خطئه أن النص هو المخطئ، ولكن المخطئ هو الإنسان غير المعصوم، الذي اجتهد في فهم معنى النص، وفي هذه الحالة علينا أن نراجع فهمنا للنص، ونعيد تدبرنا له، حتى نصل إلى المعنى اليقيني الذي تم الوصول إليه بيقين عن طريق الإدراك الحسي أو الاستدلال العقلي.

ولا يكون التعصب للاجتهاد الذي أخطأ فيه صاحبه إلا خدمة للذين يحاولون بكل ما يستطيعون من جهد أن يثبتوا التناقض بين ما يأتي به الدين، وبين الحقائق التي تأتي بها الوسائل الإنسانية للبحث العلمي، لظعن الدين من أساسه، ونسف قواعده القائمة على الحق، وإشاعة الإلحاد والمادية التي لا تؤمن بالله.

وقد تأتي المشكلة أيضاً من كون النص الديني نصاً غير ثابت ثبوتاً قطعياً، لأنه لم تتوافر له الروايات الصحيحة التي تجعله قطعياً الثبوت، وبدهي في هذه الحالة أن يكون الدليل الحسي اليقيني أو الدليل العقلي اليقيني أقوى من دليل الخبر الظني الذي لم يبلغ مبلغ القطعية، فإن أمكن تأويل النص بما يتفق مع النتائج اليقينية للأدلة الأخرى أولناه، وإلا أخذنا بالنتائج اليقينية حتماً، وتركنا النص ودلالته، ولا يضرنا هذا في الدين، لأن قبولنا له من الأساس قد كان بصفة ترجيحية لا بصفة قطعية.

فإذا سأل سائل فقال: هل لنا أن نؤول النصوص الدينية أو نخصصها بدليل الحس أو بدليل العقل، حتى تكون دلالتها مطابقة للواقع والحقيقة؟

كان جوابنا بالإيجاب حتماً، وبأن هذا العمل من القواعد المقررة في علوم الشريعة الإسلامية، يقول علماء أصول الفقه في أبواب تخصيص العام: «لا خلاف في جواز تخصيص العموم» ويقررون في أبواب تأويل الظاهر: «أنه يجوز التأويل متى كان دليلاً أرجح من دليل العمل بالظاهر، ويجب التأويل متى كان دليلاً قاطعاً لا يجوز العدول عنه»، ويذكرون من أدلة تخصيص العموم: «دليل الحس،

ودليل العقل» ونظير ذلك يكون في تأويل الظاهر، فيتم التأويل بناء على دليل الحس أو دليل العقل.

هذا هو منهجنا الإسلامي فيما يتعلق بالنصوص الدينية ودلالاتها على حقائق الأشياء.

ولكن يجب الحذر الشديد لدى تطبيق هذا المنهج، حتى لا يدخل علينا الدس الماكر باسم الحقائق العلمية التي توصلت إليها نتائج البحث العلمي بالوسائل الإنسانية البحتة، فكثير من النتائج التي تُقرَّر على أنها حقائق علمية عند أصحاب البحث العلمي المادي لا تعدو أنها نظريات أو فرضيات قابلة للتعديل أو التغيير أو النقض الكلي، وليست حقائق علمية يقينية عند أصحابها، ولكن أصحاب الأهواء أو صغار المثقفين الذين لا يقدرون المعارف العلمية حق قدرها، وينخدعون بدعايات الترويج التجاري أو السياسي للنظريات أو الفرضيات العلمية، قد يزعمون أنها حقائق ويقينيات علمية، وليست هي في الواقع كذلك، ثم يحملونها حمل البغawat أو حَمْلُ الأجراء، ثم يقولون: إنَّ بين الحقائق العلمية وبين النصوص الدينية تناقضاً، ويَقْصِدون بالحقائق العلمية هذه النظريات أو الفرضيات التي لم تثبت بعد في نظر واضعيها ثبوتاً يقيناً أو نهائياً، فضلاً عن أن تكون يقينيات في نظر غيرهم من الذين يعارضون فيها.

وأمام هذه النظريات أو الفرضيات لا نجد أنفسنا ملزمين علمياً بتحديد معاني النصوص الدينية التي تتناول الموضوع نفسه تحديداً قاطعاً.

والخطة المثلى أن نطرح احتمالات دلالاتها طرحاً غير مقترن بترجيح ولا تثبيت، وحينما نرى أن نرجح فعلينا أن لا نعزم، وأن نترك الجزم لمستقبل البحث العلمي، ونتنظر لإثبات الحقيقة العلمية بوسيلة يقينية، فالمضمون لا يتعلق به حكم شرعي يجب العمل به، لذلك فلا ضير من التريث والأناة، هذا إذا لم يكن النص اليقيني قاطعاً في دلالته.

أما إذا كان قاطعاً في دلالته، أو كان من الأمور المتعلقة بالتشريع والأحكام الدينية، أو من الغيب الاعتقادي الذي لا تملك الوسائل الإنسانية الوصول إلى شيء

منه، فإنه يجب الأخذ بمضمونه وفق أصول الاجتهاد في فهم النصوص، فاليقيني منها نسلم به تسليماً تاماً، وغير اليقيني نضعه في المستوى الذي يقتضيه الترجيح.

(٥)

النتيجة

فهل لمضلل ملحد بعد هذا التحليل لموقف العلم والدين من الحقيقة أن يزعم وجود التناقض بين الإسلام والعلم في المنهج الذي يجب اعتماده للوصول إلى معرفة الحقائق، أو في النتائج اليقينية المقطوع بها التي يقرها الدين والأخرى التي تنتهي إليها وسائل البحث العلمي الإنساني؟

إن أي مضلل لا يستطيع إثبات ادعائه وجود هذا التناقض، إلا على أساس من المغالطات والأكاذيب وزخرف من القول وصناعة الجدل بالباطل.

فمن المستحيل وجود التناقض بين الحقائق التي تأتي عن طريق الدين والحقائق التي تأتي عن طريق وسائل المعرفة الإنسانية البحتة.

* * *

الفصل الثالث

النقد الذاتي
حول مهاجم المسلمين للإسلام

(١)

تحت عنوان «نقد الفكر الديني» تستر الناقد العظم، إذ حاول تقويض أسس الإسلام الكبرى، وقواعده العظمى، التي هي حق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وربما استغل ما لدى بعض المسلمين من مفاهيم خاطئة عن الإسلام، ليطنع الإسلام بذلك، على طريقة إبطال الطب كله لأخطاء بعض الأطباء، وإبطال الهندسة كلها لأخطاء بعض المهندسين، وإبطال ضرورة القضاء لفساد بعض القضاة، وتعميم الأحكام التي هي لبعض الأفراد، وإطلاقها على كل الأفراد، ثم إطلاقها على المبادئ الحقّة التي يدعي هؤلاء الأفراد انتسابهم إليها، ولو كانوا مخالفين لها في مفاهيمهم أو في سلوكهم، وعلى هذا الجنوح الفكري الخطير، الخارج عن حدود كل منطق عقلي أو علمي سليم، سار العظم في جدلياته ومغالطاته.

ولكي لا يزعم القارئ أنني من الذين يبررون كل خطأ، ما دام يعلن انتسابه إلى الدين زوراً وبهتاناً، أو جهلاً وغفلة، أو خطأ غير مقصود، عقدت هذا الفصل، لأنقد فيه نقداً ذاتياً ما دخل على مفاهيم كثير من المسلمين عن الإسلام، وكوّن لديهم تصوّراً مشوهاً غير صحيح للإسلام الحق، أو تطبيقاً مشوهاً له ينم عن فساد في التصور، أو انحراف في السلوك.

ووجدت من الواجب علي أن أعقد هذا الفصل قبل أن أدخل مع العظم في المعركة الجدالية، حول النقاط التفصيلية التي أثارها، لألقي فيه الضوء على أن الإسلام الحق الذي هو دين الله للناس، يتميز كل التميز عن المنتسبين إليه، الذين لا يمثلون في مفاهيمهم أو سلوكهم صورة صحيحة عنه، وأرجو بهذا التمييز أن لا تدخل على الأجيال الإسلامية مغالطات وافتراءات أعداء الإسلام، وأعداء المسلمين وتاريخهم المجيد.

(٢)

من المعلوم أن الإسلام الذي قدم للإنسانية ما قدمه من مجد حضاري أمثل يوم كانت الأمة الإسلامية في طور شبابها وقوتها صالح باستمرار لأن يأخذ بيد الإنسانية في طريق المجد الحضاري الصاعد، دون تقهقر ولا توقف، لو ظل المسلمون يجددون شبابهم، بالتماس منابع الإسلام الثرة، منها يعبون، ومنها ما به يتطهرون.

ففي الإسلام الصافي جميع العناصر اللازمة التي تستطيع الإنسانية بها أن تحافظ على شباب دائم، متدفق بالحياة والعمل والبناء والارتقاء، لو أحسنت تدبره والاستمسك به والعمل بتعاليمه.

وفي الإسلام الصافي جميع العناصر اللازمة لإسعاد الناس كل الناس، أفراداً وأسرّاً وجماعات ودولاً، مهما اختلفت بينهم الأعراق والألوان والأجناس، ذلك لأنه دين الإنسانية جميعاً، المنزل وفق خصائصها وصفاتها المشتركة بين جميع شعوبها وقبائلها، وليس ديناً قومياً ولا إقليمياً ولا طبقياً.

بخلاف الشيوعية التي هي مذهب طبقي عنوانه «يا عمال العالم اتحدوا» وبخلاف الرأسمالية التي هي مذهب طبقي أيضاً يخدم مصالح طبقة معينة، وبخلاف اليهودية بحسب المفاهيم اليهودية المحرفة، فهي دين قومي خاص بشعب بني إسرائيل، الذي هو في عقيدتهم شعب الله المختار.

أما الإسلام فهو دين رب الناس اللطيف الخبير للناس أجمعين ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾، ومن أجل ذلك كانت تعاليم هذا الدين مصلحة ومساعدة للناس كل الناس.

ولست في مجال بيان تفصيلي يوضح هذه الحقيقة عن الإسلام، لأدلل على أن تعاليم الإسلام الصافية من الشوائب الدخيلة كفيلة بتحقيق مجد الإنسان في هذه الحياة، وكفيلة ببناء أفضل المؤسسات الاجتماعية، وتنظيم أرقى دولة مدنية آخذة بأوفى نصيب خير من التقدم الحضاري المتطور، البعيد عن الشر ومعصية الله.

ولكن مرضاً خطيراً من الأمراض التي تراكت على الأمة الإسلامية في القرون المتأخرة هو الذي جعلني أعقد هذا الفصل، ألا وهو الشوائب الدخيلة التي علفت بالتعاليم الإسلامية في مفاهيم كثير من المسلمين.

(٣)

تأملات - ربما تكون غير مستقصية - من تأملات البحث العلمي، وضعت فيها إحدى يدي على الأسس الإسلامية العامة التي وعيتها خلال دراستي الطويلة للعلوم الإسلامية، ووضعت فيها يدي الأخرى على ما خبرته من واقع المسلمين خلال تجربة نيف وثلاثين سنة، جعلتني أتلمس الشوائب التي تسربت إلى مفاهيم المسلمين، فألصقها الجاهلون والغافلون بالتعاليم الإسلامية وهي ليست منها، وكان من وراء الجاهلين والغافلين في كثير من الأحيان ماكرون مختلفو الأصباغ والأقنعة والأغراض، يعملون في الخفاء لهدم الإسلام أسساً وقواعداً وبناءً شامخاً.

ثم تحولت هذه المفاهيم التي هي من قبيل الشوائب لا الأصل النافع المفيد الخير، إلى تطبيقات عملية، وموارث ثقيلة، أحنت ظهور الأجيال التي تحملها، وعرقلت سبيل تقدمها، كما أنها هيأت المناخ المناسب لفساد الأجيال التي حملت شعار التخلص منها على غير بصيرة وغير هدى، فتخلصت منها ومن الجوهر النافع، الذي هو الأصل السليم، المرافق لها في حشد المفاهيم المختلطة، وذلك إذ لم تستطع هذه الأجيال أن تميز بين الأصل النافع المفيد، وبين الشوائب التي لا خير فيها.

يضاف إلى ذلك أن طائفة من هذه الأجيال وجدت لأنفسها بسبب هذه الشوائب مبررات كثيرة تلبي عن طريقها الرغبة بالانطلاق والتحرر، والانسحاق مع الأهواء والشهوات، دونما ضابط أو رادع.

وكان من وراء هذه الطائفة الطائشة شياطين يمدون خراطيمهم في الظلمات من ديار الحرب إلى ديار الإسلام، فيوسوسون لها، ويمنونها، ويكيدون في ذلك ضدها وضد الأمة الإسلامية ما يكيدون من شر عظيم.

أما الطعم في شباك الصيد فإنه يرجع إلى واحد من عدة أصول، ومنها
الأصول الخطيرة التالية:

الأول: الإغراء بالمال.

الثاني: الإطماع بالحكم والسلطان.

الثالث: الفتنة بالنساء.

الرابع: الفتنة بالخمير والميسر والمخدرات وأصناف اللهو، وإضعاف القوى
الفردية والاجتماعية عن طريقها.

الخامس: الخداع بمظاهر الحضارة المادية الخلافة، وبما تتضمن من قوى
حربية فتاكة، وبمستنداتها من العلم المادي. وفي ضمن هذا الخداع تأتي واردات
مهلكة لا هي من العلم الثابت، ولا هي من المنجزات الحضارية النافعة، وفي
طيات هذه الواردات يكمن الخطر على الفكر، وعلى الخلق، وعلى السلوك،
وعلى وحدة المسلمين، وعلى جميع قواهم الحقيقية المادية والمعنوية، ثم على
كيانهم كله.

(٤)

مصور عام لمنهج التعاليم الإسلامية وما طرأ عليه

نظرة عميقة إلى الشوائب التي دخلت أو أدخلت على التعاليم الإسلامية
تكشف لنا أن المكان الطبيعي لهذه الشوائب يقع في أحد منحدرين كائنين من دون
اليمين أو من دون اليسار، بالنسبة إلى المنهج الإسلامي الوسط، الممتد في القمة
الرشيدة السعيدة، والذاهب ارتقاء إلى أعلى ذروات الحضارة المجيدة في دار
الابتلاء، دار العمل والبناء، ثم إلى فردوس الخلود السعيد الأكمل في دار الجزاء.

وإنما يحظى بخيرات هذا المنهج القويم السامي السالكون فيه، المتقيدون
بحدوده، أفراداً وجماعات، وشعوباً ودولاً، والكل مسؤولون عن سلوك هذا
المنهج والتزامه، وعن بناء الصرح الإسلامي الديني والدنيوي معاً.

وهذا المنهج متى انكسرت حدوده أمسى عرضة للتوسع مما وراءه من مزلق

ومتاهات، وعرضة لانزلاق سالكيه والخروج عن جادته، وعرضة لدخول الشوائب فيه .

أما الشوائب الدخيلة على التعاليم الإسلامية، فالحديث عنها يستدعي إلقاء نظرات عميقة إلى مصادرها ومنابع قدومها، ونظرات عميقة أخرى إلى السبل والوسائل التي تسربت بسببها فاختلطت في مفاهيم المسلمين، ضمن حشد التعاليم الأصلية، أو زاحمت بعضها ثم احتلت مكانه .

ويستدعي منا أيضاً أن نلقي نظرات على واقع الصور العامة للتعاليم التي خالطتها الشوائب، أو زاحمت ما زاحمت منها، ثم احتلت مكانه في مختلف البيئات لشعوب المسلمين .

(٥)

أما النظرات إلى واقع الصور العامة القائمة القائمة في مفاهيم كثير من المسلمين، فيمكن تمثيلها بإحدى الصور التالية المصابة بالخلل أو الفساد أو التزوير، وهي خمس صور:

● الصورة الأولى:

وهي الصورة المختلطة المهزوزة في مفاهيم بعض الناس لحقيقة التعاليم الإسلامية، وتكون هذه الصورة باختلاط الحقائق، وعدم إدراك كل منها في مكانه الصحيح .

والشوائب في هذه الصورة ناتجة عن تداخل عناصر الصورة، وتمازج بعضها في بعض، وعدم تمايز حدود كل منها .

ومن أمثلة هذه الصورة في الواقع ما نشاهده عند كثير من المنتسبين إلى الإسلام من المفاهيم المختلطة الغامضة عن التعاليم الإسلامية، كالذين يرون أن أي عطاء مالي يعتبر زكاة كافية للمال، ويكتفون بذلك فلا يحاسبون أنفسهم على كل نصيب زكوي يجب عليهم شرعاً أن يؤدوه، وكالذين يرون أن الديانات السماوية السابقة للإسلام لا تزال بعد بعثة محمد صلوات الله عليه مقبولة عند الله، ومنجية

من عواقب الشرك والكفر بالله، رغم كل التحريفات الواقعة فيها عن الأصل الصحيح الذي أنزله الله على رسله عليهم الصلاة والسلام، ولولا التحريف لرأى هؤلاء في ديانتهم ما يوجب عليهم اتباع محمد ﷺ والإيمان به، إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة.

وسبب وجود هذه الصورة المهزوزة المختلطة الجهل بالتحاليم الإسلامية الصحيحة، وقلة أجهزة التثقيف الإسلامي العام في مختلف بلاد المسلمين.

وإصلاح هذه الصورة يكون بتنفيذ خطة محكمة للتبصير الحقيقي بالإسلام الصحيح الصافي، ونشر الوعي العام لتعاليمه التي تشمل كل جوانب الحياة الإنسانية أفراداً وأسرّاً وجماعات وحكومات. ويمكن تلخيص هذه الخطة بما يلي:

١ - وضع ميثاق إسلامي عام يمكن أن يلتقي عليه معظم المسلمين، ومن طبيعة هذا الميثاق أن يكون بعيداً عن النقاط الخلافية.

٢ - وضع منهاج للتثقيف الإسلامي العام.

٣ - إعداد المصنفات الإسلامية الحديثة الملائمة للغة العصر ولأسلوبه الكلامي، أو انتقاء المناسب منها، وينبغي أن تكون هذه المصنفات بعيدة عن إثارة الخلافات المذهبية العنيفة، وأن تكون إيجابية ذات مستويات تتناسب مع مستويات جماهير المسلمين، على أن يتم نشرها بينهم بنسبة كافية، وبلغاتهم القومية.

٤ - العمل على إعداد جيش المثقفين ثقافة إسلامية حسنة، مقرونة بوعي والتزام وأتزان، وينبغي أن تكون دوائر التثقيف الإسلامي في حالة اتساع مستمر.

٥ - توجيه هذا الجيش المتزايد إلى التوعية الإسلامية العامة، بمستويات تتناسب مع حال الجماهير المختلفة.

● الصورة الثانية:

وهي الصورة التي دخل فيها أخطاء لدى رسم المفاهيم الإسلامية الصحيحة، وطبيعي أن تكون هذه الأخطاء غير مطابقة للحقيقة الإسلامية.

ومن الأمثلة لهذه الصورة ما نلاحظه من مفاهيم غير صحيحة منسوبة إلى

الإسلام، وقد يسهل الأمر حينما يقال: هذا هو رأي فلان الذي فهمه عن الأمر
الفلاني من الإسلام، ولكن الخطر كل الخطر حينما يقال: هذا هو الحكم
الإسلامي قطعاً، وكل رأي مخالف له من الآراء والاجتهادات التي لها وجه من
النظر ضلال وكفر.

وأسباب الأخطاء في رسم هذه الصورة كثيرة جداً، ويمكن الإشارة إلى أهم
أصولها العامة:

الأصل الأول: الخطأ في الاجتهاد، وللخطأ في الاجتهاد أسباب كثيرة يعرفها
علماء أصول الفقه الإسلامي.

الأصل الثاني: الخطأ في تقويم ما توصل إليه الاجتهاد، وذلك باعتباره هو
الحق لا غير، رغم أن اليقين القاطع لم يتوافر فيه.

الأصل الثالث: التعصب للرأي أو للمذهب ضد الآراء أو المذاهب الأخرى.

أما الخطأ في الاجتهاد فيعذر فيه المجتهد الكفاء بشرط تقيده بالأصول
الاجتهادية العامة، التي قامت عليها دلائل الشرع والعقل.

ولكنه ليس للمجتهد الذي توصل إلى مفهوم إسلامي قائم على ما ترجح لديه
من ظن غالب أن يعطي ما توصل إليه اجتهاده أكثر من القيمة التي يستحقها،
فيفرض على الإسلام رأيه، ويحارب كل رأي مخالف، وكذلك ليس لأنصار هذا
المجتهد أن يفعلوا مثل هذا الفعل لاحتمال أن يكون الصواب في جانب رأي
المخالف، أو في جانب رأي آخر.

فإذا تعصب المجتهد لرأيه وفرضه على الإسلام فقد يؤدي به الحال إلى أن
يلصق بالإسلام ما لا يقول به الإسلام نفسه، فيضيف إلى الصورة الإسلامية خطأ
من عنده.

ثم لا يصح للذين أخذوا برأي هذا المجتهد أن يتعصبوا له تعصباً أعمى،
لأنهم بعملهم هذا يجسمون ويعظمون بقع الخطأ التي رسمها الاجتهاد الخاطيء
في الصورة الإسلامية.

ومن أسباب الخطأ في الاجتهاد عدم التبصر الصحيح الشامل بمختلف المصادر التي تثبت بها المعارف الإنسانية، لمعرفة وجه الصواب، أو لتخفيف نسبة احتمالات الخطأ.

وليس عسيراً على علماء المسلمين أن يصلحوا هذه الصورة التي دخلت فيها الأخطاء، إذا اجتمعوا في مؤتمرات عامة، وعالجوا المشكلات بتجرد صحيح، ونشدان للحقيقة حيث كانت.

ويلحق بهذه الصورة التي دخلت فيها أخطاء لدى رسم المفاهيم الإسلامية الصحيحة المقومة لكل ما في الحياة رغم تطور أساليبها وصورها الحضارية؛ ما نلاحظه عند طائفة من متأخري طلاب المعرفة الإسلاميين من الإغراق في الاشتغال بالجدليات الكلامية والمباحكات اللفظية، وصرف معظم جهد البحث العلمي في حدود الألفاظ والحروف، والبعد عن تصيد جواهر التعاليم الإسلامية النافعة، وإخراجها منتظمة في عقود فكرية متكاملة متناسقة، تعالج مشكلات الحياة، وتواكب أطوارها الحضارية المتقدمة، بإصلاح وتقويم، أو دفع وتدعيم.

ولكن النهضة العلمية الإسلامية الحديثة في طائفة من عواصم بلاد المسلمين قد عدّلت من هذا تعديلاً كثيراً.

● الصورة الثالثة:

الصورة المشوهة من قبل أعداء الإسلام، وهي الصورة التي قُبِحَ جمالها وإشراقها الماكرون المفسدون بما لطحوا وجهها الصبيح من شبهات، وبما ألصقوا فيها من تهم كاذبة.

وصانعو هذه التشويهات رسامون كثيرون من أعداء الإسلام، أجهدوا أنفسهم في تصيد الشبهات والتشويهات والأكاذيب والتضليلات، لإلصاقها بالتعاليم الإسلامية، وإفساد عقول أبناء المسلمين، ثم أجهدوا أنفسهم فأضافوا إليها أصنافاً مختلفة من الزينات والأصباغ والدهانات الخادعة للنظر.

وحاولوا بهذا التشويه الحقيق أن يشككوا المسلمين بدينهم وبتعاليمهم الربانية، واستطاعوا بعد جهد جهيد وزمن مديد أن يتلاعبوا بعقول البعدين عن

التعاليم الإسلامية، وتدبر غاياتها والحكم التي تتضمنها، والمفتونين ببريق الحضارة المادية الأوروبية الحديثة، لا سيما الذين أنشأتهم المدارس الأجنبية لإنشاءً مباشراً، ثم الذين أنشأتهم مخططاتها ومناهجها بشكل غير مباشر.

ومن اليسير على الدعاة المسلمين ذوي البصر النافذ، والعمل المخلص، إزالة هذه الأدران المشوهة للتعاليم الإسلامية، وذلك بالقيام بحملة توعية إسلامية تعتمد على إبراز فضائل هذه التعاليم، وبيان الحكم العظيمة التي تتضمنها، بالاستناد إلى البحوث الفكرية المنصفة الرصينة، والتجارب الواقعية المشاهدة.

وقد تصدى بحمد الله طائفة من كتّاب الفكر الإسلامي من ذوي الغيرة لدفع هذه الشبهات وبيان زيفها، بكتابات كثيرة، ودفاعات محكمة، فأسهموا إسهاماً مباركاً طيباً في غسل الصورة التي أراد لها أعداء الإسلام أن تكون صورة مشوهة في نفوس كثير من أبناء المسلمين.

وينبغي أيضاً أن تستهدف حملة التوعية هذه تبصير الأجيال الإسلامية، بمرايض الخطر على مفاهيمها الإسلامية الصحيحة، وأخلاقها الكريمة، وذاتيتها الإسلامية، ذات الكيان المتميز في العالم، يضاف إليه فضح دسائس أعداء الإسلام الفكرية والعملية، وإبراز الصورة الإسلامية المشرقة الحقة، بكل وسيلة من وسائل الإعلام والتنوير العام.

● الصورة الرابعة :

وهي الصورة التي حصل فيها تغيير في النسب بين مفردات وأجزاء التعاليم الإسلامية، إذ أخذ بعضها من المساحة الكلية في أفكار ونفوس طائفة من المسلمين أكثر من نصيبه المقدر له في أصل التشريع الإسلامي.

فإذا أردنا أن نمثل هذه الصورة التي تغيرت فيها النسب الأصلية وجدناها تشبه ما لو جاء رسّام (كاريكاتير) فرسم سيارة لركوب الناس، فجعل لها دواليب، قُطِرُ كل منها متران، وجعل لها أبواباً صغيرة لا يستطيع أن يدخل منها الإنسان، ومرتفعة عن الأرض بمقدار قامته، ثم جعل لها من الداخل مقاعد ضيقة جداً، بمقدار راحة اليد، وطويلة جداً بمقدار طول العمالقة الخياليين، وهكذا تلاعب بالنسب

الصحيحة في الأجزاء الأخرى، ووضع محركاً بمقدار محرك دراجة نارية، ثم كتب على سيارته هذه: (عدد الركاب ثمانون راكباً).

ربما أكون قد بالغت في التمثيل لغرض التوضيح، إلا أن الحقيقة التي عليها بعض المسلمين في فهمهم للتعاليم الإسلامية فيها تغيير كبير في نسبة كل جزء منها إلى المجموع الكلي.

ومن الأمثلة ما يلي:

(أ) يرى بعض الناس أن أهم ما في الدين هو حسن المعاملة مع الآخرين، فيملأ معظم المساحة الدينية به، ويفضي به هذا الفهم إلى ترك مراقبة الله في الأعمال والأقوال والأفكار والنيات، وإلى ترك فروض العبادات أو إهمالها، وإلى عدم الاكتراث بركن الجهاد في سبيل الله لنشر الدين، ونصرة الحق، وإقامة العدل ونحو ذلك من الأمور الجوهرية التي يقوم عليها الإسلام.

(ب) ويرى بعض الناس أن أهم ما في الدين هو القيام بالعبادات الشخصية، كالصلاة والصيام وكثرة الأوراد والأذكار، فيملأ معظم المساحة الدينية بذلك، ويهمل ما في الدين من واجبات وفروض أخرى، أو يُصغر من حجمها ويعطيها أقل اهتمامه.

(ج) ويرى بعض الناس أن أهم ما في الدين هو المحافظة على السِيما الظاهرة للمسلم، فيولي ذلك كل اهتمامه وعنايته، ويهمل الأسس الجوهرية التي قام عليها الدين عقيدة وعملاً، أو يصغر من حجمها ويعطيها أقل اهتمامه.

(د) ويرى بعض الناس أن مسؤوليات الدعوة إلى الله، ونشر دين الله، وإقامة الإسلام في الأرض، من خصائص فئة معينة من المسلمين تفرغت للوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما سائر الناس فمسؤولون فقط عن أنفسهم، فلا هم لهم إلا أمور دنياهم، وتتمير أموالهم، والتمتع بشهوات الحياة الدنيا ولذاتها، والاستغراق في زخرفها، كما يرون أن مسؤوليات الجهاد في سبيل الله من خصائص الجند فقط، المنتظمين في سلك الجيش.

مع أن الإسلام الصافي قد عقد تشابكاً عاماً بين الأفراد والجماعات والقيادات،

وحمل كلاً من المسؤولية الشخصية على مقدار ما وهبه الله من خصائص، ومن المسؤولية العامة على قدر موقعه بالنسبة إلى الجماعة، وذلك كمسؤولية كل عضو من أعضاء الجسد بالنسبة إلى سائر الأعضاء، ومن البدهي أن مسؤولية الرأس تناسب موقعه من الجسد، ومسؤولية إحدى أصابع اليدين أو الرجلين تناسب أيضاً موقعها من الجسد، والكل يقدم واجبه نحو المسؤولية الجماعية على مقداره.

وسبب التشويه في هذه الصورة فقدان الإدراك السليم الكامل الشامل للمفاهيم الإسلامية بوجه عام، ومقادير كل منها، وكيفية ترابطها وتناسقها في الصورة الإسلامية العامة.

وفقدان هذا الإدراك الشامل يتولد عنه نتائج خطيرة، منها النتائج التالية:

أولاً: فساد النسب لأجزاء الصورة الإسلامية العظيمة.

ثانياً: الخلل في وحدة النظام الكلي للمفاهيم الإسلامية التي يكمل بعضها بعضاً.

ثالثاً: تشتت شمل وحدة المسلمين، نظراً إلى أن لكل فريق منهم صورة إسلامية خاصة به، تتميز أجزاؤها بنسب مخالفة للنسب التي تتميز بها أجزاء الصور الأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى تعصب كل فريق للصورة التي يحملها، وادعائه أنها هي الإسلام كل الإسلام.

رابعاً: توجيه كل طاقات العمل دفعة واحدة لتحقيق ما احتل معظم الساحة في الصورة ذات النسب الفاسدة، ويصعب الأمر جداً حينما يكون أهون جزئيات التعاليم الإسلامية الصحيحة وأيسرها هو الذي يحتل معظم مساحة الصورة.

ومما يزيد في الألم أن تكون هذه الجزئيات التي تمتص معظم طاقات العمل داخلية في حدود الأشكال والرسوم، لا في حدود الجواهر والمعاني والأرواح والقيم الحقيقية الذاتية.

فبينما تنقض أسس الإسلام حجراً حجراً، وتعمل على اجتثاثها اجتثاثاً كلياً جيوش كثيرة مستخفية ومستعلنة، نجد كتائب كثيرة من المسلمين منشغلة في

جدليات كلامية، ومصارعات عملية، حول أفضل الألوان التي ينبغي أن يُدهن بها الجدار الخارجي لبناء الصرح الإسلامي، مع أن جيوش الهدم لا يُستطاع دفعها إلاً باجتماع طاقات حماة هذا الصرح العظيم على اختلاف أعراقهم ومذاهبهم.

● الصورة الخامسة:

وهي الصورة المزورة للتعاليم الإسلامية تزويراً كلياً أو تزويراً جزئياً، وأمثال هذه الصورة المزورة نجدها عند الفرق المنحرفة الضالة، التي عمل على إنشاء جيوبها أعداء للإسلام، تظاهروا بالانتساب إليه نفاقاً، ليعملوا على هدمه من الداخل، وذلك بتكوين فرق وطوائف تنتسب إلى الإسلام انتساباً اسمياً، وهي تحمل له كل حقد وكيد، وتضع له صوراً مصنوعة من عند أنفسها، مزورة على الإسلام وعلى أحكامه وشرائعه. ولليهود في هذا المكر أكبر نصيب.

وبدهي أن كل صورة مزورة من هذا القبيل ليست من الإسلام في شيء، وإن تسمت باسمه.

ومن اليسير على جماعة المسلمين أن يكتشفوا هذه الصور المزورة المزيفة، متى قارنوها مقارنة عامة بما هو معلوم من الدين بالبداهة عند جميع المسلمين.

ولكن الأمر الخطير جداً إنما هو إدخال التزويرات الجزئية على بعض المفاهيم والتعاليم الإسلامية الثابتة، وهذا ما اتجهت إليه أجهزة المكر في هذا العصر، وكانت لعبة قُصد بها تحويل المسلمين عن أسس التعاليم الإسلامية باسم الإسلام.

فمن أمثلة ذلك الأسماء الحديثة التي انتشرت في عالمي الاقتصاد والسياسة (كالاشرابية والرأسمالية والدكتاتورية والديمقراطية).

إن من المعلوم أن لهذه الأسماء مفاهيم ومدلولات خاصة عند الآخذين بها. والذي يُلاحظ أن تشابهاً جزئياً موجود فعلاً بين التعاليم الإسلامية وبين بعض ما تتضمنه هذه الأسماء من دلالات نظرية، أو تطبيقات عملية.

واستغلالاً لهذا التشابه الجزئي يأتي أعداء الإسلام فيستدرجون بعض

المسلمين إلى منزلق الخطر الذي ينتهي في آخره إلى طمس نظام من نظم الإسلام، وإحلال نظام آخر في مكانه، تعللاً بوجود التشابه بينهما في ناحية من النواحي.

مع أن مثل الإسلام كمثال المخلوق في أحسن تقويم بصفاته التامة التي لا يصح بحال من الأحوال فصل بعضها عن بعض، ومثل الأنظمة الأخرى كمثال غير الإنسان من الأنعام أو الوحش، وليس صعباً على أي ناظر أن يجد تشابهاً جزئياً بين الإنسان وبين هذه الكائنات الحية الأخرى.

ولكن الجنوح الخطير فكرياً أو تطبيقياً أن يحتل ثعلب ماكر، أو ثور مغامر، أو ذئب غادر، مكان الإنسان، أو أن تحتل نظيراتها من الأنظمة الوضعية مكان نظام من أنظمة الإسلام، أو مكان عدد منها.

وقد حاول أنصار كل مذهب من هذه المذاهب الوضعية أن يجد في الإسلام تأييداً لجانب من جوانبها، ليلبس بذلك على المسلمين، ويجعل الإسلام كأنه صاحب هذه المذاهب أو يوافق عليها.

وفي دوامة المغالطات والتلبيسات نجد أن أنصار المذاهب الاشتراكية في البلاد الإسلامية يختبئون وراء الإسلام، ليحميهم من هجمات أنصار المذاهب الرأسمالية، ويدراً عنهم الضربات القاصمة، بحجة أن الإسلام يحتوي على مبادئ اشتراكية، تحقق العدالة الاجتماعية بين الناس، كما نجد أنصار المذاهب الرأسمالية في البلاد الإسلامية يقدّمون الإسلام إلى الصف الأول في معركتهم مع أنصار المذاهب الاشتراكية، بحجة أن الإسلام يعترف بالملكية الفردية ويحميها، ويفسح مجال حرية العمل والكسب والتجارة، ولا يسدّ أبواب المنافسة الشريفة في تحصيل الثروات.

وبين صراع الاشتراكيات والرأسماليات التي يزوج كل منهما الإسلام في أتون معركته مع الآخر يتلقى الإسلام في بلاد المسلمين معظم الضربات، مع أن الإسلام بريء من الفريقين المتصارعين، وأي منهما انتصر فالإسلام خاسر.

وإن صح وجود الإسلام في حلبة الصراع هذه فإما أن يكون فريقاً وحده ضد

الفريقين معاً، وإما أن يكون حكماً عدلاً، يسجل على كل فريق منهما خطأه وصوابه، ويعمل على أن يرد كل مخطيء منهما إلى وجه الصواب.

وهنا نقول: إن الإسلام الاشتراكي وفق مفهوم الاشتراكيين صورة مزورة للإسلام، وإن الإسلام الرأسمالي وفق مفهوم الرأسماليين صورة مزورة أيضاً للإسلام، وإن الإسلام الدكتاتوري وفق مفهوم الدكتاتوريين صورة مزورة للإسلام، وإن الإسلام الديمقراطي وفق مفهوم الديمقراطيين صورة مزورة أيضاً للإسلام.

أما الإسلام فهو شيء آخر غير هذا وغير ذلك، وإن كان بين هذه النظم وبين التعاليم الإسلامية تشابه جزئي.

هذه هي الصور الخمس المنسوبة إلى الإسلام، وهي مشوبة بالشوائب الدخيلة المفسدة لها، وقد يحدث أن تجتمع في بعض مفاهيم الناس مجموعة منها، فيتكاثر الخطأ، ويعظم الانحراف، وتزداد المصيبة، وتشتد الحاجة إلى الإصلاح والتقويم.

(٥)

الأسباب وعلاجها

بعض الأسباب التي أدت إلى دخول الشوائب على المفاهيم والتعاليم الإسلامية قد سبقت الإشارة إليها في غضون تتبع الشوائب وصورها، وبطريقة تأملية عامة جامعة تنكشف لنا طائفة من هذه الأسباب.

وأعرض فيما يلي أسباباً عشرة مع طرق علاجها فيما ظهر لي:

● السبب الأول - الجهل وفتور الهمة عن تفهم التعاليم الإسلامية الصحيحة:

وعلاج هذا السبب يكون بقيام أهل الرأي وأصحاب الرشد في كل بلد من بلاد المسلمين برسالة التعريف بالإسلام الصافي، وفق الخطة التي سلف الحديث عنها، لا سيما في البلاد التي يوجد فيها منتسبون إلى الإسلام، ولكن ليس لديهم

من يعرفهم بالإسلام الصحيح ، وهم في شوق إلى معرفته ، وأمثال هؤلاء يسهل على المضلين أن يفسدوا مفاهيمهم الإسلامية .

ولتحقيق هذا العلاج لا بد من تآزر القوى الفكرية والمالية والإدارية مع الدعاة المعرفين بالإسلام الحق .

● السبب الثاني – اتباع الهوى :

وهذا السبب يدفع صاحبه إلى أن يُدخل في التعاليم الإسلامية ما ليس منها ، إرضاء لهواه .

ولقد تكون جريمته أخف إذا هو أَرْضَى هواه عن طريق المعصية ، ولكنه يريد أن تظل سمعته الدينية حسنة بين الناس ، فهو يحاول أن يجد لعمله مبرراً ، فيدخل في التعاليم الإسلامية الشوائب التي ترضي هواه ، ثم يتستر وراءها حذراً من سخط الناس ونقمتهم ، وينسى أو يتناسى أن نقمة الله أشد عليه وأقسى من نقمة الناس .

يضاف إلى ذلك أن نقمة الله في التلاعب بالدين أشد كثيراً من نقمته في المعصية التي يقتربها العاصي ، وهو يعترف بها .

وعلاج هذا السبب يكون بإصلاح النفس عن طريق إثارة الخوف من الله ، وحسن مراقبته ، وملاحظة الأجر العظيم لأهل طاعته ، مع تربية دينية رصينة ، ورقابة اجتماعية حصينة ، ويكون أيضاً بتبصر المتصدين للفتاوى الدينية بالمزالق التي يضعها أهل الأهواء .

● السبب الثالث – الغلو في الدين غير الحق :

وهذا السبب مناقض للذي قبله ، فهو يمثل جانب الإفراط ، في حين أن الذي قبله يمثل جانب التفريط .

والغلو في الدين يفضي إلى تشدُّدات منفرّة ، وتعنُّتات ومبالغات لا يرضاها الدين ولا يقبلها ، بل يتنافى معها ، فالدين يسر سمح ، وهو دين الفطرة ، والغلو في الدين ينافي سماحته ويسره ، وينافي ملاءمته للفطرة الإنسانية ، وفي كلام الرسول صلوات الله عليه «هلك المتنطعون» وهم المغالون في الدين .

ومن الغلو في الدين ادعاء أن التفصيلات المبيّنة في النصوص الإسلامية مشتملة على كل تنظيم ضروري لكل زمن وبيئة، وطبيعي أن يؤدي هذا الغلو إلى التخلف رغم سبق العظيم الذي كان يتمتع به المسلمون في عصورهم الذهبية. أما أن الأسس الإسلامية تتسع في مفاهيمها العامة لكل التنظيمات الصالحة لكل زمان وبيئة فهذا هو الحق الذي لا غلو فيه.

● السبب الرابع - النظر الضيق المحدود، الذي يلزمه النظر إلى جوانب خاصة معينة من الإسلام، واعتبارها هي الإسلام كله: ومن الطبيعي أن يسيء هذا النظر الضيق المحدود إلى المفاهيم الإسلامية الشاملة إساءة بالغة، ويفضي إلى تعظيم الأمور الصغيرة وتهويل شأنها، وإلى تصغير الأمور الكبيرة وتهوين شأنها.

وعلاج هذا السبب يكون بحركة تبصير كلي شامل عام للتعاليم الإسلامية، وإعطاء كل حكم منها حقه صفة ومقداراً وأهمية بالنسبة إلى سائر التعاليم. ويضاف إلى ذلك ضرورة بيان الخطر الذي ينجم عن انعدام النظرة الشاملة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة.

● السبب الخامس - الجمود:

والجمود يفضي إلى تقييد التعاليم الإسلامية في حدود تطبيقات زمن معين، وبيئة معينة، جموداً عند ظواهر بعض النصوص أو التطبيقات الزمنية، مع أن أسس التعاليم الإسلامية واسعة على قدر اتساع قضايا الحياة ومشكلاتها، وهي صالحة لكل زمن وبيئة، وملائمة للفطرة الإنسانية.

وفهم هذه الحقيقة يحتاج إلى نسبة طيبة من التبصر والوعي والأناة وسعة الصدر.

● السبب السادس - التحلل:

وهذا السبب يقع في الطرف المباين للسبب السابق وهو مناقض له. والتحلل يفضي إلى الخروج على التعاليم الإسلامية، أو المروق منها وطرحها

والأخذ بتنظيمات وضعية إنسانية، بدعوى أن بعض التعاليم الإسلامية لم تُعدّ تصلح للحياة المتطورة.

ومن التحلل الجزئي المرونة المفرطة المسرفة التي تتسع في نظر أصحابها اتساعاً يجعل التعاليم الإسلامية ألعوبة في أيدي الماكين.

وربما يكون كل من الجمود والتحلل ردّ فعل للآخر، إلا أن المنهج الوسط بينهما هو الحق، ولهذا المنهج الوسط حدود لا يصح تجاوزها ولا تضيقها.

● السبب السابع – الفتنة بكل جديد قبل أن يوضع موضع الاختبار والتجربة، خلال أمد كاف لهما:

وهذا السبب يفضي إلى الانسياق الأرعن وراء كل ناعق مزين شعاراته بالأصباغ والألوان والصور الخادعة للنظر، مع أنها جوفاء من الخير، ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبلة العذاب.

وعلاج هذا السبب يكون بيقظة حذرة، ودراسة واعية، أو يكون بعد ذلك بصدمة موقظة، أو خيبة أمل مخزية.

● السبب الثامن – التعصب لكل قديم مهما كان شأنه، ولو كان مخالفاً للحقيقة البينة، ولأسس التعاليم الإسلامية الصحيحة الصافية:

وهذا السبب يقابل السبب السابق له، وهو على النقيض منه.

وعلاج هذا السبب يكون بالرجوع إلى أسس التربية الإسلامية التي تأمر بالاعتصام بالحق، والبعد عن كل تعصب ذميم.

● السبب التاسع – الأنانية التي تولّد الإعجاب الشديد بالرأي، وتولّد التعصب والفردية في الأعمال، وتشتت الشمل، وتفرّق الكلمة:

مع أن الإسلام يدعو إلى وحدة العمل الجماعي، وأطراح الأنانيات الشخصية والحزبية والإقليمية والعرقية والمذهبية والعنصرية، ويدعو إلى تعاون العاملين الإسلاميين، وإن اختلفت بينهم الآراء الفردية، فمصلحة الإسلام وجماعة المسلمين فوق الجميع.

وتعاونهم يكون بأن يتعاونوا فكراً على فهم الحقيقة، وبأن يتعاونوا عملياً على مقدار نقاط التلاقي بينهم، وذلك إذا لم يتيسر ما هو خير منه، وهو التعاون الفعلي في كل الأمور على البر والتقوى.

● السبب العاشر - ما يكيده أعداء الإسلام من مكاييد، ويدخل تحت هذا السبب صور كثيرة، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان وتفصيل:

وحين نلاحظ أن أعداء الإسلام اختاروا لأنفسهم سبيل الكفر بالله خالقهم ورازقهم يتضح لنا أن كل عمل يمارسونه لتشويه الإسلام إنما هو من ذبول الكفر، ولكن على المسلمين أن يكونوا بصيرين بدسائس أعدائهم. وبصيرين بالمرابض التي يترصد فيها هؤلاء الأعداء للانقضاض الظالم الأثم على الإسلام والمسلمين.

هذا إجمال ما ظهر لي من أصول عامة للتشويهات التي دخلت على مفاهيم المسلمين عن الإسلام، وأسبابها الكبرى، والله أسأل أن يلهم أهل الفكر والغيرة في جميع بلاد المسلمين أن يعملوا على تنقية مفاهيم المسلمين للتعاليم الإسلامية من كل الشوائب الدخيلة على الأصل النقي الصافي، حتى تصبح هذه التعاليم الصحيحة قوة دافعة إلى المجد العظيم الذي لن يحتله غير المسلمين الأخذين بالإسلام عقيدة وشرعية، فكراً وعملاً، كما كانت هذه التعاليم في حقبة سالفة من تاريخ المسلمين.

* * *

الفصل الرابع

مقدمة صراع

قد يجد القارئ في فصول
الصراع تكريراً في بعض الأفكار،
أجأت إليه ضرورة تقصي الناقد،
ومتابعة أقواله وتزييفاته المتكررة.

(١)

ظهر الناقد (د. العظم) في هذا العصر، ضمن طائفة من الملاحدة الجدليين الذين ينكرون الله واليوم الآخر، ويكذبون الرسل والأنبياء، ويجحدون الكتب الإلهية والمعجزات، ويرتدون أقنعة العلمانية والبحث العلمي المتقدم، ويستغلون بالباطل كل ثقل التقدم العلمي المادي في الصناعة والتكنولوجيا، زاعمين للناشئين من أجيالنا أن التقدم العلمي الحديث يدعم مذهب الإلحاد والكفر بالله. مع أن العلم الحق إنما يدعم الإيمان بالله لا الكفر به، أيًا كان نوع هذا العلم، أما الباطل الذي يلبس ثياب العلمانية فقد يدعم قضية الإلحاد بالله وبآياته، لأنه باطل يرتدي ثياب زور، فهو يؤيد باطلاً مثله، والباطل ينصر بعضه بعضاً.

لذلك كان لا بد من اللجوء إلى خطة جدال بالتي هي أحسن مع الكافرين والملحدين، لكشف مغالطاتهم، وفضح أهدافهم وأهداف سادتهم من نشر الإلحاد في الأرض، والأكاذيب والمفتريات، والتلبيس والتدليس، ولئلا يعيشوا في الأفكار فساداً، ويملأوها ضلالاً وإلحاداً.

أنتركهم يقذفون أجيالنا — أحفاد المؤمنين الصادقين المخلصين — إلى مواقع الهلاك والعذاب والدمار الماحق. وإلى أحوال المهانة والمذلة والخزي؟

لقد رأيت بعد تردد طويل — كما ذكرت في المقدمات — أنه يجب عليّ وعلى جميع الباحثين من أنصار الحق والخير والفضيلة أن نكشف زيف هؤلاء المضللين، وأن نبرز للمفتونين والمخدوعين وجه الحق مؤيداً بدلائل العلم القويم والمنطق السليم، وأن نناقش جدليات الملحدين مناقشة عقلانية علمية هادئة، وأن نجادلهم بالتي هي أحسن، ثم لا يضرنا بعد ذلك أن يُصرّوا على كفرهم وإلحادهم، فالله هو الذي يتولى حسابهم وعذابهم، أما نحن فما علينا إلاّ البلاغ المبين.

ورأيت أن من واجبنا أيضاً أن نقيم بينهم وبين أجيالنا سداً منيعاً من المعرفة الرصينة الراسخة بحججها وبراهينها، حتى لا تنخدع هذه الأجيال بزيف ما يكتبون، وزخرف ما يقولون، لا سيما حينما يلبس هؤلاء الملحدون أقنعة العلمانية المزورة، ويتسترون وراء التقدم العلمي الحديث، ويستغلون لأنفسهم مظاهر التقدم الصناعي والتكنولوجيا.

مع أن التقدم الصناعي والتكنولوجي لم يكن ولن يكون في الحقيقة ملحداً بالله، بدليل أن معظم أئمة التقدم الصناعي والتكنولوجي وأئمة العلوم الحديثة مؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً يصرفُ أموره بعلمه وقدرته وعنايته وحكمته.

من هذا الذي يستطيع أن يثبت حقاً أن علوم الفيزياء والكيمياء والطب، وعلوم الرياضيات والفلك والأحياء والنباتات، وعلوم الذرة والصواريخ والمركبات الفضائية، علوم قائمة على أسس الإلحاد بالله والكفر بقدرته وعلمه وعنايته وحكمته؟

هل هذه العلوم تثبت ببراهينها أنه ليس لهذا الكون خالق قادر مدبر؟

إننا إذا وجدنا ملحداً واحداً من علماء هذه العلوم وجدنا في مقابله عشرات المؤمنين بالله من كبار هؤلاء العلماء أنفسهم، ولو أن علومهم قائمة على قاعدة الإلحاد، أو تشتمل على براهين تنفي وجود الله لكان الأمر معكوساً تماماً، ولأظهر لنا هؤلاء العلماء أدلتهم وبراهينهم، ولأثبتوا لنا ذلك في مكتوباتهم، بيد أننا نجد في أقوالهم الكثيرة ما يدعم قضية الإيمان بالله.

إلا أن حركة يهودية أرادت نشر الإلحاد في الأرض فتسترت بالعلمانية، ونشطت عناصر منها فبثت نظريات من عند أنفسها وضعت خِصيصي لدعم قضية الإلحاد، وكان ذلك ضمن مخطط يهودي شامل، لإفساد أُمم الأرض بالإلحاد والمادية المفرطة، والانسلاخ من كل الضوابط التشريعية والأخلاقية، كيما تهذم هذه الأمم أنفسها بأنفسها، وعندئذ يخلو الجو - بحسب تصورهم - لليهود قلة في العالم، ومتى خلا لهم الجو استطاعوا - كما يزعمون - أن يحكموا العالم كله حكماً مباشراً ظاهراً.

علماء بأن هؤلاء اليهود الذين تستروا بالعلمانية والبحث العلمي المحايد لم يقدموا نظريات تدعم قضية الإلحاد في العلوم البحتة الخاضعة للاختبار والتجربة، وتقويم النتائج؛ وإنما قدموا نظريات أو فرضيات على الأصح في العلوم الإنسانية ذات الاحتمالات الكثيرة، غير الخاضعة للاختبار والتجربة وتقويم النتائج، وضمن نظرياتهم التي قدموها في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد وفلسفة النشوء والارتقاء دسوا قضية الإلحاد والكفر بالله، تحقيقاً للمخطط اليهودي الشامل.

وهذا يوضح لنا أن قضية الإلحاد بالله قضية سياسية عالمية، تخدم مصالح خاصة لفئات معينة من الناس، وهذه الفئات تجند الذين يستجيبون لدعوتها، ثم تقدمهم وقوداً لدعم سياستها وخدمة مخططاتها.

هذه في هذا العصر هي حقيقة المذهب الإلحادي المنظم الذي تدعمه قوى سياسية ذات ثقل في العالم، أما الإلحاد الفردي الذي تدفع إليه دوافع إجرامية فجزئية خاصة فهو موجود في كل عصر، وكذلك نظرات الشك التي قد يتعرض إليها الإنسان في بعض مراحل من حياته، هي أيضاً ذات طابع فردي غير منظم ولا مدعوم، وليس لها قوى جماعية كبيرة تنصرها وتنشرها وتدعو الناس إليها، لأن نظرات الشك في قضية الإيمان لا تحمل أصحابها قضية ذات رسالة تبشيرية، ولا تستطيع هي في نفسها أن تجد أدلة تدعم قضية الإلحاد والكفر بالله، وبذلك تبقى قضية الإلحاد قضية ساكنة صامتة في نفوس أصحابها، لا دوافع تحركها ولا دلائل تدعمها.

بخلاف قضية الإيمان فإن وراءها دوافع تدفعها إلى الحركة والنماء والانتشار والبيان المستمر، ومعها مئات الأدلة التي تدعمها، وإن نظر إليها بعض الناس بشك في بعض مراحل حياتهم.

إن المؤمنين بالله لهم أدلة لا تحصى على ما آمنوا به، وكل باحث منهم يتكشف له في موضوع اختصاصه طائفة من هذه الأدلة، وهي تقدم له القناعة الكافية بأن الله حق.

أما الملحدون فليس لهم أدلة يمكن أن يعتمدوا عليها في نفي وجود الخالق جل وعلا، إلا مجرد الارتباط بالمادة المدركة بالحواس الإنسانية، أو بالأجهزة التي توصل إليها الإنسان في القرن العشرين، وهذا لا يستطيع أن يقدم أي دليل على النفي.

(٢)

نحن نعلم أنه لا خوف على الحقائق الدينية الإسلامية من جدليات الملحدين، لأنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولكن قد تؤثر جدلياتهم المشحونة بالتزييف على الناشئين المطبوعين بطابع الثقافات الحديثة، الموجهة شطر مبادئ ومذاهب معينة، وضعت خصيصاً لمحاربة الدين وهدم مبادئه الحقة.

وليس جدالهم بالباطل بدعاً في تاريخ المبطلين، بل هي طريقة كل أهل الباطل، من إبليس قائدهم إلى آخر جندي من جنوده، وأصغر تابع من أتباعه، كل منهم سائر على سبيله ومتبع لخطواته.

وقد وصف الله الكافرين عموماً بأنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، فقال تبارك وتعالى في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿... وَيَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۚ﴾

وهي طريقة لا سبيل لهم سواها، ليؤيدوا أفكارهم ومذاهبهم، وينصروا باطلهم، ويدحضوا الحق، ما داموا قد التزموا في أفكارهم ومذاهبهم جانب الباطل، وأصبروا بعناد على رفض جانب الحق.

ولما انغمسوا بكفرهم في رذيلة خلقية خطيرة هي رذيلة جحود الحق، كان لا غرو أن تجرهم هذه الرذيلة إلى رذائل خلقية أخرى، منها أن يجادلوا بالباطل، ويستخدموا كل ذكائهم في تزييف الحق، ويقوم تزييفهم على اصطناع هياكل وهمية لمذاهبهم، وهياكل وهمية لمذاهب خصومهم، ثم يحملون حملاتهم الهجومية على

هذه الهياكل التي اصطنعوها لمخالفهم، وعندئذ يسهل عليهم تحطيمها بسرعة، لأنهم هم الذين اصطنعوها بأنفسهم، ووضعوا فيها نقاط الضعف التي يسهل عليهم تدميرها من قبلها.

وقد يحاربون الدين كله من خلال رأي ضعيف قاله بعض الناس المنتسبين إلى الدين.

أويحاربون الأديان كلها صحيحها وباطلها، من خلال ما في بعضها من تحريف عن الأصل الرباني، أو من خلال الأديان الباطلة التي تحمل اسم دين، وهي في الحقيقة أوضاع إنسانية مخترعة، وليست ديناً إلهياً.

وهذه الطريقة قد استخدمها الناقد (د. العظم) أقبح استخدام فيما زعم أنه نقدٌ للفكر الديني، قال في الصفحة (٢١) من كتابه «نقد الفكر الديني»:

«يجب ألا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية الدينية التي كانت سائدة في تلك القارة، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتاً نهائياً في تراثها الحضاري. ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة في معظم البلدان النامية، بما فيها الوطن العربي، علماً بأنها معركة تدور رحاها في الخفاء ولا تظهر معالمها للجميع إلا بين الفينة والأخرى».

فهو في هذا يحشر الأديان كلها صحيحها وباطلها ويعتبرها جبهة واحدة ضد العلم، ثم يوجه طعناته ضد ما في بعضها من باطل، ثم يستنتج من ذلك أنها جميعاً أديان باطلة، باعتبارها جبهة دينية واحدة، وقد وجد بعضها باطلاً، أو وجد في بعضها ما هو باطل.

فهل يقبل مثل هذه الحجة الساقطة من لديه أبسط قواعد الاحتجاج المنطقي، التي تعرفها الأوليات الفكرية؟ إنها حجة مرفوضة بداهة شكلاً ومضموناً، وحينما يعتبرها الملحد طريقة منطقية كافية للاحتجاج فإننا نستطيع أن نستخدمها سلاحاً ضد اتجاهه الذي يزعم أنه اتجاه علماني، فنقول له: إن أصحاب الاتجاه العلماني جبهة واحدة، ومن المعروف أن لهم مذاهب شتى متناقضة في معظم القضايا التي

بحوثها وفق أصول البحث العلمي الذي توصل إليه العلماء، وفي كثير منها نظريات باطلة، إذن فالاتجاه العلماني كله باطل.

مما لا شك فيه أننا لا نقبل هذا الكلام لأنفسنا، ولكننا نكشف به فساد حجة الملحد الناقد للفكر الديني، إذ نستخدم سلاحه ضد اتجاهه، ونحن نرفض مثل هذا الاحتجاج أصلاً.

وصنيع الملحد في هذا تزيف مفضوح للحقيقة، وتلاعب شائن في العمليات الفكرية، واستهانة شنيعة بالمنطق الفكري لأجيالنا الناشئة من مثقفي هذا العصر، فهل بلغ بهم الأمر أن تنطلي عليهم مثل هذه الحيلة من حيل التزيف الفكري، حتى بدأ الملاحدة يستخدمونها في تضليلهم؟ أم فقد الملاحدة صوابهم حتى أخذوا يحتجون بما ليس فيه حجة ولا شبه حجة؟ إذ أفلست قواهم المادية في فرض مذاهبهم على الطلائع المثقفة في العالم الإسلامي، لا سيما حينما وجدوا في هذه الطلائع المثقفة جماهير مؤمنة بالله، تنصر الإسلام وتعمل له، وتلتزم بأحكامه وتعاليمه.

ولعل الأمرين موجودان معاً، فبعض أجيالنا الناشئة الموجهة ضمن البرنامج الإلحادي قد أمست مرجوحة الأصول الفكرية، تخدعها الحيل المصبوغة بصبغ الثقافات المعادية للدين، والمقنعة بقناع العلمانية الأكاديمية، والمحاطة بهالة مزخرفة من العبارات التي احتلت مركزاً أرستقراطياً بين المجتمعات المثقفة، على الرغم من أنها عبارات جوفاء ليس لها إلا طنين يخدع صغار العقول، وبعض أجيالنا الناشئة المثقفة هي - بحمد الله - مؤمنة بالله مسلمة حقاً، ذات منطق علمي سليم، تعرف الحق، وتناقش بالحق، وتجادل بالحق، وتناصر الحق حيث وجدته.

وأرجو أن لا يغيب عن بال سيادة (د. العظم) ومن هم على شاكلته أن كل اتجاه عام في الواقع الإنساني يوجد فيه فئات مختلفة، ويوجد فيه أفكار متباينة، فهل يعني وجود هذا الاختلاف بطلان الاتجاه العام من أساسه؟ أم واجب العاقل المنصف التمييز بين المحققين والمبطلين، وبين الحق والباطل.

إن دين الله للناس دين واحد، وهو دين الحق الذي اصطفاه لعباده، وأنزله

على رسله بحسب حاجات الأمم ، التي اقتضت أن ينزل إليها متدرجاً على طريقة التكامل ، وكان ختم هذا الدين بصورته الكاملة التامة في رسالة الإسلام الذي اصطفى الله لحمله للناس محمداً عليه الصلاة والسلام .

إلاً أن الأديان الأولى لم يتوافر لها النقل الصحيح ، ودخل إليها عن طريق بعض أتباعها التحريف والتغيير في النصوص وفي العقائد ، فجعلها غير ممثلة للدين الحق ، إذ دخل إليها كثير من الباطل ، كما أن أدياناً حملت هذا الاسم وهي صناعة بشرية غير ربانية ، أفتحشر هذه الأديان كلها بما فيها من حق وباطل ثم يصدر بحقها جميعاً أحكام تناسب ما في بعضها من باطل ، أو أحكام تناسب ما في بعضها من حق؟؟

هكذا كان عمل (د. العظم) لدعم مذهب الإلحاد بالله وجحود اليوم الآخر.

(٣)

ببالغ من التزييف الوقح بدأ الملحدون من أجراء صانعي الهزيمة العربية في عام ١٩٦٧م يحملون الدين وزر الهزيمة التي اصطنعوها ، وكانوا قبل المعركة وفي أثنائها قد عزلوا الدين عزلاً كلياً عن جميع ساحاتها ، حتى لم يبق له صوت ولا سوط يرتفعان ، ثم يقولون : إن سبب الهزيمة هو وجود رواسب من الذهنيات الدينية الغيبية الاتكالية عند الثوريين الذين قادوا المعركة .

وكل عارف بالحقيقة يعلم أن معركتهم لم تكن ضد العدو الباغي ، إن معركتهم معه لم تكن إلا معركة صورية أو شبه صورية ، أما معركتهم الحقيقية فقد كانت ضد الدين الذي يتابع كتابهم اليوم محاربته بالتزييف والتضليل ، بعد أن حاربوا دعائه بالتعذيب والتنكيل حرباً لا هوادة فيها .

لقد أفلست عمليات الاضطهاد في تحقيق كل ما يهدفون إليه ، فلجؤوا إلى أسلحة التضليل الفكري .

مما لا شك فيه أن معركة الإسلام مع الملاحدة العالميين الذين يتحركون

بدفع آلي من القيادات اليهودية العالمية ذات مراحل، كلما أنجزوا في تصورهم مرحلة منها انتقلوا إلى مرحلة أخرى.

لقد كانت معركتهم الأولى تهدف إلى إقامة الثورة الاقتصادية والاجتماعية كمرحلة أولى، مع التزييف الفكري بعدم معارضتها للدين، بغية تضليل الجماهير المسلمة بأن تغييراتها الاقتصادية والاجتماعية لا تمس جوهر العقائد الدينية التي تؤمن بها هذه الجماهير، تخديراً لها وتبريداً لمشاعر النقمة التي قد تلتهب ضد ثورتهم، وحين انتهت في تصورهم هذه المرحلة وبلغت مداها المرسوم لها أخذوا يحضرون للمرحلة الجديدة، وهي مرحلة نفس العقائد الدينية التي ظلت راسخة في قلوب كثرة كاثرة من الجماهير العربية، بغية تغيير الإنسان العربي تغييراً كلياً، حتى في مفاهيمه وعقائده وعواطفه القومية والتاريخية، وسائر مشاعره، وعندئذ يستطيع العدو المحرك من وراء الستار تطويعه وتسخير واستعباده.

وهذا يفسر حملة مكتوبات الملحددين الجديدة، التي تهدف إلى تحضير النفوس والأفكار للمرحلة الآتية من مراحل الحرب المستمرة.

قال الناقد (العظم) في كتابه في الصفحة (١٢):

«ولكن الواقع هو أن حركة التحرر العربي غيرت بعض ظروف الإنسان العربي الاقتصادية والاجتماعية، ثم وضعت في نفس الوقت كافة العراقيل والموانع الممكنة في وجه حدوث أية تغييرات وتطورات موازية في ضمير الإنسان العربي وعقله، وفي «نظرته للذات والحياة والعالم»...».

ثم ذكر أن حركة التحرر العربي قد وقفت على رأسها بدلاً من قدميها فقال: «عبرت هذه الوقفة (على الرأس بدلاً من القدمين) عن نفسها في السياسات الثقافية التي اتبعتها حركة التحرر العربي، كما في أسلوب اهتمامها السطحي والمحافظ جداً بالتراث والتقاليد والقيم والفكر الديني، مما أدى إلى عرقلة التغييرات المرجوة في الإنسان العربي نفسه، وفي نظرته إلى الذات والحياة والعالم، تحت ستار حماية تقاليد الشعب وقيمه وفنه ودينه وأخلاقه، تحوّل الجهد

الثقافي لحركة التحرر إلى صيانة للأيديولوجية الغيبية، بمؤسساتها المتخلفة، وثقافتها النابعة من العصور الوسطى، وفكرها القائم على تزيف الواقع وحقائقه».

أقل متأمل في هذا الكلام وأشباهه يتبين له أنه إرهاب واضح بمرحلة جديدة من مراحل الحرب اليهودية الماركسية العالمية، ضد الإسلام داخل الوطن العربي، لتحطيم الرصيد الباقي من أمل هذه الأمة في إمكان ظفرها على عدوها، إذا هي استطاعت أن تتحرر من القيود، وتستخدم ما لديها من طاقات محررة، تصلها بدينها وأخلاقها وقيمها.

إنهم يمهّدون بهذا للثورة الثقافية الفكرية التي تريد اقتلاع كل تراث مجيد للمسلمين، حتى لا يبقى لهم أي أمل بالظفر على عدوهم، وحتى لا يبقى لديهم أي نزوع لاستعادة مركزهم القيادي في العالم.

ومما يؤسف له أن العدو القابع وراء الحجب قد استطاع أن يشتري من سلالات هذه الأمة جنوداً مغفلين، يدفع بهم إلى صف المواجهة، ويحملهم الأسلحة الفتاكة ضد أمتهم وأقوامهم وأمجادهم، وأخيراً ضد أنفسهم، لأن العدو سيتخلص منهم متى استنفد طاقاتهم، وصاروا في نظره كالشور الذي يأكل كثيراً، وهو لا يحرق أرضاً، ولا يسقي زرعاً، ولا يدفع كيداً ولا يدرّ بلبن.

وماذا ترجو الأمة ممن باع نفسه لعدوه وعدوها، ورضي بأن يكون سلاحاً نجساً مصلتاً عليها في أيدي الخنازير؟!

وحين نتساءل: كيف استطاع العدو أن يشتري هؤلاء الجنود، وأن يسرقهم من أحضان أمتهم، ليسخرهم هذا التسخير الخبيث الذي لا يرضى به الهمجيون البدائيون، فضلاً عن المثقفين الذين يدعون التقدمية، ويلقبون أنفسهم بالطلّاع المتحررة؟

فإن الجواب يأتي من الواقع بأن العملة التي يشتري بها العدو شباباً من أجيالنا الناشئة. ثم يجندهم في صف المواجهة ضدنا، هي عملة تبذل للأهواء والشهوات بغير حساب، أما مادتها فالمرأة الفاجرة، والشهوة العاهرة، والخمرة المضلة، والرشوة المذلة، ومطامع المال والسلطان، وأحياناً أوراق مجد علمي

تُمنَح على صفة شهادات عليا، ويجري ضمن ذلك كله عمليات تغيير كلي لجهاز التفكير، وتغيير كلي في المخترنات العاطفية، وتبديل تام أو ناقص لعناصر الكيان الذاتي التي هي قوام الشخصية.

وبعد هذا التغيير والتبديل تتم عملية التجنيد الطوعي، أو التجنيد المسوق بالسلاسل، والمدفوع بالسياط اللاهبة، خوف الحرمان والفضيحة، وأخيراً خوف القتل بأي سبب ظاهر أو خفي.

وما التقدّم والعقلانيات والبحث العلمي والنظرة الأكاديمية إلّا ألفاظ وشعارات تستعمل في الأقوال فقط، وليس لمدلولاتها الحقيقية واقع معتبر لديهم.

تزييف في الألفاظ، تزييف في الحقائق، تزييف في المعارف، تزييف في الرجال، تزييف في المؤسسات الصغرى والكبرى، تزييف في الدول وتكوين الأمم والشعوب، هذه هي خطتهم.

وغرضهم الحقيقي تدمير الأمة الإسلامية وفي مقدمتها الشعوب العربية تدميراً يشمل ما يسمونه في مصطلحاتهم: «البنية الفوقية – البنية التحتية – الأصعدة العليا – الشرائح الوسطى، والجانبية، والعلوية، والسفلية» إلى آخر هذه المصطلحات الإيهامية، التي يقذفونها للتغطية حيناً، وللتهويل حيناً آخر، وللتظاهر بارتقاء المستوى الفكري أمام الذين لم تتجاوز عقولهم طور مراقبتها، بغية السيطرة الفكرية عليهم، وتقييدهم بمصطلحات يتميزون بها، ويدسون في المراد منها ما شاءوا.

وجملة هذه المصطلحات تدور حول عقائد المسلمين ومفاهيمهم الإسلامية والأخلاقية والاجتماعية، وحول مستويات المجتمع الإسلامي على اختلافها، فهم يشرحونه إلى شرائح وفق مخططهم، ويوجهون لكل شريحة وسائل تدميرها، ويركزون معظم طاقاتهم لتدمير العقائد والمفاهيم والأخلاق وسائر القيم والتطبيقات الإسلامية، ومراكز حماية كل هذه الأثقال التي تقف في طريق تسلطهم الكامل على الأمة الإسلامية وشعوبها المختلفة.

وانطلت حيلة التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي لا تتعارض مع الدين ولا تمس عقائده ومفاهيمه الأساسية كما زعم أجراؤهم والمنخدعون بهم .

وتجند لمؤازرتها ومناصرتها فريق الطامعين ، وسارت من ورائهم جماهير العمال والفلاحين وصغار الكسبة ، وقاد المسيرة صنائع وأجراء من طبقة القيادات المثقفة ، الذين استطاعوا أن يشتروهم أو يغروا بهم ، إذ وجدوا في نفوسهم مواطن ضعف تؤهلهم لهذه العمالة .

وقامت الثورة ، ورافق إقامتها حملة عنيفة من ضجيج الوعود الكبيرة بتحقيق النصر المنشود ، وسارت وفق المخطط الذي رسم لها ، وفي الوقت المناسب سبقت إلى خيبة كبرى حملت آلام نتائجها الأمة العربية والأمة الإسلامية من ورائها .

وأزيح الستار عن الفصل الأول من التمثيلية ، وطلع الملحد العميل يقول : إن الهزيمة قد كانت بسبب وجود رواسب من الذهنية الدينية لدى القيادات الثورية في حركة التحرر العربي ، وبسبب عدم التغيير الشامل في تركيب المجتمع كله ، لأن التغيير الاقتصادي والاجتماعي لا يكفي لتحقيق النصر ، بل لا بد من تغيير يشمل المبادئ والعقائد والتقاليد وسائر الموارد القائمة في المجتمع العربي .

هلمّ إذن إلى هذا التغيير ، لتفقد الأمة العربية كل كياناتها ، وكل مقوماتها ، وعندئذ تسقط سقوطاً كاملاً في يد عدوها ، الذي يستعبدنا ويسخرها فيما يريد .

وهذا هو ما يهدف إليه العدو في خطته ضمن حربه الشاملة للإسلام والمسلمين .

وجاءت حرب رمضان (تشرين أول - أكتوبر) في عام ١٩٧٣م فأظهرت للناس جميعاً أن الإسلام لما دخل في المعركة دخولاً اسماً وبصورة جزئية ظهرت في الأمة العربية بطولات حقيقية لم يكن لها وجود مطلقاً في حرب (حزيران - يونية) عام ١٩٦٧م ، وكان من نتيجتها تحول جزئي لصالح الأمة العربية ، وكان في هذا تكذيب واقعي لمفتريات الملحد الماركسي العميل .

وقد يبدو عجباً أن يوجه هؤلاء الملاحدة الماركسيون انتقادهم لحركة التحرر

العربي وقياداتها الثورية، إذ لم تقم بتغيير شامل في مجال سلطانهم، يتناول كل إرث الأمة العربية، من عقائد ومبادئ وأخلاق وعادات ومفاهيم ومشاعر نحو أمجادهم وتاريخهم.

ولكن هذا العجب ينتهي تماماً حين نعلم أن المخططات المرحلية للحروب الحديثة التي يحركها أساطين المكر العالميون لا تهتم بالأشخاص ولا بالمنظمات.

إن الأشخاص والمنظمات وسائر الأدوات المرحلية هي بمثابة جسور توضع لتنسف متى تم العبور عليها، حتى لا يعود عائد عن طريقها إلى المنطلق الأول، وكل من يقدم نفسه جسراً لها من أشخاص أو منظمات فليعلم أنه سينسف بدءاً متى استنفذ الماكرون أغراضهم منه، وعندئذ لا يجد عاطفة تحنو عليه، ولا وفاء يستقبله.

وكل لاحق من هذه الجسور المرحلية لا بد أن يؤدي وظيفة تهديم من سبقه وانتقاد أعماله، ليقدّم تبريراً لمرحلته الجديدة، وليمحو من الأذهان ما ترسب فيها من مفاهيم كان يقدمها السابق.

وكل ذلك في ترتيب الخطة العامة أزياء فكرية مرحلية، يجب تغييرها لدى تنفيذ المرحلة التالية، إلا أنها تمهيد ضروري لها.

وليس هذا منا مجرد تحليلات ذهنية، وتقديرات خيالية، بل مكتوبات العدو السرية تنص عليه بصراحة لا تقبل التأويل.

مسكينة هذه الجسور البشرية كيف تقدم خدماتها الجلى للشياطين، لتقدم أنفسها فيما بعد ضحايا لهم، وليس لها منهم عبر الرحلة القاسية الشاقة إلا الإباحيات المختلفة، والمواعيد الكاذبات، وأنواع من المساعدات للتسلط على أمتهم في الأدوار المرحلية.

ولتحويل الأنظار عن العدو الحقيقي بدأ الملاحدة الماركسيون يهونون من أمر مكاييد الاستعمار، ومكاييد الصهيونية العالمية، ويوجهون كل اهتمامهم لميراث الأمة العربية من قيم وأخلاق ومبادئ وعقائد وعادات وتقاليد ومفاهيم، ويحملون هذا

الميراث وزر تخلف هذه الأمة، ووزر الهزيمة العسكرية التي صنعتها التقدمية العربية بأيديها، سيراً مع المخطط المرسوم لها.

ومع أن الماركسيين كانوا مع الذين حملوا شعارات محاربة الاستعمار في الوطن العربي، إلا أن ذلك قد كان منهم خطة مرحلية، أما اليوم فالصهيونية العالمية ليست عدوة لهم، إن عدوهم الأكبر عقائد الإسلام ومبادئه، ومفاهيمه وتشريعاته، وما له من رصيد كبير في الجماهير العربية، لأن هذه هي العدو الأكبر لليهودية العالمية، ومن يسير في ركبها أو يتأثر بدسائسها.

قال الناقد (د. العظم) في كتابه «نقد الفكر الديني» في الصفحة (١٣):
«قامت حركة التحرر بتجريد العلاقة الاستعمارية في حياة الوطن العربي عن جملة الظروف التاريخية، والأوضاع الاجتماعية العربية المتشابكة معها، والمحيط بها إلى درجة جعلت «الاستعمار» يبدو وكأنه الحقيقة المباشرة الوحيدة الماثلة في مجرى الأحداث في المنطقة والمحركة لها. أي: كان هناك اختلال أساسي في التوازن بالنسبة لنظرة حركة التحرر إلى نفسها وواقع مجتمعتها، وإلى أعضائها والعالم الخارجي المحيط بها، بصورة عامة. بالغت عملية التجريد هذه في تبسيطها للواقع التاريخي المعقد، مما جعل (الاستعمار) - أحياناً الصهيونية العالمية - يبدو وكأنه القوة الوحيدة المتحكمة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بحركة المجتمع العربي، وبالبينة التي تثير ردود فعله. أدى هذا القصور إلى ما يشبه الإهمال التام لأوضاع القوى والمؤسسات والتنظيمات والمجهودات الذهنية الموجودة دوماً في التركيب الاجتماعي (العربي) والفاعلة باستمرار في حياته، والمهمة أيضاً في تحديد ردود فعله وأنماط سلوكه الجماعية والفردية. إن الوجه الآخر لعملية تجريد العلاقة الاستعمارية على هذا النحو هو التعصب للوهم المثالي الكبير القائل: بأن الأيديولوجية الغيبية والفكر الديني الواعي الذي تفرزه مع ما يلتف حولها من قيم وعادات وتقاليد... إلخ هي حصيلة للروح العربية الخالصة الثابتة عبر العصور، وليست أبداً تعبيراً عن أوضاع اقتصادية متحولة، أو قوى اجتماعية صاعدة تارة ونازلة تارة أخرى، أو بنيات طبقية خاضعة للتحويل التاريخي المستمر، ولا تتمتع إلا بثبات نسبي».

ألا يمثل هذا الكلام وقاحة بالغة النهاية، لا يفعلها إلا أجير ذليل باع نفسه للصهيونية العالمية عن طريق الإلحاد الماركسي؟!

ولا يشك خبير بحقائق الأمور أن سبب تخلف العالم العربي هو هجره لمفاهيم الإسلام الصحيحة المتقدمة جداً، ثم تعلقه بوافدات تفد إليه من أعدائه، الذين يخشون أن يصحو من نومه العميق، ويستمسك من جديد بإسلامه، ويثب وثباته المدهشة، ويحتل قيادة العالم مرة ثانية.

أما الوافدات الوبائية التي تفد إلى بلاد المسلمين من خارج حدودهم فالذين يحملونها بأمانة تامة للعدو وخيانة تامة لأمتهم وتاريخهم معروفون تماماً، وأقوالهم وأعمالهم تدل عليهم، ولئن اختفوا حيناً فلا بد أن يظهرُوا بعد حين.

(٤)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (٩) من كتابه:

«تبين أيضاً بعد هزيمة (١٩٦٧م) أن الأيديولوجية الدينية على مستوياتها الواعي والعفوي. هي السلاح (النظري) الأساسي والصريح بيد الرجعية العربية في حربها المفتوحة، ومناوراتها الخفية على القوى الثورية والتقدمية في الوطن». ويقول أيضاً:

«يلعب الفكر الديني دور السلاح (النظري) المذكور عن طريق تزيف الواقع وتزوير الوعي لحقائقه: تزيف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي - مثلاً - والعلم الحديث. تزيف حقيقة العلاقة بين الدين والنظام السياسي مهما كان نوعه».

إنه في هذا يخص الإسلام بالذكر إعلاناً عن غرضه الذي يهدف فيه إلى تهديم الإسلام وإطفاء نوره، عن طريق التهجم الصريح المقرون بالشتائم التي يطلقها زوراً وبهتاناً على الدين.

ونحن لا ننتظر منه ومن كل الملحدين وسائر أعداء الإسلام غير هذا، فهم يتميزون غيظاً منه كل يوم ألف مرة، لأنه حق قوي كاشف لزيف المبطلين، وكما يقول هذا الكاتب نفسه في أول كلامه في المقدمة عن الفكر الديني:

«من نافل القول أن هذا النوع من الفكر يسيطر إلى حد بعيد على الحياة العقلية والشعورية للإنسان العربي، إن كان ذلك بصورة صريحة وجليّة، أو بصورة ضمنية لا واعية».

وقبل أن نفند أقواله عن الدين وعن الفكر الديني الصحيح غير المزيف، وأمام حملات الكذب والشتائم الوقحة، نقول ما قال الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُمْسَحَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢).

ونقول ما قال الله تعالى في سورة (الصّٰف / ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول):

﴿يُرِيدُونَ لِطُفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨).

أي: يريدون مرادات كثيرة، ويتخذون أسباباً متعددة، ليطفئوا نور الله العظيم بأفواههم، بأكاذيبهم وشتائمهم وأباطيلهم وافترائاتهم ومغالطاتهم ونظرياتهم العلمية الباطلة، والله مُتِمُّ نُورِهِ رغم كل محاولاتهم الفاشلة، ولو كرهوا ذلك وتميزوا منه غيظاً.

أما ادعاؤه «بأن الفكر الديني يلعب دور السلاح (النظري) عن طريق تزييف الواقع، وتزوير الوعي لحقائقه»، فمجرد شتائم يطلقها تعبيراً منه ومن رفاقه وساداتهم المديرين لحركاتهم عن مدى غيظهم من الإسلام، وعن مبلغ حقدهم عليه، وعلى المسلمين الملتزمين بإسلامهم.

وأنت خبير أن الشتائم ليس لها في ميادين الجدل المنطقي مقام. فمن قلت له: أنا موجود هنا أخطبك، هلّمّ فناظرني، فقال لك: هذا تزييف للواقع، أنت مزور للحقيقة كاذب، تريد أن تضللني وتزور وعيي، أنت وهم، أنت خيال، أنت لست شيئاً حقيقياً، فبماذا ترد عليه؟ وبماذا تجيبه؟

لا جواب له عند العقلاء إلاّ الإعراض عنه، أما الدخول معه في حرب الشتائم فصناعة الغوغائيين، لا صناعة الجدليين المفكرين الذين يشدون الحق.

وهذا هو سبيلنا مع أي عدو من أعداء الإسلام، أعداء الحق، حينما يوجه له شتيمة: «تزييف الواقع وتزوير الوعي لحقائقه» دون أن يقدم براهين صحيحة تثبت دعواه.

ولكنه حينما يقدم ما يراه دليلاً وحجة فإننا لا نسكت عن مناقشتها ونقضها وبيان المغالطات فيها.

وأما ادعاؤه: «أن الدين هو السلاح النظري الأساسي والصريح بيد الرجعية العربية، في حربها المفتوحة ومناوراتها الخفية على القوى الثورية والتقدمية في الوطن».

فلا شأن للإسلام حقيقة في هذا، والحق قد يتستر به المبطلون من كل جانب، ولا يضير الطود المنيع أن يتستر في ظله من الواديين فريقان متصارعان متضادان في مذهبهما.

أما التقدمية والرجعية والثورية وغير الثورية فألفاظ يطلقونها بأفواههم وفق أهوائهم.

لقد استخدموا الإباحية الفكرية واللفظية أسوأ استخدام، فقد يطلقون عبارة التقدمية على أقبح الرجعيات الفكرية والسلوكية، فالقتل والسحق والتمثيل بالقتلى والتشويه والتعذيب الذي لا يخطر على بال كبار المجرمين، والسلب والنهب وهتك الأعراض، وكل الموبقات تقدمية، مع أنها غاية في الهمجية الممعة في الرجعية التاريخية، التي ترجع إلى الوحشية البهيمية، وتجرجر قوارير (الفودكا) حتى الارتماء على قممات الشوارع هي في نظرهم تقدمية، مع أنها في الحقيقة رجعية إلى ما دون مستوى البهائم وأضل سبيلاً، والكفر بالله والإلحاد به تقدمية في نظرهم، مع أن الكفر بالله من رجعيات القرون الأولى. أما الصدق والأمانة والمحبة الإنسانية والإخاء وحسن المعاملة وسائر مكارم الأخلاق وفضائل السلوك فهي في نظرهم وتسمياتهم رجعيات، وهي أمور سخيفة يجب تركها والاستهانة بها.

أليس هذا التلاعب بالحقائق تنفيذاً للمخطط اليهودي الشامل، الذي يعمل

على تجريد الأمة الإسلامية من كل قواها المقومة لكيانها، حتى تفقد كل مقاومة ضد عدوها، وتستسلم له استسلاماً كاملاً على ذل وضعة وعبودية؟.

وهؤلاء الملاحدة هم من أخطر جنود تنفيذ هذه الخطة اليهودية العامة، ولا ضير إذن أن يكون الإسلام سلاحاً ضدهم لأنهم أعداؤه، وهم ومبادئهم وأفكارهم ومخططاتهم أسلحة فتاكة مسلطة ضد الإسلام ومبادئه وعقائده وتشريعاته والمؤمنين به.

وفي كلام الماركسيين عن الرجعية العربية مغالطة قائمة على التعميم، فحينما يطلقون عبارتي الرجعية والرجعيين فإنهم يقصدون الإسلام والمسلمين ودعائهم وحماهم، ويقصدون أيضاً سائر الأنظمة العالمية المخالفة للنظام الماركسي، وحما هذه الأنظمة والمستفيدين منها، وفي ضمن هذا التعميم المقصود يقذفون مغالطاتهم، إذ يوهمون بأن الإسلام في نظرياته ومفاهيمه وتشريعاته يدعم النظام الرأسمالي مثلاً، أو يدعم أنظمة الحكم الدكتاتورية، مع أن موقف الإسلام من الأنظمة الرأسمالية المخالفة له مثل موقفه من الأنظمة الماركسية، يخالف هذه وتلك، ويقاوم هذه وتلك، ولا يدعم هذه ولا تلك، إن الإسلام نظام غيرهما جميعاً.

هذه هي حقيقة الإسلام التي تشتمل عليها نصوصه، ويعترف بها المسلمون الصادقون، ولكن ما نصنع بالذين يستغلون اسم الإسلام لنصرة مذاهبهم التي تخالف الإسلام وهو لا يعترف بها؟

هذا عيب في الناس وليس عيباً في الدين نفسه، ونفاق الناس للمذاهب والأنظمة، وتستترهم بها، واحتماؤهم بقواها، موجود في كل موقع فكري أو جماعي، ولا يمكن أن يدفعه إلا نظام صحيح ثابت، له في الأرض قوة تحمي مبادئه بحق، وتكشف باستمرار المزييفين الذين يستخدمون اسمه وقوة الجماهير التي تنتسب إليه لدعم انحرافاتهم.

فبالنفاق والتزوير والمخادعة قد يستخدم النظام الماركسي اسم الإسلام سلاحاً لدعم نظامه وحمايته، إذا وجد جماهير تنخدع بنفاقه وتزويره، ووجد أجراء

وصنائع تزين أمام الجماهير نفاقه وتزويره وتتلاعب بمفاهيم الإسلام وفق أهوائه، ولا يكون هذا بحال من الأحوال جريرة تلصق بالإسلام أو عيباً ينسب إليه، فالإسلام من نفاق المنافقين وتزوير المزورين بريء.

وبالنفاق والتزوير والمخادعة قد يستخدم نظام رأسمالي اسم الإسلام سلاحاً لدعم نظامه وحمايته، إذا وجد جماهير تنخدع بنفاقه وتزويره، ووجد أجراء وصنائع تزين أمام الجماهير نفاقه وتزويره، وتتلاعب بمفاهيم الإسلام وفق أهوائه، ولا يكون هذا بحال من الأحوال جريرة تلصق بالإسلام أو عيباً ينسب إليه، فالإسلام الحق بريء من نفاق المنافقين، وتزوير المزورين وتلاعب المتلاعبين.

فاتهام الإسلام بأنه سلاح في يد الرجعية، أو في يد بعض الأنظمة التقدمية، مغالطة قائمة على التعميم أولاً، إذ يُعمَّم المغالطون اسم الإسلام فيجعلونه شاملاً لدين الله وللمتسبين إليه بصدق، وللمتسبين إليه زوراً ونفاقاً، وللمستغلين اسمه وهو منهم بريء، وقائمة ثانياً على تحميل الدين جرائم المنافقين له، والعابثين أمام بعض الجماهير بمفاهيم ينسبونها إليه، وهي ليست منه.

ولكن:

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُنِمْ نوره ولو كره الكافرون.

(٥)

قال الناقد (د. العظم) في الصفحة (٩) من كتابه:

«يلعب الفكر الديني دور السلاح (النظري) المذكور عن طريق تزيف الواقع وتزوير الوعي لحقائقه: تزيف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي — مثلاً — والعلم الحديث، تزيف حقيقة العلاقة بين الدين والنظام السياسي مهما كان نوعه (الاشتراكية — العربية — العلمية الإسلامية — المؤمنة — الثورية) تزيف الحقيقة حول التصنيف الثوري الصارم للأعداء والأصدقاء على مستوى العلاقات بين الدول في المرحلة الحالية الحرجة (مؤتمر القمة الإسلامي) تزيف حقيقة الصراع الاجتماعي القائم في الوطن العربي بين قوى اجتماعية ثورية صاعدة، وقوى

رجعية معطّلة، بين قوى طبقية مهيمنة، وقوى متمردة مسحوقة مستغلة (الدعوة لبناء الجسور بين الطبقات باسم الصلاح والتسامح والمحبة وغيرها من القيم الروحية) ولا شك أن عملية التزييف هذه تعمل في صالح مجموعة مصالح طبقية ضيقة ومهيمنة، تنزع نحو الاستماتة في المحافظة على نفسها وعلى مواقعها، وبذلك نحو فرض أيديولوجيتها الدينية ومنظورها الميثولوجي المزيف للواقع على المجتمع بأسره، وعلى حياته الفكرية والثقافية بكاملها تقريباً.

(أ) إذا تركنا شتائم (العظم) للفكر الديني في هذا النص، لأننا عالجنها فيما سبق، فإننا نلاحظ أن الذي يلعب دور التزييف بكل معانيه وصوره هو الفكر اللاديني الإلحادي، لا الفكر الديني المؤمن.

فاللادينيون هم الذين يصنعون هذه التزييفات ويستغلونها لستر واقعهم المعادي لجماهير الأمة، والكثرة الكاثرة من شعوبها، ولمبادئ هذه الجماهير وقيمتها وأخلاقها وتاريخها ومؤسساتها.

(ب) أما ما زعمه من تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي والعلم، فقد كشفنا بطلانه بالشرح العلمي المركز في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وأثبتنا بالبراهين المنطقية أنه لا نزاع مطلقاً بين الدين الصحيح والعلم اليقيني الثابت، وسنزيد هذا بياناً في جدليات تفصيلية، نعالج فيها كشف أكاذيبه وتزييفاته في الفصل الثامن من هذا الكتاب، والواقع أن الملاحظة وكل اللادينيين هم الذين يزيفون حقيقة العلاقة بين اللادين والعلم، إذ يصورون كذباً وزوراً أن العلم صديق الإلحاد، أو صديق اللاتدين، ويحاولون جهدهم ويكدون كدّاً لاهتاً ليثبتوا وجود التناقض بين الدين والعلم، ويصنعون كل ألوان التزييف والتزوير لإثبات هذه الفرية، ليتوصلوا من ذلك إلى نقض الدين وإبطاله.

فمن المزيف للحقيقة والواقع؟؟

(ج) وأما ما زعمه من تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي والنظام السياسي مهما كان نوعه (الاشتراكية - العربية - العلمية الإسلامية - المؤمنة - الثورية).

فالمزيفون في الحقيقة هم أصحاب المذاهب والنظم المخالفة للإسلام، ويستأجرون أجراء للقيام في وسط الجماهير المسلمة بالدعاية لصور التزييف التي يصنعونها، ستراً لمواقفهم المعادية للإسلام، وكيداً لجماهير المسلمين، ويسير وراءهم مخدوعون، يظنون أنهم يخدمون الدين بما يصنعون. أما الدين الإسلامي فلا يعترف بأي نظام مهما كان نوعه، إذا كان يخالف المبادئ الإسلامية الصحيحة، فللإسلام مناهجه ونظمه الواضحة البينة.

والمسلمون الصادقون لا يقبلون أية صورة من صور التزييف التي يحاول غير المسلمين مخادعة الجماهير المسلمة بها.

(د) وأما ما ذكره «من تزييف الحقيقة حول التصنيف الثوري الصارم للأعداء والأصدقاء، على مستوى العلاقات بين الدول في المرحلة الحرجة (مؤتمر القمة الإسلامية)».

وما ذكره من «تزييف حقيقة الصراع الاجتماعي القائم في الوطن العربي بين قوى اجتماعية ثورية صاعدة، وقوى رجعية معطّلة، بين قوى طبقية مهيمنة وقوى متمردة مسحوقة مستغلة (الدعوة لبناء الجسور بين الطبقات باسم الصلاح والتسامح والمحبة وغيرها من القيم الروحية)».

فإن الإسلام أشد حرصاً على مقاومة هذا التزييف، إن المؤمنين الصادقين أحرص من الملاحدة على إيجاد التصنيف الصارم، وعلى إقامة الحدود الفاصلة بين الأعداء والأصدقاء، أي: بينهم وبين الكافرين، ولو كانوا من أبناء جلدتهم، ويتكلمون بالسنتهم، ولو كانوا منحدرين من السلالات الإسلامية، ولو كانوا من أقرب أقربائهم، فالإسلام لا يعرف مهادنة ولا مصانعة على حساب الدين والعقيدة، أو على حساب جماعة المسلمين، ولا يقر مبدأ المساومة في أي أمر من أمور الدين، فالعدو عدو ولو كان أباً أو ابناً أو أخاً أو أقرب الأقربين في النسب، والصديق صديق مهما كان بعيداً عن وشائج القرابات، فالله يقول في سورة (التوبة) / ٩ مصحف / ١١٣ (نزل):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا

الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ
 آبَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
 كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
 فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

فالأمر في المفهوم الإسلامي ليس بالسهل ولا باليسير، إنه لعب بمصير
 الأمة، ولعب بمصير دينها، وفيه تمكين عدوها منها، فليست موالاة أعداء الله من
 المعاصي الفردية العادية، إنها خيانة للأمة جميعها، وخيانة للكيان الإسلامي كله،
 ودونها بنسبة كبيرة بعض كبائر المعاصي الفردية، لأن هذه الموالاة لأعداء الله فرع
 من فروع النفاق.

والله تبارك وتعالى يقول في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ
 قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا
 ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا
 وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

(٦)

حشر الناقد (د. العظم) اتجاهاته السياسية المعنية في صلب قضايا يزعم أنها
 قضايا نقدية علمية بحتة، فهو بالإضافة إلى أنواع التضليل الذي سلكه في المسائل
 العلمية ضد الدين، أخذ يحشر اتجاهاته السياسية ليتابع عملية التضليل، ويسلك
 فيها مسلك الغوغائية الدعائية المعروفة في الكتابات الصحفية، التي يكتبها
 الملاحدة الماركسيون، فقال في الصفحة (٢٣) من كتابه:

«كان الدين في أوروبا حليف التنظيم الإقطاعي للعلاقات الاجتماعية، ولا يزال على هذه الحال في معظم البلاد المتخلفة وخاصة في الوطن العربي. في الواقع أصبح الإسلام الأيديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه (السعودية، أندونيسيا، باكستان) والمرتبطة صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده أميركا. كما كان الدين المصدر الأساسي لتبرير الأنظمة الملكية في الحكم لأنه أفتى بأن حق الملوك نابع من السماء وليس من الأرض. ثم أصبح اليوم الحليف للأوضاع الاقتصادية الرأسمالية والبرجوازية، والمدافع الرئيسي عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداستها، حتى أصبح الدين وأصبحت المؤسسات التابعة له من أحصن قلاع الفكر اليميني والرجعي. فالدين بطبيعته مؤهل لأن يلعب هذا الدور المحافظ، وقد لعبه في جميع العصور بنجاح باهر، عن طريق رؤياه الخيالية لعالم آخر تتحقق فيه أحلام السعادة، وواضح أن هذا الكلام ينطبق على الإسلام كغيره من الأديان».

واضح من هذا الكلام (العظمي) أنه من قبيل الغوغائية الدعائية السياسية، التي تعمل لنصرة مذهب سياسي واقتصادي معين، أثبت الواقع فشله في المجالين السياسي والاقتصادي، وأثبت أنه كان سلاحاً في أيدي الانتهازيين الطامعين باحتلال المواقع الرأسمالية والبرجوازية، عن طريق النهب والسلب والاستغلال الظالم للأثم، وأن شعارات هذا المذهب الاقتصادي لم تكن إلا أقنعة للتضليل. وقد عمد إلى ذكر بلاد إسلامية معينة لأنها ما زالت نوعاً ما ترعى الإسلام، وتحمي شعاراته، وتطبق بعض أحكامه.

أما قصة الارتباط صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده أميركا فقصة أتقن تشييعها أجراء هذا الاستعمار، وأجراء الصهيونية العالمية، وغايتهم هدم الإسلام من وراء ذلك، وهو يعلم أكثر من غيره دور الماركسية الملحدة التي تعمل لصالح الاستعمار الجديد، وتعمل لصالح الصهيونية العالمية.

وحرب رمضان عام (١٩٧٣م - ١٣٩٣هـ) ودور الدول الإسلامية فيها، ودور المملكة العربية السعودية إذ دخلت فيها بكل ثقلها، ربما يكون قد أغاظه كثيراً،

لأنه جاء على غير هوى سادته، ولأنه كشف زيفاً كثيراً كان يصدره هو وكل الذين يلبسون أقنعة التقدمية.

وأكتفي عند هذه النقطة بهذا القدر لأنه ليس من خطتنا في الدفاع عن الدين وحقائقه أن ندخل معارك سياسية ذات طابع زمني، وذلك لأن الدين دين الله، وهو تعاليم ومفاهيم وحقائق فكرية، ومتى هبطنا بها إلى مستوى الصراع السياسي فإننا نورط الدين توريطاً سيئاً، إذ نجسده في واقع بشري، مع أن الواقع البشري غير المعصوم قد يخالف الدين في كثير من التصرفات الإنسانية، والدين لا يحمل جريرتها، وإنما يحمل جريرتها المخالفون للدين أنفسهم، وإن كانوا من أهل الإيمان به والمطبقين لبعض تعاليمه، ومن الذين يرفعون لواءه، ويحرصون على نصرته.

إن أي تجسيد للدين في واقع بشري غير معصوم عن الخطأ أو المخالفة يعتبر تشويهاً للدين، وتحويراً في مفاهيمه وتعاليمه، وهذه ليست خطة رشد في الدفاع عن الدين.

إن الصراع من أجل الواقع البشري عمل سياسي قد يتصل بالمبدأ إلا أن له مجالاً آخر.

وبالتضليل المقصود لمحاربة الإسلام بوصفه ديناً ربانياً؛ يحاول أعداء الإسلام من ملحدين وغيرهم التقاط صور معينة عن الواقع البشري للمتسبين إلى الدين، ولو كانوا من أئمة المسلمين ومرشديهم، ثم يأخذون هذه الصور البشرية المعينة، ويجعلونها من الدين عقيدة ومفاهيم وأنظمة وغير ذلك، مع أنها في الواقع ليست إلا انحرافات بشرية عن عقائد الدين أو مفاهيمه أو أنظمتهم، وليس الدين هو المسؤول عنها، ولكن أصحابها هم المسؤولون.

وهذا التضليل من أعداء الإسلام مغالطة خبيثة مأكرة، يقصدون منها تشويه الصورة الإسلامية من جهة، واستدراج مغفلين من أنصار الدين ليتورطوا في الدفاع عن الواقع البشري، فيستغله أعداء الإسلام استغلالاً سيئاً.

يضاف إلى كل هذا أن المعارك السياسية الزمنية لها وجهات أنظار مختلفة، ومن العسير جداً تمييز جانب الحق فيها، وما أكثر ما ترى الغوغائية الجماهيرية رأياً أملت عليه الغوغائية الدعائية التي تنصر مذهباً اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً معيناً، وتدعم مصالح معينة، ثم يتبين بعد التجربة أن الرأي المناقض له كان هو الأحق بالاعتبار، وأن محاربته كان رعونة وطيشاً، وتورطاً في مزالق سياسية تكبد المنزلقين خسائر فادحة، وتحملهم مصائب كثيرة، وقد تدفع بهم إلى أيدي أعدائهم ضحايا رعوناتهم، وعندئذ تجد جنود الأعداء الذين دفعوا بهم إلى هذه المزالق يطلبون ويزمرون ويرقصون على أجساد الضحايا.

أما زعمه: أن الدين أصبح اليوم الحليف الأول للأوضاع الاقتصادية الرأسمالية والبرجوازية، والمدافع الرئيسي عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداساتها... إلى آخر كلامه.

فالواقع أن هذا الكلام ليس فيه من النقد الفكري شيء، بل هولون دعائي سياسي صحفي قائم على التضليل.

إن أي دارس للنظام الاقتصادي الإسلامي يعلم بدهشة أنه نظام فذ قائم بنفسه، فلا هو نظام رأسمالي يساير الأنظمة الرأسمالية في العالم، ولا هو نظام اشتراكي يساير الأنظمة الاشتراكية في العالم، ولكن قد تتلاقى الأنظمة الرأسمالية معه في بعض الجوانب، وقد تتلاقى الأنظمة الاشتراكية معه في بعض الجوانب، وينفرد الإسلام بمفاهيم خاصة وتنظيم كلي خاص، والشبه الجزئي لا يعني التبعية بحال من الأحوال.

وأما تحصن الرأسماليين بالإسلام فيشبه تحصن بعض الاشتراكيين به، وهو ليس حصناً في الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء، ولكن يتحارب الفريقان فيختبئ هؤلاء وراء جانب منه، ويختبئ أولئك وراء جانب آخر منه، وتتساقط بعض الضربات من هؤلاء وأولئك على الحصن الإسلامي زوراً وبهتاناً، ولو كان في الحصن الإسلامي جنود حقيقيون لخرجوا وقتلوا الفريقين معاً، ولطردهما عن جوانب الحصن.

وأما قوله: «إن الدين قد أصبح المدافع الرئيسي عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداستها».

فإننا نقول: ما دامت الملكية الخاصة مكتسبة بطرق مشروعة يوافق عليها نظام الإسلام فاحترامها حق، واحترام الحق من أسس مبادئ الإسلام العامة، ولا يضره في هذا أن توافقه أو تخالفه أنظمة وضعية ومذاهب اقتصادية أخرى، فالحق أحق أن يتبع.

ونعلن بإصرار أن النظام الإسلامي هو الأكمل والأصلح للإنسانية، وستضطر الأنظمة الأخرى أن تتراجع إلى نظامه.

وهل عيب في النظام الإسلامي أن يحترم الملكية الخاصة المشروعة، لأنه لا يوافق في هذه الناحية النظام الماركسي؟

إن العيب والنقص فيما خالف الإسلام، نقول هذا بكل فخر واعتزاز.

ثم نتساءل فنقول: هل تتنازل الأنظمة الماركسية عن ملكياتها لصالح دول أخرى ماركسية أيضاً؟

إنهم يتقاتلون لحمايتها، فأين بقيت مقومات المذهب؟

مفتريات وأباطيل، وخداع وتضليل!!

* * *

الفصل الخامس

صراع من أجل قضية الإيمان بالله

والفكر الديني الصحيح حولها

(١)

تحت عنوان «الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني» أثار الناقد (د. صادق جلال العظم) حول الدين عدة موضوعات سماها «مشكلات» ومن هذه الموضوعات عقيدة الإيمان بالله تعالى .

مع أن الملحدين جميعاً في سالف الدهر وحاضره، لم يستطيعوا مجتمعين ولا متفرقين، أن يقدموا أية حجة منطقية أو واقعية مقبولة عند العقلاء تثبت عدم وجود خالق لهذا الكون .

وقد قرأنا ما كتبه هذا الملحد وما كتبه غيره من أساطين الإلحاد، فلم نجد لديهم دليلاً واحداً صحيحاً ينفي وجود الخالق جلّ وعلا، رغم الجهود الكبيرة التي بذلوها للإقناع بمذهبهم، بل لم نجد في كل ما كتبوه دليلاً واحداً يقدم ظناً بعدم وجود الخالق، فضلاً عن تقديم حقيقة علمية في هذا الموضوع، جل ما لديهم محاولات للتشكيك بعالم الغيب، والتزام بأن لا يثبتوا إلا ما شاهدوه من مادة بالوسائل العلمية المادية، وهذا الارتباط بحدود المادة التي لم يشهد العلم حتى العصر الحاضر إلا القليل منها إن هو إلا موقف يشبه موقف الأعمى الذي ينكر وجود الألوان لأنه لا يراها، أو موقف الأصم الذي ينكر وجود الأصوات لأنه لا يسمعها، أو موقف الحمقاء حبيسة القصر التي ترى أن الوجود كله هو هذا القصر الذي تعيش فيه، لأنها لم تشاهد في حياتها غيره .

فما حظ هؤلاء من العلم والأمانة العلمية ومطابقة الحقيقة والواقع؟

كذلك الملحدون لاحظ لهم من العلم والأمانة العلمية ومطابقة الحقيقة والواقع، إذ ينكرون الخالق جلّ وعلا، ويُصرون على إنكاره، وهم لا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجوده .

قد يستخدمون عبارات ضخمة، يستغلون فيها أسماء التقدم العلمي

والصناعي وتطور مفاهيم العصر، والبحوث العلمية في المعامل والمختبرات، للتمويه بها، وتضليل الأذهان المراهقة، مع أن التقدم العلمي والصناعي لم يتوصل بعد إلى قياس شيء من عالم الغيب، بل ما زال عاجزاً حتى الآن عن قياس أمور كثيرة داخلية في العالم المادي، الذي هو مجال كل أنواع التقدم العلمي الذي انتهت إليه النهضة العلمية الحديثة.

فالمعامل والمختبرات والأجهزة العلمية المتقدمة جداً ما زالت عاجزة عن أن تقيس أشياء كثيرة في هذا العالم المادي الذي نشاهد ظواهره، بشهادة كبار العلماء الماديين أنفسهم، وبدليل تجدد المعارف والمكتشفات يوماً بعد يوم، ومتى زعم العلم الإنساني أنه اكتشف كل شيء فقد سقط في الجهل، وأجهز على نفسه بنفسه متتحراً.

يضاف إلى ذلك أن العلماء الماديين من بعد كل دراساتهم ومشاهداتهم وملاحظاتهم المادية يحاولون تفسير ما شاهدوه من ظواهر بنظريات استنتاجية، يقررون فيها حقائق غير مرئية وغير مشاهدة، وهي بالنسبة إليهم وبالنسبة إلى أدواتهم ما زالت أموراً غيبية، ومع ذلك فإنهم يضطرون إلى إقرارها والتسليم بها، ويجعلونها قوانين ثابتة يقولون عنها: إنها قوانين طبيعية.

ومن أمثلة ذلك قانون الجاذبية، إنه قانون غدا من الحقائق العلمية الطبيعية لدى العلماء الماديين. فما هي حقيقة هذه الطاقة؟ هل باستطاعة العلماء أن يشاهدوها بأدواتهم وأن يعرفوا كنهها؟ وكيف أثبتوها؟

ألم يثبتوها بالاستنتاج العقلي استناداً إلى ما شاهدوه من ظواهرها وآثارها؟ هذه هي الحقيقة.

فما بال هؤلاء الملاحدة يسلمون بهذه القوانين الخارجة عن نطاق المشاهدات المادية، وهي بالنسبة إلى حواسهم وإلى الأدوات العلمية المتقدمة أمور غيبية، ثم ينكرون وجود الخالق جل وعلا لمجرد كونه خارجاً عن نطاق الإدراك الحسي، ولا يمكن التوصل إلى إدراكه بالأجهزة العلمية المتقدمة؟

مع أن مئآت الأدلة العقلية والاستنتاجية تثبت ضرورة وجود خالق عظيم لهذا الكون، بيده مقاليد السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير.

أليس هذا من المفارقات التي لا تستقيم مع البحث العلمي والأمانة العلمية؟ إذا لم تصل أدلة الإثبات لديهم إلى مستوى اليقين، ألم ترجح لهم هذه الأدلة احتمال وجود الخالق على عدم وجوده؟ إنها مهما تكن من وجهة نظرهم فهي أقوى حتماً من الاحتمال الآخر الذي هو احتمال النفي، فكيف يأخذون باحتمال النفي دون دليل، ويرفضون احتمال الإثبات ومعه الأدلة الكثيرة، ثم يسعون جاهدين لمحاربة الإيمان بكل ما لديهم من قوة؟

لماذا يعادون من خلقهم كل هذا العدا؟

أهذا جزاء الإنعام والإكرام؟

ألم يتحرك فيهم حس أخلاقي للاعتراف بوجوده؟

ألم ترجف قلوبهم خوفاً من عقابه الذي أعلنه على ألسنة رسله؟

ألم يفترضوا أن يكون الأمر حقاً؟

فبماذا يعتذرون يوم الحساب والجزاء؟

هل يكون عذرهم كافياً ومقبولاً إذا قالوا لربهم يوم الحساب: إنك يا إلهنا

وربنا وخالقنا لم ترينا نفسك حتى نؤمن بك؟

ألا تسقط حجتهم هذه حينما يقول الله لهم: ألم أمنحكم عقولاً تستنبطون بها

وجودي من آياتي التي بثتها في كوني وفي أنفسكم؟ ألم أرسل لكم رسلاً مؤيدين

بالآيات من عندي فأبلغوكم عني؟ فلماذا كذبتموهم؟ إنني لم أضع في كوني أية

حجة تقنع أحداً بعدم وجودي، فلماذا جحدتم وجودي، ولا حجة لكم في ذلك إلا

اتباع الهوى، والاستكبار عن الإيمان بي، والرغبة بالتحرر من أوامري ونواهي

وشريعتي لعبادي؟

عندئذ لا بد أن تسقط حجتهم وينقطعوا، وعندئذ يعلمون علم اليقين أنهم

كانوا في الغرور يتقلبون، وفي جهالتهم وضلاتهم يعمهون، وأنهم كانوا يجحدون

ربهم من غير أن يكون لهم دليل به يعتذرون.

ويومئذ لا تنفعهم أحزابهم، ولا أئمة الشر الذين كانوا يزينون لهم الكفر بالله وجحود آياته.

لست أدري ما هي الثمرة التي يستفيدونها في حياتهم من إنكارهم لخالقهم، حتى يدفعوا بأنفسهم إلى موقع خطر كبير جسيم، يعرضون فيه أنفسهم لشقاء أبدي وعذاب لا ينقطع؟

إن إلحادهم لا يفيدهم شيئاً في حياتهم الدنيا، وما هو إلا مذهب عنادي، فليتحملوا إذن جريرة عنادهم.

(٢)

الحجة الشيطانية ودفعها

أخذ (د. العظم) يردد الحجة الشيطانية القديمة التي تقول في آخر سلسلة التساؤل: ومن خلق الله؟ ثم اختار لنفسه سبيل التسليم بقدّم المادة وأزليتها.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن هذه الوسوسة الشيطانية، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته».

وهذه الوسوسة الشيطانية تنطلق على ألسنة الناس بغية التضليل بها، وقد ذكر الرسول ﷺ هذه الحقيقة أيضاً:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله ورسله».

أما كلام (د. العظم) حول هذه الحجة الشيطانية القديمة فلا يزيد في مضمونه عن مثل هذا التساؤل، مع الاعتراف بالعجز عن تقديم جواب مقنع حول ادعائه أزلية هذا الكون بالنسبة إلى مادته الأولى، ولا يفوته أن يقذف بلهيب حقهده

على خالقه جل وعلا منذ مطلع كلامه، ويغريه بالأمر حلم الله عليه، وعدم وجود سلطة عادلة في الأرض تحاسبه.

يقول — عليه من الله ما يستحق — في الصفحة (٢٨) من كتابه:

«إن قولنا باحتضار الله في المجتمعات المتخلفة يشكل تمثيلاً رمزياً لحالة الثورة والفوران، وفقدان الجذور التي تعانيها هذه المجتمعات في محاولاتها الوصول إلى نوع من التعايش المرحلي بين الأفكار العلمية الجديدة وتطبيقاتها العملية والصناعية، وبين تراثها الديني السحيق، دون أن يتنازل كلياً ومرة واحدة عما في ماضيها من قيم غيبية. لذلك نسمع دائماً أصداً صرخة تقول: حتى لو سلمنا كلياً بالنظرة العلمية للأشياء ستبقى أمامنا مشكلة المصدر الأول لهذا الكون. لنفترض مع (رسل) أن الكون بدأ بسديم، ولكن العلم لا يقول لنا: من أين جاء هذا السديم، إنه لا يبين لنا من أين جاءت هذه المادة الأولى التي تطور منها كل شيء؟ فلا بد للعلم إذن من أن يتصل بالدين في نهاية المطاف. ولكن طرح السؤال بهذه الصورة يبين لنا مدى تحكم تربيتنا الدينية وتراثنا الغيبي في كل تفكيرنا. لنفترض أننا سلمنا بأن الله هو مصدر وجود المادة الأولى، هل يحل ذلك المشكلة؟ هل يجيب هذا الافتراض على سؤالنا عن مصدر السديم الأول؟ والجواب هو طبعاً بالنفي. أنت تسأل عن علة وجود السديم الأول وتجب بأنها الله، وأنا أسألك بدوري وما علة وجود الله؟ وستجيني بأن الله غير معلول الوجود، وهنا أجيئك، ولماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود، وبذلك يُحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات، وإلى كائنات روحية بحثة لا دليل لدينا على وجودها، علماً بأن ميل الفلاسفة القدماء بما فيهم المسلمين كان دائماً نحو هذا الرأي إذ قالوا بقدم العالم، ولكنهم اضطروا للمداورة والمداورة بسبب التعصب الديني ضد هذه النظرة الفلسفية للموضوع^(١). في الواقع علينا أن نعترف بكل

(١) هذا كذب على المسلمين من الفلاسفة، فمن قال من الفلاسفة بقدم العالم فهو ليس من المسلمين.

تواضع بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون. عندما تقول لي: إن الله هو علة وجود المادة الأولى التي يتألف منها الكون، وأسألك بدوري: وما علة وجود الله؟ إن أقصى ما تستطيع الإجابة به: «لا أعرف إلا أن وجود الله غير معلول»^(٢)، ومن جهة أخرى عندما تسألني: وما علة وجود المادة الأولى فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به: «لا أعرف إلا أنها غير معلولة الوجود» في نهاية الأمر اعترف كل منا بجهله حيال المصدر الأول للأشياء. ولكنك اعترفت بذلك بعدي بخطوة واحدة، وأدخلت عناصر غيبية لا لزوم لها لحل المشكلة. والخلاصة، إذا قلنا: إن المادة الأولى قديمة وغير محدثة أو إن الله قديم وغير محدث، نكون قد اعترفنا بأننا لا نعرف ولن نعرف كيف يكون الجواب على مشكلة المصدر الأول للأشياء، فالأفضل إذن أن نعترف بجهلنا صراحة ومباشرة عوضاً عن الاعتراف به بطرق ملتوية وبكلمات وعبارات رنانة. ليس من العيب أن نعترف بجهلنا، لأن الاعتراف الصريح بأننا لا نعرف ما لا نعرفه من أهم مقومات التفكير العلمي، وتعرفون أن العالم ملزم على تعليق الحكم عندما لا تتوفر لديه الأدلة والشواهد والبراهين الكافية لإثبات أولنفي قضية ما. هذا هو الحد الأدنى من متطلبات الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة».

هذا كلام (د. العظم) حرفياً، وعلينا أن نُحلَّله ونكشف للقارئ ما فيه من مغالطات فكرية.

سأتارك كبيرته الأولى التي أطلق فيها على الله الخالق العظيم سبحانه عبارة الاحتضار، وسبقها في كلامه إطلاق عبارة الموت اقتداء بالفيلسوف الملحد (نيتشه) لأن مثل هذه العبارات التي ليس فيها إلا تطاول وحماقة وسخرية لا تدخل في أي مجال أو في أي مستوى من مستويات النقاش العلمي أو البحث المنطقي، ولا جواب لها في الحقيقة إلا صاعقة ربانية، أو أيَّة قاتلة من قوات السماء تعطيه الرد العلمي على تطاوله، ولكن الله تبارك وتعالى حلیم، يمهل كثيراً، حتى إذا أخذ بالعذاب أخذاً كبيراً.

(٢) هذا ليس صحيحاً، فسأني في الرد عليه بما ينقض مغالطته.

وأبدأ بالتركيز على الحجة الشيطانية التي تساءل فيها عن علة وجود المصدر الأول للأشياء، وزعم فيها أن إحالة المؤمنين ذلك على الله تبارك وتعالى يساوي نظرياً وقوف الملحدين عند السديم، الذي اعتبروه المادة الأولى لهذا الكون، وزعم أن كلا الفريقين لا يجد جواباً إلا أن يقول: لا أعرف إلا أن وجود هذا الأصل غير معلول، وزعم أن الملحد اعترف بهذا قبل المؤمن بخطوة واحدة، ثم خادع بأن إعلان الجهل والاعتراف به من متطلبات الأمانة الفكرية حين لا توجد أدلة وشواهد وبراهين كافية.

ولدى البحث المنطقي الهادئ، يتبين لكل ذي فكر صحيح، أن هذه الحجة التي ساقها ليست إلا مغالطة من المغالطات الفكرية، وهذه المغالطة قائمة على التسوية بين أمرين متباينين تبايناً كلياً، ولا يصح التسوية بينهما في الحكم. وفيما يلي تعرية تامة لهذه المغالطة من كل التلبسات التي جللها بها.

فإذا وضعنا هذه المغالطة بعبارتها الصحيحة كانت كالتالي: ما دام الموجود الأزلي غير معلول الوجود فلم لا يكون الموجود الحادث غير معلول الوجود أيضاً؟

وكل ذي فكر صحيح سليم من الخلل يعلم علم اليقين أنه لا يصح أن يُقاس الحادث على القديم الأزلي الذي لا أول له، فلا يصح أن يشتركا بناء على ذلك في حكم واحد.

وعلى هذه الطريقة من القياس الفاسد من أساسه صنع مغالطته الجدلية. والملحدون حين يصنعون مثل هذا الاستدلال الفاسد يسارعون إلى ستر فساد أدلتهم بعبارات التقدم العلمي، والمناهج العلمية، والتقدم الصناعي، والمناهج العقلية في تقصي المعرفة، والاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد، ويخلطون هذه العبارات خلطاً، ويحشرونها في كل مكان ومع كل مناقشة، تمويهاً وتضليلاً، كأن التقدم العلمي والصناعي للإلحاد وحده، وليس للإيمان، مع أن الدنيا جميعها وما فيها من ماديات قد كانت وما زالت ولن تزال حتى تقوم الساعة للمؤمنين والكافرين وغيرهم على سواء، ضمن سنن الله الشابتة التي لا تتغير، وهي مجال

مفتوح لكل الناس، إذ يمتحن الله بها إراداتهم وسلوكهم في الحياة، ليلوهم أيهم أحسن عملاً.

فيإذا قال الملحد: ولم لا تكون المادة الأولى لهذا الكون (كالسديم مثلاً) قديمة أزلية غير حادثة، تنطلق منها التحولات ثم ترجع إليها التحولات؟ فإن جوابه يأخذه من هذا الكون نفسه، وما فيه من صفات وخصائص.

إن هذا الكون يحمل دائماً وباستمرار صفات حدوثه، تشهد بهذه الحقيقة النظرات العقلية المستندة إلى المشاهدات الحسية، وتشهد بها أيضاً البحوث العلمية المختلفة في كل مجال من مجالات المعرفة، والقوانين العلمية التي توصل إليها العلماء الماديون.

وإذا ثبت أن هذا الكون حادث له بداية وله نهاية كان لا بد له من علة تسبب له هذا الحدوث، لاستحالة تحول العدم بنفسه إلى وجود، أما ما لا يحمل في ذاته صفات تدل على حدوثه فوجوده هو الأصل، ولذلك فهو لا يحتاج أصلاً إلى موجد يوجده، وكل تساؤل عن سبب وجوده تساؤل باطل منطقياً، لأنه أزلي واجب الوجود، وليس حادثاً حتى يُسأل عن سبب وجوده.

ولو كانت صفات الكون تقتضي أزليته لقلنا فيه كذلك، لكن صفات الكون المشاهدة والمدروسة تثبت حدوثه.

وهنا تكمن مغالطة الملحد، إذ أراد أن يجعل الكون أزلياً، مع أن البراهين تثبت أنه حادث، وذلك ليتخلص من الضرورة العقلية التي تلزم بالإيمان بوجود خالق لهذا الكون الحادث، لأن الحدوث من العدم المطلق دون سبب موجود سابق عليه مستحيل عقلاً.

أما البرهان على أن هذا الكون حادث وليس بأزلي فتقدمه لنا الأدلة العقلية الفلسفية القديمة، والقوانين العلمية الحديثة.

فالأدلة العقلية الفلسفية تثبت لنا حدوث العالم من ظاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه، وذلك لأن التغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات، وهذا

الحدوث لا بد له من علة، وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى، سنصل حتماً إلى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية، في صفاته وأعراضه، وفي ذاته ومادته الأولى، وحينما نصل إلى هذه الحقيقة لا بد أن نقرر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخالق هو الذي خلق هذا الكون وأمهده بالصفات التي هو عليها.

وحيث لا يُسلم بمثل هذه الأدلة الفلسفية العقلية طائفة المفتونين بالعلوم الحديثة وقوانينها ومنجزاتها، فإننا نأتيهم بأدلة من هذه العلوم وقوانينها تثبت حدوث هذا الكون.

اكتشف العلم الحديث القانون الثاني للحرارة الديناميكية، وهو القانون الذي يسمونه (قانون الطاقة المتاحة) أو يسمونه (ضابط التغير).

وهذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً، إذ هو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل، وتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبذلك تنتهي الحياة.

يذكر هذا التحقيق العلمي عالم أمريكي في علم الحيوان، هو (إدوارد لوثر كيسل) ثم يقول:

«وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول الخالق الإله».

ونجد مثل هذا في كلام (السير جيمس) إذ يقول في كلام له:

«تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها، إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حدثت

عملية في الكون يمكن أن نسميها (خلقاً في وقتٍ ما) حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً».

فحدث هذا الكون أمر معترف به عند العلماء الماديين، ولكن الملحدين بالله يغالطون في الحقائق، ويتظاهرون بالانتماء إلى قافلة العلم والبحث العلمي زوراً وبهتاناً، ليحتموا بحماها.

ورغم هذه الحقيقة التي ثبت بها حدوث الكون لدى العلماء الماديين نرى الناقد (العظم) يحاول أن يسوّي بين الله والكون المادي في موضوع الأزلية، ليتوصل من ذلك إلى التمويه بأن الكون أزلي أو لا ندري علة وجوده، كما أن المؤمنين بالله يرون أن الله أزلي، أو لا يدرون علة وجود الله.

ومن هذا نلاحظ أنه أقام كلامه على المغالطة، إذ سوّى في الحكم بين الحادث والأزلي، فزعم أن الحادث أزلي أو أن الأزلي حادث، مع أن العلم والعقل يكذبانه ويعريان مغالطته.

على أن ادّعاءه أن المؤمن بالله لا يدري علة وجود الله مغالطة في الحقيقة أيضاً.

فمن أصله الوجود، ووجود أزلي، فإنه لا يحتاج إلى علة لوجوده، إذ السؤال عن هذه العلة أمر مخالف للمنطق السليم، أو عبث من العبث، أو مغالطة قائمة على الإيهام بأنه حادث غير أزلي.

وهنا يطرح الملحدون على عوام المسلمين مغالطة في سوق الدليل على وجود الله، فيقولون لهم: ألستم تقولون: إن كل موجود لا بد له من موجود، وإن هذا الكون موجود فلا بد له من موجود، وذلك هو الله تعالى؟

فيقول له العامي الذي لا يعرف أصول المغالطات: بلى. عندئذ يستدرجه الملحّد فيقول له: الله موجود وهو على حسب الدليل لا بد له من موجود، فيجد العامي نفسه قد انقطع إذ لم يستطع جواباً.

لكن الخبير لا يقبل أصلاً صيغة الدليل على هذا الوجه القائم على المغالطة.

وذلك لأن المقدمة (كل موجود لا بد له من موجد) مقدمة كاذبة غير صحيحة، فالخبير لا يسلم بها لفسادها، وإنما يقول بدلها: (كل موجود حادث لم يكن ثم كان لا بد له من محدث)، ثم يقول: (وهذا الكون موجود حادث لم يكن ثم كان بشهادة العقل وبشهادة البحوث العلمية) عندئذٍ تتحصل النتيجة على الوجه التالي: (إذن فلا بد لهذا الكون من محدث)، وهذا المحدث للكون لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غير حادث، ولا بد أن يكون منزهاً عن كل الصفات التي يلزم منها حدوثه، حتى لا يحتاج إلى موجد يوجده، بمقتضى الدليل الذي أثبتنا فيه وجود الله.

فمغالطة الملحد في المقدمة التي أوهم بها قائمة على التعميم، إذ وضع (كل موجود) بدل (كل موجود حادث)، ومعلوم أن عبارة (موجود) تشمل الموجود الأزلي والموجود الحادث.

وهكذا تجري مغالطات الملحد، ليتصيدوا بها الجهلة والغافلين من المسلمين، بغية استدراجهم وإحراجهم، ونقلهم من مرحلة الإيمان إلى مرحلة التشكك.

فالمؤمن إذن يعلم أن الخالق موجود أزلي ليس له من الصفات ما يلزم منها حدوثه، ووجوده هو الأصل، فلا يسأل عن علة وجوده عند العقلاء أصلاً، والسؤال عن علة وجوده أمر مخالف للحقيقة العلمية المنطقية التي انتهينا إليها.

وكما لا يُسأل عما أصله العدم: ما هي علة عدمه؟ لأن مثل هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله الوجود، وهذا يناقض أن أصله العدم، كذلك ما أصله الوجود لا يُسأل عن علة وجوده ولا يبحث عنها، لأن أي سؤال أو بحث عنها لا يكون إلا على افتراض أن أصله العدم، وبهذه العلة تحول من العدم إلى الوجود، لكن هذا الافتراض مرفوض ابتداءً، باعتبار أن أصله الوجود.

وبهذا يتضح لنا تماماً أنه لا يُسأل ولا يبحث عن علة وجود ما الأصل فيه الوجود.

وبهذا أيضاً تسقط المغالطة التي طرحها الملحد في مناقشته، ويظهر فساد

تسويته بين الكون الحادث وبين الخالق الأزلي . وحينما نطالبه بعلة وجود الحادث وهو الكون فليس من حقه المنطقي أن يطالبنا بعلة وجود الله الأزلي .

وليس من حق الملحد أن ينكر الوجود الأزلي كله ما دام الواقع يكذبه ، والبراهين العلمية تهزأ به ، لأنه لو لم يكن في الوجود موجود أزلي لاستحال أن يوجد شيء في هذا الكون ، لأن الافتراض على هذا يقوم على أساس العدم المطلق .

وهل يتحول العدم المطلق بنفسه إلى وجود؟

هذا من المستحيلات البديهية ، ولا يقبله عقل فيه مثقال ذرة من تفكير منطقي سليم .

إن هذا الكون الذي نحن جزء منه موجود حادث ذو بداية ، وكل ذي بداية لا بد له من علة كانت السبب في وجوده ، وإيجاده قد كان عملية من عمليات الخلق ، وعملية الخلق إنما تتم بخالق قادر ، وهذا الخالق القادر لا بد أن يكون أزلياً ، ولا بد أن يكون متحلياً بالكمال المطلق ، هذه هي عقيدة المؤمنين بالله .

وهكذا وضحت لنا مغالطات العظم في هذا المجال .

فأين الأمانة الفكرية التي يغار عليها؟

هل هذا هو المنهج العلمي المتقدم؟ أفي المناهج العلمية المتقدمة بناء الأحكام على المغالطات والأكاذيب؟

ولكن ماذا يفعل المبطلون غير هذا لدعم باطلهم؟

(٣)

جند الناقد (د. العظم) كل ما لديه ولدى سادته من أفكار ومغالطات ، ليثبت وجود التناقض بين الدين والعلم ، وليعتبر هذا التناقض حقيقة مقررة ، بغية التوصل من ذلك إلى إنكار الدين كله ، باعتباره مناقضاً للعلم حسب فريته القائمة على المغالطات والتمويهات .

قال في الصفحة (٢٥) من كتابه :

«ولنلمس طبيعة هذا الفارق بين النظرة الدينية القديمة وبين النظرة العلمية التي حلت محلها، سنوجه انتباهنا إلى مثال محدد يبين بجلاء كيف يقودنا البحث العلمي إلى قناعات وتعليلات تتنافى مع المعتقدات والتعليلات الدينية السائدة، مما يضطرنا إلى الاختيار بينها اختياراً حاسماً ونهائياً».

ثم أتى بالمثل الذي زعم أنه يدعم كلامه فقال:
«لا شك أن القارئ يعرف التعليل الإسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشأته ومصيره:

خلق الله هذا الكون في فترة معينة من الزمن، بقوله: كن فكان، ولا شك أنه يذكر حادثة طرد آدم وحواء من الجنة، تلك الحادثة التي بدأ بها تاريخ الإنسان على هذه الأرض. ومن صلب المعتقدات الدينية أن الله يرعى مخلوقاته بعنايته وهو يسمع صلواتنا وأحياناً يستجيب لدعائنا، ويتدخل من وقت لآخر في نظام الطبيعة فتكون المعجزات، أما الطبيعة فقد حافظت على سماتها الأساسية منذ أن خلقها الله، أي: إنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها».

ثم يقول في معارضة ما جاء في الدين:
«أما النظرة العلمية حول الموضوع ذاته فلا تعترف بالخلق من لا شيء، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منذ البداية كما هي عليه الآن».

في هذا الكلام الذي أورده كذب على الدين، ومغالطة في الحقيقة، وتمويهات بذكر بعض أمور هي من الدين، أوردها ليغشي بها على نظر القارئ، فلا يبصر مواطن الافتراءات، ومزالق المغالطات.

لقد أدخل فكرة لا يعترف بها الدين أصلاً، ضمن عرضه لطائفة من المفاهيم والعقائد الدينية الصحيحة، ليضلل القارئ بالإيهام الذي اصطنعه له، وليجعله يعتقد أن هذه الفكرة الدخيلة هي فعلاً من المفاهيم الدينية، ما دامت قد وردت ضمن مجموعة مفاهيم صحيحة يعرفها هو عن الدين.

لقد زعم أن الإسلام يرى أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها

الله، أي: إنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها.

مع أن هذا افتراء صريح على الدين، تكذبه النصوص القرآنية، ولست أدري من أين جاء بهذه المفاهيم فالصقها بالدين؟

لما تحدث القرآن عن فئة الحيوانات التي خلقها الله لركوب الإنسان، وليتخذها زينة له، ألحقها بقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع التي تدل على الحال والاستقبال، للدلالة على أن عمليات التجديد في الخلق الرباني للأشياء مستمرة غير منقطعة، قال الله تبارك وتعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٤) ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

أليس في هذا إعلان صريح مخالف لما زعم (د. العظم) من أن الدين يقرر أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله.

وبالنسبة إلى الأجرام السماوية لا نجد في النصوص الإسلامية ما يدل على هذا الذي افتراه (العظم) على المفاهيم الإسلامية، بل في النصوص ما يدل على خلاف ذلك، قال الله تعالى في سورة (الذاريات / ٥١ مصحف / ٦٧ نزول):

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَافًى بُرًى وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧).

فكلمة (موسعون) في الآية تشير إلى أعمال التوسعة المتجددة في السماء، وذلك لأن هذه الكلمة من صيغ اسم الفاعل، وصيغة اسم الفاعل بقوة المضارع من جهة الدلالة، هي للتعبير عن الحال أولاً ثم عن الاستقبال.

أفلا نجد أن الأمانة الفكرية التي تظاهر (د. العظم) بالغيرة عليها ذبيحة بسكين غديره، وختلة ومخادعته، ومغالطاته، وافتراءاته؟ ومثله سائر الملحدين.

لقد غدا معروفاً تماماً أنهم يطلقون بعض العبارات الشريفة للتضليل فقط، وهم لا يلتزمون أي مضمون من مضامينها الصحيحة.

أما قوله: إن النظرة العلمية لا تعترف بالخلق من لا شيء.

فهو يُشيرُ بهذا إلى نظرية (لافوازيه) التي تقول: لا يخلق شيء من العدم المطلق ولا يعدم شيء وإنما هي تحولات من مادة لطاقة، أو من طاقة لمادة، أو من مادة لمادة.

وحين ندقق النظر في أصول ما قرره (لافوازيه) نجد أنها تتحدث عن مجال معين ذي أبعاد، وليس في استطاعتها أن تتحدث عن كل الوجود في كل أبعاده من الأزل إلى الأبد، فهذا أمر لا تستطيع تقريره أية نظرية استقرائية مهما بلغ شأنها، إلا أن يكون كلامها رجماً بالغيب، وتكهناً لا سند له، وطرحاً تخيلياً محضاً.

وأبعاد نظرية (لافوازيه) هذه ثلاثة:

الأول: البعد الزمني.

الثاني: البعد المكاني.

الثالث: البعد الإدراكي.

وهنا نتساءل: هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في كل الأزمان، بما فيها الأزمان السحيقة في القدم، وعرفوا منها أنه لم يخلق في الأزمان القديمة جداً شيء من العدم؟

والجواب: أنهم لم يفعلوا ذلك لأنه لا يتسنى لهم بحال من الأحوال، وهم أبناء النهضة العلمية الحديثة، على أن الأدلة العلمية التي سبق بيانها قد أثبتت أن لهذا الكون بداية، وهذا يعني أنه لم يكن ثم كان، فهو إذن مخلوق من العدم، بقدرة خالق موجود أزلي.

فهذه النظرية لا تتحدث عن الانطلاقة الأولى للكون، لأن أيّاً من الأجهزة

العلمية لا تستطيع أن تسترجع الأزمان السحيقة وترصد الكون فيها، وكذلك لا تستطيع النظرات التحليلية الاستنتاجية أن تحكم على ماضي الكون وانطلاقته الأولى، بالقياس على واقعه النظامي الذي نشاهده في الحاضر، لاحتمال الاختلاف البين بين نقطة البدء وبين ما يأتي بعدها من حالات نظامية مستمرة.

فنظرية (لافوازيه) لا تتناول بحال من الأحوال الزمن الأول لبداية الكون، ومجالها يأتي في الأزمان التي يترجح فيها قيام النظام الكوني الذي درسته هذه النظرية، وبهذا يتبين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان الماضي غير صحيح.

ثم نتساءل ثانياً: هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في مستقبل ما يأتي من الأزمان، وثبت لهم من رصدهم أنه لا يمكن أن يخلق شيء من العدم، ولا يمكن أن يعدم شيء موجود؟

ولكن كيف يتسنى لهم رصد المستقبل وهم لا يملكون استقدامه؟ جل ما يملكونه قياس المستقبل على الحاضر والماضي، بشرط استمرار نظام الكون القائم، ولا يستطيعون أن يحكموا على الكون بأنه لا يمكن أن يتغير نظامه الكلي، فتأتي حالة من الحالات يسمي فيها عدماً، أو تنعدم بعض أجزاء منه، أو تضاف إليه أجزاء لم تكن هيئتها ولا مادتها فيه، فهذا حكم لا سبيل إليه، إنه حكم على مجهول، والحكم على المجهول باطل.

فنظرية (لافوازيه) تنطبق على هذا الكون بشرط استمرار نظامه القائم، وهي لا تحكم على المستقبل حكماً قاطعاً باستحالة تغير هذا النظام، ولكن ما دام هذا النظام الكوني قائماً، فإن ضابطه أن جميع ما يجري من مدركات فيه إنما هو من قبيل التحولات، وبهذا يتبين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان المستقبل غير صحيح.

هذا ما يتعلق بتحديد البعد الزمني للنظرية، أما تحديد البعد المكاني لها فنقول فيه:

هل رصد واضعو هذه النظرية ومقرروها هذا الكون في كل أبعاده المكانية؟

ألا يحتمل وجود مكان سحيق فيه لم يرصدوه ولم يعرفوا ما فيه؟
أفيحكمون عليه إذن حكماً غائبياً قياساً على ما رصدوه منه في الأمكنة التي
استطاعت أن تبلغ إلى مداها أجهزتهم وملاحظاتهم؟

إن هذا الحكم الغيابي مع جهالة الخصائص والصفات حكم باطل، وهذا
طبعاً لا يعني ضرورة مخالفة الغائب للحاضر، ولكن لا يعني أيضاً لزوم موافقته.

فلا بد إذن من تحديد مكان النظرية بالأبعاد المكانية التي كانت مجال
الملاحظة والقياس بالأجهزة، مع التجاوز بصحة قياس ما شابهها عليها، مما
لم يخضع للملاحظة المباشرة.

وهكذا يظهر لنا تحديد البعد المكاني لهذه النظرية، وهو أمر تقتضيه الدراسة
المنطقية الحيادية، وتوجهه الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة،
وهذا هو الأمر الذي يتظاهر (د. العظم) بالتحمس له، وبالغيرة عليه.

أما تحديد البعد الإدراكي للنظرية فيتلخص بأن النظرية قد اعتمدت على
ملاحظة عالم الشهادة من الكون المنظور المدرك، أما عالم الغيب الذي لا تصل
إليه الإدراكات الإنسانية المباشرة أو عن طريق الأجهزة، فهو عالم خارج بطبيعته عن
مجال النظرية، لذلك فإنها لا تستطيع أن تحكم عليه، لأن حكمها عليه هو من قبيل
الحكم على الغائب المجهول في ذاته وفي صفاته. جُلُّ ما تستطيعه النظريات في
هذا المجال هي أن تعلق أحكامها تعليقاً كلياً، أو تصدر أحكاماً مشروطة احتمالية
غير جازمة، وهذا ما تقتضيه الدراسة العلمية المنطقية الحيادية، وتوجهه الأمانة
الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة.

وهكذا ظهر لنا أن نظرية (لافوازييه) لم تتناول من الكون إلا مقطعاً محدود
الأبعاد الثلاثة: البعد الزمني، والبعد المكاني، والبعد الإدراكي، وهذا المقطع هو
مجال ملاحظتها.

يضاف إلى كل ذلك أن وجود الحياة في المادة لم يقتصر بأي دليل تجريبي
يثبت تحول المادة غير الحية إلى مادة حية، عن طريق التولد الذاتي، رغم كل
التجارب العلمية التي قامت في عالم البحث العلمي حتى الآن.

لذلك نلاحظ أن الآراء العلمية في هذا المجال ترجع إلى أصول ثلاثة كبرى^(١):

● الرأي الأول منها:

ما قرره (أغاسين) في كتابه «تصنيف العضويات» سنة (١٨٥٨م) إذ قرر أن كل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقة، و (باستور) مكتشف جراثيم الأمراض على هذا الرأي.

والقائلون بهذا الرأي قد استقر مذهبهم على «أن كل حي لا بد أن يتولد من حي مثله».

● الرأي الثاني:

الرأي الذي قال به (هيرمان أبير هارد ريختر) إذ رأى أن الفراغ الذي نراه مملوءاً بجراثيم الصور الحية، كالجواهر الفردة التي تتكون منها المادة الصماء، كلاهما في تجدد مستمر، ولا يتطرق لهما العدم، وبنى قاعدته في أصل الحياة على «أن كل حي أبدي، ولا يتولد إلا من خلية».

وهذا الرأي يتضمن أن تطورات المادة من المادة، وتطورات الحياة من الحياة.

● الرأي الثالث:

هو ما ذهب إليه الماديون من أن الحياة نشأت من المادة بالتولد الذاتي. وليس لهذا الرأي أي شاهد تجريبي، أو مستند عقلي، وقال بهذا الرأي الدكتور (باستيان) في إنكلترا، والأستاذ (هيجل) في ألمانيا.

بعد هذه النظرات العلمية المنطقية لنظرية (لافوازييه) وما يتعلق بها، يعترضنا سؤال حول النصوص الدينية، إذ نجد فيها استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها بالنسبة إلى الأحداث والتغيرات التي توجد داخل مجال النظرية المذكورة، ودخل المقطع

(١) عن (إسماعيل مظهر) في مقدمته لكتاب «أصل الأنواع»، تأليف (تشارلز داروين).

المحدود الأبعاد الثلاثة الذي هو محل تطبيقها، أفلا يعتبر استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في مجال تطبيق نظرية (لافوازيه) مناقضاً أو معارضاً لمضمون هذه النظرية؟

وأمام هذا السؤال لا بد من الرجوع إلى استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في اللغة العربية وفي نصوص الشريعة الإسلامية .

ولقد رجعنا فوجدنا أن هذه المادة اللغوية لا تعني دائماً الإيجاد من العدم المطلق، بل كثيراً ما تستعمل مرادفاً منها التحويل في الصفات والعناصر التركيبية من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن هيئة إلى هيئة، ومن خصائص إلى خصائص، دون زيادة شيء على المادة الأولى من العدم المطلق، وفي حدود هذا الاستعمال نجد قول الله تعالى في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

ففي كل صور الخلق هذه نشاهد عمليات التحويل من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن خصائص إلى خصائص، وقد أطلق على هذه التحويلات أنها خلق، باعتبار أن القدرة الربانية هي المتصرف في كل هذه التحويلات .

وجاء في القرآن إطلاق الخلق على تغيير هيئة الطين وجعله على صورة طير، نظراً إلى أن الخلق لا يستدعي دائماً أن يكون إيجاداً من العدم، وذلك في قول الله لعيسى عليه السلام كما جاء في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي... ﴿١١٠﴾﴾ .

وبما أن كل التغييرات الكونية إنما تجري بإرادة الله وقدرته، فهي ظواهر لأعمال الخلق التي يقوم بها جلّ وعلا .

فعلى التسليم الكامل بنظرية (لافوازيه) ضمن حدودها، لا نجد تعارضاً بينها وبين المفاهيم الدينية التي دلت عليها النصوص الصحيحة الصريحة.

لكن مثل هذه الحقائق لا تسر الملحدين، لأنهم حريصون جداً على أن يظفروا بتناقض ما بين العلم والدين، حتى يتخذوا ذلك ذريعة لنقض الدين من أساسه.

ولن يظفروا مهما أجهدوا نفوسهم، وستبوء كل مساعيهم بالفشل والخيبة، لأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد، عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

(٤)

مغالطة بطمس الشهادات المؤمنة للعلماء الماديين

طمس الناقد (د. العظم) كل شهادة مؤمنة قالها عالم من علماء النهضة العلمية الحديثة، ولم يعرض من أقوال هؤلاء على كثرتهم إلا شيئاً مما جاء في مقال الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس) الذي كتبه تحت عنوان «إرادة الاعتقاد».

وذلك لأن هذا الرجل يرى في مقاله أن البينات العلمية والأدلة العقلية غير كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجوده، لذلك يحق للإنسان أن يتخذ موقفاً من هذه المعضلة يتناسب مع عواطفه ومشاعره.

لقد رآه (د. العظم) أضعف المتجهين إلى جانب الإيمان بالله والمستدلين له، فاستشهد بكلامه، ليجعله الممثل الوحيد لفئة المؤمنين، في الحوار المغلق الذي رتب بنفسه فصوله كما راق له، لينصر قضية الإلحاد بالله، وليوهم أن ما قاله (جيمس) هو أقصى ما يحتج به المؤمنون.

وإمعاناً في التضييل يصور للقارئ أن كل ثقل العلم الحديث يخدم قضية الإلحاد، مع أن العلم الحديث كله لا يملك دليلاً صحيحاً واحداً يستطيع أن يثبت عدم وجود خالق مبدع لهذا الكون.

ويستشهد بقطعة أدبية للفيلسوف الإنكليزي (برتراند رسل) تحت عنوان: «عبادة الإنسان الحر»، إذ يصور فيها تفسيرات الملحدين لنشأة الكون وتطوره، ونشأة الحياة وتطورها، وأصل الإنسان ونشأته وتطوره، ونشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها، وينكر الآخرة وما فيها من إقامة العدل الإلهي، إذ يصور أن الكون بدأ من السديم وهو إلى السديم يعود.

وفي غضون كلامه يعتبر من الحقائق العلمية المسلّم بها نظرية (ماركس) في الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ، ونظرية (فرويد) في السلوك الإنساني والتفسير الجنسي، ونظرية (داروين) في أصل الأنواع، ويمجد هؤلاء الثلاثة، وهو يعلم أن ماركس وفرويد يهوديان وأن معظم ما قدماه من أفكار إنما كان لخدمة اليهودية العالمية، ومحاربة الدين، وأن القيادات اليهودية قد دُعمت الدارونية وعملت على نشرها والدعاية لها لارتباط أهدافها السياسية بنشر الإلحاد، ولقد أسقطت التجارب والعلوم بحمد الله أفكار ماركس، وفرويد، وداروين.

ويعيب على بعض المدافعين عن الدين بأنهم يقدمون أقوالاً تقريرية غير مقترنة بأدلتها، ويأتي هو لدعم مذهبه الإلحادي بقصة أدبية كتبها الملحدين الإنكليزي (برتراند رسل) ويعتبر هذه القصة هي السند الأمثل للتحقيق العلمي في قصة الخليفة.

وهل أصبحت هذه القطعة الأدبية هي التحقيق العلمي العظيم لقصة الوجود كله، التي بدأت بالسديم وستنتهي إلى السديم، وفق النظرات التي يرجحها أصحابها دون مستندات علمية صحيحة، ودون براهين معتبرة وفق المنهج العلمي السليم؟

أني لواضعي هذه النظرية أن يشهدوا بداية الكون؟ وكيف يتسنى لهم مشاهدة نهايته؟

يرى كاتب القصة أن السديم الحار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى، ثم نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة بطريق المصادفة، وأن اصطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون يعود به كل شيء إلى سديم كما كان أولاً.

ويعلق (د. العظم) على هذه القصة الخيالية التي سماها قطعة أدبية جميلة، فيقول في الصفحة (٢٦).

«هذا المقطع الذي كتبه (رسل) يلخص لنا بكل بساطة النظرة العلمية الطبيعية للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره، نشوء الحياة وتطورها، أصل الإنسان ونشأته وتطوره، نشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها، وأخيراً يشدد على أن النهاية الحتمية لجميع الأشياء هي الفناء والعدم، ولا أمل لكائن بعدها بشيء، إنه من السديم وإلى السديم يعود».

وهكذا وبكل بساطة يعتبر (العظم) هذه الأمور حقائق مقررة مسلماً بها علمياً، دون أن تقترن بأي إثبات لها، أهذا هو مستوى الأمانة الفكرية عنده؟ أهذا هو المنهج العلمي السليم؟

ما أبعد المناهج العلمية عن القصص التقريرية، التي تنسجها أخيلة الكتاب والأدباء والشعراء، أو أخيلة واضعي النظريات لأغراض معينة!!

ثم استشهد (د. العظم) بكلام آخر قاله (رسل) فقال في الصفحة (٢٧):

«وفي مناسبة أخرى عندما سئل (رسل): هل يحيا الإنسان بعد الموت؟ أجاب بالنفي، وشرح جوابه بقوله: عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكز أو أساس علمي».

أهكذا ترفض الحقيقة التي جاء بيانها بالأخبار الصادقة عن الله، بمجرد الاستبعاد؟

حينما يسمع المؤمن بالإسلام جواب هذا الفيلسوف الإنكليزي عن الحياة بعد الموت، فلا بد أن تسترجع ذاكرته الجواب الجاهلي الذي كان يجب به كفار العرب البدائيون، إذ قالوا كما حدثنا القرآن عنهم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿أَمْ دَامَتُنَا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلِكُمْ رَجَعُ يَعِيدُ﴾.

وجوابهم الآخر الذي جاء في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وهنا يبدو لنا بوضوح أن الإنكار هو الذي لا يركز على أساس علمي، إنما يعتمد على مجرد التقرير للنفي، أو استبعاد فكرة البعث بإطلاق عبارات التعجب.

على أن الإيمان بالحياة بعد الموت للحساب والجزاء لا بد أن يعتمد على أساس الإيمان بالله، فإثارة هذه العقيدة دون أساس الإيمان بالله هي من قبيل الاشتغال بالفروع قبل الاتفاق على الأصول، وهذا لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة، فإذا تم التسليم بعقيدة الإيمان بالخالق جلّ وعلا جاء من بعدها عرض أدلة البعث.

وعندئذ يمكن أن تأتي الأدلة العقلية التي نبّه القرآن عليها، منها قول الله تعالى في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩).

وحين قلت: إن (العظم) في الحوار المغلق الذي صنعه قد جعل الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس) هو الممثل الوحيد للمؤمنين من علماء النهضة العلمية الحديثة، إذ رأى حجته أضعف حجج المتجهين إلى جانب الإيمان بالله، ليوهم أن ما قاله (جيمس) هو أقصى ما يحتج به المؤمنون، فإني قلت هذا وفي جعبتي أقوال كثيرة مؤمنة قالها عدد كبير من علماء النهضة العلمية الحديثة، وهي تشمل على أدلة وقرائن علمية، جعلتهم يؤمنون بالله خالق هذا الكون.

وفيما يلي عرض لطائفة من أقوال هؤلاء العلماء وشهاداتهم العلمية، أكشف بها للمخدوعين من أبناء هذه الأمة وقائع التزوير والمغالطات التي يصطنعها الملحدون الأجراء.

وهذه الشهادات من أقوال علماء النهضة العلمية الحديثة تكشف عن الأسباب العلمية التي جعلتهم يؤمنون بالله :

(أ) يقول البروفيسور (إيدوين كونكلين) :
«إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخيم نتيجة انفجار يقع في مطبعة على سبيل المصادفة» .
أي : لا يمكن للمصادفة أن توجد هذا الكون ذا النظام المتقن الرائع ، إذن فلا بد له من خالق خلقه وأتقنه .

(ب) ويقول عالم الطبيعة الأمريكي (جورج إيرل ديفيس) :
«لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وهكذا ننهي إلى التسليم بوجود (الإله) ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيبياً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد! إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعات» .

فهذا العالم الأمريكي من علماء الطبيعة يرى أن نظرات الملحدين هي من قبيل الخزعات، أو الخرافات التي ليس لها سند علمي ولا سند عقلي، وهذا هو شأن كل عالم منصف محايد.

(ج) ولنسمع إلى رد (كريسي موريسن) الذي كان رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك على الملحد (هيغل) إذ قال هذا الملحد متبجحاً: «إيتوني بالهواء وبالماء، وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان» .

أي : إن الإنسان كان نتيجة اجتماع عناصر خاصة على كيفية خاصة على سبيل المصادفة . فرد عليه (موريسن) بقوله :

«إن (هيغل) يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها،

ثم سيخلق (الجينات) أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة، ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا لا يعدو واحداً على عدة بلايين، ولو افترضنا أن (هيگل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها مصادفة، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته.

وهكذا أظهر هذا العالم سخافة أقوال (هيگل) عن طريق الاستدلال العلمي.

فالاستناد إلى فرضية المصادفة في تعليل وجود الكائنات المتقنة المنظمة لون من التخريف الفكري، القائم على إرادة التضليل فحسب، وليس مذهباً فكرياً تحيط به شبهات تزينه في عقول القائلين به، وهذا ما تدل عليه الشهادات العلمية المنصفة المحايدة، منها هذه الأقوال، ومنها أقوال أخرى ستطلع على طائفة منها فيما يأتي :

(د) وقال عالم الأعضاء الأمريكي (مارلين ب. كريدنر):

«إن الإمكان الرياضي في توافر العلل اللازمة للخلق عن طريق المصادفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء».

أي: إن احتمال المصادفة احتمال مرفوض رياضياً في تعليل عمليات الخلق المتقن المنظم.

(هـ) ويقول أحد علماء الطبيعة:

«إن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق، والقول بأنها حدثت (اتفاقاً) إنما يعتبر تحدياً وتصادماً مع الرياضيات».

(و) إن تعليقات نشأة الكون وتكامله بنظرية النشوء والارتقاء، إنما يلجأ إليها بعض العلماء الماديين هرباً من الاعتراف بالحقيقة الإلهية الكبرى، ولا يؤمنون بهذه النظرية اعتقاداً منهم بأنها حقيقة ثابتة مؤيدة بالبراهين القاطعة، وإنما يلجؤون إليها لأنه لا يوجد أي بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة.

ويشهد لهذا ما كتبه (سير آرثر كيث)، إذ يقول:

«إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان،

ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاص المباشر) وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه» .

(ز) ويقول عالم بريطانيا الكبير (سير جيمس جينز) الذي يعتبر أكبر علماء العصر الحديث، في كتابه الشهير «عالم الأسرار» :

«إن في عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق» .

(ح) وذكر (ويتكر شامبرز) في كتابه «الشهادة» حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته .

ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره، فأخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأذن بمحض اتفاق، بل لا بد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة. لكن (ويتكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر أن يؤمن — منطقياً — بالذات التي أرادت فدبرت، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

وهو مظهر من مظاهر التعصب المادي .

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديور باركس) بعد أن ذكر هذا الحادث :

«إنني أعرف عدداً كبيراً من أساتذتي في الجامعة ومن رفقاائي العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر، وهم يقومون بعمليات كيميائية وطبيعية في المعامل»^(١) .

ومن هذا يظهر لنا أن التعصب داء دوي صارف عن الحق، وأخطره وأقبحه ما يحمل صبغة العلم، ويتحلى بأثواب المعرفة .

(ط) وجاء في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء الأمريكيين، في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون

(١) هذه الأقوال من (أ) إلى (ح) مقتبسة من كتاب «الإسلام يتحدى»، تأليف: وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق: دكتور عبد الصبور شاهين .

السائدة في هذا العصر الحديث، وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جلّ وعلا، عن طريق ما وَعَوَهُ من الأدلة الكثيرة المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وفي هذا الكتاب يطلع القارئ على نوع من الأدلة العلمية، التي تفرض سلطانها على العلماء الماديين، من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية، فتجعلهم يؤمنون بالله، ويجد فيه أيضاً الرد الكافي على مروجي الإلحاد، الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الإيمان بالله، وأن جميع أو معظم العلماء الكونيين ملحدون.

ونلخص فيما يلي أبرز ما في هذه المقالات وأجوده:

١ - المقالة الأولى:

كتبها (فرانك ألن)، عالم الطبيعة البيولوجية، تحت عنوان: «نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟».

وقد جاء فيها قوله:

«إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟

هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال:

١ - فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهذا يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود.

٢ - وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وهذا مرفوض بداهة.

٣ - وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ليس لنشأته بداية، وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة إلى أزلية الخالق، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الأحداث، ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظم البديع إلى المصادفة عقلاً، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضاً.

٤ — وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض، وليس يرد على إثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلاً، فوجب الاعتماد عليه».

ولا بد أن يلاحظ القارئ أن استدلال هذا العالم القائم على الحصر العقلي هو في غاية القوة، فكيف يورط الملحدون أنفسهم، فينكرون وجود الله بعد أن أقام لهم سبحانه كل هذه الأدلة والشواهد على وجوده سبحانه؟ ألا يضعون في حسابهم احتمال صدق أخبار الرسل، وبها يعرضون أنفسهم للعذاب الخالد، دون أن يجنوا في مقابل ذلك أي ربح؟.

ولكنها مواقف المعاندين، يرون الحقائق، ويرون مواقع العذاب، وتشتد عليهم النذر، ويُصرون على مواقف العناد، ويحاولون تبرير موقفهم بالكاذب والمخادعات والتضليلات وألوان الزخرف من القول.

٢ — المقالة الثانية:

كتبها (روبرت موريس بيدج)، عالم الطبيعة، وأول من اكتشف الرادار في العالم سنة (١٩٣٤م)، وقد كتب هذه المقالة تحت عنوان: «اختبار شامل».

وقد جاء فيها قوله:

«وجدنا أناساً موهوبين يحدثوننا عن الغيب، يقولون إنهم رسل الله، وما حدثونا به قسمان:

١ — قسم يقولون فيه: إن لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به.

٢ — وقسم يخبروننا فيه عن بعض أمور الغيب التي ستحدث، أما القسم الثاني فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين، وأيدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعاً، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً، فدل ذلك على صحة رسالتهم، وصدق أخبارهم، ووجب أن نصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته، وهو القسم الأول، لأن عقولنا لا تمنع منه، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبت».

ثم قال: «إن الإيمان بوجود الله من الأمور الخاصة التي تنبت في شعور الإنسان وضميره، وتنمو في دائرة خبرته الشخصية».

فهذا العالم الذي اكتشف الرادار لأول مرة يدفعه إنصافه وحياده وأمانته الفكرية إلى إعلان إيمانه بالله، مع التواضع الكريم المعروف عند العلماء حقاً، وهكذا العلماء المتحلون بالأمانة الفكرية، كلما ازداد علمهم زاد تواضعهم وزادت كمالاتهم الخلقية، فلا يجحدون بالتوهم، ولا يستكبرون عن الاعتراف بالحقيقة، والإذعان لما يترجح لديهم من احتمالات وفق المنهج العلمي السليم.

أما الجهلة المتبحرون بالعلم فإن الغرور بالنفس يدفع بهم إلى مواقف العجب والكبر، حتى يتناولوا تطاول الحمقى، فيعلنوا جحودهم بخالقهم ورازقهم، استكباراً عن طاعته، وتطلعاً إلى التحرر من أوامره ونواهيه، تلبية لأهوائهم الجامحة، وشهواتهم الجانحة، أو خدمة لأسيادهم قادة المنظمات الإلحادية في العالم.

٣ - المقالة الثالثة:

كتبها (ماريت ستانلي كونجدن)، وهو عالم طبيعي وفيلسوف، وعضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، كتبها تحت عنوان: «درس من شجرة الورد».

وقد جاء فيها ما خلاصته:

١ - إن كثيراً من الأمور التي نسلم بها إنما نعتد فيها على الاستدلال المنطقي.

٢ - من أمثلة ذلك كثير من استنتاجاتنا اليومية في حياتنا العادية، والعلوم الفلكية التي ليس بينها وبينها اتصال مادي مباشر، وبحوث الذرة، واستخدام قوانين الكتلة والطاقة، في استنباط صفات الذرة وتركيبها وخواصها، مع العلم بأن العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة، وقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما وصل إليه العلماء من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

ومن هذه الأمثلة وجود الله، فإننا نستطيع أن نصل إلى معرفته عن طريق الاستدلال المنطقي، الذي يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها.

٣ — برغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادي تأييداً كاملاً، لأن الدائرة التي تعمل فيها تقع في حدود المادة، فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي.

٤ — نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه في عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل إلى وجوب وجود قوة مهيمنة مدبرة تسير هذا الكون وتدبر أمره.

ثم ختم مقاله بقوله: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم — نحن العلماء — بتحليل ظواهر هذا الكون ودراساتها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته».

٤ — المقالة الرابعة:

كتبها (جون كليفلاند كوثران) وهو من علماء الكيمياء والرياضيات، ورئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة (دولث)، كتبها تحت عنوان: «النتيجة الحتمية».

بدأ الكاتب مقالته بكلمة (لورد كيلفن) وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم: «إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد بوجود الله».

ثم جاء فيها ما خلاصته:

١ — تنقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) العالم المادي.

(ب) العالم الفكري.

(ج) العالم الروحي.

٢ — إن التطورات الهامة التي تمت في جميع العلوم الطبيعية خلال السنين المئة الأخيرة، بما في ذلك الكيمياء، قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادة والطاقة، وعند استخدام هذه الطريقة تبذل كل الجهود للتخلص

من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة التي تجعل النتيجة التي تصل إليها راجعة إلى محض المصادفة.

٣ - أسهب الكاتب في الأمثلة العلمية عن طريق الكيمياء، ليكشف أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر، لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً ناجماً عن المصادفة، بل كل شيء يسير وفق قانون يهيمن على سلوكه.

٤ - ثم قال الكاتب: «فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضتها على نفسها؟ لا شك أن الجواب سيكون سلبياً.

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية، إذ إن لها بداية.

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية.

وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يحدد القوانين التي يخضع لها فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدره كائن غير مادي، متصف بالعلم والحكمة».

وهكذا العلماء المنصفون، فما أروع العالم حينما يدفعه علمه وحياده وإنصافه إلى الاعتراف بالحقيقة، ولو كانت تخالف هواه وتشهياته، أو تحد من حريته، أو تلزمه بأن يتواضع ولا يستكبر!

وما أبعد الملحدين عن مثل هذا الموقف الكريم!

٥ - المقالة الخامسة :

كتبها (إدوارد لوثر كيسيل)، أستاذ الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو، وهي بعنوان: «فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز».

وقد جاء في هذه المقالة ما خلاصته :

١ - أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله، زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية.

٢ - لقد عمت بلادنا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدين، ولم تتخط هذه الموجة معاهد العلم لدينا.

لا شك أن الكشوف العلمية الحديثة التي تشير إلى ضرورة وجود إله لهذا الكون، قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله والاتجاه إليه.

٣ - يرى البعض أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ خمسة بلايين سنة، والواقع أن الكون لا يزال في عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته.

٤ - لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم يسلمون دون شك بوجود الله، وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله».

وهكذا أثبت هذا العالم من علماء الأحياء ما توصل إليه بالبحث العلمي المحايد من ضرورة التسليم بوجود الخالق جلّ وعلا، نظراً في الظواهر الكونية التي ترشد إلى حقائق علمية وراءها، وأثبت أن موجة من العودة إلى الإيمان بالله تعم

معاهد العلم في بلاده.

٦ - المقالة السادسة:

كتب هذه المقالة (ولتر أوسكار لندبرج)، عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية وعميد معهد هورمل منذ سنة (١٩١٩م)، والمقالة بعنوان: «استخدام الأسلوب العلمي».

وقد جاء فيها ما خلاصته:

١ - أرجع هذا العالم في مقاله إخفاق بعض العلماء في فهمهم وقبولهم لما تدل عليه المبادئ الأساسية، التي تقوم عليها الطريقة العلمية من وجود الله والإيمان به إلى أسباب لا صلة لها بالبحث العلمي وخص بالذكر منها سببين اثنين:

السبب الأول: ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية أو الدولة من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الإلحاد ومحاربة الإيمان بالله، بسبب تعارض عقيدة الإيمان بالله مع صالح هذه الجماعات أو مبادئها^(١).

السبب الثاني: المعتقدات الفاسدة التي تجعل الناس منذ الطفولة يعتقدون بآله على صورة إنسان^(٢) وعندما تنمو العقول بعد ذلك، وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير، أو مع منطق مقبول، وأخيراً عندما تخيب جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية، ومن ثم فلا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات التي تدور حول وجود الله^(٣).

(١) يلاحظ الكاتب الدول الإلحادية التي ترى أن مصالحها مرتبطة بدعم قضية الإلحاد.

(٢) وهو ما تلميه بعض الأديان المحرّفة عن أصولها الصحيحة.

(٣) لكن هذا السبب غير موجود بحمد الله في واقع المعتقدات الإسلامية، إلا أن دعاة الإلحاد يحاولون بكل ما لديهم من خداع وتضليل أن يصوروا العقائد الإسلامية تصويراً يخالف مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، إذ يعممون هذا السبب تعميماً تقريرياً دون دليل، أو يحشرون مفاهيم غير إسلامية ضمن بعض مفاهيم إسلامية للتضليل.

٢ - ثم وجه كاتب المقال إلى الاعتماد في الإيمان بالله على أساس روحاني، وأوضح أن الإيمان بالله مصدر لسعادة لا تنضب في حياة كثير من البشر.

٣ - ثم قال: أما المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلما وصلوا إلى كشف جديد في ميدان من الميادين، إذ إن كل كشف جديد يدعم إيمانهم بالله ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لأيادي الله في الكون».

٧ - المقالة السابعة:

كتبها (بول كليرانس إبرسولد)، وهو أستاذ الطبيعة الحيوية، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل (أوج ريدج) وعضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعية النووية، وهذه المقالة تحت عنوان: «الأدلة الطبيعية على وجود الله».

وقد جاء فيها ما خلاصته:

١ - بدأ هذا العالم الطبيعي مقالته بكلمة للفيلسوف الإنكليزي (فرانس بيكون) التي قالها منذ أكثر من ثلاثة قرون:

«إن قليلاً من الفلسفة يقرّب الإنسان من الإلحاد، أما التعمق في الفلسفة فيرده إلى الدين»، ثم أيد كلمة هذا الفيلسوف بالشرح.

٢ - استدل على وجود الله تعالى بدليل اتفاق الناس في الشعور المشترك بوجوده فقال:

وقد لمس الناس عامة - سواء بطريق فلسفية عقلية أوروحانية - أن هناك قوة فكرية هائلة ونظاماً معجزاً في هذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة، أو الحوادث العشوائية التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحية، التي تتحرك أو تسير على غير هدى، ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم، هي قوة الله وتدبيره، وبرغم أننا ننعجز عن إدراكه إدراكاً كلياً أو وصفه وصفاً مادياً، فهنا ما لا يحصى من الأدلة

المادية على وجوده تعالى ، وتدلل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه ، الحكيم الذي لا حدود لحكمته ، القوي إلى أقصى حدود القوة» .

٨ - المقالة السادسة عشرة :

كتبها (جورج هربرت بلونت) ، أستاذ الفيزياء التطبيقية ، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة (كاليفورنيا) ، وهي مقالة بعنوان : «منطق الإيمان» .

وقد جاء فيها ما خلاصته :

١ - قال كاتب المقالة : «إنني أومن بالله ، بل وأكثر من ذلك ، إنني أكل إليه أمري ، ففكرة الألوهية بالنسبة لي ليست مجرد قضية فلسفية ، بل إن لها في نفسي قيمتها العملية العظمى ، وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية» .

٢ - ثم بعد أن قرر مبدأ الأمور البديهية التي نقبل بها قبول تسليم وإيمان ، قال :

«وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله ، فوجوده تعالى أمر بدهي من الوجهة الفلسفية ، والاستدلال بالأشياء على وجود الله - كما في الإثبات الهندسي - لا يرمي إلى إثبات البدهيات ولكنه يبدأ بها ، فإذا كان هناك اتفاق بين هذه البدهية وبين ما نشاهده من حقائق الكون ونظامه فإن ذلك يعد في ذاته دليلاً على صحة البدهية التي اخترناها» .

٣ - ثم قسم الأدلة إلى أنواع فقال : «والأدلة أنواع : منها الأدلة الكونية ، ومنها الأدلة التي تقوم على أساس إدراك الحكمة ، ثم الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية» .

فالأدلة الكونية : تقوم على أساس أن الكون متغير ، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبدياً ، ولا بد من البحث عن حقيقة أبدية عليا .

أما الأدلة التي تبني على إدراك الحكمة : فتقوم على أساس أن هناك غرضاً معيناً أو غاية وراء هذا الكون ، ولا بد لذلك من حكيم أو مدبر .

وتكمن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية، فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنما هو اتجاه إلى مشرّع أعظم».

٤ - ثم ناقش الكاتب وضع الملحدين فقال: «ويلاحظ أن للملحدين منطقهم، ولكنه منطق سلبي، فهم يقولون: إن وجود الله يستدل عليه بشواهد معينة وليس ببراهين قاطعة، وهذا من وجهة نظرهم يعني عدم وجود الله تعالى، إنهم يردون على الأدلة الكونية بقولهم: إن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر، بحيث يمكن أن يكون الكون أزلياً، كما أنهم ينكرون النظام في الكون ويرونه مجرد وهم، وهكذا ينكرون الشعور النفسي بالعدالة والاتجاه نحو موجه أعظم، ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله، ومن منطقهم أن الأدلة المقدمة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم، وهناك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون بآله لهذا الكون، لأنهم لا يرونه، ولكنهم لا ينفون وجود إله في كون أو عالم آخر غير هذا الكون، ولا شك أن هذا موقف مائع متضارب لا يستند إلى أساس سليم.

فإذا قارنا بين الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العلية، لاتضح لنا أن وجهة نظر الملحدين تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن، وبعبارة أخرى: نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحدين فيقيم إلحاده على العمى.

وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل، وأن العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحياناً عن مشاهدة الأدلة فقد يكون ذلك راجعاً إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه».

وهكذا مررنا على تلخيص لمقالات ثمان^(١) من أصل ثلاثين مقالة لثلاثين عالماً من كبار علماء النهضة العلمية المعاصرة، موجودة في كتاب «الله يتجلى في

(١) اقتباساً من كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف، وكذلك الأقوال الواردة بعد تلخيص المقالات الثمان: قول (هرشل)، وما أذاعته وكالة (رويترز)، وما جاء في كتاب «الله في الطبيعة» للفيلسوف (كميل فلامريون).

عصر العلم» ورأينا منها أن العلوم المادية تؤيد قضية الإيمان بالله جلّ وعلا، ولا تؤيد قضية الإلحاد مطلقاً.

(ي) ويقول الفيلسوف (هرشل):

«إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة، وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعات والرياضيات يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم إعلاء لكلمة الخالق».

(ك) أذاعت وكالة (رويتز) على العالم كله برقية جاء فيها ما يلي :

«نيويورك — ر — استفتت مجلة «كوليرز» المعروفة عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك وعلم الأحياء (البيولوجيا) والرياضيات، فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم، ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حدّ له. ويقول الدكتور (راين) إنه ثبت من أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحاً أو جسماً غير منظور. وقال عالم آخر: إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم — وهو ما تسميه الأديان السماوية (الله) — هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود».

(ل) وجاء في كتاب «الله في الطبيعة» للفيلسوف (كميل فلامريون)، وهو فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ولا يعرف الإسلام، ما يلي :

«إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات، فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود في كل شيء».

ويقول بحسب نظراته الخاصة التي لم يأخذها من التعاليم الدينية :

«ليس هو (أي الله) سلطاناً يحكم من فوق السماوات، بل هو نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات.

ليس مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به، فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وكل لحظة من الزمان، أو بتعبير أصح: هو قيوم لا نهائي منزّه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب.

ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك في صحتها، بل من النتائج القاطعة التي استنبطت من القواعد الثابتة للعلم، كنسبية الحركة وقدم القوانين .

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة، وآثار الحكمة المشهودة في كل شيء والمنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق في الهيئة العامة، لا سيما الوحدة التي تتجلى في قانون التطور الدائم تدل على أن القدرة الإلهية المطلقة هي الحواظ المستترة للكون، هي النظام الحقيقي، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها .

● التعليق على هذه الأقوال المؤمنة :

وباستعراض هذه الأقوال المؤمنة لطائفة من كبار علماء الكون الماديين — ويوجد أمثالها كثير — يتبين للمنصف بوضوح مدى المغالطات والافتراءات التي بنى عليها الملحد الماركسي العربي (د. العظم) كتابه المتهافت «نقد الفكر الديني» لا سيما حينما زعم أن مزاج حضارة القرن العشرين وثقافته ممتلىء بالتردد والميوعة حيال الدين والمعتقدات الدينية، وذلك في الصفحة (١٩) من كتابه .

وتجاهل كل الأقوال المؤمنة التي قالها كبار العلماء الماديين من علماء القرن العشرين، وكل الشهادات العلمية الإيمانية .

وتجاهل أيضاً الأعمال التخريبية لأصول الإيمان، وهي الأعمال التي تقوم بها منظمات عالمية، ترى أن نشر الإلحاد ودعم قضيته مما يخدم مصالحها الخاصة أحسن خدمة، إذ يجعل الشعوب الإنسانية على حافة الانهيار، ومتى انهارت تسلمتها أفواه الذئاب والثعابين الواقفة لها بالمرصاد .

وكل من يخدم قضية الإلحاد باندفاع وحماسة فهو جندي من جنود هذه المنظمة العالمية، وكثيراً ما يكون غراً لا يزيد أجره عند قادة المنظمة على أجر قاتل أمه وأبيه، متى قتلها أُلحق بهما، وقد كان من قبل يمني بالأمانى العريضة، وتتحلب أشداقه على المواعيد الحلوة، وذلك لأن من استخدمه حربة لم يستخدمه إلاً ليكسره متى استنفذ أغراضه منه .

ألم يطلع الملحد (العظم) على كل هذه الأقوال المؤمنة ونظائرها؟ ألم ينظر من أقوال العلماء إلّا أقوال (برتراند رسل) لأنه اتجه إلى الإلحاد؟ ألم يقرأ من أقوال العلماء المؤمنين إلّا مقالة الفيلسوف (وليم جيمس) إذ رأى استدلاله على وجود الله استدلالاً ضعيفاً؟ وقد جاء بعده علماء كثيرون كانت لهم أقوال ومقالات مشتملة على بيانات وأدلة أقوى مما ساقه (وليم جيمس).

أليس هذا من طمس الحقائق والتلاعب بها؟ فأين الأمانة العلمية التي يتظاهر بالغيرة عليها؟

ولكن هذا هو شأن المبطلين حينما ينصرون الباطل الذي يتعصبون له بدافع المصالح والمنافع الخاصة لا بدافع نشدان الحقيقة.

لقد رأينا في حشد هذه الأقوال المؤمنة للعلماء الماديين وكثير منهم من علماء القرن العشرين أن موجة من العودة إلى الدين الصحيح الصافي تسود الأوساط العلمية الكبرى.

فما ادعاه (العظم) في الصفحة (٢٨) من «أن النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية عن ذكر الله»، ادعاء كذب وباطل لا أساس له من الصحة مطلقاً.

ولكن هل للمبطل إذا أراد أن ينصر باطله إلّا السفسطة، والمغالطة، والمراوغة عن الحق، وصناعة الأكاذيب، والتمويه بالأقوال المزخرفة.

ولنفرض جدلاً أن العلماء الماديين جميعهم أنكروا وجود الله، أفيؤثر ذلك على حقيقة وجود الله جل وعلا؟ هل ينتظر من العلوم المادية المتقدمة وأجهزتها المتطورة أن ترينا الله تبارك وتعالى رؤية حسية. إن أقصى ما تفعله أن ترينا آيات الله في الكون، أما ذات الله تبارك وتعالى فلن تستطيع أن ترينا إياها، وهذا ما بينه الله بقوله في سورة (فصلت / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿سَتَرِيهِمْ عَآيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ﴾ (٥٣) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۖ﴾ (٥٤)

على أننا نقول: هل تستطيع العلوم المادية المتقدمة، وأجهزتها المتطورة، أن ترينا كثيراً من الطاقات الكونية التي غدت حقائق علمية ثابتة لدى العلماء الماديين عن طريق الاستنتاج من ظواهرها وآثارها، وهذه الحقائق التي أثبتوها ليست إلا تفسيرات نظرية للظواهر؟

إن أقوال العلماء الماديين المؤمنين الذين نشأوا في عصر النهضة العلمية المادية الحديثة لتقدم للمتشككين أدلة كافية على أن العلوم المادية ليست علوماً ملحدة في حقيقتها، لكن الإلحاد ملصق بها بطريقة صناعية مقصودة موجهة، من قبل فئات خاصة لها في نشر الإلحاد مصالح سياسية واقتصادية ضد خير البشرية وسعادتها.

ومن هذه الأقوال يتبين لنا بوضوح أنه لا يوجد تناقض ولا تعارض مطلقاً في نظر جمهور العلماء الماديين بين الدين والعلم حول الأساس الأول من أسس العقيدة الدينية، وهي عقيدة الإيمان بالله جل وعلا، وبهذا تنهار المستندات الإلحادية التي تزعم وجود هذا التناقض بالنسبة إلى هذه النقطة بالذات، باعتبارها مجال بحثنا الآن، وباعتبارها أعظم نقطة في الأيديولوجية الإلحادية، والتي يحاول الملحدون جهدهم أن يوجدوا لها المبررات النظرية، أو المبررات العملية، فلا يجدون إلا افتراء الأكاذيب، وصناعة المغالطات، والاحتماء المزور بالتقدم العلمي والصناعي، وسرقة أسلحة العلم التي لا تملك في الحقيقة الدفاع عن الإلحاد، وإنما هي في الأصل أسلحة لقضية الإيمان، يحسن استعمالها العالمون بها، وتكون عند الجاهلين بها أسلحة معطلة، ويسرقها الملحدون فيحملونها أمام الجاهلين، فيتخيل الجاهلون بها أنها فعلاً أسلحة للملحدين، وهي تدعم قضية الإلحاد، مع أن الحقيقة بخلاف ذلك، إنها أسلحة للمؤمنين العالمين بها، الذين يحسنون استعمالها.

ومثل الملحدين في نظري إذ يسرقون أسلحة المؤمنين كمثل وارث كنز عظيم، ولكن هذا الوارث قد نشأ وهو يجهل أين خبأ له مورثه كنزه، وأقبل خبراء البحث عن الكنوز ينقبون ويبحثون، وتسلك من وراء هؤلاء الخبراء لصوص،

تظاهروا بأنهم باحثون خبراء، ولكنهم وقفوا يرصدون ما يعثر عليه الباحثون الحقيقيون، ليسرقوه كله أو ما يستطيعون سرقة منه، وكان مورث الكنز قد كتب اسمه ورسم صورته على أحد وجهي مصكوكاته الذهبية علامة على أنها له، وقد خبأها لوارثه، أما الخبراء المنقبون الأمناء: فإنهم لما ظفروا بما وجدوه من الكنز، أعلنوا ما شهدوا من كتابة ورسوم على مصكوكاته، وثبتوا استحقاق الوارث لها، وأخذوا أجرهم على أعمالهم. وآخرون لم تكن لديهم الأمانة الكافية أو كانوا جاهلين بقراءة المكتوبات الأثرية أخذوا ما عثروا عليه، وانتفعوا بالكنز، ولم يعلنوا ما شهدوا من كتابة ورسوم على مصكوكاته، ولم يهتموا بأن يعترفوا باستحقاق الوارث لها. وجاء من وراء الفريقين فئة اللصوص، فسطوا على بعض ما استخرجته الخبراء من الكنز، وطمسوا الوجه المكتوب، وأقبلوا يفاخرون بأن الكنز كله هو ملكهم، وهو ميراثهم، والدليل على ذلك أن بعض قطع مصكوكاته الذهبية في أيديهم، قد عثروا عليها وفيها كتابة تشهد لهم بأن مورثهم قد خبأها لهم.

وحينما يُقال لهم: أرونا هذه الكتابة التي تشهد لكم يقولون: فلان قال هذا، وفلان قال هذا، وفلان قال هذا، وكل هؤلاء الذين ذكروهم هم من فئة اللصوص أنفسهم، أو من غيرهم ولكن يكذبون عليهم، ويظنون حريصين على أن يبقى الوجه الثاني للمصكوكات الذهبية مطموساً، حتى لا تنكشف لعبتهم القائمة على اللصوصية والتزوير.

(٥)

بأسلوب مهين من الغوغائية الجدلية لمحاربة الدين ومناصرة قضية الإلحاد، قال الناقد (د. العظم) في الصفحة (٣٨) من كتابه:

«جلي أن هذه النظرة الإسلامية للكون هي نظرة غائية، تعتمد في تفسيرها لطبيعة الكون على العلل الغائية، والأهداف السامية، وعلى مفاهيم أخلاقية مثل «الحق والعدل».

هل تنسجم هذه النظرة الغائية إلى الكون والحياة مع النظرة العلمية التي

تسود العالم المعاصر وثقافته؟ لورجعنا إلى التفسيرات العلمية للكون من (نيوتن) إلى (أينشتاين) هل نجد في صلبها مقولات مثل (الأهداف السامية) أو (الحق والعدل) أو (الروح والجمال والخالق)؟ هل نجد لهذه المفاهيم الأخلاقية الدينية أي ذكر في النظرية النسبية، أو في ميكانيكا الكموم مثلاً؟ سؤال جدير بالتمحيص والإيضاح والمناقشة على أقل تعديل».

هذا كلامه بالحرف الواحد، فيا للعجب العجائب!! أعلى هذا المستوى الفكري السخيف تعرض قضية الإلحاد، وتناقش قضية الإيمان بالله؟!

أهكذا يجازف بمنطقه وفلسفته ليصنع حجة مكشوفة السخف والتفاهة؟ ولكن إذا لم يكن لديه حقائق يناقش بها أفلا يطرح أكوام ألفاظ يغالط بها المراهقين، ويوهمهم فيها أنه يصنع جدليات عالية؟

قد يتصور أن مراهقي الأفكار المفتونين بالألفاظ الحديثة إذا لم يفهموا أكوام ألفاظه هذه فإنهم سيظنون أن كاتبها ضليع بدلالاتها، ما دام قد استخدم في غضونها عبارات النظرة العلمية التي تسود العالم المعاصر وثقافته، والنظرية النسبية، وميكانيكا الكموم، وله أن يحشر معها إذا شاء عبارات (الجداول الرياضية) و (الطاقة الذرية) و (الطاقة الهيدروجينية) و (طائرات الميخ) و (الأقمار الصناعية) و (حضارة القرن العشرين) و (موسكو) و (نهر الراين) و (جبال هيمالايا)، إلى غير ذلك من ألفاظ وعبارات لا صلة لها بموضوع البحث.

فما صلة النظرية النسبية وميكانيكا الكموم بالحديث الصريح عن الله تعالى، أو التعرض إلى المفاهيم الأخلاقية، حتى يعتبر عدم ذكر اسم الله والمفاهيم الأخلاقية فيها دليلاً على نفي وجود الله، أو على إلغاء المفاهيم الأخلاقية؟!

إن عمله يشبه عمل من ينكر وجود القطب الشمالي لأنه لم يوجد له ذكر في جداول الضرب، ولا في كتاب «تعلمي سيدتي كيف تسطبخين»، ولا في بطن «حصان طروادة»، ولا في «السمفونية التاسعة لبيتهوفن».

هذا مع أن العلامة (ألبرت أينشتاين) صاحب النظرية النسبية قد كان مؤمناً

قوي الإيمان بوجود الله، ومن أقواله: «إن أصحاب العبقريات الدينية في جميع العصور قد عرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة، ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية، إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي أن يوقظا هذا الشعور، وأن يستبقياه حياً في الذين تهيأوا له».

أليس عجيباً أن يقول (أينشتاين) مثل هذا الكلام وهو صاحب النظرية النسبية، ثم يأتي (د. العظم) فيورد (النظرية النسبية) مورد الاستشهاد لإنكار وجود الله، ونقض المفاهيم الأخلاقية الدينية، باعتبار أن هذه الأمور لم تذكر فيها؟

كان عليه قبل أن يستشهد بـ (أينشتاين) وبـ (النظرية النسبية) أن يراجع على أقل تقدير ما يعرف الناس عن هذا العالم، وعن أقواله في الدين، حتى لا يورط نفسه بهذا التهافت الذي سقط فيه.

إن (أينشتاين) لو كان يرى أن نظريته النسبية تتنافى مع الدين لدعم بنظرته الإلحاد، ولأعلن بها نقض الدين، لكنه — كما رأينا — على العكس من ذلك حريص على إيقاظ الشعور الديني، وإبقائه حياً في الذين تهيأوا له.

لكن (د. العظم) حينما أورد اسم (أينشتاين) و(النظرية نسبية) في غضون كلامه، إنما عمد إلى السفسطة والمغالطة، والإيهام، ليصور للقارئ الجاهل أنه يصنع شيئاً لدعم قضية الإلحاد، فهو يذكر الأسماء الكبيرة في مجال العلوم المادية، ليستر بها تضليله وغوغائيته الجدلية.

وكما أوهم أن (أينشتاين) ملحد، أوهم أيضاً أن العالم (لابلاس) من فئة الملحدين، على خلاف ما عليه واقع حال هذا العالم.

قال (العظم) في الصفحة (٢٨) من كتابه:

«عندما نقول مع (نيتشه): إن الله قد مات أو هو في طريقه إلى الموت (والعياذ بالله من حكاية هذا الكلام الكبير الشنيع) فنحن لا نقصد أن العقائد الدينية قد تلاشت من ضمير الشعوب، وإنما نعني أن النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله تماماً كما قال (لابلاس)».

إنه يحشر اسم العالم (لابلاس) هنا ليموه بأنه من أنصار قضية الإلحاد بالنظرية العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان، ولا يؤيد قضية الإيمان، مع أن (لابلاس) مؤمن أخذاً من أقواله، وله في الاستدلال على وجود الله وَرَدَّ أقوال الجاحدين كلام طيب، يلغي فيه فكرة الاعتماد على المصادفات، ويرى أن النظام الكوني الرائع لا بد له من خالق.

لقد شرح (لابلاس) دليل الحركة الكونية، وأبان قوة هذا الدليل في حسم الشبهات التي يثيرها الجاحدون فقال: «أما القدرة الفاعلة التي عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها، وثبتت أقطار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث إن النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعرفه خلل . .

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، والذي يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يحصى من المخاطر المحتملة، لا يمكن أن يحمل على المصادفات إلا باحتمال واحد من أربعة تريوليونات، وما أدراك ما أربعة تريوليونات؟ إنه عدد من كلمتين، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهاراً، على أن يعد في كل دقيقة (١٥٠) عدداً».

صحيح أن (لابلاس) أعلن قوله:

«إن العالم العظيم الذي سيتمكن من معرفة انتشار الذرات في السحب السديمية الأولية سيكون باستطاعته أن يتنبأ بكل مستقبل الكون وأحداثه»^(١).

ولكن قوله هذا لا يعني إنكاره للمخالق، وإنما يدل على شعوره بأن الكون سائر وفق نظام مرسوم خاضع لسلاسل سببية متتابعة، يمكن التنبؤ باللاحق منها لدى معرفة السابق.

(١) من كتاب «الدين في مواجهة العلم»، تأليف وحيد الدين خان.

وأما ما نسبته (د. العظم) إليه من قوله لنابليون: «الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي» فلست أدري مبلغه من الصحة أمام قوله الذي قرأناه مما كتب بنفسه. وبكل أسف لم نجد لدى الناقد أثراً للأمانة الفكرية التي يتظاهر بالغيرة عليها. يا عجباً لهذا الفريق الملحد من الناس، ترى أحدهم مريضاً بمرض السرطان الفكري الطاعني، ثم يتهم الأعضاء الرئيسية الأساسية في البناء الفكري الصحيح بأنها نمو سرطاني، وقديماً قال العرب في أمثالهم: «رمتني بدائها وانسلت».

(٦)

وبعد أن حمل (د. العظم) النظرية النسبية ما لا تحمل، واستغل اسم (أينشتاين) لدعم قضية الإلحاد، متجاهلاً أنه كان مؤمناً بالله، ومؤيداً المفاهيم الأخلاقية التي يدعو إليها الدين، ومؤيداً التفسيرات الغائية للكون، بمثل قوله: «إن الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى، ليس تعيشاً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة».

بعد هذا التضليل والتمويه والتجاهل الذي صنعه (د. العظم) خطأ خطوة رفع فيها لواء تمجيد واضعي النظريات الموجهة خصيصاً لمحاربة المفاهيم الإسلامية، والقائمة أساساً على إنكار وجود الله تبارك وتعالى، من اليهود الذين تحملوا مهمة وضع هذه النظريات المناقضة للمفاهيم الإسلامية باسم العلم، وذلك بدفع من القيادة اليهودية العالمية، فأخذ يمجّد بأسماء هؤلاء اليهود (دركهايم) و(فرويد) و(ماركس) فقال في الصفحة (٣٩) من كتابه:

«حين نطرح المسألة بهذه البساطة وبهذا التحديد، يبدو أنه ثمة تناقض واضح بين النظرة الإسلامية الغائية للكون — كما سردها سماحة موسى الصدر — وبين النظرة العلمية، كما تبلورت مع تطور العلم الحديث وتقدمه. من يراجع تاريخ العلم الحديث يكتشف بسرعة أن واضعي دعائمه وفلاسفته شنوا حرباً لا هوادة فيها على إقحام العلل الغائية والمفاهيم الأخلاقية في التفسير العلمي لظواهر الطبيعة، ورفضوا النظرة الغائية للكون رفضاً باتاً، لأنهم اعتبروها من إنتاج خيال الإنسان

الأسطوري، ولأنها تعيق تقدم العلم، وانتشار تفسيراته للظواهر الطبيعية مهما كان نوعها، إننا نجد هذا التيار المعادي للنظرة الغائية منذ البداية، عند المفكرين والفلاسفة الذين رسخوا دعائم العلم الحديث، من فرانسيس بيكون، إلى برتراند رسل، مروراً بديكارت، وسبينوزا، وغاليليو، وداروين، وبافلوف، ودركهايم، وفرويد، وماركس، إلى آخر القائمة الطويلة من الأسماء».

هكذا، وعلى هذا المستوى من التضليل الغوغائي، أو الحرب (الديماغوجية) وفق تعبيرات الملاحدة الماركسيين، يسير (العظم) في نقده للفكر الديني.

لقد سبق أن برهنا على أن جمهوراً كبيراً من علماء عصر النهضة العلمية الحديثة مؤمنون بالله، ومعترفون بالمفاهيم الأخلاقية التي نبّه عليها الإسلام أو نادى بها، وذلك منهم انسجام مع النظرة الإسلامية الغائية للكون، ولا يرون في ذلك مخالفة للنظرة العلمية، وإذا استثنينا الملاحدة المعدودين من علماء النهضة العلمية الحديثة، واليهود المدفوعين خِصِيصِيْ لوضع النظريات التي تدعم قضية الإلحاد، أمثال دركهايم، وفرويد، وماركس، فإننا نجد معظم علماء النهضة العلمية الحديثة لا يجحدون الله، ولا ينكرون النظرة الغائية للكون، ولا ينكرون المفاهيم الأخلاقية، بل كثير منهم يؤيد هذه الحقائق ويؤمن بها، ولكن الملحد العميل الذي لا يؤمن بالعلل الغائية ولا بالمفاهيم الأخلاقية، لا يخجل من صناعة التمويه بالكاذيب والتزويرات والتضليلات الجدلية، التي ليس لها أساس فكري سليم، ولا هي قائمة على احتجاج منطقي مقبول.

إنه يعرض أقواله على طريقة تقرير الحقائق المسلم بها، دون أن تقترن بحجج نظرية، أو بشواهد واقعية، ثم يزعم أنها حقائق مُسَلَّم بها عند العلماء، ويكتفي بعرض قائمة من أسماء الرجال المشهورين بالعلم والفلسفة، ويحشر في كل مرة أسماء اليهود، الذين وضعوا ما أسموه بنظريات علمية، ولا تزيد في حقيقة حالها على أنها فرضيات صيغت بعناية مقصودة لدعم قضية الإلحاد، ولا يستطيع أن يكتفم تمجيدهم، وتمجيد كتبهم، وما يسمى بنظرياتهم، ولا يخجل وهو عربي العرق أن يبالغ بتأييد المخطط اليهودي العالمي، في هذا العصر الذي تعاني أمته

أقصى المحن وأشدّها من اليهودية العالمية، ومن مخططاتها الرامية إلى الاستيلاء على العالم العربي كله.

إنه لعجب كبير أن تبلغ الخيانة بإنسان ما إلى هذا الدرك الذي ليس من دونه درك أسفل منه.

لو كانت النظرة العلمية الحديثة تناقض أو تعارض النظرة الإسلامية الغائية للكون، لما وجدنا هذا الجمهور الكبير من علماء النهضة العلمية الحديثة مؤمنين بالله، وبتفسيرات النظرة الإسلامية الغائية للكون، وبالمفاهيم الأخلاقية الدينية.

وهذا واحد منهم وهو (أندور كونواي إيفي) من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة (١٩٢٥م) إلى سنة (١٩٤٦م) يقول في مقال له تحت عنوان: «وجود الله حقيقة مطلقة»:

«ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من شك لديهم بقعة عمياء، أو بقعة مخدرة داخل عقولهم، تمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم، سواء ما كان ميتاً أو حياً، تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله».

ثم استشهد بكلام العلامة (أينشتاين)، إذ قال: «إن الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيشاً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة».

أليس هذا التفكير الذي يعلن عنه هذا العالم ومن قبله (أينشتاين) تفكيراً قائماً على النظرة الغائية للكون، وعلى اعتبار القيم الأخلاقية؟

إن هذه النظرة الموافقة للنظرة الإسلامية لم تكن عند أصحابها مناقضة للأسس العلمية الحديثة، ولا للنظرة العلمية كما تبلورت مع تطور العلم الحديث وتقدمه، فمن أين (للعظم) هذا الادعاء الكاذب؟!

إذا كانت هذه النظرة مناقضة لما يسمى بنظريات اليهود (دركهايم - فرويد - ماركس) أو النظريات التي روجها اليهود كالنظرية الداروينية فلا بأس، إن هؤلاء أجراء المخطط اليهودي العالمي المعروف، وقد وضعوا مذاهبهم لهدم الأسس

الدينية، لا على أساس قناعات علمية صحيحة، وقد أصبح مخططهم مكشوفاً للعالم، وكتب في كشف مكائدهم محققون من العلماء المتبعين.

أما ادعاء (العظم) بأن النظرة الغائية للكون والمفاهيم الأخلاقية تعيق تقدم العلم وانتشار تفسيراته للظواهر الطبيعية مهما كان نوعها، فهو ادعاء هراء، غير مستند إلى أي أساس نظري أو واقعي. إن الإيمان بالله لا يتعارض بحال من الأحوال مع أي تقدم علمي يُدرس فيه واقع حال هذا الكون، وما فيه من طاقات وقوى مشاهدة وغير مشاهدة، وما فيه من نظم وأسباب ظاهرة أو خفية، كما أن المفاهيم الأخلاقية تساعد على تقدم المعرفة من جهة، وعلى سعادة الإنسان من جهة أخرى، وضبط سلوكه فيما يحقق للأفراد وللجماعات أوفر نصيب من الخير والعيش الرغيد.

ولكن الملحد يكتفي بإطلاق الادعاءات الكاذبة، دون دليل منطقي أو واقعي.

(٧)

يحاول الناقد (العظم) كما رأينا الإقناع بنسف الأسس الأخلاقية من جذورها بينما يتظاهر في موطن آخر من كتابه بغيرته على المبدأ الأساسي لأخلاق الاعتقاد، فتعليقاً على بعض آراء (وليم جيمس) الذي رجح جانب الإيمان بالله استناداً إلى المشاعر الإنسانية الداخلية، التي ترجح جانب الإيمان على جانب الكفر، يقول في الصفحة (٧٥):

«هنا يثبت (جيمس) حق هذا الإنسان بأن يعتقد بوجود الله، استناداً إلى ما توحى له طبيعته العاطفية حول هذا الموضوع، أي: بالنسبة لجيمس يحق له أن يحسم الأمر باللجوء إلى عواطفه ومشاعره، ضارباً بعرض الحائط المبدأ الأساسي لأخلاق الاعتقاد».

ويتظاهر بحرصه على مبدأ الأمانة الفكرية، وهو مبدأ أخلاقي، فيقول في الصفحة (٢١):

«هل باستطاعتي أن أتقبل بكل نزاهة وإخلاص المعتقدات الدينية التي تقبلها آبائي وأجدادي، دون أن أخون مبدأ الأمانة الفكرية؟»

ويكرر تظاهرة بالغيرة على الأمانة الفكرية فيقول في الصفحة (٢٩):

«هذا هو الحد الأدنى من متطلبات الأمانة الفكرية، في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة».

أليس هذا التهافت في كلامه من أعجب الأمور؟ كيف يسوغ لنفسه أن يقف مثل هذا الموقف الأخلاقي لمناصرة قضية الإلحاد والكفر بالله، وقد ذبح القيم كلها والمبادئ الأخلاقية جميعها، وأعلن أنها أمور لا يعترف بها العلم — بحسب زعمه — ولا يقيم لها وزناً؟

سبق أن نقلنا كلامه في الصفحة (٣٨) من كتابه، وفيه يقول:

«جليّ أن هذه النظرة الإسلامية للكون هي نظرة غائية، تعتمد في تفسيرها لطبيعة الكون على العلل الغائية، والأهداف السامية، وعلى مفاهيم أخلاقية، مثل (الحق والعدل). هل تنسجم هذه النظرة الغائية إلى الكون والحياة مع النظرة العلمية التي تسود العالم المعاصر وثقافته؟ لورجعنا إلى التفسيرات العلمية للكون من (نيوتن) إلى (أينشتاين) هل نجد في صلبها مقولات مثل الأهداف السامية، أو الحق والعدل، أو الروح والجمال والخالق، هل نجد لهذه المفاهيم الأخلاقية الدينية أي ذكر في النظرية النسبية أو في ميكانيكا الكموم مثلاً؟».

فهو بهذا لا يعترف أصلاً بالمفاهيم الأخلاقية، ولا بالحق والعدل، ولا بالأهداف السامية، ولا بالروح والجمال والخالق، فما له وللدفاع عن الأمانة الفكرية؟ وما له وللغيرة على أخلاق الاعتقاد؟ إن كان يريد مناصرتها حقاً فليكن منسجماً مع نفسه على أقل تقدير، وليبق لنفسه من الأخلاق بقية يخاطب بها الناس.

إذا لم يكن للحق قيمة لديه فأين مكان الأمانة الفكرية إذن؟ أليست الأمانة الفكرية أمانة على الحق في جانب المعرفة؟ أليس إلغاؤه لمبدأ الحق خيانة لمبدأ

الأمانة الفكرية؟ وحينما يلغي مبدأ الحق فماذا يأتي بعده غير الباطل والضلال؟ فهل يطالب الأفكار الحرة بأن تكون أمينة على الباطل؟ وأي باطل هذا الذي يريد أن يحرص عليه؟ ألا يرى هذا تناقضاً شائناً مفضوحاً غير مستور بأي شيء؟ أين أخلاق الاعتقاد في موقفه هذا المتسم بالتناقض الصريح؟

ينسف الأخلاق كلها من جذورها، ولا يعترف بحق ولا عدل ولا أهداف سامية، ثم يتباكى على الأمانة الفكرية وأخلاق الاعتقاد، ليزين بتباكيه هذا قضية الإلحاد والإباحية المطلقة التي يناصرها، ويبشر بها في المجتمع العربي المسلم، خدمة لآسياده الماركسيين، ومن ورائهم القيادة اليهودية العالمية، ما أعجب هذا من إنسان يحترم كرامة نفسه؟!

ما دام قد نسف الأخلاق كلها من جذورها فأية أمانة لديه يعتمد عليها في نقل خبر، أو حكاية قول لإنسان، أو تقرير حقيقة من الحقائق العلمية؟ ما دام هذا مذهبه فمن الطبيعي أن لا يوثق بشيء يقوله، لأنه إن صدق في واحدة أو أكثر فذلك ليغطي بها فرية يفتريها على الحقيقة، خبراً كانت أو معرفة علمية، وهذا ما يكشفه الناظر في أقواله بأدنى تأمل، إنه حينما يبحث في العلم الحديث لا يعرض إلا أقوال الملحدين أمثاله، ويجعلهم الممثلين الوحيدين للركب الحضاري كله، وقد يعرض - كما رأينا - على سبيل التضليل بعض الأعلام الكبرى في ضمن ما يعرض من قائمة أسماء، تمويهاً بأن هؤلاء الأعلام الكبرى مؤيدي قضية الإلحاد، مع أنهم في الواقع بخلاف ذلك.

وأي ناظر في كتابه يرى أنه جندي مطيع، يجعل من نفسه رأس حربته في يد الماركسية واليهودية العالمية، لهدم كيان أمته، وتهيئة أرضها وأجيالها لاحتلال العدو احتلالاً شاملاً، يتناول الأفكار والنفوس والقوى المختلفة، والأرض والأموال وسائر الثروات والخيرات.

هذه هي الخطة اليهودية التي درسناها في كتبهم، والتي رأينا جملة كبيرة من تطبيقاتها في العالم.

والملاحدة الماركسيون كتيبة من كتائب جنود التنفيذ لهذه الخطة اليهودية

العالمية الكبرى، التي غدت من الحقائق المكشوفة جداً، بعد أن كانت مستورة عن كثير من أعين الجماهير.

إنهم مجندون في صف العدو، ولكنهم مخالطون مداخلون، يحتلون مواقع ضمن الصفوف، وهم يتحينون الفرص للانقضاض على أمتهم خدمة لأسيادهم الشياطين.

إنني لأعجب كل العجب من هذه الحرب المستعرة على فكرة الإيمان بالله تعالى، وعلى المبادئ والقيم الأخلاقية، وعلى الفضائل الإنسانية، وعلى الحق والعدل والأهداف السامية، وعلى الروح والجمال والخالق، وعلى التفسيرات الغائية للكون والحياة، فماذا تضر البشرية هذه الأمور من وجهة نظرهم؟

إن هذه المبادئ التي ينادي بها الدين من شأنها أن تكف يد الجريمة في الناس، وتخفف من شرورهم، وتجلب للإنسانية نفعاً عظيماً، ولكن القيادة المجرمة الخفية في العالم تخسر بنشر هذه المبادئ وتطبيقها جنوداً كثيرين تستطيع أن تجندهم عن طريق الإلحاد والإباحية المطلقة، ولا تستطيع أن تجندهم عن طريق الإيمان والتزام المفاهيم الأخلاقية.

لذلك فإن وسيلتهم الوحيدة لتجنيد جيوشهم المجرمة، هي أن ينشروا الإلحاد والإباحية أولاً، ثم ينتقوا جنودهم من هذا الوسط الإلحادي الإباحي، ليدفعوا بهم إلى ارتكاب الجرائم الإنسانية الكبرى، وبذلك يحقق المجرمون المستورون أهدافهم في السيطرة على العالم.

(٨)

مع (د. العظم) ونقده لمقالة (وليم جيمس)

نظرت في مناقشته لبحث الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس) الذي كتبه تحت عنوان: «إرادة الاعتقاد»، فرأيت أن (وليم جيمس) تعرض في بحثه إلى حق الإنسان المفكر بالاعتقاد بوجود الله، ولو لم تكن البيانات العلمية والأدلة العقلية كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجوده، نظراً إلى أن عواطف

الإنسان ومشاعره ترجح جانب الإثبات، كما أن الإنسان يجد نفسه بين موقفين:
١ - فإذا هو أنكر الله وجحدته وكان الواقع بخلاف ذلك فإنه يُعرّض نفسه
لخسائر كبرى.

٢ - وإذا هو آمن به وكان الواقع بخلاف ذلك فإنه لا يخسر شيئاً.
واستنتج من ذلك أن موقف الإيمان على هذا موقف لا خسارة فيه مطلقاً، مع
وجود احتمال اغتنام أرباح كثيرة منه، وأما موقف الإلحاد على هذا أيضاً فهو موقف
لا ربح فيه مطلقاً، مع وجود احتمال تكبد خسائر كبرى.
وبمقارنة هذين الموقفين يترجح موقف الإيمان على موقف الإلحاد قطعاً،
ويكون من حق الإنسان أن يؤمن في مقياس العقل.

ثم بلغ مني العجب مداه حين رأيت الناقد (د. العظم) يناقش بحث
(جيمس) مناقشة مشحونة بالمغالطات التي تأتي ببعض العبارات الفلسفية، وليس
فيها من الفلسفة الصحيحة شيء، وتستخدم العبارات العلمية، وليس فيها من العلم
الصحيح شيء، جل ما فيها سفسطة، ومغالطات، وخطابات، وتقارير، وكلها
لا تملك من الأدلة شيئاً حتى أضعفها.

هذا على الرغم من أن (وليم جيمس) لم يقدم لقضية الإيمان إلا أضعف
الأدلة، وهو الدليل الذي صاغه الشاعر العربي الفيلسوف بقوله:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأجساد، قلت: إليكما
إن صحَّ قولكما فلست بخاسر أو صحَّ قولي فالخسار عليكم

وهذا هو الدليل الثاني الذي طرحه مؤمن آل فرعون، في مناقشة لهم حول
دعوة موسى عليه السلام، وقد حكى القرآن ذلك عنه بقول الله تعالى في سورة
(غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ

صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

فهذا الرجل المؤمن من آل فرعون عرض عليهم أولاً دليل البينات التي جاء بها موسى ، ثم تنازل معهم إلى مستوى آخر لا يستطيعون أن يرفضوه إذا هم رفضوا البينات ، فقال لهم : ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ ، أي : فإنكم لا تخسرون شيئاً إذا تركتم موسى وشأنه فيما لو كان كاذباً ﴿وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾ ، أي : فإنكم تخسرون كثيراً بتكذيبه ومقاومة دعوته فيما لو كان صادقاً ، فالمنطق الحق يرجح الأخذ باحتمال صدقه على احتمال كذبه ، لأن الأخذ باحتمال الصدق يدفع عنكم احتمالات الخطر دون أن تخسروا شيئاً ، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تجنوا شيئاً من الربح ، وهذا منطق عقلي يصح الاستناد إليه والاعتماد عليه ، في كل الأمور التي يجد الإنسان نفسه فيها بين موقفين متكافئين نظرياً ، إلا أن الأخذ بأحدهما فيه السلامة بصفة قطعية مع احتمال الربح ، أما الآخر ففيه احتمال عدم السلامة مع الخسارة ، وهذا هو أضعف الأدلة المرجحة .

ويُطرح هذا الدليل عند آخر مرحلة من مراحل النقاش الذي يرفض فيه الملحد أدلة الإيمان الكثيرة ، ويعلن تشككه بها ، أو يطرح في أول مرحلة من مراحل النقاش ، لتوجيه النفس إلى منطقة الإيمان منذ الانطلاقة الفكرية الأولى ، ثم تطرح من بعده الأدلة والبيانات الأخرى ، فهو إما دافع إلى النقلة الأولى التي تتجاوز منطقة الشك المطلق ، وإما ممسك بالنفس في منطقة الإيمان قبل أن تنزلق إلى منطقة الشك المطلق .

ولست أدري كيف بلغ (العظم) هذا المستوى الذي نراه في كلامه من ضعف الإدراك لأصل الموضوع ، حينما ناقش (جيمس) حول هذا الدليل .
فهو ينقل بعض أقوال (وليم جيمس) ثم يعلق عليها تعليقاً عجيباً ، يدلُّ على

ضعف إدراكه للمشكلة، أو استهانته بقارئيه كتابه استهانة بالغة، إذ يحاول تضليلهم حتى في البدهيات، انظر هذا المقطع من الصفحتين (٧٦) و (٧٧) من كتابه:

«هنا يدافع (جيمس) عن نفسه بقوله:

١ — لا يمكننا أن نعلق الحكم إلى الأبد في موضوع الاعتقاد بوجود الله لأننا بذلك قد نتجنب الوقوع في الخطأ إذا لم يكن الإله موجوداً، ولكننا سنخسر فائدة كبرى فيما لو كان موجوداً».

ويعلق على كلام (جيمس) هذا بقوله:

«في الواقع أن (جيمس) يسيء فهم المشكلة: فالمسألة لا تتعلق بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيتها من اعتقادي بالله، وبالخسارة المماثلة التي قد أنكبدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً. المشكلة أصلاً لا تمت بصلة إلى حساب الأرباح والخسائر، ولا علاقة لها بعقلية الرهان والمجازفة. المشكلة بكل بساطة هي: هل القضية «الله موجود» قضية صادقة أم كاذبة، أم أن صدقها جائز جواز كذبها، وليس لدينا أدلة أو بينات ترجح أيّاً من هذين الاحتمالين على الآخر؟ يجب أن ينسجم موقفنا الشخصي من قضية وجود الله انسجاماً تاماً مع جوابنا على هذا السؤال، لا مع حساب الخسائر والأرباح».

يا عجباً له ولهذا المنطق الأعور، من منهما يسيء فهم المشكلة (جيمس) أو (العظم)؟

كيف لا تتعلق المشكلة بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيتها من اعتقادي بالله، وبالخسارة المماثلة التي قد أنكبدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً؟

إنها مشكلة وجودي وحياتي وسعادتي ومستقبلي، أفلا أبحث عنها؟ أفلا أضعها في الحساب؟ أفأعرض وجودي كله وسعادتي كلها للخطر، دون أن يكون لي في الموقف الذي أتخذه أي ربح، أو أية فائدة؟

هل أتعامل مع أرقام في مسألة رياضية لا علاقة لي بها؟

إنها قضية حياة، قضية سعادة، قضية مصير، إن اللعب فيها لعب بالنار.

هل يفعل (العظم) مثل هذا في مشكلاته الحياتية المصيرية، من أمور معاشه، أو صحته ومرضه، أو سلامته وتهلكاته، أو تجارته واستثماراته؟ أو نحو ذلك.

إنه هو الذي يسيء فهم المشكلة، أو هو الذي يفسد تصويرها، لتضليل المراهقين فكرياً ونفسياً.

حينما حاول تحديد المشكلة أخذ يهرق في تصويرها، كأنها قضية لا علاقة للباحث بها من قريب ولا من بعيد، فقال:

«المشكلة بكل بساطة: هل القضية (الله موجود) قضية صادقة أم كاذبة؟ أم أن صدقها جائز جواز كذبها؟»

ثم قال:

«يجب أن ينسجم موقفنا الشخصي من قضية وجود الله انسجاماً تاماً مع جوابنا على هذا السؤال، لا مع حساب الأرباح والخسائر».

فمن أين له أن يلقي هذه التقارير المخالفة للحقيقة وللبدية العقلية دون أي دليل؟ أهو يبحث عن قضية في مجاهيل الجزر البحرية التي لا علاقة له بها؟ حتى يقرر أن المشكلة أصلاً لا تمت بصلة إلى حساب الخسائر والأرباح.

يبدو أنه قد بلغ من السخف الفكري مداه، حين انتقد (وليم جيمس) في ترجيحه جانب الإيمان على جانب الإلحاد، بمرجح احتمال الربح الذي لا يقابله احتمال خسارة، بينما رجح (العظم) جانب الإلحاد بدون مرجح مطلقاً، مع قيام مرجح احتمال الخسارة في جانب الإلحاد، و مرجح احتمال الربح في جانب الإيمان، وكلاهما لصالح قضية الإيمان، إلا أنه ألغاهما من الحساب اعتباراً وحمافة، وزعم أنه لا علاقة لهما أصلاً بالقضية.

أليس هذا تضليلاً يمكن أن يدركه أي ناظر بالبداهة؟

لقد حاول (العظم) طمس جوانب المنطقية في دليل (جيمس) بالمراوغة والمغالطة، وتصدى لنقد أصوله المقبولة فكرياً بسفسطات مرفوضة بداهة.

لقد كان (جيمس) منسجماً مع المنطقية السليمة، ومع البحث عن سلامته وسعادته ومصيره، على فرض أنه لا توجد إثباتات كافية أو بيانات علمية تبرهن على وجود الله أو عدم وجوده، فقد رأى أن الأخذ بجانب الإيمان أرجح، استجابة لنداء الفطرة من جهة، وطلباً للسلامة من جهة أخرى، وذلك لأن تعليق الحكم إلى الأبد في موضوع الاعتقاد بوجود الله جُلُّ ما فيه أنه قد يُجَنَّب الوقوع في الخطأ إذا لم يكن الإله موجوداً، لكنه يوقع في خسارة عظيمة (هي الشقاء الأبدي) فيما لو كان موجوداً، فهل يجازف العاقل بحياته وسعادته الأزلية دون مقابل، ولمجرد وقوف جامد حائر.

أما اختيار سبيل الإنكار والكفر بالله فإن (جيمس) يراه اختياراً متعنّياً لجانب لا دليل عليه مطلقاً، وليس فيه استجابة لنداء الفطرة، وفيه مخاطرة حمقاء توقع الإنسان في احتمالات خسارة كبرى وشقاء أبدي.

أما (العظم) فمنهجه السوفسطائي الديماغوجي اللامنطقي أن يبيح لنفسه أن يقول ما يشاء، دون ضابط عقلي أو علمي أو أخلاقي.

فالحقيقة الظاهرة يقول عنها دون مبالاة أو اكتراث: إنها غير موجودة.

والأوهام المفتراة يقول عنها بجزم وتأکید: إنها حقائق ثابتة.

ومنهجه الجدلي أن يبيح لنفسه أن يغالط كما يشاء، وأن يزيّف أي شيء يريد تزييفه، وأن يلبس أثواب الزور، فيرتدي أردية البحث العلمي، وكلامه مناقض للبحث العلمي، ويحمل شعار الأمانة الفكرية وأخلاق الاعتقاد، وهو في حرب ضروس ضد الأمانة الفكرية وأخلاق الاعتقاد وسائر الأخلاق والقيم.

انظر هذا المقطع الثاني من نقده لبحث (وليم جيمس) لترى ما حشر فيه من مغالطات، يقول في الصفحة (٧٧) من كتابه:

«٢ — يقول جيمس في دفاعه عن نفسه: إن الإنسان الذي يعلق الحكم في موضوع وجود الله يرضخ بذلك إلى تخوفه من الوقوع في الخطأ والوهم، بينما كان الأحرى به أن يعتقد بوجوده تمثيلاً مع أمله في أن يكون اعتقاده صادقاً».

ويعلق العظم على قول (جيمس) هذا بقوله :
«ولكن جيمس مخطيء، لأن خوفنا من الوقوع في الخطأ أهم بدرجات من
أملنا في العثور على الحقيقة، أو من رجائنا في أن يكون اعتقادنا صادقاً» .
هكذا يقرر (العظم) ثم يأتي بما زعم أنه دليل، ولكنه لولم يأت به لكان
أستر له، إنه يقول في دليله الذي ساقه :

«ذلك لأن عدد الأخطاء التي يمكن أن تقع بها غير متناه، أما الحقيقة
فواحدة، وبما أن احتمالات الوقوع في الخطأ أكبر بكثير من احتمالات العثور على
الحقيقة، أو احتمال الوقوع على الاعتقاد الصادق، لذلك يضطر الإنسان لأن يضع
ضوابط صارمة وحازمة في بحثه عن المعرفة، أملاً منه في أن يخفض احتمالات
الخطأ إلى أقل حد ممكن. وبالرغم من ذلك يظل عدد هذه الاحتمالات مخيفاً» .

ولا بد أمام هذا الكلام (العظمي) من إلقاء ضحكة سخرية، وذلك لأنه وضع
الأشياء في غير مواضعها، وذكرني بقصة طالب غبي يحفظ بعض المسائل النحوية
والصرفية واللغوية، سأله الممتحن أول ما سأله ما اسمك؟ فقال له : الاسم على
أقسام : منه علم، والعلم مرتجل ومنقول، وهو علم شخصي وعلم جنسي، ومنه
معارف أخرى غير علم، ومنه نكرة، والنكرة قد تكون اسم جنس، وقد تكون اسم
جنس جمعي، وفي باب النداء قد تكون النكرة نكرة مقصودة، وقد تكون نكرة غير
مقصودة، ومعاجم اللغة قد جمعت المفردات اللغوية وبينت معانيها، سواء ما كان
منها اسماً أو فعلاً، وفيها مشات الألف من الكلمات، وسار على هذا المنوال في
السرد الغبي .

و (العظم) ظن نفسه في مثل صحراء واسعة يبحث فيها عن دينار،
واحتمالات الخطأ فيها لا نهاية لها، ونسي أنه في موضوع يتردد بين احتمالين فقط،
لا ثالث لهما، أحد هذين الاحتمالين هو أن الله موجود وحق، والاحتمال الثاني هو
الاحتمال المناقض له، ولا شيء وراء هذين الاحتمالين، فالقضية كمن جاءنا
فقال : في سطحي حزام ناسف، وهنا لا بد أن نكون أمام خيارين لا ثالث لهما، إما
أن نرجح احتمال الصدق فنأخذ حذرنا، وإما أن نرجح الاحتمال الآخر فنورط
أنفسنا في احتمال الخطر.

و (جيمس) رجح احتمال الإيمان على نقيضه فقط، وليس على احتمالات لا حصر لها.

فمن أين (للعظم) أن يغالط هذه المغالطة المفصوكة؟
من أين جاء بقصة عدد الأخطاء التي لا نهاية لها في موضوع ليس فيه إلا
احتمالان متناقضان فقط؟

إنها قصة في البحث العلمي، ولكن ليس هذا مكانها، إنه يضع الأشياء في
غير مواضعها، إما على سبيل الجهل واختلال الموازين المنطقية لديه، وإما على
سبيل المغالطة واستغلال القارئ والتغريب به، ولكن أي قارئ حصيف قادر على
كشف هذا الزيف الذي صنعه.

وبعد هذا التزييف المقصود الذي أراد به السفسطة والمخادعة، ظن أنه ملك
ناصية حجة متينة وبلغ ما يريد من تهديم للأبنية الفكرية الإيمانية فقال في
الصفحة (٧٧).

«لا شك إذن أنه — خلافاً لرأي جيمس — من الحكمة أن نخاف من الوقوع
في الخطأ أكثر بكثير من أن نتسرع في الانصياع مع أملنا في العثور على الاعتقاد
الصحيح والصادق، خصوصاً قبل تصفية احتمالات الخطأ إلى أدنى حد ممكن،
عن طريق التفكير العلمي ومنهجه المعروف».

وهنا نلاحظ أنه قد يكون دارساً لمنهج التفكير العلمي، ولكن لا يعرف
مواضع تطبيقه، والأعجب من ذلك أنه يأخذ لنفسه بالاحتمال المقابل، دون أن
يناقش نفسه بما ناقش به (جيمس)، وهذا يدل على أنه يغالط ويرaug، ويجادل
بالباطل.

لقد أثبت هذا الملحد على نفسه وعلى طرائق الملحدين صوراً فيها الكثير
مما يضحك العقلاء، إن كان يستهين بمنطق القراء ومدى ثقافتهم فليعلم أن صغار
المثقفين الإسلاميين قادرون على كشف مغالطاته وتزييفاته.

لقد تجاوز في صنيعه قواعد التفكير العلمي ومنهجه المعروف، ومشى في
صحرائه التائهة يتغنّى بقول الشاعر:

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق مغرب

ثم بعد أن ظن أنه قد قرر النتيجة المفحمة قال :

«حتى لو كان الاعتقاد الذي تقبلناه عن طريق العاطفة والميول صادقاً وصحيحاً بمحض المصادفة، فلن يكون له قيمة، لأن شأن هذا الاعتقاد هو كشأن الوصول إلى المال عن طريق السرقة، عوضاً عن طريق العمل الشريف. أي : إننا وصلنا إلى هذا الاعتقاد الصادق بطريقة غير مشروعة، ولا يمكننا أن نقيم مبادئ عامة للوصول إلى آراء مدروسة على أساس المصادفة».

ونحن لا نريد أن نعلق على هذه المناقشة الضعيفة الواهنة كثيراً، لأن موضوعها لا يهمنا، باعتبار أن قضية الإيمان بالله تعالى وبما جاءنا عنه، هي بالنسبة إلينا قضية علمية، توصلنا إليها بالمنطق السليم، والحجة الدامغة، والبرهان القاطع، ولا شأن لنا بمن أنكرها أو أغمض بصيرته عنها.

ولكن ننتقد هذه المناقشة من وجهين :

الأول: ما أسماه بالمصادفة التي قد توصل الإنسان إلى الاعتقاد الصحيح الصادق، قد شبهه بكسب المال عن طريق السرقة، عوضاً عن طريق العمل الشريف، وكان منطق التشبيه يقضي عليه بأن يشبهه بالعثور على منجم في جبل، أو لُقطة في صحراء، أو كنز لا مالك له.

على أن القضية بالأساس ليست من قبيل المصادفة، إنما هي من وجهة نظر (جيمس) ترجيح قائم على نظر صحيح، يحق للإنسان معه أن يتخذ مذهباً.

يضاف إلى هذا أن الإلحاد الذي تمسك به (العظم) وأضرابه، هو الذي يصح أن يوصف بأنه عمل غير مشروع، إذ لا سند لمذهب الإلحاد مطلقاً، فلا يوجد دليل ولا شبه دليل يدعمه، بل فيه رفض لأدلة الإيمان المثبتة، أولادته المرجحة على أدنى المستويات، كالدليل الذي اعتمد عليه (جيمس).

الثاني: كان الأحرى بالعظم أن يطبق على مذهبه الإلحادي قوله :

«ولا يمكننا أن نقيم مبادئ عامة للوصول إلى آراء مدروسة على أساس

المصادفة».

إنه يمنع الأخذ بالمصادفة في مجال البحث النظري للوصول إلى أفكار صحيحة، ويقبل مبدأ وجود الأحداث الكونية وتغيراتها وقوانين الطبيعة كلها والإنسان وعقله الذي يفكر فيه على أساس المصادفة.

هذا مع أننا من وجهة نظرنا الإسلامية لا نقبل أن تكون المصادفة أساساً لإقامة عقائد وآراء ومفاهيم، ولا لقيام أحداث كونية كبرى ذات نظم محكمة، وقوانين ثابتة، ومن عثر مصادفة على رأي صحيح أو اكتشاف علمي، فإننا لا نقبله منه ما لم يدعمه بعد المصادفة بالأدلة الكافية، أو بالتجربة الصحيحة القابلة للإعادة والتكرار.

ثم يختم (العظم) نقده لبحث (وليم جيمس) بقوله: «في معرض نقدنا لرأي (جيمس) يجب أن نذكر أن المفكر الذي لا يعتقد بوجود الله، أو يعلق الحكم حول الموضوع بأسره، قد لا يفعل ذلك من جراء تكوينه العاطفي، باعتبار أنه ربما كان بطبيعته العاطفية أميل إلى الاعتقاد منه إلى الرفض. إنه يفعل ذلك لأن القنوات الفكرية التي تشكلت لديه على أسس علمية واضحة لا تسمح له بأن يعتقد بوجود الله دون أن يقع في تناقض ذاتي، ودون أن يضحى بوحدة تفكيره ومنطقه».

في كلامه هذا اعتراف ضمني بدليل الفطرة التي تهديه وتنزع به إلى الإيمان (فطرة الله التي فطر الناس عليها) ولكنه يكبت فطرته بأوهام الجحود والإنكار، وبما أسماه من قناعات، وهي لا تزيد على أنها مواقف عنادية، مشحونة بالأكاذيب والمغالطات والسفسطات الجدلية. ففي كل أقواله وجدلياته، وفي كل ما ساقه من أقوال لأساتذته، لم نجد ما يولّد أية قناعة لباحث عن الحقيقة صادق في بحثه.

والسفسطة والمغالطة والكذب لا تشكل له عذراً مقبولاً بين يدي ربه، حينما يأتيه ذليلاً حقيراً لا يملك شيئاً.

أما زعمه بأن المؤمن بالله لا تسمح له القنوات الفكرية بأن يعتقد بوجود الله دون أن يقع في تناقض ذاتي، ودون أن يضحى بوحدة تفكيره ومنطقه، فزعم لم يقيم عليه دليلاً في كل ما كتب، وإنما ألقاه كلاماً تقريرياً خالياً من أية حجة صحيحة،

وما ساق من جدليات مختلفة لم يحتو على شيء مما يدعم بصدق هذا الزعم، أو يقدم لصاحبه عذراً فكرياً مقبولاً عند الله أو عند العقلاء من الناس.

ثم لا يقتصر على الاعتراف الضمني بوجود الفطرة النزاعة إلى الإيمان، بل يرتقي إلى الاعتراف الصريح بوجود الشعور الديني في الفطرة الإنسانية، ولكنه يحاول أن يجد طريقاً لتنفيس هذا الشعور وتلبيته بألوان من التعويض الذي لا يسد مسداً صحيحاً، أو بلون من ألوان العبادة الوثنية.

يقول في الصفحة (٧٨) من كتابه:

«هذا لا يعني أنني أريد نسخ الشعور الديني في تجارب الإنسان من الوجود».

أي: ما سبق في كلامه من توجيهه حربه الشعواء على الدين، لا يعني أن الشعور الديني غير موجود بصفة أصيلة في الفطرة الإنسانية بل هذا الشعور موجود، وهو ينزع في داخل النفس الإنسانية نزوع الدوافع الفطرية الأصيلة، التي تتطلب تلبية نفسية وروحية ومادية، وتلبية هذا الشعور يكون بالإيمان والعبادة.

لكن (العظم) يعترف بوجود هذا الشعور الديني، ويحاول عزله عن التلبية الصحيحة، إذ يُغريه بأوهام لا تُلبي دوافعه تلبية صحيحة، فيصرفه عن عبادة الله الحق إلى أوهام عبادات وثنية مختلفة يخترعها له، كعبادة الجمال، أو عبادة البحث عن الحقيقة، أو عبادة الأهواء والشهوات، أو عبادة مطالب الحياة والأعمال المؤدية إليها، ويلحق بذلك عبادة القادة والأسياد، وعبادة الأحزاب، وعبادة الشياطين.

وفي هذا يقول متابعاً كلامه:

«يجب تحرير هذا الشعور الديني من سجنه، ليزدهر ويعبر عن نفسه بطرق ووسائل مناسبة للأوضاع والأحوال التي نعيشها في حضارة القرن العشرين. لذلك علينا أن ننازل عن الفكرة التقليدية القائلة بوجود شيء كحقيقة دينية خاصة، وأن نوجه اهتمامنا نحو الشعور الديني المتحرر من هذه الأعباء والأثقال».

إنه بهذا يريد أن يُرجع الناس إلى الجاهلية الأولى، وإلى عبادة الأوثان، وبعد

أن حاول صرف الشعور الديني عن الله جل وعلا، وتوجيهه للوثنيات المادية والخيالية قال:

«وقد يتمثل الشعور الديني بهذا المعنى في موقف الفنان من الجمال، أو في موقف العالم من البحث عن الحقيقة، أو في موقف المناضل من الغايات التي يعمل لتحقيقها، أو في موقف الإنسان العادي من أداء واجباته الحياتية واليومية».

لقد كان بإمكانه أن يعبد الله وحده وهو في هذه المواقف كلها، لأن عبادة الله بمعناها الواسع تتمثل في كل عمل أو تصور أو عاطفة، مما أذن الله به إذا ابتغى به الإنسان مرضاة الله تعالى، لكنه — وكذلك سائر الملحدين — يكرهون الخضوع لمن خلقهم، ويلذ لهم أن يخضعوا لخلقه.

إن الدين ومشاعره والدوافع إليه حقائق مغروزة في الفطرة الإنسانية، لا يملك أي إنسان نسخها من الواقع الإنساني، مهما حاول التضليل في الأمر، وفي حال كتبها يعيش الإنسان ضائعاً قلقاً مضطرب المشاعر، ذا حاجة أصيلة في نفسه، وهذه الحاجة محرومة من التلبية الصحيحة.

في كل إنسان إحساسات فطرية صادقة، تنزع به إلى الإيمان بوجود خالق لهذا الكون كله، ومشاعر فطرية صادقة تتوجه نحو هذا الخالق العظيم بالدعاء، وبطلب المعونة والإمداد الدائم، وتتوجه إليه بالخشوع والإجلال والحب، وحاجات فطرية أصيلة لعبادته والتماس الصلة به، وهذه الإحساسات والمشاعر الفطرية تشترك بالإحساس والشعور بها جميع الخلائق المدركة، على اختلاف نزعاتها، ومستويات ثقافاتهما، في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي متدنيات المثقفين، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات.

إنها صبغة الله، وفطرته التي فطر الناس عليها، هذه حقيقة بيّنها الله بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ﴾ (١٢٨)

وبقوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ولكن قد نجد هذه الفطرة مغشى عليها في نفوس بعض الملحدين، ولهذا الغشاء سبب، فالفطرة هذه لا تنطمس إلا في نفس من بالغ في الانحراف من الناس، بدافع غير أخلاقي، كالكبر والعناد، أو الرغبة بالفجور، والانطلاق في الأهواء والشهوات، مع التهرب من مشاعر العدالة الإلهية، وملاحقة الضمير الديني للسلوك. أو في نفس مُضللٍ لعبت بأفكاره وعبت بشهواته شياطين الإنس، من ذوي المصلحة الأساسية في نشر الإلحاد والكفر بالله في الأرض. ولكن المشاعر الفطرية لدى هؤلاء وأولئك تظل مكبوتة محرومة من التلبية وتنفيس الكرب الذي يتولد عن الكبت، ثم تحاول التنفيس بطرق غير طبيعية، وهذا التنفيس يظهر في صورة هستيريا عصبية انفعالية، مع الفن تارة، ومع الخمر والمخدرات تارة أخرى، ومع الانتحار أحياناً، ومع (الهيبة) أحياناً أخرى، وفي جنون الحرب، وفي جنون الانعزالية والانطوائية، وفي جنون العظمة وادعاء الربوبية، إلى غير ذلك مما لا يحصى .

ومع ذلك فإن هذه الفطرة فقد تتبقت في نفوس أعتى الكفرة والملاحدة المجرمين، وذلك حينما تشد عليهم مصائب الحياة، ويقعون في مخاطر محدقة بهم، ولا يجدون وسيلة مادية لدفعها، وهذا ما حصل لفرعون حينما أدركه الغرق فقال: «آمنت برب موسى وهارون آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل» .

وهذه صورة تتكرر في حياة الإنسان، كلما أحاطت به شدة لا يجد وسيلة مادية لتفريجها، وقد كشف الله عنها بقوله في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَرْ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾﴾ .

وكشف عنها سبحانه بقوله في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَبَنَ بِهِمْ رَبِّي رِيحَ طَبَإٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

هذا هو واقع الفطرة الدينية في النفوس الإنسانية، إلا أن الملحد (العظم) حاول تحويل هذه الفطرة عن الإيمان بالله وعبادته، إلى الإيمان بالمادة وعبادتها، بتوجيه المشاعر الدينية الفطرية نحوها، فبعد أن قال:

«لا أريد نسخ الشعور الديني في تجارب الإنسان من الوجود» .

قال:

«ولكن أرى من الضروري التمييز بين الدين وبين الشعور الديني، ذلك الشعور المسحوق تحت عبء المعتقدات الدينية التقليدية المتحجرة، وتحت ثقل الطقوس والشعائر الجامدة» .

يبدو أنه يلقي ما في فكره ونفسه من تحجر وجمود على المعتقدات الإسلامية والشعائر الدينية، حسبه جموداً وتحجراً أنه يرفض الحق المدعم بالأدلة الواضحة، ويكابد ويكدح وراء أوهام وخيالات لا دليل عليها.

يريد أن يجعل بدل الصلاة مثلاً (رقص الباليه)، وبدل الحج إلى بيت الله الحرام الحج إلى محنط (لينين)، وبدل ارتياد المساجد ارتياد المواخير والحانات، وبدل عبادة الله عبادة الأوثان والأشخاص، ليتخلص من الشعائر الدينية الجامدة بزعمه .

ولاني غيرة عليه — وعلى كل كافر بالله ملحد — أنصح به بأن يرتدع عن غيه، قبل أن ينزل الله به نقمته، ببلاء لا ينقذه منه أحد إلا الله .

إن ربك لبالمرصاد، وإنه لشديد العقاب، وإنه سبحانه يمهل ليفتح طريق

الرجعة إليه والتوبة والاستغفار، ولا يهمل، إنه يملي للكافرين، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وليسمع قول الله تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنَّا كِيدِيٍّ مَتِينٌ﴾ (١٨٣)

وقوله سبحانه في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٤)

* * *

الفصل السّاوس

صراع من أجل قضية الإيمان باليوم الآخر
والفكر الديني الصحيح حولها

(١)

اعتمد الناقد (د. العظم) في إنكار الآخرة، والبعث بعد الموت للحساب والجزاء على أقوال (برتراند رسل)^(١)، وزعم أن أقواله تلخيص للنظرة العلمية حول هذا الموضوع، مع أن (رسل) لم يقدم في كلامه إلا مجرد النفي الذي لا تدعمه أدلة علمية، ومعلوم أن النفي المجرد عن الأدلة المصححة للنفي يستطيع أن يفعله أي إنسان، إذ يستطيع أن ينفي به أية حقيقة من الحقائق، فهو لا يكلف صاحبه إلا أن يقول: (لا)، أو يرفع رأسه إلى الأعلى إشارة للنفي، لكنه بذلك يخسر أصل إنسانيته التي زانها العقل السليم، والمنطق المحاكم للأمور بميزان مستقيم.

قال (العظم) في الصفحة (٢٧) من كتابه:

«وفي مناسبة أخرى عندما سئل (رسل): هل يحيى الإنسان بعد الموت؟ أجاب بالنفي، وشرح جوابه بقوله: عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت. فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت — يبدو لي — بدون أي مرتكز أو أساس علمي. ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالي الذي يحدثه فينا الخوف من الموت. لا شك أن الاعتقاد بأننا سنلقى في العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب يعطينا أكبر العزاء عند موتهم، ولكنني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفنا وآمالنا، ولا أحسب أنه من الصواب والحكمة أن نعتق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية».

(١) سيجد القارئ دراسة لهذا الفيلسوف الملحد في الفصل (السابع) من هذا الكتاب.

لا بد أن نضع هذا الكلام للفيلسوف الإنكليزي الملحد تحت مناظير البحث المنطقي والعلمي، لنرى قيمته من الوجهة العقلية والعلمية.

ليس غريباً على (رسل) بعد أن اختار سبيل الإلحاد بالله، واعتبار الكون ظاهرة مادية بحتة، على خلاف ما قدمته الأدلة العلمية والعقلية في هذا المضمار، أن يصعب عليه - في الإطار المادي البحت - اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت.

وليس غريباً عليه بعد ذلك أيضاً أن لا يجد لعقيدة الحياة بعد الموت، وعقيدة الدار الآخرة للحساب والجزاء، مرتكزاً علمياً يستند إليه.

نعم، إن من ينكر حياة كائن ما بغير دليل يجد من الصعب عليه أن يكشف المبرر العقلي لوجود إرادة لهذا الكائن، لأن إرادته فرع لتصور حياته، وبعد إنكار الأصل يكون إنكار الفرع شيئاً طبيعياً، ومذهباً سهلاً، لكن هذا الإنكار لا يعبر عن الواقع بحال من الأحوال.

إن الإيمان بالحياة بعد الموت للحساب والجزاء في دار غير هذه الدار قضية خبرية، أي: ذات مستند خبري، وليست قضية عقلية بحتة حتى تبحث في نطاق العقل عن دليل يدل عليها دون الاستناد إلى الإيمان بالله. فلو أن عالماً من علماء الحيوان تحدث عن وجود حيوان بري غريب رآه بعينه، وأخذ يصف مشاهداته الحسية له، ثم جاء سماًك فقال: لا أجد المبرر العقلي لوجود هذا الحيوان الغريب الذي يتحدث عنه هذا العالم، لما كان كلامه أكثر سقوطاً من ناحية الاستدلال العلمي والعقلي من كلام (رسل) إذ أنكر وجود الحياة بعد الموت، في ظروف غير ظروف هذه الحياة الدنيا، على الرغم من أن هذا الرجل فيلسوف وعالم واسع الاطلاع، إلا أن الهوى قد يحول عقل الفيلسوف الكبير إلى عقل سماًك.

لقد أراد (رسل) أن يخضع الدار الآخرة والحياة الأخرى للمقاييس التجريبية التي تخضع لها ظواهر هذا الكون المادية، في ظروف الحياة الدنيا التي نعيش الآن فيها، مع أن الدار الآخرة والحياة الأخرى لا تخضع بطبيعتها لهذه المقاييس.

إن (رسل) بقياسه هذا يشبه من يزن الضغط الجوي بميزان البقال، أو يزن

الكثافة بميزان الحرارة، أو يقيس مقدار الذكاء بمساحة الجمجمة، أو يزن بحور الشعر بالسانتمتر.

ما هو مبلغ إنكار أي فيلسوف من الصحة إذا هو أنكر قراراً أصدرته دولة كبيرة قادرة، بأنها ستنشئ في برنامج خطتها لربع قرن مدينة نموذجية بديعة جداً، لا تُسكن فيها إلا الطبقة الصالحة الراقية من شعبها، وستنشئ سجوناً إصلاحية أو تأديبية تخصصها للجانحين والخارجين على قوانين الدولة؟!

فإذا قال فيلسوف كبير: لا أجد مبرراً عقلياً أو علمياً يؤكد أن منشأتين من هذا القبيل ستحدثان، أفيكون كلامه مقبولاً عند العقلاء الذين علموا بقرار الدولة؟

من البدهي أن استدلال (رسل) استدلال غير منطقي وغير علمي، وكشف هذا الزيف لا يحتاج إلى فلسفة راقية، وإنما تكفي فيه البديهة العقلية المسلّمة عند جميع العقلاء، وكان الأولى له أن يبيّن إنكاره لقضية الحياة بعد الموت والدار الآخرة على إنكاره لخالق الكون، فبما أنه جحد الأساس الأول فكل ما يأتي عنه من أنباء وأخبار وقرارات وأحكام مرفوض من وجهة نظره، وعندئذ تكون معالجته من مواقع هذا الأساس، لا مما يتفرع عنه ويبنى عليه.

واعتباره عقيدة اليوم الآخر والدار الآخرة ناشئة عن الصدى الانفعالي الذي يحدثه الخوف من الموت، إنما هو ثمرة من ثمرات جحوده للخالق، وتخيلُه أن هذا الكون كله، وما فيه من نظم رفيعة معقدة جداً، وما ظهر فيه من حياة وفكر، إنما هو نتيجة مصادفات عثرت عليها حركات ذرات الكون العشوائية، فهذه الحركات العشوائية تولّد عنها هذا النظام البديع، وهذا الوجود كله خال من أي أثر لعقل محرّك، وحياة ذات إرادة وخلق وتدبير.

فلما كان هذا الكون كله كذلك من وجهة نظره الملحدة الكافرة بالله الخالق المدبر الحكيم، كان طبيعياً أن لا يجد هذا الكون المادي الجاهل الأعمى الخالي من كل تدبير حكيم عليم مهتماً بالأمال والرغبات التي تقوم في نفوس الناس، ولذلك قال:

«ولكنني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفنا وآمالنا».

وحين نمعن النظر في الواقع والحقيقة نجد أن الملحدين هم الذين يريدون أن يكيفوا الكون وفق رغباتهم وأهوائهم، وذلك لأن الإيمان بالدار الآخرة والحياة الآخرة إيمان بمحكمة العدل الرباني، وما تستتبع من جزاء، وفي هذه المحكمة العظمى يحاكم الناس ويحاسبون على أعمالهم، والرغبات الإنسانية لو تركت وشأنها لحلا لها أن تتخلص من قانون الجزاء، حتى تنطلق في تلبية مطالب أهوائها وشهواتها دون أن تقف في طريقها حدود ولا ضوابط، فقضية الإنكار هي القضية التي تحاول إخضاع الواقع الكوني للأهواء والعواطف والرغبات، لا قضية الإيمان باليوم الآخر والحياة الآخرة، وقد كشف القرآن هذه الحقيقة من حقائق نفوس المنكرين، فقال الله تعالى في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرًا مَّا مُمِرَّ ۚ فَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ﴾

وبهذا التحليل يتبين لنا أن الأمر على عكس ما ادعاه (رسل)، إذ إن عقيدة الدار الآخرة عقيدة قائمة على مفهوم الجزاء والعدل، والإنسان ميال بأهوائه وعواطفه إلى أن يصرف عن تصوره قانون العدل الإلهي وما يتصل به، لينطلق في الحياة الدنيا انطلاقاً فاجراً، دون أن تقف في طريقه تصورات قانون العدل، لكن الله غير مستعد لأن يغير من سننه وأحكامه ومقاديره القائمة على أسس من علمه وحكمته وعدله ورحمته وفضله، تلبية لأهواء وشهوات الجانحين الفاجرين.

فما حاول أن يستند إليه (رسل) هو في الحقيقة دليل ضده، وليس دليلاً له، هذا إذا قبلنا بالمنهج الذي سلكه في الاستدلال.

على أن مناقشتنا لمنكري الآخرة تغدو عقيدة ما داموا مصرين على جحود الخالق، واعتبار هذا الكون كله مظهراً لأصل مادي صرف، ونتيجة لحركات عشوائية قامت بها ذرات هذا الأصل المادي، جل ما نستطيع أن نناظرهم به هو إمكان العودة إلى الحياة لا إثباتها جزماً، وإفساد مذهبهم المادي من أساسه، بإثبات عالم آخر غير هذا العالم المادي الخاضع للتجربة الحسية، والقياس بالأجهزة.

والأفضل من ذلك العودة إلى مناظرتهم حول الأساس الأول، وهو قضية الإيمان بالله تبارك وتعالى .

لكنهم متى قبلوا التسليم الكلي أو الجزئي بعقيدة الإيمان بالله تعالى فإننا حينئذ نستطيع أن نجد سبلاً متعددة لمناقشتهم، ونستطيع أن نقدم لهم المبررات العلمية والعقلية، التي تدعم قضية الإيمان بالحياة الآخرة والدار الآخرة للحساب والجزاء .

إن الحقائق الكبرى في الوجود تبدأ من منطلق واحد، وحين يتعذر الاتفاق على هذا المنطلق فإن الاتفاق على ما يبنى عليه أكثر تعذراً، بل قد يغدو أمراً مستحيلاً .

إن من لا يؤمن أساساً بقانون العدد من الواحد فما فوق من المستحيل منطقياً مناقشته في قواعد الأعمال الحسابية . ومن هو مصاب بعمى الألوان فهو لا يرى أيّاً منها ويجحدّها يستحيل مناقشته في أجمل الألوان وأكثرها إرضاء للذوق . ومن يجحد مبدأ الحق من أساسه يغدو من العبث مناقشته ومناظرته حول حق المال، أو حق الحياة، أو حق العرض والكرامة، أو أي فرع من فروع الحق . ومن يجحد مبدأ الخير والفضيلة من أساسه يستحيل مناظرته حول فروع الخير والفضيلة، ما لم يكن متناقضاً مع نفسه، يسلم ببعض الفروع دون أن يسلم بالأصول وبالفروع الأخرى، وحينئذ يمكن جذبه عن طريق الإلزام، ونقله من الفروع التي يسلم بها إلى الأصول، وهذا من أساليب المناظرة البارعة .

(٢)

أما الذين يسلمون تسليماً كلياً أو جزئياً بعقيدة الإيمان بالله تعالى، إلا أنهم ينكرون البعث والحياة الأخرى، أو يشكّون بذلك، فإننا نستطيع أن نقيم لهم عدداً من الأدلة، ونناقشهم بجملة من المناقشات .

ومفتاح الأدلة النظرية لهذا الموضوع موجود في قول الله تعالى في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ .

إن الوجود الإنساني كله عبر تاريخه الطويل يمسي مسرحية من مسرحيات
العُتب، لو أن حياة الإنسان تنتهي كلها في ظروف هذه الحياة الدنيا، ثم لا شيء
وراءها .

أين تحقيق قانون العدل الإلهي في ظروف هذه الحياة الدنيا؟

إنه إذا لم يوجد فيها بصورة مستوفية فلا بد أن يوجد في يوم آخر وحياة أخرى
أعدها الله للحساب والجزاء، وإلا كانت عملية خلق الإنسان على هذا الوجه
المقرون بحرية الإرادة للإنسان، والتي كان من نتائجها تاريخ مشحون بالجرائم
والظلم والعدوان والمصائب الكثيرة، عبثاً من العُتب، وقد تعالى الله الملك الحق
ذو الحكمة والعدل والكرم عن ذلك علواً كبيراً، لا إله إلا هو رب العرش الكريم .

إن المنطق الحق والضمير النقي ليشعر بداهة - ولو لم تنزل آيات الوعد
والوعد، وأنباء اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء - بأن مرحلة حياتية غير هذه
المرحل لا بد أن يتم فيها تحقيق العدل الإلهي، ولا بد أن يلاقي الناس فيها جزاء
أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولئن كنا نشاهد أن بعض تطبيقات العدل
الإلهي جارية في ظروف هذه الحياة الدنيا، ضمن سنن الله الثابتة، فإن الصورة
الكاملة للعدل غير مستكملة في هذه الحياة، ولذلك كانت الضرورة الأخلاقية
والإيمانية تقضي بأن نفهم أن الله قد أعدَّ ظروف حياة أخرى غير هذه الحياة، لإقامة
عدله سبحانه .

وقد تأمل كثير من أهل الفكر والنظر في ظروف هذه الحياة الدنيا دون ملاحظة
الآخرة وما فيها من جزاء، فأروا أن تاريخ الإنسان فيها صورة للجرائم والمصائب،
وتهريج لا جدوى منه، وسجل للجرائم والحماقة وخيبة الأمل، وقصة لا تعني شيئاً،
ونحو ذلك .

قال فولتير: «إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب» .

وقال هربرت سبنسر: «إن التاريخ تهريج وكلام فارغ لا جدوى منه» .
وقال إدوارد جين: «إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم
والحماقة وخيبة الأمل» .

وقال نابليون: «إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئاً» .
وقال هيجل: «إن الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة
التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئاً»^(١) .
ويعلق المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان) في كتابه «الإسلام يتحدى» على
هذه الأقوال بعد أن أوردها، فيقول:

«هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهي إلى كارثة أليمة؟ إن فطرتنا تقول:
لا . . فدواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تقتضي عدم حدوث هذا
الإمكان، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل، ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا
ثمارهما، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ، كما لا يمكن إبعاده
عن فطرة الإنسان .

إن هذا الفراغ الشاسع الذي يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضي ما يشغله .
إن المسافة الهائلة بين ما يحدث وبين ما ينبغي أن يحدث تدل على أن مسرحاً آخر
قد أعد للحياة، وأنه لا بد من ظهوره، فهذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل
الحياة . . .

إذا لم تكن هناك قيامة فمن ذا الذي سوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت
الطغاة؟» .

والواقع أن هذه المشاعر مشاعر فطرية ونظرية لا تنكر، وهي الهادية إلى
تصور الحياة الأخرى لإقامة العدل الإلهي الأكمل .

(١) هذه الأقوال مقتبسة من كتاب «الإسلام يتحدى»، للمفكر الإسلامي وحيد الدين خان،
ص ١٤٢ - ١٤٣ .

من هذه النظرات تبين لنا أن مفتاح الدليل النظري لقضية الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء قول الله تعالى في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) .

وقد اهتدينا من هذا المنطلق الفكري الذي نبه عليه مفتاح هذا الدليل النظري إلى أن الإيمان بالآخرة ضرورة أخلاقية، تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي والفضل الإلهي .

ومعلوم أن العدل الإلهي والفضل الإلهي من الأسس المرتبطة جذرياً بعقيدة الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى .

وهذا الدليل النظري القاضي بأن الإيمان باليوم الآخر ضرورة أخلاقية، تقتضيها مفاهيم العدل والفضل الربّانيين، قد أعطانا القرآن الكريم عدة مفاتيح إليه، فمن أحسن فهم هذه المفاتيح، وأدرك العلاقة بينها وبين أبوابها النظرية وما ترشد إليه، استطاع أن يجد الدليل العقلي الذي يدلّه على أن من القضايا الحتمية في الوجود قضية اليوم الآخر، لإقامة الجزاء الحق، وتحقيق صفتي العدل والفضل من صفات الله التي قامت عليها براهين العقل .

هذا إنما يظهر في مفاهيم من استطاع أن يتوصل إلى الإيمان بالله وصفاته بالأدلة العقلية والعلمية، وتابع نظره مشوقاً لبلوغ الحقيقة، ولم تقف في نفسه عوائق التعصب أو عوائق الرغبة بالفجور .

ولدى تتبع المفاتيح القرآنية لهذا الدليل النظري نستطيع أن نظفر بمجموعة من النصوص منها:

(أ) قول الله تعالى في سورة (القلم / ٦٨ مصحف / ٢ نزول):

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٦) .

(ب) وقول الله تعالى في سورة (الجاثية / ٤٥ مصحف / ٦٥ نزول):

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٦١) .

(ج) وقول الله تعالى في سورة (القيامة) / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُضَعَّى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الذَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾ .

(د) وقول الله تعالى في سورة (ص) / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ .

(هـ) وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء) / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلًا تَخَذُ مِنْهُ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

(و) قول الله تعالى في سورة (الدخان) / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنُؤَيِّدُ بَآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْءٍ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ .

فهذه النصوص القرآنية مفاتيح تفتح أمام الفكر الإنساني الذي آمن بالله الخالق أبواب الدليل النظري، الذي يجعل قضية الإيمان باليوم الآخر قضية حتمية في مدركات العقل الصرف بعد الإيمان بالله جل وعلا.

وذلك لأن من آمن بالله الخالق عن طريق النظر الفكري في آثار صنعته في الكون وفي الأنفس، فإنه لا بد أن يهتدي إلى كمال صفاته جل وعلا، ومنها علمه وقدرته وحكمته وعدله، وهذه الصفات لا بد أن تهدي الباحث المؤمن بالله إلى أن الله لم يخلق هذا الكون وما فيه ليكون مسرحية من مسرحيات اللعب أو اللهو والعبث الباطل، وإنما خلقه لغاية، يعرف الإنسان في حدوده من هذه الغاية، أن الله قد خلقه مزوداً بخصائصه ليمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا، وليبلو إرادته، ولكل امتحان نتيجة وغاية، وإذا لم تظهر هذه النتيجة والغاية في ظروف هذه الحياة الدنيا، فلا بد أن يكون العليم القادر الحكيم العدل قد أدّخر إظهار هذه النتيجة والغاية وتحقيق مقتضياتهما إلى حياة أخرى، هذا ما توجهه نظرياً مقتضيات العقل السليم والفهم المستقيم.

فلولا ترتيب يوم الدين هذا في هذا الوجود، لكان خلق هذا الكون وفق ظروفه الحالية مظهراً من مظاهر اللعب أو اللهو والعبث الباطل.

لكن الله العليم الحكيم القادر لا بد أن يكون منزهاً عن اللهو واللعب والعبث، إن أعماله كلها هادفة لحكم عظيمة وغايات جلية، قد ندرك طرفاً منها ويخفى عنا منها الكثير.

ولذلك رأينا في النصوص القرآنية أن الله تبارك وتعالى قد نفى عن أفعاله اللهو واللعب، فذلك لا يليق بكمال صفاته سبحانه.

فحينما يجعل الفيلسوف الملحد (برتراند رسل) هذا الكون كله مسرحية من مسرحيات اللهو والعبث، فإنما يخالف في ذلك مقتضيات المنطق السليم والجدية المهيمنة على هذا الكون، وقد جره إلى ذلك إنكاره وجود الخالق، واعتباره الكون كله ظاهرة للحركة العشوائية التي قامت بها مادة الكون الأولى في سحيق الأزمان، وأنتج ذلك عنده أنه ليس لهذا الكون غاية مرسومة، ولا حكمة مقدرة، وأنه عبث من عبث المادة التي لا حياة فيها. ونسي أنه لا شيء في هذا الكون المدروس متمسك باللعب واللهو والعبث، وأن كل شيء فيه خاضع لقوانين جادة صارمة، ولنسن ثابتة قاسية.

ألم يخطر في ذهنه أن هذه الجدية الظاهرة في كل شيء من هذا الكون المدروس لا بد أن تلازمه وتصاحبه إلى ما وراء المجال المدروس منه؟

إن هذه الجدية الملاحظة في الكون لا تدع مجالاً لتصوّر اللعب واللهو والعبث. وفي اللحظة التي تسقط فيها تصوّرات اللعب واللهو والعبث عن هذا الكون تبدأ التصورات الصحيحة الباحثة عن الغايات التي تهدف إليها المقادير العظمى. وهذا هو مفتاح النور لإدراك الحقيقة الدينية التي لم يرد الملحدون أن يدركوها تعنتاً وعناداً واستكباراً ورغبة بالفجور، ولذلك أنكروا الامتحان والجزاء واليوم الآخر، بعد أن جحدوا الخالق جلّ وعلا، وربما جحدوه لأنهم أرادوا أن يبعدوا عن تصورهم قانون الامتحان والجزاء، لينطلقوا في أعمالهم الفاجرة المجرمة دون خوف من النتائج الوخيمة، والعواقب الوييلة.

ومن هذا نستطيع أن نتبين السلسلة الفكرية الإيمانية، فهي تسير على الوجه التالي :

١ — دراسة الكون والحياة والإنسان تهدي إلى الإيمان بالخالق العظيم، القادر العليم، العدل الحكيم.

٢ — دراسة الغاية من الخلق التي تهدي إليها ملاحظة الكون، وأحداثه الكبرى، وقوانينه الصارمة، وسننه الثابتة، لا تدع مجالاً لتصوّر اللعب واللهو والعبث في أي حدث من أحداثه، بل كل ما فيه جدّ لا هزل يصاحبه، ولا عبث يخالطه.

٣ — دراسة العلاقة الأخلاقية والتكوينية بين الخالق الحكيم والإنسان المدرك المرید، تهدي إلى أن الإنسان خلق في هذه الحياة للامتحان، والامتحان يستلزم الجزاء في جدية قوانين الوجود وسننه الثابتة.

٤ — دراسة الظواهر الجزائية في نطاق هذا الكون المدروس المشاهد تدل على أن كمال مقتضيات العدل وكمال مقتضيات الحكمة لم يتحققا فيه، وهذا يهدي — مع ملاحظة صفات الخالق العظيمة التي منها العدل والحكمة ومع ملاحظة قوانينه الصارمة وسننه الثابتة في الكون — إلى أن حياة أخرى قد رتبت في

برنامج الوجود الكبير، لإقامة كمال العدل وكمال الحكمة فيها، وفيها يتم تحقيق الصورة المثلى للجزء الرباني .

بهذه الدراسة النظرية المتسلسلة على هذا الوجه، والمدعّمة بالأدلة العقلية، المستندة إلى دراسة ظواهر هذا الكون المشاهد، استطعنا أن نهتدي إلى ضرورة اليوم الآخر، وإلى الإيمان به .

ولكن كيف يكون هذا اليوم الآخر وعلى أية صورة؟
إن الدراسة النظرية لا تسمح لنا بالتحديد، وذلك لأن الاحتمالات النظرية كثيرة جداً، ولا سبيل إلى ترجيح بعضها على بعض، ومن أجل ذلك كان لا بدّ لنا من أن نلتمس مفاهيم النصوص الدينية الثابتة لتخبرنا بذلك، وليس لنا أن نتخيل صورة من عند أنفسنا أو نضيف صوراً من عند أنفسنا إلى ما جاءت به النصوص الدينية الثابتة في القرآن الكريم وفي أقوال الرسول صلوات الله عليه .

(٣)

شرح المفاتيح القرآنية للدليل النظري الدال على الحياة الأخرى

اكتفيت في الفقرة السابقة بعرض المفاتيح القرآنية للدليل النظري القاضي بضرورة الحياة الأخرى للناس في خطة الوجود، لاستيفاء كمال العدل الإلهي، والجزاء الأمثل، وهو ما تقضي به قواعد الإيمان بالله وكمال صفاته، التي دلت عليها ظواهر هذا الكون المتقن المحكم الهادف إلى تحقيق غاية تناسب حكمة الخالق العظيم .

واعتمدت هناك على عرض المفاهيم العامة المستفادة من هذه المفاتيح، لأفرداها في فقرة خاصة أولى فيها كل نص منها نظرات تدبر ويبحث واستنباط .

وفيما يلي شرح لهذه النظرات :

(أ) النص الأول :

قول الله تعالى في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول) :

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ .

فهذا النص يكشف لنا أنه لو لم يكن وراء هذه الحياة التي تنتهي بالموت حياة أخرى، تكون فيها الرجعة إلى الله للحساب والجزاء وإقامة محكمة العدل والفضل الإلهية، لكانت عملية هذا الخلق ضرباً من العبث، والله تبارك وتعالى منزّه عنه، فلا يكون في شيء من أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه وشرائعه هذا العبث، بل لا بد في كل ذلك من غايات حكيمة تحددها إرادة الخالق المستندة إلى علمه المحيط بكل شيء، والجديّة الصارمة هي المظهر البارز في كل أحداث الكون وقوانينه وسننه، وإشارة إلى كون الله منزّهاً عن العبث في عمليات الخلق التي يجريها قال الله تعالى في هذا النص: ﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ .

ولما كان احتمال العبث احتمالاً مرفوضاً عقلياً كان لا بد من وجود حياة أخرى تظهر فيها تطبيقات الغاية من الحياة الأولى، وهذه الحياة لا بد أن تكون مقررة في برنامج المقادير الربانية، إن الله هو الملك الحق الذي لا إله إلا هو، وبهذا نلاحظ أن هذا النص قد أعطى الفكر الإنساني مفتاح البحث النظري لهذه الحقيقة .

(ب) النص الثاني :

قول الله تعالى في سورة (القلم / ٦٨ مصحف / ٢ نزول) :

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ .

من الواضح أن ظروف هذه الحياة التي نعيشها قد تسمح للمجرمين بأن يعيشوا فيها عيشاً رغداً ناعماً، يُصيبون فيه المال والجاه والسلطان واللذات، كما قد تسمح للمسلمين أهل الاستقامة بمثل ذلك، وقد تسمح بأن يتمكن الفاجر من قتل التقى وظلمه وتعذيبه، واستلاب ماله والعدوان عليه في أرضه أو عرضه، وقد لا يلقي الفاجر جزاءً معجلاً على فجوره، بل قد يمهل وتأتيه منيته دون أن ينال شيئاً

من جزائه، فلولا أن حياة أخرى غير هذه الحياة قد أعدت في برنامج المقادير الربانية لإقامة الجزاء الذي توجبه حكمة الخالق، لكانت النتيجة الحكم على الخالق بأنه قد رضي بأن يجعل المسلمين كالمجرمين سواء محياهم ومماتهم، وهذا يتنافى مع أصول العدل والحكمة الإلهية، لذلك فهو مرفوض عقلاً، ولما كان هذا الاحتمال مرفوضاً فإن الاحتمال المقابل له — وهو وجود الحياة الأخرى التي يتحقق فيها التمييز بين المسلمين والمجرمين — هو الأمر الحتمي الذي لا مناص من اللجوء إلى إدراكه عقلياً، والتسليم به عقيدة، وهو طبعاً الاحتمال الذي قرره النصوص الدينية وأخبرت به .

وتفسير العملية كلها يتضح بأن هذه الحياة كلها لا تزيد على أنها مجال مفتوح لامتحان الناس على سواء، كقاعة الامتحان حينما يدخلها الدارسون المجتهدون والهازلون الكسالى، والمتلاعبون الظالمون.

من المتحتم أن القصة لا تنتهي بانتهاء المدة الزمنية للامتحان، بل لا بد من زمن آخر تعلن فيه النتائج، وينال فيه كلٌّ على مقدار عمله .

فمن أجل ذلك جاءت الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ ما لكم كيف تحكمون؟﴾ دلالة على أن إنكار الحياة الأخرى وما فيها من جزاء يفضي إلى اتهام حكمة الخالق بالتسوية بين المسلمين والمجرمين، وهو أمر مرفوض رفضاً قطعياً، وقد تنزه الخالق عنه وتعالى علواً كبيراً.

إن أحدنا لا يقبل أن يُسوّى في أحكامه بين الظالم والمظلوم، أو بين المحسن والمسيء، أو بين المجتد والكسول، أو بين العالم والجاهل، ولو فعل ذلك واحد منا لكان سمةً نقص كبير في أخلاقه. أفنكرم أنفسنا عنه ونرضاه للخالق جل وعلا؟

إنه أمر مرفوض بداهة، ورفضه يعني حتمية اليوم الآخر والحياة الأخرى.

(ج) النص الثالث:

قول الله تعالى في سورة (الجاثية) ٤٥ مصحف / ٦٥ نزول):

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ تَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

إن هذا النص القرآني يكشف لنا عن حقيقة فكرية مهمة جداً، وهي أن مقتضيات العدل الإلهي توجب التسليم بأن التسوية في الجزاء بين الذين اجتروحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات قضية مرفوضة حتماً، لأنها تتنافى مع صفتي عدل الله وحكمته الثابتتين بالدليل العقلي، والثابتتين أيضاً في ظواهر شتى من واقع حياتنا المدروسة، وإذا كانت هذه التسوية مرفوضة عقلاً فما بالنا نلاحظ في هذه الحياة أن كثيراً من الذين يجترحون السيئات ينالون منها مثل ما ينال منها الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو أكثر في بعض الأحيان، وأن كثيراً من الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد تتوالى عليهم المصائب والآلام؟ فأين تطبيق قواعد العدل والحكمة الإلهية؟

وهنا يأتي الجواب العقلي الذي لا يحتاج إلى بحث وتأمل كثيرين:

إن هذه الحياة ليست نهاية قصة حياة الإنسان، ولكنها فصل منها، ومرحلة قصيرة أعدت في برنامج الوجود الكبير لغاية الابتلاء، ولا بد حتماً من ظروف حياة أخرى تأتي بعد انتهاء هذه الحياة الدنيا التي أعدت للامتحان، وعندئذ تظهر تطبيقات قواعد العدل الإلهي، وتظهر مراحل الجزاء، وهنا نبهنا هذا النص القرآني على أن تطبيق قواعد الجزاء يبدأ مع بداية مرحلة الموت، الذي هو عملية انفصال بين الروح المدركة المحسنة، وبين الجسد الذي هو ثوب هذه الروح في حياتها الأولى.

ومع بداية هذه المرحلة الجديدة من وجود الإنسان تظهر الفوارق القائمة على العدل والحكمة بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين اجتروحوا السيئات.

إن ما لم يظهر اليوم في مرحلة الامتحان لا بد أن يظهر غداً في مراحل الجزاء.

فهذه الآية تشير إلى التطبيقات الجزائية التي تكون في مدّة الحياة البرزخية بعد الموت وقبل البعث، وهو ما يطلق عليه نعيم القبر وعذابه.

(د) النص الرابع :

قول الله تعالى في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول) :

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَيِّ يُمْنٍ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾ .

من الواضح أن هذا النص يشتمل على المفتاح الفكري لاكتشاف الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟!﴾ .

أي : إنه لم يُخلق في هذه الحياة ليأكل ويشرب ، ويتمتع ويظلم ، ويظلم ويفسد في الأرض ، وينزل الآلام بالآخرين ويكفر بربه ، ثم يترك سدى دون جزاء عادل ، أو ليستقيم ويعمل الصالحات ، ويعدل بين الناس ويحسن إليهم ، ويمسح عنهم الآلام ويعبد ربه ، ثم يترك سدى دون جزاء كريم .

إن هذا الظن من الإنسان لأمر عجيب ، أفيظن ما لا يليق بعدل الخالق وحكمته؟ أفيظن ظناً تقوم براهين العقل ودلائل الواقع على نقيضه؟

إن الإنسان في هذا الوجود لن يترك سدى بعد ظروف هذه الحياة التي يعيشها ، والتي لو كانت نهاية قصة حياة الإنسان لكانت حياة لا معنى لها ولا مغزى . وهل يليق بحكمة الخالق العظيم القادر العليم أن يخلق خلقاً باطلاً لا مغزى له؟ إن هذا ضرب من اللعب واللهو والعبث ، والله تبارك وتعالى منزّه عن ذلك ، إن كل أمره جد لا هزل فيه .

وإذا ثبت بالدليل النظري أن الإنسان لن يترك سدى فلا بد من ظروف حياة غير هذه الحياة يتم فيها تحقيق الغاية من خلق الإنسان ، ويتم فيها تطبيق قواعد الجزاء الرباني وفق مقتضيات الحكمة والعدل والكرم .

وحينما يبدأ الجاهل قصير النظر يشك في قدرة الله على إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت في النشأة الأخرى ، فلينظر إلى واقع النشأة الأولى ، إنها تعطيه برهاناً تجريبيّاً يثبت له أن من أنشأ النشأة الأولى قادر على أن ينشئ النشأة الأخرى ، نشأة الإعادة ، وهي في التحليل النظري أهون من نشأة الابتداء ، وقد لفت

النص نظر الإنسان إلى هذا البرهان التجريبي فقال تعالى : ﴿ألم يك نطفة من مني
يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر
على أن يحيي الموتى؟﴾ بلى وهو الخلاق العليم .

(هـ) النص الخامس :

قول الله تعالى في سورة (ص/ ٣٨ / مصحف / ٣٨ نزول) :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ
النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ
كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ .

فحينما يرفع الجاحدون تصورات الحياة الأخرى من أذهانهم تغدو هذه الحياة
في تصورهم عملاً باطلاً لا معنى له ، وتغدو مسرحية من مسرحيات اللعب واللهو
والعبث .

هذا ما صرح به كبار مفكرهم ، وذلك تصور الذين كفروا وظنهم القائم على
أساس باطل هو جحود الحق والكفر به ، فويل لهم من أحداث هذه الحياة الأخرى
حينما يجدونها حقيقة واقعة ، ويجدون أنفسهم في النار يعذبون .

أما المؤمنون فإنهم يدركون الغاية من خلقهم ، ويعلمون أنهم في هذه الحياة الدنيا
في ظروف امتحان لإراداتهم بين يدي خالقهم ، وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى
خالدة يكون فيها الجزاء الأمثل ، وتظهر فيها حكمة الله من الخلق ، لذلك فهم
لا يرون خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً . ويهديهم إلى هذه الحقيقة أنه
من غير الممكن في الاحتمال العقلي أن يجعل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات
كالمفسدين في الأرض ، وأن يجعل المتقين كالفجار ، فتكون نهاية الجميع
بالموت ، ولا شيء بعد ذلك من حساب ولا جزاء ، إن هذا العبث لا يفعله من يقيم
دورة مسابقة رياضية ، فضلاً عن أن يفعله الخالق القادر العليم الحكيم العدل ذو
الفضل العظيم .

(و) النص السادس :

قول الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول) :
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوَ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَتَّخِذَنَّهُ مِنْ
لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

جحد المشركون الحساب واليوم الآخر، وجرّهم ذلك إلى إنكار رسالة محمد ﷺ وما جاء فيها من وعد ووعد، وكان معنى جحودهم هذا أن الحياة الإنسانية ليس لها إلا ظروف هذه الحياة المشاهدة المدروسة للإنسان، وبالموت تنتهي القصة نهاية تامة، ثم لا شيء وراء ذلك، مع أن هذا الفصل المشهود من حياة الإنسان مليء بأحداث الظلم والبغي الإنساني، ومشحون بالجحود والكفر والاستكبار والعناد، والعدوان والفساد، وكثيراً ما تنتهي حياة أصحاب هذه الأحداث دون أن يلقوا في الحياة الدنيا جزاءهم العادل، وحينما يصيب بعضهم بعض جزائه فإن كامل جزائه لا يناله، وفي مقابل ذلك نجد في هذا الفصل المشهود من حياة الإنسان دعاة خير مضطهدين، وطيبين صالحين معذبين، ومؤمنين مصلحين غير مكرمين، وكثيراً ما تنتهي حياة هؤلاء دون أن يُنصفوا من خصومهم، ودون أن يلقوا ثوابهم أو كامل ثوابهم.

أفيصح في ميزان العقل أن يقتصر حكيم قادر عليم على مشاهد هذا الفصل من عملية الخلق التي أنشأها، دون أن يكون وراءه فصل آخر أو عدة فصول تتحقق فيها النتائج المنطقية للفصل الأول، وتظهر فيها الحكمة المناسبة لمستوى الحكيم الذي ربّ ظروف الفصل الأول بإتقان تام؟

لو شهدنا مثل هذا الفصل في تمثيلية من وضع الإنسان لقلنا لا بدّ أن فصلاً أو فصلاً أخرى ستأتي بعده، حتى تنتهي القصة إلى نهاية معقولة تظهر فيها الغاية، ويتحقق فيها معنى الجزاء، ويبرز فيها المضمون الأخلاقي، في توجيه غير مباشر.

فلو أن كاتب القصة أو مخرج التمثيلية قد اقتصر على الفصل الأول منها، فماذا يقول العقلاء عنه؟

إذا كان هذا الفصل فصلاً فكاهياً فإنهم يقولون عنه : كاتب هزلي ، يريد أن يضحك المشاهدين بألعبه ومشاهد اللهو التي رتبها ، وإذا لم يكن فصلاً فكاهياً فإن كان فيه شيء من الجرائم والفساد فإنهم يتهمون به بأنه يريد التشجيع على الجرائم والفساد ، واستخدام القوى وأنواع الحيلة لنشر الظلم والعدوان في الأرض ، إذ لم يمه تمثيليته بمضمون أخلاقي كريم ، يتحقق فيه الجزاء الرادع القاسي للمجرمين والمفسدين ، والنهاية الطيبة السعيدة للصالحين المستقيمين .

فما بال الذين ينكرون اليوم الآخر يقولون في تصورهم أن تكون قصة حياة الإنسان تنتهي بنهاية الفصل الأول منها ، مع أن هذا الفصل لم يتحقق فيه الغاية ، ولم يتحقق فيه الجزاء ، وهو فصل مأسوي (درامي) جاد لا أثر للهزل فيه ؟

أفيريدون أن يجعلوا الله العليم الحكيم القادر لاعباً بآلام الناس ومشاقهم ومتاعهم في هذه الحياة ؟ أو هازلأ بعواطف المؤمنين به المطيعين له الساعين في مرضاته ، والباذلين كثيراً مما يشتهونه ويحرصون عليه في سبيله ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

هذه هي النقطة الفكرية التي نبه هذا النص القرآني عليها ، وناقش منكري اليوم الآخر ومنكري رسالة الرسول على أساسها .

فقد عرضت سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول) قضية الحساب ، فقال تعالى :

﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

وقضية الرسول والكتاب ، فقال تعالى :

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَّاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ثم بعد هذا وبعد مناقشات له جاء قول الله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾﴾

أي: لو كانت قصة هذه الحياة تنتهي بحادثة الموت التي يختتم بها هذا الفصل لكانت عملية خلق السماء والأرض وما بينهما لعباً من اللعب.

أفيكون العليم الحكيم القادر لاعباً لاهياً هازلاً في كل الأحداث الجادة المشحونة بالمتاعب والآلام في هذا الفصل؟

أم لا بد أن يكون قد رتب فصلاً أو فصلاً أخرى، ستظهر فيها غاية عمله ومقتضيات حكمته؟

العقل يقضي بأنه لا بد أن يكون في برنامج الوجود فصل أو فصول متعددة وراء هذا الفصل الأول.

وهذا ما جاءت النصوص الدينية تدعو إلى الإيمان به وتكشف بعض ما هو داخل في برنامجه من تفصيلات.

ومن بدائع المناقشة القرآنية لهذا الموضوع قول الله تعالى في هذا النص:

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

فالله في هذا ينتزل إلى مستوى عقول هؤلاء المنكرين لليوم الآخر والمنكرين للرسالة، إذ لزم من مذهبهم أن تكون عملية خلق السماء والأرض وما بينهما ضرباً من اللعب واللهو والعبث فيقول لهم: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾، أي: لكننا اتخذنا لهم بعيداً عن مخلوقات ذات إحساسات وعواطف وانفعالات، وآلام وآمال، وأكدار ومسرات، ولما كان من العدل والرحمة والحكمة أن نعبث هذا العبث بهذه الأحياء المدركة المحسنة، فنلهو بآلامها، ونعبث بأكدارها، ونلعب بعواطفها وانفعالاتها، وحبها وذليها وعبادتها، لو أردنا لكننا نفعل هذا اللهو بعيداً عنها، ولا نجعلها ساحة عبثنا، هذا إن كنا فاعلين شيئاً من ذلك، لكن اللعب واللهو والعبث ليس من شأننا.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، إن كل أفعاله سبحانه تشتمل على حِكم

يريدها، وهذه الحِكم والغاياتُ جليلة تناسب مستوى علمه وحكمته وقدرته سبحانه .

ولما كان مذهب المنكرين يستلزم اتهام الخالق سبحانه بالعبث في خلقه كان لا بد من تهديد لهم بالويل على ما يصفون الله به ، فقال تعالى لهم :

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) .

(ز) النص السابع :

قول الله تعالى في سورة (الدخان / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول) :

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ (٣٤) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَأَنذَرْنَا بَآئِنًا﴾ (٣٦) ﴿أَنَّهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٣٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِغْيَاءٍ﴾ (٣٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٢) .

هذا النص يحكي لنا مقالة منكري الآخرة إذ قالوا : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ .

وفي نص آخر حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

ففي سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) :

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٦٩) .

وفي سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول) ، قال الله تعالى يحكي لنا مقالة عاد قوم هود لرسولهم ، أو مقالة قوم صالح :

﴿هَٰئِهِتَاتَ حَيَاتٍ لِّمَا تُوعَدُونَ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧) .

وفي سورة (الجاثية / ٤٥ مصحف / ٦٥ نزول)، قال الله تعالى يحكي لنا
مقالة الدهريين، وهم ملاحدة القرون الأولى :

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِأَبْنَاءِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ومهما تنوعت أقوال منكري الآخرة فهي تتلخص بأنهم يزعمون أن قصة الحياة واحدة تنتهي بالموت ثم لا شيء وراءه، وليس لهم حجة في الإنكار إلا المطالبة بالمشاهدة الحسية للحياة بعد الموت، فقالوا لرسولهم: أعيّدوا لنا آباءنا إلى الحياة حتى نؤمن بما تقولون، وتوقفوا عند المطالبة بالدليل الحسي التجريبي، وحجّبوا عقولهم عن إدراك الدليل النظري الذي يجعل قضية الحياة الأخرى قضية ممكنة بحد ذاتها، فإذا نظرنا إليها من زاوية حكمة الخالق الحكيم، ومن زاوية واقع هذه الحياة الدنيا كانت قضية حتمية الوقوع، فهي المرحلة التي يتم فيها بقية برنامج خلق الإنسان وفق الصورة التي أَرادها الخالق الحكيم، وإلا كان برنامجاً ناقصاً أشبه ما يكون باللهو والعبث، والله الحكيم العليم القادر منزّه عن أن يعد برنامجاً ناقصاً لا يليق بكماله سبحانه، أو أن يقتصر على فصل منه يُعدّ الاقتصار عليه ضرباً من اللعب.

يدرك هذه الحقيقة كل عاقل درّاك منصف.

ولما كان إنكار الكافرين لليوم الآخر يتضمن عنصرين:

العنصر الأول: إنكار الجزاء.

العنصر الثاني: إنكار الحياة بعد الموت.

وجدنا أن النص القرآني الذي نتدبره يشتمل على معالجة هذين العنصرين جميعاً.

أما العنصر الأول فقد جاءت معالجته بعرض أمثلة تاريخية تم فيها تحقيق بعض الجزاء المعجل لأمم سالفة، عاقبهم الله في الدنيا على كفرهم وتمردهم على

رسلهم، ومعلوم أن تحقيق نماذج من الجزاء المعجل لا بد أن يلفت الانتباه إلى قانون الجزاء بوجه عام، ولا بد أن ينبه أيضاً على أن ما لم يتحقق منه في ظروف هذه الحياة الدنيا سيتحقق حتماً في ظروف حياة أخرى.

وقد دل على هذا قول الله تعالى في هذا النص من سورة (الدخان):

﴿أَهْمُ خَيْرًا مِّمَّ قَوْمٌ تَبِعُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: كان إهلاك الله لهم على صورة فيها تعذيب عام بسبب أنهم كانوا مجرمين.

وأما العنصر الثاني فقد جاءت معالجته بلفت النظر إلى أن مقتضيات حكمة الخالق تقضي بأنه من غير الممكن أن تكون هذه الحياة الدنيا هي نهاية قصة وجود الإنسان، وذلك لأنه لو كانت حياته هذه هي كامل قصة وجوده ونهايتها لكان خلقه ضرباً من اللعب تنزه الخالق عنه، ولما كان هذا أمراً مستحيلاً عقلاً كان لا بد من وجود حياة أخرى تستكمل فيها وقائع قصته، وفق مقتضيات الحكمة العظيمة التي تتناسب مع صفات الخالق العظيم، وهذا ما نبه عليه قول الله تعالى في هذا النص أيضاً:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

حينما نتساءل عن هذا الحق يأتي الجواب القرآني، فيوضح لنا أن الغاية هي ابتلاء الإنسان في الحياة الدنيا، وبعد الامتحان يأتي الجزاء في الحياة الأخرى.

فمن النصوص التي أعلنت هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الملك)/ ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول):

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَتَكْمُرُوا أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾﴾.

وبعد الابتلاء لا بد من الجزاء، والجزاء الأمثل قد ادخره الله لحياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا.

فالإيمان باليوم الآخر ركن أساسي من أركان الإيمان يأتي في التسلسل الفكري بعد الإيمان بالله تعالى وبكمال صفاته وعظيم حكمته.

(٤)

الإيمان بالآخرة مبدأ ضروري لسعادة الجماعة الإنسانية

إذا نظرنا إلى مشكلة السلوك الإنساني وجدنا أن سعادة الجماعة الإنسانية مرهونة بضوابط سلوك الإنسان، وحينما نبحث عن الضوابط التي يمكن أن تضبط سلوكه نجدها ضوابط ضعيفة وناقصة، إلا ضابطاً واحداً هو مراقبة الله والخوف من عقابه يوم الدين.

وبهذا التحليل تغدو قضية الإيمان باليوم الآخر ضرورة إنسانية لحل مشكلة الجنوح الإنساني، ولمنح المجتمعات الإنسانية أفضل صورة ممكنة من السعادة الجماعية في ظروف هذه الحياة، ولدفع الإنسان إلى فعل الخير والارتقاء في سلم الفضائل الفردية والجماعية.

قد يقول المعارضون: نستعيز عنها بالقانون وسلطة الحكم.

ولكن نقول لهم: فمن يضبط السلطة الحاكمة عن الجنوح ويدها القوى المادية المسيطرة، التي تمنحها كل الوسائل الصالحة للاستبداد وظلم العباد؟

إذا لم تكن هذه السلطة ملجئة بلجام الخوف من الله وجزائه العادل فإنها تفعل ما تهوى دون ضابط.

على أن الإسلام قد حاصر الجنوح بالإيمان والخوف من عقاب الله، وبالشرائع وسلطة الحكم الإسلامي، إضافة إلى الوسائل التربوية الأخرى.

وقد يقول المعارضون: نستعيز عن قضية الإيمان باليوم الآخر بالضمير الأخلاقي.

ولكن نقول لهم: وما هي وسيلتنا لإيجاد هذا الضمير الأخلاقي وقد دلّتنا الملاحظة أن معظم الجماهير التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا تستطيع أن تكتسب ضميراً أخلاقياً مقوماً لسلوكها من منبع آخر، لأنها تسيطر عليها حينئذ أنانياتها وشهواتها، ولا يردعها عن الجنوح خوف، ولا يجذبها إلى الاستقامة طمع، وحينما تخشى من العقاب المادي الإنساني فإنها تستقيم استقامة الحذر من العدو، وترصد الانحراف كراصد الصيد، متى وجد الفرصة متاحة له انقضّ على فريسته.

قد يقولون: إن النظرات الفلسفية، والعاطفة الإنسانية، والتربية الأخلاقية، وحب الخير وفعل الخير، كفيلة بتربية الضمير الأخلاقي.

ولكننا نقول لهم: لئن صلحت هذه الوسائل لتربية ضمير أخلاقي لدى فيلسوف عالي الفطرة، له نظرات تأملية بعيدة عن غمرة الماديات والمطامع والأهواء والشهوات، فإنها لن تصلح لتربية ضمير أخلاقي لدى أُلوف مؤلفة من البشر، لا يتحلّون بخصائص ذلك الفيلسوف النادر.

ومعلوم أن الضوابط السلوكية لمنح البشرية أفضل مقدار من سعادة الحياة يجب أن تكون قادرة على ضبط الكثرة الكاثرة من الناس إلّا من شذ، لا أن تكون للنماذج النادرة فقط، وتترك الأعداد العظمى من غير ضابط.

هذا بخلاف الضمير الأخلاقي الذي يغرسه في القلوب الإيمان بالله واليوم الآخر، فإنه ضمير أخلاقي تكتسبه بسهولة جميع الجماهير المؤمنة إلّا من شذ منها، وهذا الشاذ لا يعدم بذوراً تردعه عن كبريات الجرائم.

أما غير المؤمنين بالله واليوم الآخر فالجرائم الصغرى والكبرى سواء عندهم، متى تعلّق هوى أحدهم بشيء واستطاع أن يفلت من العقاب المادي على أيدي الناس فإنه يفعلُه دون أن يجد أي وخز لجرائمه في ضميره، وحينما يفعلُه يفعلُه بضراوة وشراسة لا توجدان عند أخبت الحيوانات الضارية الشرسة.

على أن الإسلام لم يهمل جانب تربية الضمير الأخلاقي بكل الوسائل الممكنة، إضافة إلى الخوف من الله وعقابه، ووعده ووعيده وما في اليوم الآخر من جزاء.

قد يقول المعارضون: وما علاقة هذه الضرورة الإنسانية لحل مشكلة الجنوح في السلوك بكون الآخرة حقيقة واقعة حتى يجب الإيمان بها عقلاً؟

وجوابنا على هذا السؤال سيكون مع الذين سلموا معنا بالقضية الأولى، وهي قضية الإيمان بالله تعالى، أما الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله فإنهم لا يشعرون بموجب لضبط السلوك الإنساني أصلاً، ولا يرون في أي سلوك جنوحاً، ونظرتهم إلى الحياة تقضي بأن القوة هي التي تحدد مفهوم السلوك، فالقوة تستطيع أن تجعل الفضائل رذائل، والرذائل فضائل، والحق باطلاً، والباطل حقاً، وهكذا لا قيمة عندهم إلا للقوة.

أما كلامنا مع الذين سلموا بالقضية الأولى قضية الإيمان بالله تعالى فيكون على الوجه التالي:

هل يعقل في منطق التنظيم الحكيم أن يخلق الله جل وعلا كائنات مدركة ذات غرائز وشهوات، وذات مطامع ورغبات، وذات أهواء لا حدود لها، وذات لذات وآلام، ويعطيها مع ذلك حرية الإرادة، ويمنحها قدرة ما على تنفيذ ما تريد، ثم يتركها تتخبط وتتقاتل، وتتنافس وتتصارع، وتتحاسد وتتباغض، دون أن يجعل لها ضوابط تضبط سلوكها، ودون أن يشعرها بأن جزاء عادلاً قد أعد لها، ودون أن ينفذ فيها فعلاً جزاءه العادل، ودون أن يشجع محسنيتها بالثواب الكريم الذي يكون حقيقة واقعة، لا وعداً كلامياً فقط؟

هذا غير معقول، إن الخالق الحكيم لن يترك كائنات من هذا القبيل تفسد في الأرض دون أن يجعل لها نظاماً يشتمل على عناصر الجزاء الحكيم، وهذا يهدي فعلاً إلى اعتبار اليوم الآخر ضرورة لضبط سلوك الإنسان في الحياة، وهذا النظام لا بد من بيانه للناس حتى يعلموا مسؤوليتهم ويعرفوا مصيرهم، ولذلك أرسل الله لهم الرسل، فبلغوا الناس ما يجب عليهم من سلوك، وما ينتظرهم من ثواب وعقاب، بحسب أعمالهم في حياتهم، وأن وراء هذه الحياة الأولى حياة أخرى يرجعون فيها إلى الله، فيحاسبهم ويجازيهم، وقد أعد للثواب جنة خالدة، وأعد للعقاب ناراً حامية وعذاباً أليماً.

(٥)

نقض علمي لمذهب الملحدین الذين ينكرون استمرار وجود الروح

يتساءل بعض الناس: هل نجد نقضاً علمياً للمذهب الإلحادي الذي يرى أن الحياة ظاهرة مادية فقط، وليس وراء هذه الحياة المادية إذا انتهت بالموت استمرار لوجود روحي، أو إمكان لحياة أخرى؟

جوابنا إيجابي حتماً، فلدينا أدلة علمية توصل إليها الباحثون من علماء الطبيعة تثبت الحياة بعد الموت، على المستوى التجريبي والمعملي.

وأقتبس هنا فقرات مما جاء في كتاب (الإسلام يتحدى)^(١):

«أثبتت البحوث الروحية الحياة بعد الموت على المستوى التجريبي والمعملي. إن الأمر الذي يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت (بقاء محضاً) لروح ما، بل إنها تثبت أيضاً بقاء الشخصيات التي كنا نعرفها بذاتها قبل أن تموت!!

إن هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الإنسان من قديم الأزمان، ولكننا لم نلق الضوء عليها إلا حديثاً، ومن هذه الخصائص (الرؤيا) التي تعد من أقدم مميزات الجنس البشري، والحقائق المثيرة التي كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قد ماؤنا على علم بها.

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيراً، وأجرينا بحوثاً وإحصاءات في مختلف أنحاء العالم حولها، وجاءت البحوث بنتائج غاية في الأهمية.

ومن هذه البحوث ما نسميه (بالبحوث الروحية) وهي فرع من علم النفس الحديث، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الإنسانية غير العادية، وقد أقيم أول معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام (١٨٨٢م) في إنكلترا، وبدأ علماء هذا المعهد عملهم سنة (١٨٨٩م) بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على (١٧) ألفاً

(١) تأليف: وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، من صفحة ١٥٤ إلى صفحة ١٥٩.

من المواطنين، ولا يزال هذا المعهد موجوداً باسم (جمعية البحوث الروحية) وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم، وأثبتت هذه المعاهد بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي في صورة غريبة. . .

وقد ألقى (البروفسور دوкас) وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون، ضوءاً على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت، في الباب السابع عشر من كتابه. والدكتور دوкас لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية، وإنما وجد - أثناء بحوثه - شواهد كثيرة اضطر - على أثرها - أن يؤمن بالحياة الآخرة، مجردة عن قضايا الدين، وهو يكتب في آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلاً:

«لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة، وفحصوها بنظرة نقد ثابتة، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة «بقاء الروح» نظرية معقولة، وممكنة الحدوث. . . وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلا على هذا النحو. ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر: الأساتذة (ألفريد راسل واليس)، و (السير وليام كروكس)، و (ف. و. ه. مايرز)، و (سيزار لومبرازو)، و (كميل فلاماريون)، و (السير أوليفر لوج)، و (الدكتور ريتشارد هوجسن)، و (المستر هنري سيدويك)، و (البروفيسور هيسلوب)».

ويستطرد الدكتور دوкас قائلاً:

«ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت - التي يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة دينية - ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب، وإنما لعلها هي الوحيدة من عقائد الدين الكثيرة، التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي. ولو صح هذا فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع».

وقد سبق أن استشهدنا حول موضوع الروح بما قاله الدكتور (راين):

«إنه ثبت من أبحاثه في المعامل: أن في الجسم البشري روحاً أو جسماً غير منظور».

هذه البحوث الروحية تنقض قضية الملحدين الماديين من أساسها، فما أثبتته العلم من وجود الروح ومن أن الحياة بعد الموت قضية مؤكدة أو مرجحة، ينقض نظرتهم القائمة على أن الحياة إنما هي مظهر لتركيب المادة بصورة خاصة، ومتى انحل هذا التركيب لم يبق أثر للحياة مطلقاً، بينما يقرر الدين أن الحياة سرٌ روحي ينفخه الله تعالى في الأجساد المادية، فتكون حية بهبة الله تعالى لها سرّ الحياة، وهذا ما بدأت الدراسات العلمية تعترف به.

ولدينا أيضاً أدلة أخرى في هذا المجال مما توصلت إليه البحوث النفسية .

أثبتت الدراسات العلمية حول الإنسان أن خلايا جسده المادي تتجدد باستمرار، وأن هذا الجسد المادي بمثابة نهر جار خاضع لقانون التغير المستمر، خلايا تتلف، وغذاء يتحول إلى خلايا جديدة تحل محل الخلايا التالفة، ويأتي على جسم الإنسان في مدى كل عشر سنوات تجدد كامل لكل خلايا جسمه، أي : إن الجسد الأول يفنى ويأتي بدله جسد جديد، ولكن الإنسان لا يشعر بهذا التغير، ولا يتأثر كيانه الإنساني به، بل يبقى علمه وذاكرته وعاداته وأمانيه وأفكاره وحبه وبغضه وعواطفه كلها كما كانت، فلو أن الإنسان كان مظهر تفاعلات مادية صرفة لكان بفناء الخلايا الأولى من جسده، أو بعبارة أخرى لكان بفناء جسمه السابق الذي حل محله جسم جديد يجب أن تفنى أفكاره السابقة وعواطفه وآماله وأمانيه وكل خصائصه الثابتة التي لا تتغير، لكن هذا لا يحدث رغم تجدد الجسد تجديداً كلياً في كل عشر سنوات .

فلولا أن شيئاً روحياً غير هذا الجسد المادي يظل مستمراً يحمل الخصائص الإنسانية العليا، لما استطاع الإنسان المحافظة على مكتسباته السابقة، بعد فناء جسده السابق، أو بعد تعرضه لمراحل متعددة من الفناء في حياته .

جاء في كتاب «الإسلام يتحدى»^(١) :

«لقد أثبت البحث النفسي الذي ذكرناه آنفاً أن جميع أفكار الإنسان

(١) صفحة ١٥٢/١٥٣ (البحث النفسي).

— أو بعبارة أخرى: جميع خلايا مُخه — تبقى بصفة دائمة، وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الإنسان ليس بجزء من جسمه، فإن جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيراً كاملاً في بضعة أعوام، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أي تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين. ولو كان هذا السجل الحافظ كائناً في الجسم فلا أدري أين مكانه منه؟ وفي أي جزء يكمن على وجه الخصوص؟ ولو كان في أحد أجزاء هذا الجسم فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة؟ ما أعجب هذا السجل الذي تتحطم جميع لوحاته تلقائياً، ولكنه لا يفنى ولا يزول؟!

إن هذه البحوث الجديدة في علم النفس تؤكد بصفة قاطعة أن الوجود الإنساني لا تنحصر حقيقته في ذلك الجسم المادي الذي يخضع دوماً لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء، بل هو شيء آخر غير هذا كله، وهو لا يفنى، بل يبقى مستقلاً ولا يزول».

ف قضية الحياة لا تفسر إلا بالحقيقة التي تقررها المفاهيم الدينية، بالروح التي هي من نفخ الله، وهذه الروح تبقى بعد فناء الجسد، وتبقى بعد الموت، لأن الموت إنما هو انفصال كامل للروح عن الجسد.

(٦)

نقض توهمات منكري الحياة الأخرى

لدى البحث عن المستندات الفكرية التي يستند إليها منكرو الحياة الآخرة يتبين لنا أنهم لا يملكون أية مستندات فكرية صحيحة، إنما هم بين العناد والتوهم. أما العناد فهو مذهب المكابرين الذين لا ينفع معهم الجدل المنطقي، والمناظرة العلمية.

وأما التوهم فهو طريقة كثير من المنكرين الذين يندفعون وراء توهمات يتصورونها أدلة، وليست هي بأدلة.

إن الحياة الأخرى ليست من المستحيلات العقلية حتى يجحدها الجاحدون

بحجة الاستحالة، ولكنها من الممكنات العقلية، وظهور الحياة الأولى أعظم شاهد تجريبي على إمكان الحياة الأخرى، وبعد إثبات الإمكان العقلي تبقى لدينا مرجحات إثبات الوقوع، وقد رأينا بالأدلة النظرية أن مرجحات إثبات الوقوع مرجحات قوية، فإذا انضمت هذه الأدلة النظرية إلى التبليغات الربانية التي أخبرنا بها رسل الله الصادقون وجدنا أن الحياة الأخرى قضية حتمية لا مناص للعقلاء من الإيمان بها، والتسليم بما جاء عنها من أخبار صادقات.

وقد رأينا أن طريقة القرآن في محاجة منكري الحياة الأخرى من الماديين الملحدتين، الذين لا يؤمنون بالله، طريقة تتضمن العودة بهم إلى نقطة الخلاف الأولى الأساسية، وهي الإيمان بالله تعالى، فهو يقيم لهم دليلاً مزدوج الهدف، يلفت النظر إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى ويكمال صفاته، ويوجه إلى أن الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلق هذا الكون عبثاً، تنتهي حياة الإنسان فيه بنهاية حياته الأولى. ومتى أدرك المتفكر هاتين الحقيقتين تفتحت مغاليق فكره وفؤاده للتسليم بالحياة الأخرى، كما جاءت بها الأخبار الصحيحة الصريحة الصادقة التي أخبر بها الرسول.

أما طريقة القرآن في محاجة الآخرين، فهي تشتمل على النظر في توهماتهم التي استندوا إليها فيما ذهبوا إليه من الرفض، والرد عليها بإثبات الحق المناقض لهذه التوهمات، وقد استقصى القرآن الكريم في مواضع مختلفات توهماتهم وردّها واحدة فواحدة بالحجج الدامغة.

وفيما يلي تتبع لهذه التوهمات ولرد القرآن عليها:

● التوهم الأول:

توهم ظهر على ألسنة المشركين أيام الرسول ﷺ، وخلاصته أن القدرة التي قدرت على ابتداء خلق الإنسان لا تقدر على إعادته.

وقد سلك القرآن في إقامة الحجة على المنخدعين بهذا التوهم طريقين:

* الطريق الأول:

طريق إظهار واقع التساوي بين الإعادة والبدء، وبيان أن شبهة التفاوت شبهة

باطلة، إذ إن قدرة الله التي قدرت على ابتدائهم إبداعاً، قادرة على خلقهم بعد فنائهم إرجاعاً، فالأمران مستويان، بل الإعادة أهون في نظر الناس وحدود قدراتهم من الابتكار والإبداع.

فمن يسلّم بأن الله قد بدأ الخلق حتم عليه بأن يسلّم بأنه تعالى قادر على إعادته، بل هو أهون عليه.

وقد رد القرآن على أبي بن خلف شبهته هذه، بقول الله تعالى في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

وأكد حقيقة التساوي بين الإعادة والابتداء بقوله تعالى في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول):

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾.

وبين الله في نص آخر أن إعادة الخلق أهون من ابتدائه، فإذا ثبت الابتداء بالمشاهدة ثبتت الإعادة الموعود بها من باب أولى، فقال تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾﴾.

* الطريق الثاني:

طريق التنبيه على مظاهر قدرة الله في السماوات والأرض، وذلك أنه إذا كابر المنكر بعد إقامة الدليل بإظهار واقع التساوي بين الإعادة والبدء، فقال: الإعادة أشد من البدء مصراً على توهمه هذا، أتاه الجواب القرآني بنقله إلى ما هو أكبر في تصوره من ابتداء خلق الإنسان وإعادته، ألا وهو خلق السماوات والأرض.

إذ من المعلوم بالبدهة الحسية أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، في ابتدائهم أو في إعادتهم، وهذا ما أشارت إليه آية (الروم) السابقة:

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧).

ونلاحظ أن الاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرة الله تعالى على أن يحيي الموتى كثير في آيات القرآن المجيد:

فمنها قول الله تعالى في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣).

ومنها قول الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾.

فبعد إثبات أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس نبه النص على أنه لا يصح التسوية بين الأعمى والبصير، ولا بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيئين، إن حكمة خالق هذا الكون الكبير المتقن البديع تأبى هذه التسوية، وإذا كانت هذه التسوية مرفوضة فإن أمر الجزاء واقع لا محالة، وذلك يكون يوم القيامة، وإذ وصل النص إلى إبراز هذه الحقيقة قرر أن الساعة آتية لا ريب فيها.

أي: فخلق السماوات والأرض شاهد على إمكان إعادة خلق الإنسان بعد فناء جسده، والداعي لهذه الإعادة قانون الجزاء الحكيم.

● التوهم الثاني:

توهم أن خلق السماوات والأرض وخلق الأحياء قد أصاب الخالق بالإغياء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولقد رد القرآن هذا التوهم ببساطة ووضوح، وذلك بإثبات أن خلق الله للأشياء كلها إنما يكون بتوجيه الإرادة والأمر، فإذا أراد أن يخلق شيئاً قال له: كن فيكون، ومن كان أمر خلقه كذلك فلا يمكن أن يصيبه الإعياء في القدرة أبداً.

وقد نفى الله أن تصاب قدرته بالإعياء بسبب خلقه للسموات والأرض وما فيهن، فقال تعالى في سورة (الأحقاف / ٤٦ مصحف / ٦٦ نزول):

﴿أَوْ كَمْ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُخَيِّجَ الْمَوْفِقَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

وعدم الإعياء بالخلق هو مقتضى قدرة الرب الخالق، ولذلك قال الله تعالى مستنكراً لـون تفكيرهم، متسائلاً تساؤل المتهمك بإنكارهم في سورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: بل هم في شك من إمكان خلق جديد لمن سبق له أن خلق ثم مات وفني جسمه.

وبين الله مدى قدرته العظيمة على خلق ما يريد من شيء بمجرد توجيه أمر التكوين له، فقال تعالى في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

على أن نفى الإعياء ومناقشة المنكرين في هذا الأمر، وكذلك مناقشتهم حول بعض التوهمات الأخرى، إنما هو تنزل من الخالق العظيم إلى مستوى تفكير المنكرين وعقولهم الساذجة، لإقامة الحجة عليهم من جميع الوجوه، ومحاصرتهم محاصرة فكرية ملزمة بالحق، على أن في هذه البيانات لفت نظر إلى حقيقة الربوبية، وأن من مقتضى خصائص صفات الرب الخالق قدرته الكاملة على الخلق، وهذه القدرة لها صفة البقاء الأزلي الأبدي، فهي لا تتناقص، ولا تختل، ولا تعرض لها عوارض التغير، فلهذا الخالق الأزلي الأبدي كل صفات الكمال المطلق.

● التوهم الثالث :

توهم المنكرين أن من يموت من الناس يضل رفاته في الأرض، فتذهب صورته وصفاته، فكيف يرجع الله هذه الدُّوات والصفات، وكيف يجمع هذه الذرات المتفتتة من عظامهم؟

وأثر هذا التوهم يظهر في توهمهم أن علم الله غير محيط بكل صغيرة وكبيرة من أعداد الذين يموتون من الناس، وغير محيط بصفاتهم وأوضاعهم وأعمالهم. وقد ذكر الله مقالتهم التي تدل على هذا التوهم من توهماتهم، بقوله تعالى في سورة (السجدة / ٣٢ مصحف / ٧٥ نزول):

﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: بل علة نفوسهم أنهم لا يريدون أن يقبلوا مبدأ لقاء ربهم، حتى لا يحجزهم اعتقاد هذا المبدأ عن الانطلاق في الفجور، وما يوردونه على قضية الآخرة وما فيها من حساب وجزاء ليس إلا تعللات.

وذكر الله مقالتهم هذه أيضاً في سورة (سبا / ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول) فقال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

أي: فهم في عذاب في حياتهم يأتيهم من داخل نفوسهم المجرمة المتمردة على الحق، وهم في الضلال البعيد في عقيدتهم وفي سلوكهم.

ولدفع هذا التوهم من توهماتهم تنزل الله إلى مستوى مداركهم فأثبت لهم إحاطة علمه بكل شيء، ومن ذلك علمه سبحانه بالذين يموتون أعداداً وصفات كاملة، وأن من مقتضى كونه تعالى هو الرب الخالق، والموجود الأزلي الأبدي، أن

يتناول علمه كل ما يجري في مخلوقاته، حتى ما توسوس به نفوس الناس من غير أن ينطقوا به، ودون أن يسمعه منهم أحد. وأثبت لهم أيضاً أن الملائكة الكرام الكاتبين والملائكة الذين يقبضون الأرواح ويتوفون الأنفس يسجلون كل واحد من الناس أحياء وأمواتاً، بذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وأقوالهم في كتاب حفيظ.

وفي الرد على هذا التوهم الذي يحتمل أن يكون مصدر تعجبهم إذ قالوا: «أئذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد» قال تعالى في سورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾﴾

وأثبت الله إحاطة علمه بكل صغيرة وكبيرة في مقام عرض إنكارهم للساعة، وذلك على سبيل الرد عليهم، فقال تعالى في سورة (سبأ / ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَ كُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعُزُّ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾

وشاهد هذا الشمول العلمي لله تعالى سير كل شيء في هذا الكون ضمن نظام محكم دقيق لا يعتريه أي خلل، وهذا يسقط توهمهم.

وفي بيان إحاطة علمه تعالى بما توسوس به نفوس الناس دون أن يطلعوا عليه أحداً، قال سبحانه في سورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمُ مَّا تُوَسَّوُسُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

وفي بيان مراقبة أقوال الناس وحفظها قال الله تعالى في سورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

وحين يلاحظ المنكرون هذه الحقيقة من حقائق الرب الخالق يسقط هذا التوهم من توهماتهم، ويعرفون أن الله على كل شيء قدير، ويعلمون أن وعد الله حق.

على أنهم لو نظروا فيما انتهت إليه البحوث العلمية لرأوا أنها قد أثبتت هذا السجل الكوني الكبير، الذي تسجل فيه الأعمال كلها، والأقوال، وخواطر الأنفس، ووساوسها، ونياتهما.

لقد أثبت العلماء أن كل حرف نقوله وكل عمل يصدر عنا يسجل في الأثير، ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله، متى تهيأت الأجهزة القادرة على كشف ما في هذا السجل الكبير، والتحكم بموجاته، فصور كل كائن من القرون الأولى وأصوات كل كائن مسجلة تسجيلًا كاملاً، منذ وجوده حتى آخر وجوده لحظة بلحظة، لا يضيع منه شيء صغيراً كان أو كبيراً، في النور أو في الظلمات، في السرّ أو في العلن، وأثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا وخواطرنا تحفظ في شكلها الكامل على وفق تسلسلها، ولسنا بقادرين على محوها أبداً، وإن نسيناها في عقلنا الظاهر أو في مستوى شعورنا، إنها تظل محفوظة أبداً لدينا فيما يسمى عند علماء النفس (ما تحت الشعور) وما هو محفوظ فيما تحت الشعور هو الجانب الأكبر من مجموع المحفوظات في كياننا الإنساني، فالقضية لا تحتاج يوم القيامة أكثر من كشف الغطاء عن مستوى ما تحت الشعور، وعرض شريط صور (فيلم) حياتنا كلها المسجل في الأثير^(١).

(١) تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن، وهي تعطي صورة فوتوغرافية للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية، غير أن هذه الآلات التي تم اختراعها حتى الآن لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث، أما الموجات القديمة فلا تستطيع تصويرها لضعفها. وتستعمل في هذه الآلات (أشعة انفراد) التي تصور في الظلام والضوء على حد سواء، ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذا النوع من الآلات في تحقيقاتهم، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذا

فهذا التوهم القديم الذي لم يكن يتصور مدى هذا التسجيل قد أصبح ساقطاً اليوم بالمكتشفات العلمية، وتحقق قول الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٥٢﴾ .

● التوهم الرابع :

توهم أن الأشياء التي لا يشاهدونها بالحس ينبغي أن لا يسلّموا بها، وأن لا يصدقوها، فما لم يحدث فعلاً أمام أعينهم بشكل متكرر فهو ممتنع الوقوع. وأصحاب هذا التوهم قد سيطرت حدود حواسهم الظاهرة على قوة التجريد العقلي فيهم، فزعموا عدم إمكان البعث، لأنهم لم يروا حياة بعد موت. وهل باستطاعة أصحاب هذا التوهم أن يلتزموا مذهبهم في كل الحقائق التي يبحثونها أو يؤمنون بها؟

إن معظم النظريات العلمية التي يشتتها العلماء الماديون تشتمل على مضامين لم تشاهد بالحس، وإنما استنتجها العلماء استنتاجاً عن طريق تحليل الظواهر وتفسيرها.

وكثير مما كان يثبت الإنسان القديم وما يزال يثبت الإنسان الحديث لا يعتبر داخلاً في نطاق الأمور التي يمكن إدراكها بالحس، كالعقل والروح، والقوى التي لا تشاهد إلا آثارها وظواهرها.

ولكن رغم أن هذا التوهم مرفوض بداهة قد يكابر به بعض المعاندين، فيزعم بوقاحة أن الأشياء التي لا يشاهد لها أمثلة واقعة هي ممتنعة الوقوع.

النوع من الآلات، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها، وقد أطلق على هذه الآلة اسم (آلة تصوير الحرارة).

[من كتاب: الإسلام يتحدى، ص ١٣٢].

ولنا مع أصحاب هذا التوهم محاكمات كثيرة، نلزمهم فيها بإثبات أشياء كثيرة في أنفسهم، وفي الكون من حولهم، يستنتجون هم وجودها استنتاجاً، مع أنها غير مدركة بأية حاسة من حواسهم.

ومع كل هذا فقد تنزل القرآن إلى مستوى مداركهم فضرب أمثلة مدركة بالحس دائمة الوقوع في الكون، تُقرب إلى تصوراتهم صورة الحياة بعد الموت.

إن جفاف الزرع وانقطاع تغذيته من الأرض، وحصاده وتحطمه، يشبه حالة الموت في الأحياء، ثم إن السنة الكونية الدائمة الظاهرة المشاهدة في عملية انشقاق الحبوب في بطن الأرض، ونباتها بعد ما سبق من حالتها التي تشبه حالة الموت، وعودتها إلى الحياة والنضرة كرتة أخرى، وذلك عند وجودها في البيئة الملائمة من ماء ممتزج بالتراب الصالح، لتعطي تقريباً حسيّاً مشاهداً باستمرار في الظواهر الكونية لقصة بعث الحياة بعد موت الأجساد الحية، وتفرّق أجزائها في تراب الأرض.

وقد نبّه القرآن على هذا الشاهد الكوني الذي يقرب إلى تصور أصحاب هذا التوهم إمكان الحياة الأخرى، وأنها تشبه عودة الحياة إلى الزروع والنباتات بعد جفافها وما يشبه حالة الموت فيها.

فقال الله تعالى في سورة (الحج) / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة (الروم) / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخَيِّ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة (فصلت) / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ .

يضاف إلى هذا الشاهد المتكرر ما ضربه الله من أمثلة تجريبية واقعية، أجراها في أزمنة ماضية لحياة الإنسان بعد الموت .

فمن ذلك حادثة أهل الكهف وكيف ضرب الله على آذانهم ثلاثة قرون وتزيد، ثم أعثر عليهم ليعلم الناس بشهادة الحس كيف يحيي الله الموتى، وقص الله علينا قصتهم في سورة (الكهف / ١٨ مصحف ٦٩ نزول) ثم قال تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا... ﴿٢١﴾﴾ .

ومن ذلك أيضاً قصة (العزيز) الرجل الصالح من بني إسرائيل، إذ مر على قرية أموات فقال: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟» فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وشاهد مشاهدة حسية كيف أحياه الله بعد أن أماته، ورأى بنو إسرائيل من أهل قريته هذا الحدث التاريخي العجيب، وقد أخبرنا الله تعالى بهذه القصة في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) فقال :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ .

ومن ذلك أيضاً قصة إماتة الألو ف من بني إسرائيل حين أمروا بقتال عدوهم، فخرجوا من ديارهم فارين من مقابلة العدو حذر الموت، ثم بعد هذه الإماتة الجماعية أحياهم الله ليعلموا أن الفرار من القتال لا يحمي من الموت، وليعلموا أن

البعث حق، وقد ذكر الله قصة هؤلاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
فقال تعالى :

﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَعْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣)

ومن ذلك أيضاً قصة إحياء قتيل بني إسرائيل، لسؤاله عن القاتل، وهذه
القصة قد أخبرنا الله بها في أوائل سورة (البقرة) وقد أوجز المفسرون هذه القصة
بأنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر له ابن واحد، قتله ابن عمه طمعاً في ميراثه،
ثم جاء يطالب بدمه قوماً آخرين، فأنكر المتهمون قتله، وترافع القوم إلى موسى
عليه السلام، كل منهم يدرأ التهمة عن نفسه، فقال لهم موسى : إن الله يأمركم أن
تذبحوا بقرة، وذلك ليتبين لهم القاتل الحقيقي فقالوا له : أتتهزأ بنا؟ فقال موسى :
معاذ الله أن أكون من الجاهلين، فسأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام عن
أوصافها، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ثم عثروا عليها وذبحوها وما كادوا
يفعلون، ثم ضربوا جسد القتيل ببعض البقرة التي ذبحوها وفق الأمر الإلهي،
فأحيا الله القتيل وأخبر عن قاتله.

ومن ذلك أيضاً قصة إحياء الطيور الأربعة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، لما
سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى.

ومن ذلك أيضاً معجزة عيسى عليه السلام، إذ كان يحيي الموتى بإذن الله،
كما هو معلوم من معجزاته وآيات رسالته.

● التوهم الخامس :

توهم المنكرين أن مراد الخالق في إبداع الحياة وخلقها لا يتعدى حدود هذه
الحياة الأولى، وأن كل حكمته من الخلق تتم فيها.

وهذا التوهم فيه اتهام لحكمة الخالق بالعبث، وهو ما سبق أن ناقشنا به
منكري اليوم الآخر قبل أن نطرح توهماتهم للمناقشة، وذلك لأن منحة العقل،

والإرادة الحرة، وبعض القدرة على التنفيذ تستلزم المسؤولية، وإلا نَجَم عنها الفساد الذي لا حدود له دون غاية، وهو أمر ينافي الحكمة، والمسؤولية تستلزم المحاسبة والجزاء، وإلا كانت مسؤولية شكلية لا قيمة لها، وهو أمر ينافي الحكمة أيضاً، والجزاء يقتضي العقاب والثواب، وإلا كانت مسؤولية ناقصة تنهى عن الشر ولا تأمر بالخير، أو لاتشجع على الارتقاء في درجات الفضائل، وهو أمر ينافي كمال الحكمة أيضاً، والله تبارك وتعالى قادر حكيم منزّه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا يصدر عنه سبحانه إلا الكمال، ولا تكون أفعاله إلا مطابقة لكمال الحكمة.

وقد سبق أن عرضنا دفع القرآن لهذا التوهم، واستشهدنا بعدة نصوص قرآنية.

منها قول الله تعالى في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥).

ونصوص أخرى نفى الله فيها عن نفسه أن يكون قد خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، أو خلقها على سبيل اللهو واللعب، بل خلقها لحكمة، وهذه الحكمة تقتضي مسؤولية الإنسان ومن على شاكلته، والمسؤولية تستلزم الجزاء بالثواب وبالعقاب، وظروف الجزاء الكامل غير موجودة في هذه الحياة الدنيا، فلا بد من حياة أخرى يكون فيها هذا الجزاء.

ولا ننسى أن هذا التوهم قد ورد في مقالات منكري الحياة الآخرة، وقد حكى الله مقالتهم التي تنم عن هذا التوهم من توهماتهم، فقال تعالى في سورة (الدخان / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (٣٥).

وحكاها أيضاً في نصوص أخرى سبق الاستشهاد بها.

● التوهم السادس:

توهم المنكرين عدم إمكان تلقي الرسل الأخبار عن الله تعالى، وعدم

معرفتهم شيئاً من الغيب .

وقد عرض الله مقالة منكري الحياة الأخرى المشتملة على هذا التوهم من توهماتهم ، فقال تعالى في سورة (سبأ / ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول) :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ .

وكان مطلبهم أن ينزل الله ملائكة يبلغونهم الأخبار عنه ، أو يرون الله ويخاطبهم خطاباً مباشراً ، وقد ذكر الله مطلبهم هذا بقوله تعالى في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول) :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٦١﴾﴾ .

والرد على أصحاب هذا التوهم يأتي ببساطة ، ويتلخص بأن وعد الله بالدار الآخرة والحياة بعد الموت جاء على ألسنة الرسل المؤيدين بالمعجزات الباهرات ، والله سبحانه لا يؤيد بمعجزاته من يكذب عليه ، وبأن الله يستحيل عليه — سبحانه — الكذب في الأخبار ، وقد أخبرنا في كتابه المنزل بذلك .

ولا تعدو مناقشة هؤلاء المناقشة حول الرسل والكتب واستحالة الكذب على الله تعالى ، وأن الله أن يصطفي من يشاء من عباده ، لتبليغ رسالاته للناس ، وأن يتخذ ما يشاء من وسائل لإعلام رسله برسالاتهم ، وإعطائهم ما يكون حجة لهم أمام الناس ، حتى يصدقوهم ويثقوا بأخبارهم .

هذا إحصاء توهمات منكري الحياة الآخرة ، وما فيها من جزاء بالثواب وبالعقاب .

وبعد إسقاط هذه التوهمات ودفعها ، وبيان أنها لا تصلح بحال من الأحوال

لأن تكون مستنداً لرفض الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء، من قبل المعترفين بوجود الخالق العظيم لهذا الكون، وبعد هذا الحصار الفكري للمنكرين حصاراً تاماً، لا يبقى لهم مخرج إلا طريق الإيمان والتسليم، إذا كانوا حريصين على احترام عقولهم، وحذرين من عاقبة إنكارهم. أما إذا لم يكن لديهم هذا الحرص وهذا الحذر فباستطاعتهم أن يظلوا جاحدين بوقاحة، ومنكرين بعناد لا مبرر له، ومورطين أنفسهم بكبرهم في إصرار من ورائه عذاب شديد، وشقاء لا نهاية له، ثم إنهم لا يظفرون بأي كسب مادي أو نفسي لحياتهم الدنيا من جراء هذا الإنكار، إلا أوهام الاستكبار والعناد، والرغبة بالانطلاق في الجرائم والآثام، دون أن تتحرك قلوبهم بالخوف من مغبة ما يفعلون.

ولقد كشف الله عن هذه الدوافع التي تدفع المنكرين إلى التكذيب بالحياة الأخرى.

أما الكبر الذي جعل قلوبهم تنكر، فنجدّه في قول الله تعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَإِنَّهُمْ كَرِهُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ فَذَرْهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ۝٢٢﴾

وأما الرغبة بالانطلاق في الجرائم والآثام، فنجدّه في قول الله تعالى في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۚ﴾

والفجور: هو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام والجرائم، دون رادع أو ضابط من دين أو ضمير.

(٧)

مع العظم واستناده إلى أقوال (برتراند رسل)

بعد أن عرض الناقد (د. العظم) أقوال (برتراند رسل) التي أنكر فيها الحياة الأخرى ووجود الله تبارك وتعالى، وعرض فيها نظرة الماديين الملحدين إلى الكون

والحياة والإنسان، والتي سبق أن نقضناها وكشفنا زيفها فكرياً وعلمياً، قال (د. العظم) بأسلوبه التزييفي في الصفحة (٢٧):

«لنقارن بين هذه النظرية العلمية المجردة القاسية الباردة، وبين القصة الدينية الإسلامية الجميلة المريحة الدافئة التي تعودنا عليها. نجد أن الغيبات والملائكة والصلوات والمعجزات والجن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته، كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره».

هذا كلامه حرفياً، ولست أدري كيف يسمح لنفسه هذا الإنسان ومن هو على شاكلته من الملحدين أن يبلغوا هذا المستوى التافه السخيف من التدجيل والتزييف، الذي لا يقبله صغار المثقفين، فضلاً عن الذين أخذوا من جوانب المعرفة قدراً مناسباً، وعرفوا مداخل الزيف.

إن ما أسماه بالنظرية العلمية المجردة القاسية الباردة، قد عرفنا بالمناقشات العلمية التي أوردناها فيما سبق أنها فرضيات احتمالية صاغها الملحدون باسم العلم، وليس لها براهين علمية مقبولة، ثم تلقفها المجرمون في الأرض وأخذوا يروجون لها، ويلبسونها أثواب الحقائق العلمية، ويعطونها من قوة التثبيت ما لا تملك شيئاً منها.

فكونها نظرية دعوى باطلة، لأنها فرضيات احتمالية لم تدعمها أدلة تجعلها في مستوى النظريات.

وكونها علمية هي أيضاً دعوى باطلة، لأن الفرضيات ظنون ضعيفة لا يصح تسميتها علماً، لا سيما إذا كان يوجد ما يخالفها مما تدعمه الأدلة دعماً أقوى من دعمها.

وكونها مجردة قاسية باردة لا أجد له تفسيراً واقعياً إلا أنها مجردة عن المنطق السليم، ومجردة عن أية غاية كريمة، وقاسية على النفوس قسوة الباطل حينما يبهت الحق بتزييفه، وباردة برود الموت الذي لا يستطيع أن يحيا.

وأدهى من ذلك وأمر ما نجده من خلط عجيب لا يفعله إلا وقح شديد

الوقاحة، أو جاهل بالدين شديد الجهل، وذلك إذ يزعم: «أن الغيبات والملائكة والصلوات والمعجزات والجن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته، كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره».

فهل يجد أحد في الدين أن الصلوات كان لها أثر في نشأة الكون وطبيعته؟
هل يجد أحد في الدين أن الجن جزء لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وخلقه في عقيدة المسلمين؟ هل ساهم الجن في نشأة الكون وخلقه؟
هل يقول مثل هذا أحد من جهلة المسلمين فضلاً عن علمائهم؟

إن الدين يقرر أن الكون قد نشأ بخلق الله له، ضمن نظام الأسباب والمسببات، التي إذا اكتشف الباحثون شيئاً منها سمّوها قوانين طبيعية.

فما هذا الخلط العجيب المفترى على الدين؟! ما هذا الخلط العجيب الذي لا نجد له مثيلاً إلا في أوكار الحشاشين، أو في مستشفى المجانين؟ أو في أقوال المهرجين؟!

قد يكون عذره أنه لم يقرأ إلا كتب الماركسيين، ودسائس اليهود وأجرائهم، ولم يسمع إلا أقوال هؤلاء وأولئك في التهكم على الدين، فظنها فعلاً مفاهيم إسلامية، فحملها حملاً ببغاوياً وكتبها في مقالاته مقابل أجر معلوم، دون أن يرجع إلى المصادر الإسلامية ويحقق فيها.

ولكن هل هذه طريقة باحث علمي أكاديمي يكتب نقداً وينشره بين جماهير المثقفين، وهو بهذا المستوى الذي لا يليق بصغار أبناء المدارس، فضلاً عن الذين تضعهم الأوراق المختومة بين كبار الدارسين؟!

أو لعله نظر من بعيد فرأى أن المسلمين يصلون لله خالق الكون وفاطره، ويعتقدون بأنه يوجد مخلوقات أخرى غيرهم خلقهم الله كما خلق البشر، إلا أنهم مزودون بخصائص وصفات ليس لدى البشر نظيرها، فمن هذه المخلوقات الملائكة، ومنها الجن. والمسلمون يعتقدون بها تصديقاً لخبر الله، دون أن يعتقدوا بأن لها مشاركة في تعليل نشأة الكون وطبيعته، وإنما لها تاريخ فيه كما للإنسان فيه

تاريخ، ولها وظائف فيه، كما للإنسان فيه وظائف، ثم بنى (العظم) على نظريته هذه التي نظرها من بعيد إلى المسلمين وعقائدهم، فزعم أن كل هذه الأمور جزء لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته وتاريخ الإنسان ومصيره.

إن مثل (د. العظم) في صنيعه هذا كمثل من يراقب مطبخ الجيش المحارب من بعيد، فيرى فيه الكوسا والباذنجان وأكياس البصل وأواني الأطعمة المحفوظة وأدوات الطبخ وأسياخ شي اللحم، فينسى وظائف هذه الأشياء فيقول: إن هذا الجيش المحارب يستخدم في حربه (الكوسا والباذنجان والبصل وعلب الطماطم) ويعدد ما شاهد في مطبخ الجيش، ثم يقول: إن هذه الأشياء تمثل عند عدونا جزءاً لا يتجزأ من القيادة العامة للجيش.

كان باستطاعته ما دام قد وصل إلى هذا الحد من السخافة الفكرية النقدية أن يضيف أشياء كثيرة لا حصر لها من الدين، ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته وتاريخ الإنسان ومصيره، فله أن يضيف مع الصلوات التي ذكرها الزكاة والصوم والحج وتحريم الربا وتحريم الخمر والميسر، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل، وتحريم الغش، وتحريم العدوان والظلم وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأن يضيف مع الملائكة والجن جميع الحيوانات والنباتات التي خلقها الله، والجبال والوديان والأنهار والسحاب والليل والنهار والسماء والأرض، فكلها مذكورة فعلاً في القرآن، ولكن لكل منها مناسبة، ولكل منها موقعاً، ولا علاقة لها بتعليل نشأة الكون وطبيعته، وإنما هي أجزاء موجودة في الكون تحتاج هي إلى تعليل، وليست جزءاً من التعليل.

فيا لهذا من مغالطة متهافة جداً، تكشف لأصغر طلاب المدارس زيف كاتبها، إذا كان لديه ولو قدر يسير من المعرفة الدينية.

* * *

الفصل السابع

مع « برتراند رسل » و « فرويد »
إمامي العظم

(١)

من غريب ما شهدت في أقوال الناقد (د. العظم) في كتابه «نقد الفكر الديني» ظاهرة داء التعصب المذهبي لأقوال قادة المذهب المادي الإلحادي، لا سيما واضعو النظريات الإلحادية المادية من اليهود، كأنه لا يكاد يرى علماً إلا ما قالوه، ولا يكاد يمجّد نظرية أو رأياً إلا ما ينسب إليهم، ولا يكاد ينظر إلى مدرسة علمية في العالم غير المدارس التي تنسب إليهم، حتى كأن أقواله فيهم أقوال عاشق مشغوف بحب لا أقوال باحث علمي دارس للعلوم وعارف بمختلف النظريات.

أتراها هي العمالة وأعمالها المأجورة تفعل كل هذا؟ أم الغفلة والفتنة والتعصب الأعمى؟.

إنه ليس من قبيل المصادفة أن يتعمّد التنويه بأسماء اليهود الذين وضعوا الآراء والمذاهب الإلحادية، وصنعوا لها ما أسموه بنظريات علمية، فصاغوا مذاهبهم (نظرياتهم) في الاجتماع، وفي الاقتصاد. وفي المادية الجدلية، وفي الدراسات النفسية.

وليس من قبيل المصادفة أن نراه لا يلفت الأنظار بقوة إلا إلى نظرياتهم، كأن العلم الحديث كله، ومنجزات الحضارة منحصرة فيما قدم هؤلاء من دراسات لم تحظ في عالم العلم بالقبول التام، أولم تؤيد حتى الآن بالبراهين العلمية القاطعة.

ففي الصفحة (٢٠) من كتابه يشيد بكتاب: «أصل الأنواع» لداروين، ومعلوم أن نظرية داروين قد تبناها اليهود وأذاعوها وأشادوا بها لخدمتها لأغراضهم، وهو يشيد بكتاب: «رأس المال» لكارل ماركس، وهو يهودي.

ويكرر في صفحات كتابه الإشادة بالداروينية، ويسمّيها النظرة العلمية، ويكرر الإشادة بالماركسية أو ما يسمى بالاشتراكية العلمية.

وفي الصفحة (٣٩) من كتابه يشيد باليهود الثلاثة: دوركهائم وفرويد وماركس.

وفي الصفحة (٤١) يشيد بنظرية المادية الجدلية، ونظرية دوركهائم في الطقوس والعبادات الدينية، كأنها حقائق علمية لا خلاف عند العلماء فيها.

وفي الصفحة (٤٢) يشيد بالثورة الفرنسية، وقد أصبح معروفاً تماماً أن اليهود هم الذين صنعوها، لتحقيق أغراض اليهودية العالمية^(١).

وفي الصفحة (٤٣) ينتقد المفكر الإسلامي المرحوم الشهيد (سيد قطب) لأنه رفض نظرية التطور العضوي، أي: نظرية داروين، ولأنه رفض نظرية فرويد في مجال الدراسات النفسية، ولأنه رفض الماركسية أو الاشتراكية العلمية. ثم أخذ (العظم) يمجّد ويشيد بهذه النظريات، كأنه لا يوجد في عالم العلم نظريات علمية غيرها، وكأن المفروض في كل الناس أن يكونوا مثله مقلدين لأئمتهم اليهود الذين يقلّدهم هو تقليداً أعمى. مقروناً بتعصب شبيه بتعصب الجاهلية الأولى، بل هو أشد خطراً وأكثر ضلالة، وكأن المفروض في كل الناس أن يكونوا مثله عشاقاً للقيادات اليهودية العالمية، أعداء الإنسانية عامة، وأعداء الأمة الإسلامية والأمة العربية خاصة.

ففي انتقاده للمرحوم الشهيد (سيد قطب) يقول في الصفحة (٤٢ - ٤٣) ما يلي:

«في الواقع يذهب سيد قطب إلى أبعد من ذلك في أفكاره التوفيقية، فيرد المنهج العلمي التجريبي إلى روح الإسلام، ويعتبر المنهج الإسلامي الأساس الذي قامت عليه النظرة التجريبية العلمية الحديثة، ولتبيين لنا مدى نجاح هذا التوفيق الشامل بين الدين والعلم ما علينا إلا أن نتابع تفكير السيد قطب، لنجد أنه

(١) انظر كتاب: «مكايد يهودية عبر التاريخ»، للمؤلف.

بعد مفاخرته بأن المنهج الإسلامي هو الأساس الذي قام عليه المنهج العلمي التجريبي نراه يرفض رفضاً باتاً أهم النتائج التي توصل إليها هذا المنهج، لأنها تتناقض مع العقائد الدينية، إنه يرفض نظرية التطور العضوي، مع أنها توجت البحوث العلمية في علم الحياة، ونظرية فرويد مع أنها من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية، ويرفض الماركسية أو الاشتراكية العلمية، مع أنها أهم نظرية شاملة صدرت في العلوم الاجتماعية والاقتصادية في العصور الحديثة. أي: إن السيد قطب يرد المنهج العلمي إلى المنهج الإسلامي، ولكنه يريد أن يبرئهما من جميع التبعات التاريخية الناتجة من قيام العلم، وأن ينكر كل ما يلزم عن مقدمته الكبرى من نتائج. ولذلك نراه يرد على كل ما تمخض عنه المنهج العلمي من نظم ونظريات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ذلك على الرغم من يقينه أن الجذور التاريخية لكل ذلك تمتد إلى المنهج الإسلامي».

هذا ما كتبه (د. العظم) في نقده للمرحوم (سيد قطب).

فما أعجب ما اشتمل عليه كلامه من مغالطات!! هل يلزم من الاتفاق على سلوك المنهج العلمي الواحد التسليم بكل النتائج التي يتوصل إليها جميع الباحثين؟

ألا يحتمل وجود خطأ أو نقص في البحث؟

إننا نشاهد عدداً من الباحثين يتفقون على منهج البحث، ثم يختلفون في النتائج اختلافاً بيناً، وقد يكون الاختلاف متناقضاً تماماً.

إذا كان الأمر كما يزعم (د. العظم) فعلينا إذن التسليم بكل النظريات المتعارضة المتناقضة التي تقول بها المدارس العلمية في العالم، لأنها كلها تعتمد المنهج العلمي التجريبي أو النظري، ففي الاقتصاد علينا أن نسلم بالنظريتين المتناقضتين: الرأسمالية والاشتراكية العلمية، وفي السياسة علينا أن نسلم بالنظريتين المتناقضتين: الديمقراطية والديكتاتورية.

إن هذا هراء سخيف لا يقول به عاقل. إن عدداً من الذين يحلون مسألة

رياضية قد يختلفون في النتائج، على الرغم من أنهم يلتزمون قوانين رياضية واحدة، وهذا يرجع إلى كبوات الخطأ التي قد يقع بعضهم فيها، فكيف يكون الأمر في الموضوعات الاستنتاجية التي لا يملك الباحث العلمي بالنسبة إليها وسائل تجريبية، كفرضية (داروين) بالنسبة إلى خلق الإنسان، وكفرضية (فرويد) في مجال الدراسات النفسية، على أنه توجد مدارس نفسية أخرى تعارض ما ذهب إليه (فرويد) فهل هذه المدارس العلمية كلها ملزمة برأي (فرويد) إكراماً لعواطف الناقد (د. العظم) نحو إمامه هذا؟ وهل المدارس الاقتصادية في العالم ملزمة بالأخذ بالاشتراكية العلمية، إكراماً لعواطف الناقد (د. العظم) نحو إمامه في مجال الاقتصاد، اليهودي (كارل ماركس)؟

إن هذا المنطق الإلحادي المتعصب تعصباً أعمى أصم لا يستحق عند العقلاء أكثر من السخرية. ومع ذلك فإننا نحن المسلمين لا نسلك هذا الطريق، بل نناقش بالمنطق والعقل ولا نسخر، ونرتقي في الجدل مع الخصوم ومع الأعداء الصرحاء إلى المستوى الجدي العاقل الرصين، احتراماً للحقيقة التي نبحث للوصول إليها، ولتأييدها والتبشير بها، واحتراماً لمفاهيمنا ومبادئنا التي لا هزل فيها، ولا تدفع إليها أغراض شخصية، بل هي مبادئ الحق التي تنزلت بها شريعة الله للناس.

وفيما يلي دراسة موجزة لإمامين من أئمة (العظم) الملحدين، هما (برتراند رسل) و (فرويد).

(٢)

مع برتراند رسل

اعتمد (العظم) في دعوته إلى الإلحاد على أقوال الفيلسوف الإنجليزي الملحد (برتراند رسل) الذي مات عام ١٩٧٠م، بعد أن عاش قرابة قرن كامل.

إن هذا الفيلسوف على الرغم من سعة علمه ودراسته، وعلى الرغم من أنه أمضى كل حياته باحثاً دارساً، فإنه لم يهتدِ إلى تكوين فلسفة متكاملة كان يصبو إلى بلوغها.

وكان من الطبيعي أن لا يهتدي إلى فلسفة متكاملة بعد أن اتجه في طريق معاكس للحقيقة، إذ اختار لنفسه طريق الإلحاد والكفر بالله. إنه لو عاش مئة قرن أو أكثر يبحث عن فلسفة متكاملة وهو ملتزم طريق الإلحاد فإنه لن يصل.

إن الباطل متاهة يضل فيها أذكى الناس وأعلمهم، ما دام مصراً - لهوى في نفسه - أن يحيد عن الطريق التي سلكها من قبله جماهير العقلاء، إنه لن يجد هذه الفلسفة المنشودة في المتاهة الفكرية التي سلكها بعيداً عن الطريق، لأنه متى اهتدى فلا بد أن يعود إلى الطريق، بيد أنه مصرّ على أن يظل بعيداً عنه فكيف يهتدي؟.

إنه سيستمر في المتاهة، وسيظل باحثاً عن فلسفة متكاملة في مكان لا توجد فيه هذه الفلسفة، شأنه في هذا كشأن من يحفر في جوانب الصخرة الصماء ليجد فيها عين ماء تُروي ظمأه، وهذه الصخرة منقطعة عن الأرض من كل جوانبها، فهي لا تتصل بأي عرق من عروق الماء.

ونظراً إلى واقع حال (رسل) التائه عن الحقيقة استطاع البروفسور (ألان وود) أن يقرظه بقوله:

«برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة».

واقتباساً مما كتبه المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان)^(١)، أجمع هذه الدراسة عن هذا الفيلسوف الملحد.

ذكر وحيد الدين خان أنه قرأ كل أعمال «برتراند رسل» واستطاع بعد قراءتها أن يلتقط من أقواله ما يكشف عن النهايات الفكرية التي انتهى إليها.

إنه بعد أن درس الفيزياء، وعلم الحياة، وعلم النفس، والمنطق الرياضي، انتهى إلى أن «مذهب التشكيك (في الوجود) مستحيل نفسياً» ومع ذلك فإن الإنسان عاجز عن أن يحيط إلاً بأقل قدر من المعرفة، ويقول بالنسبة إلى الفلسفة: «تدّعي

(١) في كتابه: «الدين في مواجهة العلم».

الفلسفة منذ القدم ادعاءات كبيرة، ولكن حصيلتها أقل بكثير بالنسبة إلى العلوم الأخرى».

وما اعترف به (رسل) بعد دراسة طويلة ذكره القرآن بتعبير بسيط، إذ قال الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ويتضمن هذا البيان القرآني أن الإنسان لم يؤت من الوسائل العلمية التي يمكن أن تعرفه بالحقيقة إلا قدرًا محدودًا جدًا، بيد أن الحقائق في الوجود كثيرة جدًا، ومن المتعذر على الوسائل المحدودة أن تدرك من الوجود الواسع إلا على مقدارها، وكل زيادة على مقدارها دون مستند خارجي عنها يعتبر تكهنًا، وضرباً من الظن الاحتمالي الضعيف، وهذا الظن لا يغني من الحق شيئاً.

فعجز الإنسان عن الوصول إلى معارف واسعة من حقائق الكون الباطنة يرجع إلى أن وسائله العلمية لا تستطيع أن تشاهد إلا ظواهر تأخذ منها علماً وصفيًا للسطوح الظاهرة، أما الحقائق الباطنة فلا سبيل إليها إلا عن طريق التفسير الاستدلالي أو الاستنتاجي، وهذا التفسير الاستنتاجي لا يستطيع أن يحدد ماهية الحقيقة، إنما قد يستطيع أن يشير إليها وإلى بعض صفاتها وخصائصها.

ويقول (رسل): «إن تصورنا العلمي للكون لا تدعمه حواسنا التجريبية، بل هو عالم مستنبط كلياً».

ويبلغ الأمر به إلى أن يقول: «إن أفكار الناس لا توجد إلا في مخيلاتهم فحسب» أي: إن التجربة لا تستطيع أن تثبت مطابقة هذه الأفكار للواقع.

وانتهى (رسل) أيضاً إلى أن التجربة أعطيت لها أكبر أهمية، ولذلك يجب أن تخضع «التجريبية» كفلسفة لتحديات هامة.

يقول هذا حتى في النظريات والقوانين العلمية، ومع ذلك فإنه يختار لنفسه مذهب الإلحاد، ويعتمد على افتراضات لا يمكن إخضاعها للتجربة بحال من الأحوال، وذلك بالنسبة إلى نشأة الكون والحياة، ويرجح الداروينية مع أنها من

وجهة نظره فكرة استنباطية لا تدعمها التجربة، ولا تزيد على أنها فكرة في مخيلات أصحابها.

وحين اعتمد (د. العظم) على أقوال (رسل) في نشوء الكون وتطوره ونشوء الحياة وتطورها، إنما اعتمد على قول إنسان يرى أن ما يقوله في هذا المجال لا وجود له إلا في عالم التخيلات الإنسانية فحسب.

فكيف يصح له أن يستهين بعقول شبابنا وثقافة القارئ العربي، فيزعم بعد أن عرض القطعة الأدبية التي كتبها «رسل» عن قصة الكون ونشأة الحياة، أن (رسل) يلخص بكل بساطة النظرة العلمية الطبيعية للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره — نشوء الحياة وتطورها — أصل الإنسان ونشأته وتطوره — النهاية الحتمية لجميع الأشياء وهي العدم وأنه لا أمل لكائن بعدها بشيء؟

أهذه هي النظرة العلمية التي يعتقد المنقولة عنه أنه لا وجود لها إلا في مخيلة القائلين بها، وليس لها مستند من الواقع يدعمها؟

ولكن هكذا راق لـ (د. العظم) أن يضلّل. لقد قرر أنه لا وجود للحق والعدل والروح والجمال والخالق، كما صرّح بذلك في الصفحة (٣٨) من كتابه، لذلك فلا مانع عنده من أن ما يراه (رسل) تخيلاً يصح أن يطلق عليه عبارة النظرة العلمية المحققة، فالقضية عنده لا تزيد على أنها وسائل دعائية جدلية لدعم مذهبه الإلحادي، أما أن يكون الكلام حقاً أو باطلاً، صدقاً أو كذباً، قضية علمية أو تصوراً تخيلاً. فهذا غير مهم ألا يمكن أن يكون طرح مثل هذا التزييف وسيلة لتضليل بعض الناس؟ ألا يمكن أن يكون مثل هذا التزييف شبكة لصيد بعض المغفلين، حتى يكونوا جنوداً مسخرين في أيدي المنظمة الإلحادية العالمية، التي تعمل لخدمة مصالح معينة لفئة خاصة من الناس؟

لكن معظم شبابنا سيكشفون بسرعة هذا الزيف، وسيسخرون منه، وسيقابلونه بالتحدي العلمي الذي تقوم عليه مبادئ الإسلام.

(٣)

ويقول (رسل) أيضاً: «لقد وجدت أن معظم الفلاسفة قد أخطأوا في فهم الشيء الذي يمكن استنباطه بالتجربة فحسب، والشيء الذي لا يمكن استنباطه بالتجربة».

ويقول أيضاً: «لسوء حظنا لم تعد الطبيعة النظرية تحدثنا اليوم بالثقة الرائعة نفسها التي كانت تحدثنا بها في القرن السابع عشر. لقد كانت لأعمال (نيوتن) أربعة تخيلات أساسية: المكان والزمان والمادة والقوة. وقد أصبحت هذه العناصر نسبياً منسياً في علم الطبيعة الحديث. فقد كان الزمان والمكان من الأشياء الجامدة والمستقلة عند (نيوتن) والآن قد تم استبدالهما بما يسمى «المكان - الزمان» والذي لا يعتبر جوهرياً أساسياً، وإنما هو نظام للروابط، وأصبحت (المادة) شكلاً لسلسلة الوقائع، وأصبحت (القوة) الآن (الطاقة) والطاقة نفسها شيء لا يمكن فصله عن المادة الباقية. والسبب كان هو الشكل الفلسفي لما كان يسميه علماء الطبيعة بالقوة، وقد أصبح هذا التصور قديماً، إن لم أقل: إنه قد مات فعلاً، إلا أن هذه الفكرة لم تعد قوية كما كانت من قبل».

فهذا هو (برتراند رسل) يرى أن التفسيرات التي يفسر بها العلماء الماديون ظواهر الطبيعة تفسيرات لا تمثل الحقيقة الواقعة تمثيلاً يوثق به، وهذه التفسيرات تخضع للتغير وفق اختلاف النظرات التي يراها الباحثون.

ويقول أيضاً: «إنه قد توصل بعد دراسات استنفدت كل عمره إلى أن الاستنباط الذي لا يمكن إيضاحه يعتبر أيضاً مقبولاً وجائزاً، وعند رفض هذا النوع من الاستنباط سوف يصاب النظام الكامل للعلوم والحياة الإنسانية بالشلل».

ويقول أيضاً: «إن العلوم تشمل كلا العالمين: الحقيقي والمتخيل وجوده. وكلما تقدم العلم ازداد فيه عنصر الاعتقاد، فبعض الأشياء في العلوم حقائق مشاهدة، ولكن الأشياء العليا تجريدات علمية يتم استنباطها بناءً على المشاهدة. والحقيقة أنه لا يمكن رفض مذهب الشك الكلي إطلاقاً، إلا أنه مع ذلك يصعب قبول التشكيك الكلي في نفس الوقت».

ويقول أيضاً: «إنه لا يمكن الادعاء بالقطعية (في النظريات أو الآراء) على النحو الذي سار عليه الفلاسفة المتسرعون بكثرة وبدون جدوى».

فمن هذه الأقوال المقتبسة مما كتب (رسل) نلاحظ أن فلسفته تعتمد على الاعتراف بأن العلوم متى تجاوزت منطقة المدركات الحسية فإنها لا تملك معارف يقينية، ولكن مع ذلك لا بد من قبول هذه المعارف التي يتوصل إليها بالاستنباط وإن لم تكن يقينية، لثلاث تعطل الحياة العلمية وتقف عن الإنجاز، إذ لا سبيل إلى اليقين فيها.

هذا هو مذهبه الفلسفي، فليس هو من الذين لا يقبلون إلا ما يدرك بالحس المباشر أو غير المباشر، وإنما يجعل ما يقبله من تفسيرات علمية مقبولاً بصفة ترجيحية، لضرورة العجز عن الوصول إلى اليقين.

فما الذي صده عن الإيمان بالله، والأدلة الاستنباطية الترجيحية عليه أقوى بكثير من التخيلات الأخرى التي يفسر بها الملحدون نشأة الكون وتطوره، ونشأة الحياة وتطورها؟

هنا تظهر عقدة الهوى والتعصب ضد الدين عند (رسل) وعند سائر الملحدين، وهذا التعصب لا تدعمه أدلة مرجحة لقضية الإلحاد، بل ليس للإلحاد في الحقيقة أي دليل غير مجرد سفسطات وتخيلات تقوم في رؤوس أصحابها فقط، إن التفسير البديل لقضية الإيمان بالخلق الرباني إنما هو فرضية الارتقاء وأزلية المادة، أما أزلية المادة فقضية مرفوضة علمياً، وأما الارتقاء فيعبر عنه السير «آرثر كيث» من علماء هذا العصر بقوله: «الارتقاء غير ثابت، ولا يمكن إثباته، ونحن نؤمن بهذه النظرية لأن البديل الوحيد هو (الإيمان) بالخلق المباشر، وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه».

وإذا تساءلنا لماذا لا يمكن التفكير فيه؟ كان الجواب الوحيد: لأنه لا يسمح له هواه بأن يعترف بالله الخالق، وبأن يخضع له بعد ذلك خضوع العبادة والطاعة.

فتمرده وتمرد نظرائه تمرد المستكبرين المعاندين، لا ضلال الجاهلين الذين لم تكشف لهم أضواء المعرفة طريق الحق.

و (د. العظم) حمّالٌ أنقال في مؤخرة ركب الملحدين، يردد ما يقولون،
وينعق بما يهرفون .

ما أعجب سلطان الهوى، وسلطان التعصب، وسلطان الالتزام بالمبادئ
الحزبية على الناس .

إن هذه المؤثرات التي تجنح بهم عن سواء السبيل تسوقهم إلى الشقاء
الأبدي والعذاب الأليم، وتجعلهم يؤثرون الضلال على الهدى، والظلمات على
النور.

(٣)

مع فرويد

إنني لأعجب أبغ العجب حينما أجد مثقفاً عربياً يندفع في تمجيد أمثال
(فرويد) وهو يعلم أنه يهودي متعصب ليهوديته، وصديق حميم لهرتزل مؤسس
الصهيونية الحديثة .

أفلا يخطر على باله ولو من قبيل الشك والحذر، أن التحليلات النفسية التي
قدمها (فرويد) تحت ستار الدراسة العلمية المتجردة، إنما صاغها على الوجه الذي
قدمها به ليخدم القضية اليهودية الصهيونية في العالم؟ .

أفلا يخطر على باله أن الإلحاد الذي أعلنه لم يكن أكثر من طرح نظري
جدلي، ليفتن الناس به، وهو في حقيقة وجدانه يهودي صميم شديد التعصب
ليهوديته، يخدم عن طريق ستار العلم أغراض الصهيونية؟ .

وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون متهماً في كثير من تحليلاته وآرائه، وما على
الباحثين إلا أن يعيدوا النظر ألف مرة في كل رأي علمي قدّمه .

فهل يعقل أن يكون صهيوني متعصب ذو أهداف سياسية معلومة، وأغراض
عالمية مرسومة، تأكيد لجميع الشعوب غير اليهودية بلا استثناء، أميناً على العلم
والمعرفة، صادقاً متجرداً في كل ما يقدم للناس، لا سيما في أمور نظرية بحثة
لا يملك الباحثون فيها أدلة تجريبية تقدم نتائج يقينية؟

على أن هذا التصور الذي يتصوره أي عاقل من قبيل الشك والحذر، قد أثبتته باحثون متتبعون لحياة (فرويد) ولآرائه في مجال الدراسات النفسية وفي غيرها.

ومن الذين تتبعوه: (د. صبري جرجس)^(١) وقد وضع هذا الباحث أصابعه على كثير من آراء (فرويد) المقتبسة من جذور التراث اليهودي الصهيوني، وأوضح في كثير من المناسبات ما يجعل كثيراً من آرائه (نظرياته) محلاً للريبة أو الجزم بأنه إنما وضعها لخدمة أغراض اليهودية العالمية، ولم يضعها على أساس دراسات علمية متجردة، ثم حملت الدعايات اليهودية العالمية آراءه (نظرياته) وروجت لها في جميع الأوساط العلمية والثقافية. ثم وضع اليهود كل ثقلهم الكيدي لجعلها معارف علمية تدرس في الجامعات العالمية، على أنها فتح في ميادين العلم، وذلك ضمن الخطط اليهودية المرسومة ضد شعوب العالم، ولمصلحة الشعب اليهودي فقط. ثم رفعت وسائل الإعلام اليهودية العالمية (فرويد) إلى منزلة غير عادية، وحمله ملاحدة الشعوب غير اليهودية على رؤوسهم، وداروا به في الأفاق تمجيداً وإكباراً.

مع العلم بأن الإلحاد الذي أعلنه (فرويد) لم يكن إلا خطة سياسية أخفى بها أهدافه اليهودية الصهيونية. كما فعل اليهود بنظرية (داروين)، وكما فعل (دوركهيم) في بحوثه العلمية التي قدّمها باسم البحث العلمي وتحت ستاره. ليخفي أغراضه اليهودية الخاضعة لخطط مرسومة من قبل القيادات اليهودية السرية في العالم. ومن تتبعات (د. صبري جرجس) اقتبس معظم الدراسات التالية عن (فرويد):

يقول (فرويد) عن نفسه: «ولدت في ٦ مايو ١٨٥٦م في مدينة (فريبورج) بمقاطعة (مورايا) بجمهورية تشيكوسلوفاكيا الحالية، وقد كان والداي يهوديين، وظللت يهودياً أنا نفسي».

وعلق الكاتب على قوله: «وظللت يهودياً أنا نفسي» بأن في قوله هذا إيماء

(١) في كتابه: «التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي».

واضحاً بأنه لم يتخلَّ يوماً عن يهوديته، على الرغم من إعلانه الإلحاد لأن إلحاده هذا لم يكن إلاً إلحاداً ذهنياً، لم يصل قط إلى وجدانه، ولم يغير شيئاً من محتويات ذلك الوجدان واتجاهاته.

ونقل الكاتب عن (شويزي) - وهي محللة من خاصة (فرويد) وذات معرفة به وصلة وثيقة - أن إلحاد (فرويد) لم يكن إلاً إلحاداً زائفاً، لأنه تركه بعد ذلك متشبهاً باليهودية الصهيونية، وفيها لها، سائراً في طريقها، منفذاً لمخططاتها.

وبدهي أن ندرك أمام هذا أن إلحاده المزيف إنما هو عملية من عمليات المخادعة اليهودية، لترويج مصنوعاته الفكرية في أسواق معاهد العلم والثقافة، وأنديتها، ونشراتها، ومؤلفاتها، وسائر وسائل إعلامها، وهذه المصنوعات الفكرية تحمل في طياتها ألغام نفس الحقائق الفكرية الأصيلة الثابتة لدى الشعوب، بغية خدمة المخططات اليهودية العالمية.

وقد انخدعت بمكيدته مدارس كثيرة من مدارس التحليل النفسي، وزعمته باحثاً حيادياً، ومكتشفاً مبدعاً في مجال دراساته التي قدمها، وكان للعصابة اليهودية التي انتمت إلى مدرسته أثر عظيم في الترويج لأفكاره وآرائه. وكان من ورائها أجهزة الإعلام اليهودية المنبثة في العالم.

ويؤكد الكاتب المتتبع فيقول: «وليس في حياة (فرويد) ما يوميء بأنه قد تخلّى يوماً عن يهوديته، بل إن فيها ما يؤكد تمسكه بها، واستغراقه فيها إلى درجة غير مألوفة».

ثم عقد المشابهة بين إلحاده وإلحاد (بن غوريون) وغيرهما من اليهود الذين يعلنون عن إلحادهم، وذكر أنه مثل إلحاد فرويد في ذاته. ومن خصائصه أنه لا يرى حرجاً أو تناقضاً في الجمع بين إنكار الله وبين الإيمان بدعوة دينية عنصرية متعصبة، تستند إلى كتاب مقدس.

ثم فرق الكاتب بين (بن غوريون) و (فرويد)، فقال: «ولعل الفارق بينهما أن (بن غوريون) أعلن عن إلحاده، ثم اتجه في الوقت نفسه إلى العمل السافر من

أجل الدعوة العنصرية المتعصبة، بينما جعل (فرويد) من إلحاده قناعاً يحاول أن يخفي وراءه الوجه القبيح لهذه الدعوة».

وذكر الكاتب: أن (فرويد) كان يعتز جداً بيهوديته، وكان على معرفة متضلعة بالحياة اليهودية، وبالجوانب العقائدية لها، وبالطقوس الخاصة بها، وكان يرجع إلى التوراة ويقرؤها ويعجب بما فيها من فكر وفلسفة، وهذا على خلاف ما أعلنه من إلحاد مزيف.

ألا فليعلم (د. العظم) وسائر ملحدي العرب وغير العرب الذين يتكبرون لدينهم وأمتهم هذه الحقائق عن (فرويد) وأمثاله قبل أن يتبعوهم.

وقصة التظاهر بالإلحاد من قبل المضللين اليهود وغيرهم قصة متكررة معروفة ومدروسة، وهي خطة من خطط المكر بأبناء الأمم الأخرى.

ففي الوقت الذي يكون فيه اليهودي متعصباً شديداً التعصب لدينه، شديد الإيمان به، والثقة بتعاليمه، يرى من وسائل خدمة دينه وخدمة الشعب اليهودي، وخدمة أهدافه السياسية، أن يتظاهر بالإلحاد وإنكار الله، وبعدم تمسكه بالدين، ثم يقدم في أوساط أبناء الأمم الأخرى أفكاراً ومذاهب وعقائد مناقضة لما في الدين، ويزينها بزخرف من الصياغة النظرية، ويُلْبِسُها أثواب البحث العلمي المتجرد، لتفتتن بها الأجيال الناشئة، وتتلفحها دون أن تشعر بالحذر من أغراض صاحبها، لأن صاحبها لا ينتمي فكرياً كما أعلن إلى أي دين حتى يتعصب له ويعمل من أجله.

وهكذا تنطلي الخديعة، ويدخل المكر على أبناء الأمم، فيتركون أديانهم بحماسة، ويقاومونها بشدة، ويحملون آراء المضلل على رؤوسهم، على أنها حقائق علمية لا تقبل النقض ولا المعارضة، ويُضَفُّون عليها من القدسية العلمية ثوب إجلال وإكبار، ويروجون لها في أسواق العلم، وأندية الثقافة، وأوكار الأحزاب المتصلة بواضعي الخديعة والمخططين لها، ويكونون جنوداً صادقين في خدمة أفكار المضلل وآرائه، مع العلم بأنه هو غير صادق فيها، وإنما اتخذها وسيلة لخدمة غاية أخرى قد وضع عليها قناعاً كثيفاً، ليسترها عن جنوده وأتباعه، ومروجي آرائه، ومنفذي مخططاته وهم لا يعلمون، أو وهم يعلمون ولكنهم مستأجرون.

(٤)

نشأ (فرويد) نشأة يهودية مغلقة، تلقى فيها كل سمات الناشئ اليهودي، في أسرة شديدة التمسك بيهوديتها.

يقول (د. جرجس): «وإذا شئنا في هذا الصدد الاستعارة من الفكر الفرويدي نفسه، وبالتحديد ما أكده من أهمية السنوات الأولى من حياة الطفل في صياغة شخصيته فيما بعد، لكان جلياً أن المؤثرات الصهيونية التي أحاطت بفرويد منذ نشأته، وأحاطت بأسرته لعدة قرون من قبل أن يولد، صبغت شخصيته وفكره على نحو لم يستطع إخفاءه دائماً».

وقد لا يهمننا تطبيق آرائه ونظرياته عليه كما يقول الكاتب، لكن حياته في الواقع قد كانت فعلاً مشحونة بالشعور بالذاتية اليهودية، ذات السمات المعروفة في عامة اليهود.

يقرر الكاتب المتتبع أن يهودية (فرويد) قد كانت ممتدة إلى الجوانب الثقافية والوجدانية في حياته كلها، ففضلاً عن علاقاته المهنية والشخصية الوثيقة، التي كادت أن تكون مقصورة على أفراد من اليهود، فقد كان أيضاً على معرفة متضلعة بالحياة وبالجوانب العقائدية وبالطقوس اليهودية، كما كان على استيعاب شامل للتاريخ والأدب اليهودي، ولفلسفة اليهود وعاداتهم ونكاتهم وأقوالهم المأثورة، وأن (فرويد) على الرغم من مجاهرته بعدم الإيمان قد كان يهودياً في أعماق وجدانه، وهذا ما جعله شديد الحساسية لأية بادرة يشتبه في اتجاهها المضاد لليهود، وكانت استجابته لجميع هذه المواقف عنيفة أشد العنف، وعلى الرغم من أنه لم يشاهد في حياته أي اضطهاد من أجل يهوديته، إذ ترقى في الدراسة والوظيفة حتى حصل على منصب أستاذ مساعد في الجامعة، إلا أنه كان يشعر بالاضطهاد في داخل نفسه من أجل يهوديته، ولذلك كان ينطوي على نفسه وداخل دائرة من أصدقائه، وكلهم من اليهود، إذ إنه ما كان ليأنس إلى صديق أو يطمئن إليه إلا أن يكون يهودياً.

وكان انتماءه ليهوديته لا للبلاد التي عاش فيها حياته، وهذا ما صرح به هو

عن نفسه، فقد قال ذات مرة: «إنه يهودي، وليس نمساوياً أو ألمانياً». كذا نقل عنه (جونز) مؤرخ سيرته.

وذكر اليهودي (ماكس جراف) أنه كثيراً ما كان يزور (فرويد) ويدخل معه في نقاش حول ما أسماه «المسألة اليهودية»، فكان يلاحظ دائماً اعتزاز (فرويد) بيهوديته، وفخره بانتسابه إلى الشعب اليهودي، الذي قدم التوراة إلى العالم.

وتساءل (ماكس جراف) ذات مرة عما إذا كان من الخير أن يواجه اليهود أبناءهم إلى اعتناق المسيحية، إذا اقتضى الأمر ذلك، فإذا بفرويد يعترض بشدة قائلاً: «إذا لم تنشأ ابنك على أنه يهودي، فسوف تحرمه من مصدر طاقة لا يمكن أن يعوض بشيء آخر، إن عليه كيهودي أن يكافح، ومن واجبك أن تنمي في نفسه كل الطاقة اللازمة لذلك الكفاح، فلا تحرمه من هذه الميزة».

قال الكاتب المتتبع: «وقد كرر (فرويد) بأن اليهودية مصدر للطاقة في كثير مما كتب».

ويهودية فرويد الوجدانية والعصبية هي التي جعلت البطانة الأولى من مشايخه كلها من اليهود، ولما اتسع نطاق التحليل وانتشرت دائرة الملتفين حوله ظل معظم المقبلين عليه من اليهود أيضاً.

ألا فليعلم ملاحدة العرب أنهم يشايعون بإلحادهم اليهودية العالمية المعادية لهم ولأمتهم، ويجندون أنفسهم في صفوف الأعداء.

(٥)

كما كان (فرويد) يهودياً صهيونياً في مشاعره ووجدانه، وصديقاً لهرتزل مؤسس الصهيونية الحديثة^(١)، فقد كان عضواً في بعض المنظمات الصهيونية العاملة.

(١) وكان (فرويد) يولي (تيودور هرتزل) الاحترام والتقدير، وقد أرسل إليه أحد كتبه مع عبارة (إهداء شخصي) عليه.

فمن الحقائق المعروفة أنه قد انضم إلى جمعية (بناي برث) الصهيونية، أي : جمعية أبناء العهد، وكان انضمامه إليها في عام (١٨٩٥م) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، وظل يواظب على حضور اجتماعات هذه الجمعية الصهيونية، التي كانت تعقد يوم الثلاثاء كل أسبوعين طوال عدة سنوات، وفي هذه الجمعية ألقى (فرويد) أولى محاضراته عن تفسير الأحلام، وكانت مساهمته في نشاط هذه الجمعية أحد وجوه النشاط القليلة جداً، التي كان يبيح لنفسه المساهمة فيها، لأنه كان يضمن بوقته أن ينفقه في نشاط لا يلح عليه وجدانه أن يساهم فيه.

ومن المعروف أن جمعية (بناي برث) لا تقبل بين أعضائها غير اليهود، وليست على غرار الجمعيات اليهودية الأخرى كالماسونية، وهدف هذه الجمعية في الظاهر رعاية المصالح اليهودية الحضارية والثقافية والخيرية، أما هدفها الحقيقي فهو العمل في خدمة الصهيونية العالمية.

وقد أنشئت هذه الجمعية أول الأمر في أمريكا، ثم تكونت لها فروع في كثير من البلاد الأوروبية، وكان لها نشاط قوي وملحوظ تغلغت عن طريقه في صميم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للبلاد التي أنشئت فيها، لا سيما بريطانيا وأمريكا. وسارت في سبيل تحقيق المخطط الصهيوني عن طريق التحالف مع رأس المال اليهودي، للسيطرة على أجهزة الإعلام، وفي مقدمتها الصحافة ودور النشر، وللقضاء على كل من تسوّل له نفسه أن يتصدى لها ويكشف عن خباثتها.

وتنفيذاً لهذه المهمة عملت الجمعية على إسكات الألسن، وتحطيم الأقلام، وهدم الجهود التي كانت تحاول الكشف عن المخططات اليهودية الصهيونية.

وصرّح رئيس وفد هذه الجمعية الأمريكي، في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد بمدينة «بال» بسويسرا في عام (١٨٩٧م) بقوله: «علينا أن نشر روح الثورة بين العمال، وهم الذين سندفع بهم إلى خطوط دفاع العدو، موقنين بأنه لا نهاية لرغباتهم، ونحن بأمس الحاجة إلى تدميرهم، لأنه السبيل إلى تخريب المدينة المسيحية، والوصول سريعاً إلى نشر الفوضى فيها. ولسوف يحين الوقت سريعاً الذي يطلب فيه المسيحيون أنفسهم إلى اليهود أن يتسلموا السلطة».

هذا ما ذكره الكاتب المتتبع .

ومنه يتضح لنا أن (فرويد) - وهو واحد من أعضاء هذه الجمعية الصهيونية - لا بد أن يكون مسخراً لخدمة الأهداف الصهيونية عن طريق نشاطه العلمي، كما غدا معروفاً تماماً في كل النشاطات التي يقوم بها أصحاب الغايات الخاصة، إنهم يسخرون ما يستطيعون من نشاطهم لتحقيق غاياتهم، والحياد العلمي المزعوم أصبح مشكوكاً فيه شكاً يرجح جانب الاتهام دائماً، فلا ثقة بالحياد العلمي المدعى من قبل ذوي العصبية الخاصة، لا سيما أصحاب المكائد من اليهود، لقد غدا معروفاً ومكشوفاً أنهم يصوغون نظريات كاملة، ويلبسونها أثواب البحث العلمي الحيادي المتجرد، كذباً وزوراً، وغرضهم منها خدمة غاياتهم القريبة أو البعيدة، علماً بأن هذه المذاهب أو النظريات التي وضعوها لا أساس لها من الصحة بصيغتها العامة، ولكن قد يكون فيها عناصر صحيحة متفرقة، ومع هذه العناصر الصحيحة عناصر أخرى فاسدة. تجعل النظرية فاسدة برمجتها العام، وتكون العناصر الصحيحة فيها هي الطعم الذي يقدم فيها لقبولها جميعاً، وبقبولها جميعاً يتحقق المطلوب من المكيدة، ويقع الصيد فريسة صياده.

ونستطيع أن نقول بيقين: إن كل نظرية علمية تنتهي إلى إقرار الإلحاد بالله وبرسالاته، مذهباً اعتقادياً، فهي نظرية موجهة لغايات خاصة، مهما وُجد في عناصرها الأولى من أمور صحيحة، وعند التتبع البصير الواعي تنكشف العناصر المزيفة الدخيلة التي أفسدت الصيغة العامة للنظرية، وجعلت النتائج التي بُنيت عليها نتائج باطلة.

وبما أن (فرويد) منفذ خطة يهودية صهيونية، وعضو من أعضاء الصهيونية العالمية، كان من الطبيعي أن تمجده الحركات الصهيونية، وتعمل على نشر آرائه وما تسميه بنظرياته، والتبشير بها بين الأميين^(١)، فهذا العمل إحدى مراحل خططها العامة.

(١) المقصود بالأميين سائر الشعوب والأمم الأخرى غير اليهود.

أما الترويج لأفكاره فقد شهدنا آثاره بشكل منقطع النظير، حتى أمست آراؤه وأفكاره على ألسنة معظم المثقفين، وصارت متداولة تداول الحقائق، وفتن بها الكثيرون، بتأثير الدعاية اليهودية العالمية.

وأما تمجيده وتكريمه بشكل خاص فنجدته فيما فعلته جمعية (بناي برث) الصهيونية، إذ أقامت حفلاً له بمناسبة بلوغه من العمر سبعين سنة، ولم يحضر فرويد هذا الحفل، ولكن أناب عنه في حضوره طبيبه الخاص البروفسور (لديج براون) الذي ألقى كلمة فرويد فيه، وقد جاء في كلمة (فرويد) ما يلي:

«... إن كونكم يهوداً لأمر يوافقني كل الموافقة، لأنني أنا نفسي يهودي، فقد بدا لي دائماً أن إنكار هذه الحقيقة ليس أمراً غير خليق بصاحبه فحسب، بل هو عمل فيه حماقة إيجابية، إنه لتربطني باليهودية أمور كثيرة، تجعل إغراء اليهودية واليهود أمراً لا سبيل إلى مقاومته، قوى انفعالية غامضة كثيرة كلما زادت قوتها تعذر التعبير عنها في كلمات، بالإضافة إلى شعور واضح بالذاتية الداخلية...»

وهكذا وجدت نفسي واحداً منكم أقوم بدوري في اهتماماتكم الإنسانية والقومية، واكتسبت أصدقاء من بينكم، وحشئت الأصدقاء القليلين الذين تبقوا لي على الانضمام إليكم»^(١).

هذا هو الصهيوني (فرويد) إذ كان عمره (٧٠) سنة.

وبالإضافة إلى كونه عضواً في جمعية (بناي برث) الصهيونية كما بيّننا كان عضواً فخرياً في منظمة (كاديما) وهي منظمة صهيونية معروفة، وإذا اكتفى بالعضوية الفخرية بالنسبة إلى هذه المنظمة فقد دفع أحد أبنائه ليكون عضواً عاملاً فيها.

ومعلوم أن الحركة الصهيونية حركة ذات طابع ديني وقومي مفرط في التعصب ضد الأمم والأديان الأخرى، وما كان (فرويد) ليعمل فيها ويدفع إلى العمل فيها أحد أبنائه لو لم يكن مؤمناً بمبادئها، ومن مبادئها ما أعلنه (تيودور هرتزل) لدى

(١) أخذنا من تتبعات دكتور صبري جرجس في كتابه: «التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي».

افتتاح المؤتمر الصهيوني الأول بقوله : إننا هنا لنضع حجر الأساس لبناء المأوى الذي يأوي الشعب اليهودي إليه . . . إن الصهيونية هي عودة اليهود إلى اليهودية قبل عودتهم إلى الأرض اليهودية . إن الصهيونية هي القومية الجديدة للشعب اليهودي» .

أفلا يدل هذا دلالة قاطعة على أن تظاهر (فرويد) بالإلحاد وعدم إيمانه بأي دين قد كان عملية من عمليات المكر والمخادعة، ليضم إلى فكرة الإلحاد أنصاراً من الأمم غير اليهودية، وبذلك يجندون أنفسهم في الكتائب المنفذة للمخططات اليهودية العالمية .

يقول الكاتب المتتبع لفرويد : «إذا كان الأمر كذلك فقد كان شأنه فيه — كشأنه في كل المناسبات الصهيونية العنصرية التي ناصرها فعلاً — الحذر والبعد عن الأضواء، حتى لا يثير الريبة فيما أحيط به من هالة الموضوعية تفكيراً، والإلحاد عقيدة، والحقيقة العلمية هدفاً . . .

وهكذا كان (فرويد) برغم كل ما تظاهر به من تفكير حر، وبرغم كل ما أعلن من إلحاد، غارقاً في اليهودية، بل اليهودية الصهيونية إلى أعماق الأعماق، وهكذا وجد «فرويد» نفسه في قمة شعوره بالذاتية اليهودية الصهيونية، وقمة توحيده مع تلك الذاتية، مسوقاً في الطريق العلمي إلى التحليل النفسي، ومسوقاً في الطريق السياسي إلى العمل الصهيوني . . .» .

(٦)

استغل (فرويد) وتلاميذ مدرسته اليهود طريق التحليل النفسي لخدمة اليهودية العالمية، والحركة الصهيونية .

من ذلك ما استغلوه في موضوع معاداة السامية، الفكرة التي حمل اليهود رايتها في العالم الغربي، لإسكات كل لسان يمكن أن يتحرك في انتقاد اليهود، ولإيقاف كل مقاومة تتوجه لصد مكائدهم وتحركاتهم المريبة، في السياسة، أو في الاقتصاد، أو في الإعلام، أو في مجالات العلم والثقافة، أو في غير ذلك من مجالات .

ومما يثير العجب في خطة العمل اليهودية أن قادة الصهيونية قد كانت لهم رغبة بتحريض الأمم الأخرى على معاداة السامية (أي : معاداة اليهود) لتستفيد الحركة الصهيونية من ذلك، حتى قال (هرتزل) مؤسس الصهيونية الحديثة : «إن الصهيونية أحوج ما تكون إلى مبدأ معاداة السامية لكي تنتعش» .

وغدت قصة معاداة السامية هي السلاح الدعائي الذي يحمله اليهود في العالم الغربي، لاتهام كل من يعارض يهودياً ولو كان اليهودي هو المجرم الجاني بأنه معادٍ للسامية، باعتبار أن اليهود ساميون منشئون في شعوب غير سامية، وبذلك يتحمل المظلوم الغربي ظلامته في نفسه، خشية أن تلصق به تهمة التفرقة العنصرية والمعاداة على أساس عرقي .

وفي ظل هذا السلاح الدعائي نشط اليهود نشاطاً كبيراً في اغتنام خيرات البلاد التي نزلوا فيها، وفي صنع المكائد الكثيرة دون أن تجرؤ الأمم الأخرى على مقاومتهم، خشية أن تلصق بها تهمة معاداة السامية، واليهود وحدهم من دون سائر الساميين هم الذين يستفيدون من هذا السلاح، كأنهم وحدهم هم الساميون في العالم، أما سائر الساميين فلا بأس أن يحرض اليهود الدول على استغلالهم واستعمارهم ونهب خيراتهم .

أما دور (فرويد) وتلاميذ مدرسته في هذا المجال، فقد كان يعتمد على تسخير مبدأ التحليل النفسي لتزييف الواقع والحقيقة، وتمجيد اليهود وخدمة الصهيونية .

ولفرويد أقوال صريحة وواضحة في هذا المجال، وله تحليلات يزينها وفق أهوائه الخاصة، وقد ذكرها في كتابه «موسى والتوحيد» .

وقد ذكر (فرويد) في تحليلاته أن أسباب كراهية الأمم لليهود كثيرة، واعتبر أنها ترجع إلى صنفين :

● الصنف الأول :

ظاهر وليس بعميق، وذكر من هذا الصنف سببين :
الأول : كون اليهود غرباء عن الأوطان التي يقيمون فيها .

الثاني: كون اليهود أقلية، لأن الشعور الجماعي كي يكون كاملاً فيما يُقرر يقتضي توجيه العداء نحو الأقلية.

● الصنف الثاني:

ما أسماه (فرويد) بالأسباب العميقة، وزعم أنها ترجع إلى الماضي السحيق، وأنها منبعثة من اللاشعور، وهي في رأيه تتلخص فيما يلي:

١ — غيرة الشعوب الأخرى من اليهود، لأنهم آثرهم عند الله، بوصفهم أكبر أبناء الله.

٢ — تمسك اليهود بعادة الختان.

٣ — أن الشعوب غير اليهودية لما تركت وثنياتها الأولى تحت قوة الضغط حقدت على أديانها الجديدة في مستوى اللاشعور منها، فأسقطت حقدتها على اليهود، لأنها لا تستطيع أن تكره دينها الجديد.

هذه هي التحليلات النفسية التي أرجع إليها (فرويد) كراهية الأمم غير اليهودية لليهود.

وفي اعتقادي أن أي عاقل لا يملك نفسه عن ضحكات ساخرات من هذا التحليل، ومن هذه الأسباب التي ذكرها.

أما زعمه أن من أسباب كراهية الأمم لليهود كونهم غرباء عن الأوطان التي يقيمون فيها، فهو مردود من وجهين:

الوجه الأول: أننا نجدهم مكروهين ولو كانوا هم الأصلاء لا الغرباء.

الوجه الثاني: أننا نجد كثيراً من الغرباء في الشعوب محبوبين محترمين غير مكروهين.

فليست الغربة إذن من أسباب كراهية الأمم لهم، إلا أن ينضم إليها شيء آخر من اليهود أنفسهم، كالاستغلال، والأنانية، وعقدة الاستعلاء، وحقدتهم هم على الأمم.

وأما زعمه أن من أسباب كراهية الأمم لليهود كونهم أقلية، فهذا خلاف

الواقع تماماً، بل هو عكس الواقع تماماً، إذ الواقع أن العداء يتوجه من الأقلية إلى الأكثرية بدافع الحسد، وليس العكس.

فليست الأقلية من أسباب كراهية الأمم لهم، إلا أن ينضم إليها شيء آخر من الأقلية نفسها، كمكايد تكيدها، واستغلالات تستأثر بها، وعقدة استعلاء تفتخر بها.

فالكراهية سببها اليهود أنفسهم، وأعمالهم داخل الأمم التي يعيشون بينها.

وأما ما ذكره من الأسباب العميقة فشيء مضحك جداً جداً.

أما غير الشعوب الأخرى من اليهود لأنهم آثرهم عند الله بوصفهم أكبر أبنائه، فلا أحد يعترف لهم بهذه الميزة حتى يغار منهم، ولكن الحسد والغيرة من سمات اليهود منذ تاريخهم القديم.

وأما تمسك اليهود بعادة الختان فمع بالغ السخرية نقول: إن غير اليهود يختنون أيضاً، والأمم الأخرى لا تكرههم لذلك.

وأما حقد الأمم على أديانها في مستوى اللا شعور، وإسقاط حقدتها على اليهود، فتحليل خيالي خرافي لا نظير له إلا في مستشفى المجانين.

فهل يوجد سخف أكبر من هذا السخف الفرويدي باسم التحليل النفسي، لدعم اليهودية العالمية؟!.

(٧)

ثم إذا تجاوزنا كل ما سبق، ونظرنا إلى نظرية (فرويد) في التحليل النفسي نظرة موضوعية غير متحيزة، فإننا لا نجد فيها ما يبرر للناقد (د. العظم) أن يمجدها ويقول عنها: إنها من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية.

أما فكرة تحليل دوافع الأنفس إلى السلوك فهي فكرة إنسانية قديمة، وليست هي بحد ذاتها من مبتكرات (فرويد) إلا أن هذا الرجل قد أفرط في السبح الخيالي

في تحليل تصرفات الإنسان، إفراطاً حشد فيه أوهاماً وفرضيات أقرب ما تكون إلى التخريف المطلق منها إلى الدراسة العلمية الموضوعية.

بيد أنه باتجاهه نبه الباحثين النفسيين على البحث الموضوعي في مجال التحليلات النفسية، حتى تكونت مدارس التحليل النفسي في عالم العلم، وأصبحت مدرسة فرويد اليهودية في نظر العلماء بدائية متخلفة جداً. والسرف في هذا أن فرويد كان مسخراً أساساً لمحاربة الأديان، وتهديم القيم الأخلاقية والاجتماعية، وقد فرضت عليه الخطة اليهودية العالمية أن يضع نظرية تستر بالعلم لتحقيق هذه الغاية، فاستخدم التحليل النفسي طريقاً إلى ذلك، كما استخدم غيره من اليهود طرقاً أخرى تحت ستار البحث العلمي لتحقيق الغاية نفسها، وطبيعي أن تكون الدراسة العلمية الموجهة أساساً لإبطال حقيقة من الحقائق مُكرهة على أن تحمل في حقيبتها وعلى ظهرها أكداً من التخييلات والأوهام والفروض التي لا سند لها من الواقع، ومُكرهة على أن تصوغ نظرية تجمع في لبناتها بعض الحقائق لإقامة بعض الزوايا، ثم تملأ سائر الثغرات بأوراق ملونة مصبوعة، تشبه في ظاهرها صورة لبن البناء وقواعده، وهي في حقيقتها وهم وخداع تمزقه أية يد تمتد إليه بالفحص والبحث العلمي.

واقبس هنا نقداً موضوعياً لمدرسة (فرويد) في التحليل النفسي، مما كتبه صديقنا الدكتور عبد الحميد الهاشمي، وهو نقد مؤلف من النقاط التالية:

١ - إن آراء (فرويد) هي أولاً وقبل كل شيء نظرية افتراضية وليست من الحقائق النفسية أو المبادئ العلمية التي أثبتتها التجارب، أو صدقتها الملاحظة العلمية.

فليس لآراء (فرويد) تلك الهالة التي يحاول بعض مناصريها أن يلبسوها ثوب الحقائق العلمية، أو كما تحاول بعض الجهات العالمية أن تحيطها بالدعاية.

٢ - تعتبر هذه النظرية امتداداً لفلسفة أفلاطونية، إلا أن أفلاطون كان يحاول أن يسير بالنفس الإنسانية نحو المثالية، أما (فرويد) فقد تشبث - كما يقول تلامذته - بالدافع الجنسي، ليظل هو الدافع والوسيلة والغاية.

والواقع أن الصحة النفسية إذ تسعى للإشباع الشرعي المعترف به فإنها تدعو إلى الضبط والاعتزان، لأن الحقيقة الفسيولوجية والنفسية تؤكد أن الإشباع الفوضوي المطلق يزيد بها تفتحاً، وتصبح الشغل الشاغل، ومن أجل هذا فالصحة النفسية في مناهجها التكوينية والوقائية والعلاجية دعت إلى التسامي والإبدال، بجانب دعوتها إلى الإشباع المشروع.

٣ - لقد تأثر فرويد في آرائه بالحالات الشاذة المرضية التي كان يعالجها في مرضاه، ويكمن الخطأ العلمي في التعميم الذي أطلقه فرويد، إذ أخذ يفسر السلوك المتزن العادي لدى الأسوياء في ضوء ما عاينه من السلوك الشاذ لدى المصابين.

وهذه نقطة أخذها عليه زملاؤه وتلامذته في العلاج النفسي، وانفصلوا بها عن جماعته ثم عارضوا نظريته بنظريات أقاموها وعرفوا بها.

٤ - تأثره واضح بالأساطير اليونانية، كقصة أوديبوس.

ويعلق عليها (روبرت ودورث) بقوله: «لربما بحثت عن رأيي الشخصي في سيكولوجيا فرويد لكان عليّ أن أقول: إنني لا أؤمن بأن يكون مذهبه صحيحاً بأي معنى مطلق. ولا أن يوضع في مصاف النظريات العلمية الكبرى، التي تربط المعرفة الراهنة. فإنها بكائناتها وثناياها تبدو متخلفة أكثر منها ناضرة إلى الأمام».

وإذا علمنا أن البروفسور (ودورث) يعتبر من رواد علم النفس الحديث فيما بعد الحرب العالمية الأولى في كتبه الكثيرة عن علم النفس التجريبي، وعلم النفس الديناميكي. ورياسته لعلم النفس في لجنة البحث القومي الأمريكي، ولهيئة علماء النفس الأمريكيين. إذا علمنا ذلك أدركنا أن آراء فرويد تمثل في تطور الدراسات النفسية مرحلة بدائية متخلفة لا ينبغي الوقوف عندها في مجال علم النفس الحديث.

٥ - إن نظرية فرويد تعكس الحياة المتناقضة الشاذة للمجتمع الغربي (الأوروبي) بعد النهضة الصناعية المادية، وانتشار الاختلاط المطلق، وشيوع الإباحية بشتى أسمائها، نتيجة الترف والغرور الأوروبي، في عنفوان العهد الاستعماري.

فكانت نظرية فرويد انعكاساً أو تبريراً للواقع الشاذ، وليست دراسة علمية دقيقة تنظر إلى المشكلة من جميع أسسها.

٦ - والخطأ العلمي النفسي الكبير أن نظرية فرويد تحاول تفسير السلوك الإنساني بنظرة جانبية جزئية. وذلك حين يحاول فرويد أن يحدد السلوك الإنساني بدافع جنسي.

ولقد قام لمناهضة هذا التفسير الجانبي والمتحيز عدة علماء نفسيين لهم وزنهم العلمي حتى يومنا هذا غير من تقدم ذكرهم، ولعل أعظمهم في ذلك (وليم مكيدوجل) الذي قام لمناهضة هذا التفسير الضيق والمتحيز، في كتابه «تخطيط علم النفس» سنة (١٩٢٣م)، وفيه يرد على كل من فرويد ويونج وكارل لتحديد دوافع السلوك البشري بدافع واحد أو اثنين.

أما مكيدوجل فقد ذكر عدة دوافع سماها غرائز، وقد أوصلها بعد عدة تعديلات إلى عشرة غرائز أو تزيد. منها غريزة الأبوة في حماية الصغار، وغريزة المقاتلة مع انفعال الغضب وغريزة الهروب من الخطر مع انفعال مصحوب بالخوف، وغريزة حب الاستطلاع، وغريزة تقدير الذات مع الشعور بالتفوق، وغريزة البحث عن الطعام، وغريزة التجمع مع الشعور بالعزلة، وغيرها. . .

٧ - في آراء فرويد المتحيزة نحو التفسير الجنسي كدافع لكل سلوك يتجلى التفكير اليهودي، الذي اشتهر به اليهود منذ أيامهم الأولى، في اتهامهم لبعض أنبيائهم، وفي معاملتهم للأمم التي عاشوا معها، وهو تحيز مقصود ومخطط، خدمة للسياسة اليهودية العالمية بعيدة المدى.

فهل بعد هذا يسوغ لكاتب عربي أن يمجد آراء فرويد ونظريته، وأن يعتبرها كما ذكر (د. العظم) من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية، إلا أن يكون أجيراً ذليلاً وخادماً مطيعاً للصهيونية العالمية؟

* * *

الفصل الثامن

صراع لنفي فرية النزاع بين الإسلام والعلم

(١)

أثار الناقد (د. العظم) ما أسماه مشكلة النزاع بين العلم والدين، وفسر الدين بقوله: «أي: الإسلام بصورة رئيسية بالنسبة لنا».

ثم أعلن أنه يريد أن يسترسل في شرح وجهة النظر التي ترى أن الدين كما يدخل في صميم حياتنا، وكما يؤثر في تكويننا الفكري والنفسي، يتعارض مع العلم ومع المعرفة العلمية قلباً وقالباً روحاً ونصاً.

ثم لوح بأن هذا الخط المحارب للدين الإسلامي سينتصر كما انتصر على العقلية الدينية التي كانت سائدة في أوروبا. بعد مرور قرنين ونصف من الحرب الطويلة بين العلم والدين هناك، فقال في الصفحة (٢١) من كتابه:

«يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن، قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية الدينية التي كانت سائدة في تلك القارة، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتاً نهائياً في تراثها الحضاري، ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة في معظم البلدان النامية، بما فيها الوطن العربي، علماً بأنها معركة تدور رحاها في الخفاء، ولا تظهر معالمها للجميع إلا بين الفينة والأخرى».

هذا ما قاله (د. العظم) بلسانه عن نفسه، وعن سائر كتائب ملحمي هذا العصر، ونحن نقول: لا ضير ولا خوف على الدين الإسلامي من هذه الحرب الشعواء التي يشنها الملاحدة المتسترون بالعلمانية، فالدين الإسلامي بمفاهيمه الصحيحة الثابتة، وأصوله الفكرية الراسخة لا يخشى العلم الصحيح الذي يستطيع أن يثبت نفسه بالأدلة الصحيحة عبر الزمان، وستسفر المعركة إن وجدت بين الإسلام والعلم عن التقاء تام على خط واحد بين الصحيح مما نسب إلى الدين،

والصحيح مما نسب إلى العلم، وانتصار الإسلام والمفاهيم الإسلامية على النظريات والفرضيات الباطلة المنسوبة إلى العلم، ولا ضير من تصحيح المفاهيم الاجتهادية التي فهمها بعض علماء المسلمين في عصور مختلفة، إذا استطاع العلم أن يثبت صحة نظرياته المخالفة لهذه المفاهيم.

وليس هذا تراجعاً في الدين، وإنما هو تصحيح لأخطاء المجتهدين في تحديد بعض مفاهيمه، بما يتوصل إليه العلم من حقائق، ويظل الإسلام هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو لا يتحمل بحال من الأحوال جريرة أخطاء المفسرين لنصوصه، والمجتهدين في استخراج مفاهيمه.

ومما لا شك فيه أن المسلمين يتعرضون في هذا لأخطر حرب تعرضوا لها في تاريخهم الطويل، إنها حرب قائمة على التضليل الفكري الذي يلبس أثواب العلمانية، وتقودها أجهزة شديدة الحذق في صناعة المكاييد، وفي تزوير الحقائق العلمية، وتزييف مستنداتها، وفي يدها المال الكثير، والأجهزة العسكرية العظيمة، والمراكز التعليمية الكبرى في العالم، والتنظيمات الحزبية المنبثقة في كل قطر، وهي لا تهدف إلى مجرد الاحتلال العسكري في خطة غزوها، ولكن تهدف أيضاً إلى احتلال الأفكار ومراكز العقائد، واحتلال النفوس ومراكز العواطف، وتشترى من داخل كل أمة صنائع وأجراء لها، ببذل المال، والوعود، والإغراءات، ومرصيات الشهوات الفاجرة.

ومع كل هذه الأثقال العتادية التي تحملها هذه الحرب ضد الإسلام والمسلمين فإننا واثقون من أن العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية الصحيحة ستنتصر أخيراً، على كل الحملات الغازية، لأن الحق مؤهل بطبيعته لأن يكون هو المنتصر في آخر الأمر، وإن أصابته أثناء معاركه مع الباطل متاعب ومشقات، وإن سقط من جنوده شهداء كثيرون، ومهما بدا في أول الأمر ظهور مزيف للباطل، إن هذا الظهور زبد لا قيمة له، وسيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض مع مكث الحقائق واستقرارها.

والتاريخ يشهد لهذه الحقيقة، فقد جاءت من قبل جيوش غازية إلى بلاد

المسلمين، ففتكت فتكاً ذريعاً، ودمرت تدميراً منكراً، ولكنها رجعت في آخر الأمر تحمّل الإسلام في قلوبها وفي سلوكها وأعمالها، لقد غزا الحق الرباني قلوبها ونفوسها وأفكارها، بعد أن دخلت غازية له تريد تحطيمه وتدمير كل ما يتصل به.

وكم من رجال مفكرين كانوا ملحدين بالله، تأثروا في مطلع حياتهم بأفكار الإلحاد، وبتضليلات المؤسسات الإلحادية في العالم، التي تلبس العلمانية، وتحمل أسلحة التقدم العلمي والصناعي، وشعارات الثورية والتغيير الاقتصادي والاجتماعي، ثم اتجه هؤلاء المفكرون نحو الإسلام لنقده واقتلاعه من جذوره، لكنهم كانوا في الواقع طلاب حقيقة، خدعوا بتزييفات المضللين، فلما درسوا الإسلام، وأمعنوا النظر في كتاب الله القرآن، ليستخرجوا منه ما يحاربونه به، إذا بهم يشهدون الحق فيخشعون لله وإذا بهم يجندون أنفسهم وعلومهم وفلسفاتهم للدفاع عن الإسلام، ولإعلاء كلمة الله بين الناس، وإذا بهم يتحولون إلى دعاة هدى وإيمان، بعد أن كانوا قد تجندوا فعلاً في جيش دعاة الضلالة والإلحاد.

وأما تلويح (د. العظم) بانتصار الإلحاد تحت ستار العلم، وقياسه الدين الإسلامي على غيره، وقياسه المسلمين على الشعوب الأوروبية، فهو تنبؤ منه يحمل تفاؤلاً مفرطاً لقضية الإلحاد ونشره في الأرض، واكتساحه للعقائد الإيمانية، وهذا الإفراط في التفاؤل يطعمه به بعض الانتصارات الزمنية التي حققها اليهود على الجيوش العربية، إذ استطاعت دسائسهم أن تعزل الإسلام والمسلمين الواعين عن المعركة.

وأما ما يسمى بالنظريات العلمية التي وضعت خِصيصاً لدعم قضية الإلحاد في الأرض فهي نظريات زمنية، لا تلبث طويلاً حتى تأتي كشوف علمية جديدة، ترافقها أوراق نظريات جديدة تلغيها إلغاء تاماً، وتقرب النظريات الجديدة من مواقع الإيمان خطوات علمية سليمة، وتخسر قضية الإلحاد كثيراً من أسلحتها التي تلبس رداء التقدم العلمي والصناعي زوراً وبهتاناً، كما قال الله تعالى سورة (الصف / ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول):

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾

وأما انتصار قضية الإلحاد في أوروبا فقد شرح أسبابه (ولتر أوسكار لندبرج) عميد معهد هورمل منذ سنة (١٩١٩م)، وخصّ بالذكر سببين:

الأول: ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية، أو الدولة، من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الإلحاد.

الثاني: المعتقدات الفاسدة التي تجعل الناس منذ الطفولة يعتقدون بإله على صورة الإنسان.

وطبيعي أن هذا السبب الثاني غير موجود في العقائد الإسلامية، لأنها قائمة على الحق الموافق للبراهين العقلية والأدلة العلمية.

ألا فليخفف (د. العظم) وسائر الملحدين من تفاؤلاتهم بانتصار قضية الإلحاد في دنيا المسلمين، فالله من ورائهم محيط، وليمت الملحدون بغيظهم إن شأؤوا، فالله متم نوره ولو كرهوا.

(٢)

بكل مجازفة مشحونة بالمغالطة زعم الناقد (د. العظم) — لسان طائفة من ملحدي هذا العصر — أن الإسلام والعلم يختلفان ويتنازعان في المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى المعارف والعلوم، وفي البحث عن الحقائق.

وقد غدا واضحاً أن سبيله وسبيل سائر الملحدين في مغالطاتهم، أن يقرروا من عندهم أموراً ينسبوننها إلى الإسلام، وما هي بالمفهوم الصحيح له، ليغالطوا الناس بها.

وقد أحصيت في الفصل الأول من هذا الكتاب أصول مغالطاتهم، وهي ترجع إلى تعميم أمر خاص، أو تخصيص أمر عام، أو ضم زيادات وإضافات ليست في الأصل، أو حذف قيود وشروط لازمة، أو التلاعب في معاني النصوص، أو طرح فكرة مختلفة من أساسها، أو تصيد بعض الاجتهادات الضعيفة لبعض العلماء وجعلها هي الإسلام، أو التقاط مفاهيم شاذة موجودة عند بعض الفرق التي تنتسب إلى الإسلام، أو نسبة أقوال إلى غير قائلها أو إلى غير رواتها، أو كتمان أقوال

صحيحة وعدم التعرض إليها مع العلم بها وشهرتها، أو نحو ذلك مما يتصل بهذا التضييل القائم على التلاعب بالحقائق، بغية تهديم الإسلام وعقيدة الإيمان بالله، ودعم قضية الإلحاد ونشر الكفر والفساد في الأرض، وهم يخدمون في كل ذلك مصالح شياطين الإنس، مقابل أجر يدفع لهم من دمائهم ودماء أمتهم، كالهرة الذي يلقى المبرد ليجزيه المبرد من قطرات الدم، وليست هذه القطرات إلا من دماء اللاعق، والتخدير الذي يحقن العدو به أعصابهم كفيلاً بأن يلغي الإحساس بالألم، ريثما تتم عملية الاستنزاف.

ولبيان فساد فرية النزاع بين الإسلام والعلم نذكر القارئ بما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب «الحقيقة بين الدين والعلم»، ونزيده هنا بعض تفصيلات تستدعيها طبيعة الجدل والمناظرة.

لقد وضع لدينا بالبيان التحليلي التفصيلي أن الإسلام والعلم لا يختلفان ولا يتنازعان في المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى المعارف والعلوم، وفي البحث عن الحقائق، على خلاف ما افتراه الناقد (د. العظم).

إن الإسلام والعلم الصحيح يسيران على منهج واحد في الوصول إلى المعارف والبحث عن الحقائق، حتى يصل البحث إلى منطقة عالم الغيب، فإذا وصل البحث إلى هذه المنطقة توقفت الوسائل الحسية وبقي المنهج الاستدلالي، وضمن المنهج الاستدلالي تقوم المناظرة بين الإسلام والعلم، كما تقوم بين عالمين استدلالين يبحثان وفق منهج واحد، وعند الخلاف المحتمل يبدو الفكر الإسلامي هو المرجح بأدلته الاستدلالية، وبمفاهيم نصوصه الآتية من عالم الغيب نفسه، ولا بد من مراعاة الأصول المنطقية العامة لدى فهم دلالات هذه النصوص.

ويظل حال التوافق بين الإسلام والعلم على المنهج الاستدلالي في مسيرة البحث عما في عالم الغيب من حقائق، حتى تنقطع الوسائل الاستدلالية، عندئذ يقول العلم: لقد انتهت وسائلنا، ولكني لا أمتنع احتمال وجود وسائل أخرى قد يأتي عن طريقها معارف وحقائق داخلية في عالم الغيب، وقد عجزت وسائلنا الحسية والاستدلالية عن إدراكها، والحكم عليها بإثبات أو نفي.

وهنا يأتي الدين فيقدم ما عني بالإرشاد إليه والتعريف به . مما هو داخل في عالم الغيب ، ولا تملك الوسائل الحسية والاستدلالية إدراكه ولا الحكم عليه بإثبات أو نفي ، ولا يملك العلم الإنساني هنا إلا أن يدّعي للدين ، أو يقول : لا أدري ، لكنني علمت أن ما جاء به الدين مما علمته بوسائله قد كان حقاً .

أما منطقة التكاليف الدينية والتعاليم الشرعية فهي أوامر قيادية ، يقصد منها بالدرجة الأولى امتحان الإرادة في مجال الطاعة والمعصية ، ويكفي فيها باعتبار الأصل أن تكون كيفية تتبع ما تراه القيادة دون مناقشة ، إلا أن الإسلام كان في أوامره القيادية حكيماً ، إذ راعى فيها مصالح الأفراد والجماعات ، وما يحقق لهم سعادة الحياة الدنيا ، إضافة إلى ما وعدهم به من أجر عظيم ينالونه في الآخرة ، إذا هم رعوها حق رعايتها . وامثلوا ما جاء فيها .

لكن الناقد (د. العظم) يقول لنا : هذا كلام تقريرى منكم ، ولا ينفع في إثبات الحقائق مجرد إيراد أقوال تقريرية خطابية عامة ، غير مؤيدة بدلائل واقعية ، وإذ يقول هذا الكلام يصر على طرح دعوى التناقض بين الإسلام والعلم في المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى القناعات والمعارف والعلوم .

وحين نتابع كلامه نجد أنه يفترى على الإسلام بمجرد الدعوى فقط ، ولا يقدم غير كلام تقريرى غير مدعم بأي دليل واقعي ، وحينما يأتي بكلام يراه دليلاً نجده في الحقيقة تقريراً جديداً كاذباً ، أو مغلفاً بمغالطة من مغالطاته .

هذه هي خطته العامة كما رأينا ، ولكن سنكشف كذبه واقتراءه في قوله لنا : هذا كلام تقريرى منكم للتوفيق بين الإسلام والعلم ، وفي دعواه وجود التناقض بين الإسلام والعلم في المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى القناعات والمعارف والعلوم .

يقول في الصفحة (٢٢) من كتابه :

«بالنسبة للدين الإسلامي ، إن المنهج القويم للوصول إلى مثل هذه المعارف والقناعات هو الرجوع إلى نصوص معينة تعتبر مقدسة أو منزلة ، أو الرجوع إلى كتابات الحكماء والعلماء الذين درسوا وشرحوا هذه النصوص ، أما تبرير العملية

بأسرها فيستند إلى الإيمان، أو الثقة العمياء بحكمة مصدر هذه النصوص، وعصمته عن الخطأ، ومن نافل القول أن نردد أن الطريقة العلمية في الوصول إلى معارفنا وقناعاتنا عن طبيعة الكون ونشأته، وعن الإنسان وتاريخه، تتنافى تماماً مع هذا المنهج الاتباعي السائد في الدين، لأن المنهج العلمي قائم على الملاحظة والاستدلال، ولأن التبرير الوحيد لصحة النتائج التي يصل إليها هذا المنهج هو مدى اتساقها المنطقي مع بعضها، ومدى انطباقها على الواقع».

كلام (د. العظم) هذا مشحون بالمغالطات والأكاذيب.

لقد بدأ كلامه عن المنهج العلمي للوصول إلى قناعات ومعارف عن نشوء الكون وتركيبه وطبيعته، وعن تاريخ الإنسان وأصله وحياته خلال العصور، ثم ادعى أن منهج الإسلام القويم في كل هذه المواضيع هو الرجوع فقط إلى نصوص معينة تعتبر مقدسة أو منزلة، وأوهم في سرد كلامه بعد ذلك أنه لم يكن لعلماء المسلمين في هذه المجالات عمل علمي إلا درس النصوص الدينية وشرحها.

فهل هذه الدعوى تنطبق على الواقع؟ أم هي فرية ومغالطة قائمة على التعميم؟

لو كان هذا الكلام صحيحاً بالنسبة إلى تركيب الكون وطبيعته، وتاريخ الإنسان وحياته خلال العصور، فمن أين نشأت الثروة العلمية العظيمة في هذه المجالات عند المسلمين، والتي كانت مصدر انطلاق الحضارة الحديثة في علومها وبحوثها وكشوفها ومنهجها، باعتراف كبار علماء هذه الحضارة نفسها، وباعتراف كبار مؤرخيها.

هل كانت كل ثروات المسلمين العلمية في هذه المجالات تفسيرات لنصوص دينية؟

إن أصغر دارس لعلوم المسلمين يكذب هذه الفرية، قد نجد في مقدمة كل علم شواهد دينية تحث على دراسة الكون، واكتشاف صفاته وخصائصه وسُننه، وقد نجد في ثناياه نصوصاً دينية تشير إلى بعض المعارف التي اشتمل عليها، باعتبارها

أحد وسائل المعرفة، ولكن ليس معنى هذا انحصار منهج المعرفة عند المسلمين بتفسير النصوص الدينية وشرحها.

هل علم الكيمياء الذي شق المسلمون طريقه قد كان تفسيراً لنصوص قرآنية أو نبوية؟ ومعلوم أن هذا العلم من دراسة طبيعة الكون.

هل علم الفيزياء الذي صحح المسلمون كثيراً من نظريات الفلاسفة فيه قد كان تفسيراً لنصوص دينية؟ وعلم الفيزياء من دراسة طبيعة الكون.

هل علم الفلك الذي برز فيه المسلمون قد كان مجرد تفسير لنصوص دينية؟ وهذا العلم من دراسة طبيعة الكون.

هل علم التاريخ والجغرافيا لم يكونا غير تفسير لنصوص دينية؟ وهما من دراسة طبيعة الأرض وتاريخ الإنسان.

هل علم الطب الذي أبدع فيه المسلمون قد كان مجرد تفسيرات لنصوص دينية؟ وهو من دراسة طبيعة الإنسان وحياته.

هل علم الرياضيات العقلية (الحساب - الجبر - الهندسة) وغيره من العلوم التجريبية والاستدلالية والخبرية والعقلية البحتة قد كانت عند المسلمين مجرد تفسيرات لنصوص دينية واردة في مجالاتها؟

لو أن المسلمين اقتصروا في كل هذه العلوم على مجرد تفسير النصوص الدينية - كما زعم الناقد في فريته - لما تجاوزت معارفهم فيها بعض القواعد الكلية العامة جداً، ولا شك أن ما تدل عليه النصوص الدينية يمثل لدى المسلمين مصدراً من مصادر المعرفة، ولكنه ليس كل مصادر المعرفة، لأن النصوص الدينية في هذه المجالات قد أرشدت ووجهت للبحث، وقدمت بعض قواعد هذه المعرفة، لكنها لم تتبنَّ التعريف المباشر بكل قواعد هذه العلوم، أما المهمة الأولى والأساسية للنصوص الدينية فهي التعريف بالدين، مبادئه، وعقائده، وتشريعاته للسلوك الإنساني الفردي والجماعي.

ولما وجد المسلمون الدفع الإسلامي إلى دراسة الكون، واستنباط المعارف

والعلوم عن طريق الملاحظة والتجربة والاستدلال، انطلقوا باحثين في شتى مجالات المعرفة التي تيسرت لهم إبان نهضتهم، قبل أن تثبطهم فترة الركود التي أصابتهم بهجرهم لتعاليم الإسلام، وإخلادهم إلى الراحة والكسل، والاستغراق في الشهوات، ورضاهم بأمجاد الماضي، إضافة إلى عوامل أخرى خارجية عنهم، أوقفت عجلة تقدمهم.

فما افتراه (د. العظم) على المنهج الإسلامي هراء ظاهر صنعته المغالطة التعميمية، ولكشف زيفه وافتراءاته نفصل منهج الإسلام للوصول إلى المعرفة :

(٣)

منهج الإسلام للوصول إلى المعرفة

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى معرفة حقائق الأمور هو المنهج الأمثل في تاريخ الفكر الإنساني، بتحديد أصوله وقواعده العامة.

وقد كانت أسس النهضة العلمية عند المسلمين هي المرشد والباعث للنهضة العلمية الأوروبية الحديثة، لسنا نقول هذا على سبيل التفاجر، وإنما نقوله تبياناً للحق الذي اعترف به وأعلنه مؤرخو الحضارات الإنسانية من غير المسلمين، لا سيما بعد أن وجد من أبناء جلدتنا أجراء لأعداء الإسلام، يحاولون بالمغالطة والتزوير طمس الحقائق، والقيام في العالم العربي بعملية زلزال فكري، يقصد منه خلط المعارف الثابتة، وتشويه صورها، وتقويض أبنيتها، وإقامة أبنية جديدة مكانها، ولكنها في هذه المرة لن تكون صالحة لأهلها، وإنما تكون للشياطين ومعهم القردة والخنازير.

يقوم الفكر الإسلامي أساساً على أن المعرفة الصحيحة هي ما كان مطابقاً للواقع والحقيقة، فما كان مطابقاً للواقع والحقيقة فهو حق، وما لم يكن مطابقاً للواقع والحقيقة فهو باطل. وقد تكون الصورة الفكرية أو القولية مطابقة للواقع والحقيقة من بعض الوجوه، ومخالفة لها من بعض الوجوه، فيكون فيها من الحق على مقدار المطابقة، ومن الباطل على مقدار المخالفة.

هذا هو الأساس الأول للمعرفة في الفكر الإسلامي .

وبعد هذا الأساس الأول تأتي قاعدة كلية وراءه، وهي أن كل وسيلة صحيحة تعطينا صورة صادقة عن الواقع والحقيقة هي وسيلة يجب الاعتماد عليها، والثقة بها في تحصيل المعرفة، وإذا لم تستطع الوسائل أن تعطينا صورة صادقة عن الواقع والحقيقة بشكل قطعي، فإن الضرورة تدعونا في الواقع الإنساني إلى قبول الصور التي ترجح مطابقتها للواقع بصورة ظنية، وذلك ريثما يأتي ما هو أقوى، أو تأتي الصورة المطابقة للواقع بيقين. والمرجع الأول والأخير دائماً هو الواقع والحقيقة، وبهما تقاس النتائج .

ونجد هذا في أوائل متون العلوم التي كتبها المسلمون، إذ يقررون أن العلم هو الصورة الذهنية المطابقة للواقع، أو هو الإدراك المطابق للواقع، وإذا يقررون أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع، وإذا يقرون جواز العمل بالاحتمال الراجح إذا لم يتوافر لنا اليقين .

ومن هذا يتبين لنا أن الواقع على ما هو عليه في حقيقة أمره هو المرجع الأول والأخير للمعرفة في الفكر الإسلامي، وما عدا ذلك مما له صلة باكتساب المعرفة فلا يعدو أنه من قبيل الوسائل التي قد توصل إليها .

وهذا من الأوليات المنطقية في الفكر الإسلامي، المبينة في متون العلوم الإسلامية، والمنصوص عليها في مصادر الشريعة الإسلامية، والمهتدى بهديها فيما استخرجه المسلمون من معارف، وفيما كتبوا فيه من علوم .

● وسائل المعرفة :

أما الوسائل التي وضعها الإسلام في منهجه للوصول إلى المعارف فبيانها فيما يلي :

الوسيلة الأولى : هي وسيلة الإدراك الحسي المباشر أو عن طريق الأجهزة، وذلك متى شهد العقل بصحة هذا الإدراك وسلامته من الخلل، فحينما تشهد الحواس الإنسانية ظاهرة كونية وتتوافق الحواس السليمة في إدراكها، تغدو الصورة

التي قدمتها صورة علمية مقبولة ضمن الحدود التي قدمتها، وضمن الصورة التي نقلتها.

وباستخدام هذه الوسيلة قرر المسلمون في علومهم حقائق كثيرة لم تأتِ بها نصوص شرعية، ولا رجعوا فيها إلى تفسيرات نصوص شرعية وشروح لدلالاتها، كما زعم الناقد (د. العظم) في نقده القائم على المغالطات والأكاذيب.

وهل الملاحظة التي يُعتمد عليها في مناهج البحث العلمي إلا تتبع الظواهر بالإدراك الحسي، ورصدها ومحاولة تفسيرها؟

أفلا يحق لنا أن نقول: إن مناهج العلوم الحديثة قد اقتبستها من مناهج البحث عن المسلمين، الذين أخذوا بها إذ حثهم الإسلام على استخدامها، للتعرف على الظواهر الكونية، وما في عالم الحس من حقائق، ولتكون مادة يستدل منها على قوانين الكون وسننه وخفاياه؟

ولئن أنكر (د. العظم) هذه الحقيقة فقد اعترف بها كتاب كبار من مؤرخي الحضارة الأوروبية الحديثة وعلمائها، وأعلنوا فضل حضارة المسلمين على الحضارة الحديثة، في مناهجها، وفي نتائجها^(١).

الوسيلة الثانية: هي وسيلة الاستدلال العقلي، وللاستدلال العقلي أصول وضوابط معروفة مدروسة في الفكر الإسلامي، ومعطيات هذا الاستدلال لا تكون علوماً مقطوعاً بها ما لم تكن يقينية غير قابلة لاحتمال النقص، وإلا كانت درجة قبولها مناسبة لدرجة قوة الاحتمال الذي رجحه الاستدلال.

ويعتمد الاستدلال العقلي على التجربة والاستقرار والتأمل العقلي المجرد، الذي يعطي أحكاماً منطقية جازمة، أو أحكاماً منطقية راجحة.

وإذا لم نقل: إن هذه الوسيلة قد اقتبسها علماء النهضة الحضارية الحديثة من المسلمين، فلا أقل من أن نقول بالاتفاق في المنهج، ومعلوم أن المسلمين كانوا هم الأسبق في الواقع التاريخي.

(١) انظر كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها»، للمؤلف.

وكان لاستخدام هاتين الوسيلتين : (الإدراك الحسي ، والاستدلال العقلي) في الفكر الإسلامي معطيات علمية واسعة، في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية، فالإدراك الحسي يحدد الملاحظة ومع الملاحظة أو بعدها أو قبلها أحياناً تستخدم التجربة، ومن ورائهما ينشط الاستدلال العقلي .

وبذلك دوّن علماء المسلمين في علوم الكيمياء، والفيزياء، والطب، والفلك، والرياضيات (الحساب والجبر والهندسة) والجغرافيا، والتاريخ مدونات كبيرة وكثيرة، أثبتوا فيها معطيات منهجهم العلمي، إضافة إلى ما نقلوه عن غيرهم من منجزات الحضارات السابقة في هذه المجالات .

إن عرض هذه الحقيقة وحدها عن الفكر الإسلامي كافٍ لكشف التزييف الحقيقير الذي صنعه الناقد (د. العظم) العميل لمنظمات عالمية تخدم الصهيونية في الوطن العربي، إذ زعم أن منهج الفكر الإسلامي للوصول إلى القناعات والمعارف عن طبيعة الكون وتركيبه ونشوئه، وعن تاريخ الإنسان وأصله وحياته خلال العصور، هو الرجوع فقط إلى نصوص معينة تعتبر مقدسة أو منزلة، أو الرجوع إلى كتابات الحكماء والعلماء الذين درسوا وشرحوا هذه النصوص .

والغريب في أمره — وهو لسان من السنة كتاب الملحدون — أنه يصنع التزييف، ويغالط به، ثم يقرره حقيقة واقعة، ثم يوجه الإدانة على أساسه، ثم يُصدر حكمه القاطع الذي لا استئناف فيه، وينهي المحاكمة هكذا بكل بساطة .

وطبيعي أن يتخذ الملحدون هذه الخطوة، إذ لا دين يردعهم، ولا أخلاق تضبطهم، وخطتهم هذه ينطبق عليها المثل «زناه فحده» أي: اتهمه بالزنى كذباً وزوراً، فأقام عليه الحد مباشرة دون بينات .

فلما قرر (د. العظم) فريته عن الفكر الإسلامي وعن منهجه في تحصيل المعارف، وصنع المغالطة كما راق له، قال في الصفحة (٢٢) وما بعدها من كتابه :

«لذلك نجد أنظار المؤمنين دائماً موجّهة إلى الورا، إلى تلك الفترة التي يعتقدون أنه تم فيها كشف هذه الحقائق والمعارف من قبل الله، عن طريق الملائكة والرسل، وينتج عن ذلك أن وظيفة المؤمن والحكيم والفيلسوف والعالم ليست

اكتشاف حقائق جوهرية جديدة، أو اكتشاف معارف هامة لم تكن معروفة من قبل، وإنما العمل للوصول إلى نظرة أعمق، وفهم أشمل للنصوص المنزلة، والعمل للربط بين أجزاء هذه النصوص وتأويلها، ومن ثم تأويل التأويلات، حتى تستنبط معانيها الدفينة، ويتوصل إلى الحقائق والمعارف الكامنة فيها منذ الأزل، وهذا العمل ضروري وجوهري استناداً إلى الآية القرآنية: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾، فلا عجب إذن إذا وجدنا التاريخ الفكري للدين يتألف دائماً من تفساير وشروح، وشروح لشروح الشروح».

هذا ما قاله حرفياً، فهل ينطبق على واقع العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية التي دونها المسلمون، واكتشفوا فيها وأبدعوا. وكانوا رادة الفكر الأوروبي الحديث في هذا المضمار؟!

إنه كلام لا يقبله أصغر طلبة العلوم الإسلامية، أما أن يعرض على العالم الإسلامي في كتاب مطبوع فذلك هو البهتان المبين، والاستهانة بعلماء المسلمين، والاستخفاف بالأجيال الحديثة التي يتصور الناقد أنها غدت تتقبل كل زيف وكذب ومغالطات، دون تحرير ولا تمحيص، ألا فليعلم أن في الأجيال المسلمة الحديثة مؤمنين مفكرين، قادرين على أن يكشفوا الزيف المقنع بالأقنعة الكثيرة، فضلاً عن الزيف المكشوف.

الوسيلة الثالثة: هي وسيلة الأخبار الصادقة، وهذه الوسيلة ركن من أركان وسائل اكتساب المعارف الإنسانية، ومعلوم أن الإنسان ملجأ بالضرورة إلى الاعتماد على الوسيلة الإخبارية، في كل أمر لا يستطيع أن يصل إلى معرفته بنفسه عن طريق الإدراك الحسي أو الاستدلال العقلي، إن العلوم التاريخية تعتمد على المستندات الإخبارية، بوصفها وسيلتها الكبرى، وكل تدوين لأية حقيقة علمية توصل إليها الإنسان إنما هو حكاية خبرية لما توصل إليه، ورواد الفضاء حينما وصلوا إلى القمر وعادوا نقلوا إلينا مشاهداتهم وملاحظاتهم نقلاً خبرياً، وقد يدعمون أخبارهم بالمصورات، وقد لا يدعمون، والمدرس حينما يلقي على طلابه في معاهد العلم سلسلة المعارف، إنما ينقلها إليهم نقلاً إخبارياً، وكل الناس يتعاملون فيما بينهم ويكون العنصر الإخباري أهم عنصر في تعاملهم.

وهذه الوسيلة الإخبارية هي الوسيلة التي اعتمد عليها الدين، في نقل الشرائع الربانية للناس، وفي نقل سائر التعاليم والبيانات الدينية، والمعارف الغيبية، عن طريق الرسل والأنبياء المؤيدين بالمعجزات وخوارق العادات، شهادة من الله لهم بأنهم صادقون فيما يبلغون عن ربهم، وكذلك وجه الإسلام للاعتماد عليها في تحصيل كثير من المعارف التي توصل إليها العلماء بمسالكهم، وأمر بسؤال أهل الذكر.

ولما كانت الوسيلة الإخبارية وسيلة قد يدخلها الكذب^(١) أو الوهم في نقل الخبر، إذا كان المخبر إنساناً عادياً غير مؤيد بالمعجزة، أي: غير معصوم عن الكذب أو الخطأ، وضع الإسلام منهجاً دقيقاً جداً في تحري الأخبار، وفي تمييز مستوياتها - ثقة وضبطاً وفي اتخاذ ما يجب اتخاذه من احتياطات وتحفظات - ، ونهض علماء المسلمين بالتحريير والتمحيص، وكان لهم في هذا المجال أدق الضوابط، وأكثرها سلامة وإتقاناً، لا سيما ما يتعلق منها بنقل النصوص الدينية، وأعرض فيما يلي فكرة وجيزة عن منهج الإسلام بالنسبة إلى المستندات الإخبارية. ليكشف القارئ مدى مغالطات الناقد (د. العظم) حول منهج الإسلام.

يتلخص المنهج الإسلامي بالنسبة إلى المستندات الإخبارية بتقسيم الخبر إلى خمسة أقسام رئيسية:

- القسم الأول: الخبر المقطوع بصدقه.
- القسم الثاني: الخبر الذي يترجح جانب احتمال الصدق فيه على جانب احتمال الكذب.
- القسم الثالث: الخبر الذي يترجح جانب احتمال الكذب فيه على جانب احتمال الصدق.
- القسم الرابع: الخبر المقطوع بكذبه.
- القسم الخامس: الخبر المشكوك فيه.

(١) كما يصنع (العظم) فيما ينقل من أخبار.

أما القسم الأول وهو الخبر المقطوع بصدقه فيجب قبوله عقلاً وشرعاً، لأنه خبر لا يخالطه احتمال الخطأ أو الكذب عقلاً، وقد أوضح الإسلام أنه لا بد أن يأتي عن أحد مسلكين:

الأول: أن يخبر بالخبر جمع من الناس يستحيل في مقياس العقل السليم اتفاقهم على الكذب فيه، ويكون ذلك حينما يروي الخبر جمع غفير من الناس تباينت أغراضهم، وافترقت مصالحهم وكانوا بحالة لا يجمعهم فيها على الكذب جامع.

ويلحق به ما تواردت عليه مجموعة من شواهد النقول الإخبارية، ودلائل الآثار الأرضية والكتابية، والمصورات والتسجيلات الصوتية، وبعض الاستدلالات والاستنتاجات العقلية، حتى يصبح التسليم بمضمون الخبر أمراً حتمياً لا شك فيه لدى العقلاء المنصفين، وحتى يصل في نفوسهم إلى درجة اليقين.

والاعتماد على مجموعة الدلائل المختلفة يجب أن يكون مصحوباً بالتبصر العقلي، وبالتمحيص الكامل والاحتياط التام، حتى يشهد العقل بنفي احتمال التزوير في الوثائق، والخطأ أو الكذب في الأخبار.

وبهذا المسلك المقطوع به شرعاً وعقلاً حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل، إذ تكفل بحفظه فأعلن في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

الثاني: أن يرد الخبر على لسان نبي من أنبياء الله تعالى أو رسول من رسله، وقد أحاط الله الأنبياء والرسل الذين يبلغون عنه بوضع يجعل التسليم بنقولهم وأخبارهم عن الله قضية مقطوعاً بها عند كل المنصفين من العقلاء، ذلك بسبب ما صانهم به من العصمة عن الكذب وسائر المعاصي، وبسبب ما أيدهم به من المعجزات الباهرات التي لا يأتي بها أو بمثلها إلا رسول مؤيد من عند الله، ومصدق من قبله بلسان حال المعجزات، فالمعجزات التي يجريها الله على أيدي رسله وأنبيائه دليل قاطع على صدق رسالاتهم، وصدق أخبارهم التي يخبرون بها عن ربهم.

فمتى ورد الخبر عن طريق أحد هذين المسلكين كان مقطوعاً به، ووجب تصديقه .

ولكن لا بد من التمييز بين لفظ الخبر وبين مضمون الخبر، فإذا أثبت المستند الخبري قطعية الصدق في لفظ الخبر فليس معنى ذلك أن تحديد معنى اللفظ أمر مقطوع به أيضاً، إن تحديد المعنى قضية ثانية، لا بد لها من مستند آخر يحدد المعنى بصفة قطعية غير قابلة لاحتمال التأويل، فإذا تم تحديد المعنى بصفة قطعية وجب حينئذٍ التسليم به عقلاً، كما وجب التسليم بصحة نقل لفظ الخبر قطعاً، وهذا ما يطلق عليه علماء أصول الفقه الإسلامي عبارتي: «قطعي الثبوت، قطعي الدلالة».

أما إذا كان تحديد المعنى غير مقطوع به فإنهم يطلقون عبارتي «قطعي الثبوت، ظني الدلالة»، وفي هذه الحالة يجب التسليم عقلاً وشرعاً بصحة نقل لفظ الخبر، وتبقى الدلالة في مستوى الرجحان، أوقيد الدراسة والبحث لتحديد المعنى .

وقد تكون دلالة النص المقطوع بثبوته مبهمة غير واضحة أصلاً.

فلا تلازم بين كون النص قطعياً وكون معناه قطعياً أيضاً، بل لا بد في ذلك من اتباع منهج علمي دقيق أوضحه علماء المسلمين في علم أصول الفقه الإسلامي .

من أجل ذلك ليس لأحد أن يغالظ في دلالات النصوص القاطعة، اعتماداً على ثبوت لفظها ثبوتاً قطعياً، إن لفهم النصوص منهجاً دقيقاً وضع له علماء المسلمين علماً قائماً بذاته، إنه علم أصول الفقه .

وتظل المفاهيم الاجتهادية المأخوذة من دلالات النصوص مفاهيم احتمالية راجحة، قابلة للنقض أو التعديل بأدلة أقوى من أدلتها، حتى تتوافر الأدلة التي تفيد القطع بصحة هذه المفاهيم، وعدم قابليتها للنقض أو التعديل بحال من الأحوال، عندئذٍ يغدو معنى النص قطعياً، وعندئذٍ يصح أن يوصف بأنه قطعي الثبوت قطعي الدلالة، أو قطعي اللفظ قطعي المعنى .

وربما يتوافر المستند الإخباري القاطع بتحديد فكرة من الأفكار، أو معنى من المعاني، دون أن تأتي هذه الفكرة أو المعنى بلفظ واحد قطعي الثبوت، وعندئذ تكون القطعية للمعنى أو للفكرة لا للنص اللفظي، وهذا ما يسمونه المتواتر بالمعنى، إذ يرد الخبر بعدة ألفاظ كل واحد منها خبر راجح لا قطعي، إلا أن معناها جميعاً واحد، فإذا كانت عدة هذه الأخبار من قبيل المتواتر الذي يستحيل اتفاق المخبرين فيها على الكذب كان المعنى الذي دلت عليه مقطوعاً به، لأنه خبر متواتر بالمعنى.

وأما القسم الثاني وهو الخبر الذي يترجح صدقه على كذبه فهو خبر يوثق به في منهج الإسلام وثوقاً ترجيحياً، قابلاً لاحتمال النقص أو التعديل بدليل أقوى منه، ولا يوثق به وثوقاً إلزامياً قاطعاً، لاحتمال الخطأ أو الكذب فيه، وإن كان بحسب الظاهر احتمالاً ضعيفاً.

وأما القسم الثالث: وهو الخبر الذي يترجح احتمال كذبه على احتمال صدقه، فهو خبر معزول عن الثقة به عزلاً ترجيحياً قابلاً لاحتمال التوثيق بمعاوضة أدلة أخرى، ولا يرفض رفضاً نهائياً مبتوتاً به، لاحتمال براءته من الكذب أو الخطأ، وإن كان بحسب الظاهر احتمالاً ضعيفاً.

وهذا القسم يقابل تماماً القسم الثاني في كل أحكامه.

وأما القسم الرابع وهو الخبر المقطوع بكذبه حساً أو عقلاً فهو خبر مرفوض بصفة قطعية.

ولكن قد يكون الكذب في رواية اللفظ فقط، مع صحة المعنى، وفي هذه الحالة لا نرفض المعنى من أجل ثبوت الكذب في اللفظ، بل نقتصر على رفض اللفظ فقط، وننظر إلى المعنى من خلال أدلة أخرى خبرية أو حسية أو استدلالية.

وأما القسم الخامس وهو الخبر المشكوك فيه، أي: ما استوى فيه طرفا التصديق والتكذيب من غير رجحان لأحدهما على الآخر، فهو خبر لا يحكم عليه بإثبات ولا بنفي ويوضع قيد الدراسة والبحث، حتى يرد ما يرجح تصديقه أو تكذيبه.

ومنهج الإسلام في الاعتماد على المستندات الإخبارية يتبدى بما يمكن أن نسميه بالوحدة الإخبارية.

والوحدة الإخبارية هي الراوي الواحد حينما ينقل لنا خبراً من الأخبار. ولهذه الوحدة الإخبارية في منهج الإسلام شروط لا بد من توافرها حتى تكون أنبأؤها مؤهلة لترجيح صدق الخبر، وحتى تكون ماثلة إلى جانب القبول، وهي ثلاثة شروط:

- ١ - العدالة، وهي أن لا يعهد على الراوي الكذب أو المعصية الظاهرة.
- ٢ - الأهلية الفكرية لتحمل الأخبار ونقلها كما حُملت، دون نسيان أو اضطراب، أو زيادة أو نقص.
- ٣ - اتصال الراوي بمصدر الخبر أو بمن رواه له.

وهذه الشروط تستدعي الملاحظة الدقيقة لرواة الأخبار، والنظر في أحوالهم الفكرية والخلقية والسلوكية، للتأكد من أن أخبارهم صالحة للقبول، وتستدعي أيضاً النظر في صلتهم بمصدر الخبر، أو بمن رواه لهم، وهنا تتسع مشكلة البحث العلمي في تراجم الرجال، وتتبع أحوالهم، وتمحيصهم، لكشف الموثوقين الذين تقبل أخبارهم، وتمييز الضعفاء والوضاعين، وتحديد درجة كل منهم في القبول أو الرفض، ونحو ذلك من بحوث.

وهذا عمل يحتاج إلى جهود مضيئة وتحريات واسعة، وقد تضافرت فعلاً جهود علماء المسلمين المضيئة، للاضطلاع بهذه المهمة الكبيرة على أحسن وجه عرفه التاريخ، فحرروا ما نقل عن الرسول صلوات الله عليه تحريراً لم يسبقوا إلى مثله، وتفوقوا في أعمالهم من أجل تحرير الأخبار وتنقيحها وتصنيفها على كل أمة نقلت أخبارها، واعتنت بتحريرها، لذلك فلا نجد لدى أية أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب ذخائر علمية منقولة بالأخبار الصحيحة الموثوقة مثلما نجد لدى علماء المسلمين، وذلك بسبب وضوح المنهج الذي اتبعوه في الثبوت من صحة الأخبار، أو الحكم بأرجحية صدقها.

وقد تكفل علم مصطلح الحديث بتحديد هذا المنهج وتحريره وبيانه،

وتفصيل مسالكه على أحسن وجه، كما تكفّلت كتب تراجم الرجال ببيان أحوالهم وأوضاعهم، ودرجة الثقة برواية كل منهم، والعصر الذي عاش فيه، إلى غير ذلك مما تستدعيه أصول البحث السليم.

ومما هو طريف في هذا الموضوع أن العلماء الغربيين في هذا العصر قد وجدوا أنفسهم مضطرين للاهتمام بهدي المنهج الإسلامي في تحرير الأخبار وتنقيحها، واتباع الأصول الإسلامية المقررة فيه، إلا أنهم لا يستطيعون استيفاء الشروط الإسلامية في بحث عدالة الرواة لدى التطبيق العملي، لأنه ليس لديهم أي مستند يكشف لهم أحوال رجالهم الغابرين، حتى يرجعوا إليه في تمحيص صادق الأخبار من كاذبها، وصادقي الرجال من كاذبيهم.

والمنهج الإسلامي لا يكتفي في كل الموضوعات بالوحدة الإخبارية الواحدة المقبولة للحكم برجحان صدق الخبر والعمل بموجبه، ولكن القضية في منهج الإسلام تتبع الموضوع الذي يتناوله الخبر، فما كل خبر يترجح صدقه يصلح لأن يعتمد عليه وحده في كل موضوع من موضوعات العلم أو موضوعات الحياة، بل لا بد من نسب في الأرجحية تتفاوت بحسب أهمية الموضوعات، وبحسب النتائج التي تترتب على قبول الأخبار فيها.

فما يقبل في رواية خبر تاريخي عادي لا يقبل في إثبات حق أو إدانة بجريمة، وما يقبل في إثبات حق مالي لا يقبل في الاتهام بالزنى، وما يقبل في رواية حديث نبوي وتصحيحه لا يقبل في إثبات آية قرآنية.

فالموضوعات تختلف فيما بينها، وتتفاوت في نسبة ما تحتاجه من قوة الترجيح التي يقدمها المستند الخبري.

إن بعض الموضوعات تحتاج إلى قوة في المستند الخبري ترتقي إلى مرتبة اليقين الذي لا يقبل احتمال الخطأ، وبعضها يكفي فيه دون ذلك.

١ — فالنقل المباشر عن الوحي شرطه النبوة المستجمعة لصفتي العصمة والتأييد بالمعجزة.

٢ - والمستند الإخباري الذي ينقل لنا نص آية قرآنية، أو يثبت لنا عقيدة من عقائد الدين، أو أصلاً من أصوله الأولى مما يكفر جاحده يشترط فيه التواتر، أي يشترط فيه القطعية التي لا تتعرض لاحتمال الخطأ أو الكذب.

فإذا لم ينقل النص القرآني بمستند إخباري قطعي لم يثبت قرآنًا، وإذا لم تنقل عقائد الدين وأصوله بمستند إخباري قطعي لم يكفر جاحدها، ما لم يكن لها دليل قاطع آخر.

٣ - وإثبات الاتهام بالزنى يحتاج في أدنى الحدود إلى قوة ترجيح في المستند الإخباري تتألف من أربع وحدات إخبارية صحيحة.

٤ - وإثبات الحقوق بين الناس يحتاج إلى قوة ترجيح في المستند الإخباري تتألف من وحدتين إخباريتين صحيحتين.

٥ - والأخبار العادية التي تتضمن أخباراً علمية أو تاريخية أو تتضمن رواية لحديث نبوي تحتاج إلى قوة ترجيح في المستند الإخباري قوامها وحدة إخبارية صحيحة.

٦ - والأخبار التي تتضمن مصلحة الشخص الذي يرد إليه الخبر في أمر من أموره الخاصة في حياته، دون أن تتضمن هضماً لحق آخر، أو اتهاماً له، أو إساءة لأحد، أو مخالفة لأمر من أمور الدين، يكفي فيها انفتاح النفس لقبول صحة الخبر، والاعتناع به، دون النظر في حالة المخبر وصفته، لأن موضوعه لا يتطلب أكثر من اتخاذ الاحتياطات والأسباب اللازمة لدفع الخطر أو الفرار منه، أو اقتناص المنفعة المرتقبة.

فهل يجد الناقد (د. العظم) أو غيره من أعداء الإسلام في هذا المنهج الذي أبدع فيه الفكر الإسلامي أيما إبداع ثغرة يعلق عليها بانتقاد؟ علماً بأننا لم نرسم في بياننا هذا غير الخطوط العريضة له.

منهج الإسلام عند اختلاف وسائل المعرفة في النتائج

سبق في الفصل الثاني (الحقيقة بين الدين والعلم)، بيان منهج الإسلام عندما تختلف وسائل المعرفة في النتائج التي يتوصل كل منها إليها، حول موضوع واحد، أو حول نقطة في موضوع واحد، فلا داعي لإعادة تفصيل هذا المنهج.

وخلاصته أن وسائل المعرفة لا تختلف في النتائج التي تتوصل إليها حول موضوع واحد أو حول نقطة في موضوع واحد اختلاف تناقض إلا وبعضها أو جميعها قد دخل إليه الخلل، وعلى الباحثين أن يعيدوا النظر فيما توصلوا إليه من نتائج، واليقيني منها الذي غداً مقطوعاً به نهائياً، وغير قابل للنقض أو التعديل بحال من الأحوال هو الذي يفرض نفسه علمياً، سواء أكان نتيجة إدراك حسي، أو استدلال عقلي، أو نتيجة فهم لنص ديني يقيني الثبوت يقيني الدلالة.

أما النظريات والفرضيات والاجتهادات والإدراكات الحسية، التي لا تقدم يقيناً فهذه قد تختلف فيما بينها وقد تتناقض، وقد يكون الواقع بخلافها جميعاً، والأخذ بالراجح منها أمر تفرضه الضرورة الإنسانية، ولا يكون بعضها حجة على بعض، أوله القداسة المطلقة، لأن الحق منها هو ما طابق الواقع والحقيقة، وما دامت نتائجها جميعاً غير يقينية فإن هذه المطابقة تظل مجهولة، أو مشكوكاً بها، أو في مستوى الرجحان فقط، لا في مستوى اليقين المقطوع به.

فليس لأحد أن يأتي بنظرية قابلة للتعديل، أو بفرضية من الفرضيات، ويجعلها علماً مقطوعاً به، ثم يعيب بها ما يفهم من النصوص الدينية، ويزعم بذلك أن الإسلام يخالف العلم، وليس لأحد أن يأتي بفهم اجتهادي في النصوص الدينية، وهو محتمل للخطأ أو التعديل، ثم يجعل هذا الفهم الاجتهادي أمراً مقطوعاً به في الدين، ثم يرد به ما أثبتته الوسائل العلمية الإنسانية إثباتاً نهائياً مقطوعاً به، أو يرد به رداً قطعياً نظريات أو فرضيات من المحتمل أن يكون الواقع مطابقاً لها، فالفهم الاجتهادي في النص الديني أخذ بما ترجح لدى المجتهد من دلالاته، مع احتمال أن يكون الواقع بخلافه، والنظرية العلمية فهم اجتهادي في تفسير الظواهر الكونية بما ترجح لدى الباحث من دلالاتها. ويظل العقل في كل

منهما يفرض احتمال أن يكون الواقع بخلاف هذا أو بخلاف هذا، أو بخلافهما جميعاً، فليس أحدهما حجة على الآخر، إلا أن تكون أدلة ترجيحه أقوى، فيتقوى بأدلة دون أن يعطي قطعاً وجزماً بنتائجه.

وتنفرد النصوص الدينية ببياناتها عن أمور الغيب التي تعجز الوسائل الإنسانية عن إدراكها حساً أو استدلالاً.

ولدى اختلاف نتائج وسائل المعرفة حول فكرة واحدة، أو اختلاف نتائج الباحثين في حدود وسيلة واحدة، يجب التوقف عن الجزم والقطع، ويقضي المنهج الأمثل بمتابعة البحث في كل الوسائل الممكنة للظفر باليقين العلمي، ولا يمنع هذا من العمل في تطبيقات الحياة بمقتضى النتائج، ولكل باحث أن يعمل بما ترجح لديه، دون أن يُنحي باللائمة على من خالفه، لاحتمال أن يكون هو المخطيء لا من خالفه فيما توصل إليه، ما لم يظهر فساد الرأي المخالف بيقين، أو برجحان شبيه باليقين، وعند الظفر باليقين العلمي عن طريق أية وسيلة من وسائل المعرفة يتبين فساد كل الآراء المخالفة له، ويحكم عليها عندئذٍ بالمحو من ديوان المعرفة، وبالعزل عن مجالات النظر.

ولهذا أمثلة في الواقع العلمي، لقد سبق في تاريخ المعرفة الإنسانية أن دليل الحس البصري قدم لنا صورة حسية عن شروق الشمس وغروبها، فقرر المشاهدون المبصرون أن الشمس هي التي تتحرك وتسير في السماء من الشرق إلى الغرب، وأن الأرض ثابتة.

ثم انفتحت للإنسان دلائل الاستدلال العقلي اعتماداً على أمارات كثيرة، فغيرت نظرتهم إلى هذه الحقيقة، وجعلته يفسر مشاهدات الحس تفسيراً آخر، خلاصته أن الأرض هي التي تدور حول نفسها، فتشرق الشمس على قسم منها بهذا الدوران، وتغرب عن قسم آخر، ويتوهم الحس البصري أن الشمس هي التي تسير هذا السير، باعتبار اتحاد النسبة من جهة، وعدم شعور ركاب الأرض بحركتها من جهة أخرى.

وهنا نلاحظ وجود التناقض بين النتيجة التي قدمها دليل الحس البصري

والنتيجة الأخرى التي قدمها الاستدلال العقلي ، وقام الجدل بين أنصار شهادة الحس البصري ، وأنصار شهادة الاستدلال العقلي .

وكان على الإنسان أمام هذا التناقض في النتائج أن يعيد النظر لاستبانة المخطيء من الوسيلتين للظفر باليقين العلمي ، نظراً إلى أن أمارات العقل لم تقدم في حدودها الأولى يقيناً .

ولدى إعادة النظر تبين للإنسان وجود احتمال كون الحس البصري هو المخطيء ، وذلك حين دخل محطة انطلاق قطارات سكة الحديد ، وركب في أحدها ، وكان في جواره قطار ساكن ، ولما انطلق القطار الذي هو فيه خدعه حسه البصري فحسب أن القطار المجاور له هو الذي انطلق ، وكان هذا من الحس البصري شهادة مخطئة ، ثم لما انطلق القطار بعيداً تبين له أن الحقيقة بخلاف ما حسبه من قبل .

وبهذه المراجعة الأولى بدأ الإنسان يشك بشهادة حسه البصري عن الحركة ، وبدأ يترجح لديه جانب الاستدلال العقلي في هذا الموضوع ، دون أن يستطيع كثير من الباحثين تقديم يقين كامل في أول الأمر يثبت أن الأرض هي التي تدور حول نفسها ، وأن الشمس بالنسبة إلى هذه الحركة بالذات ثابتة .

وتابع البحث العلمي خطواته ، وصعد الإنسان إلى الأجواء العليا ، وتحرر من سلطان خداع الحس البصري على سطح الأرض ، وتحقق بالمشاهدة البصرية النتيجة التي قدمها الاستدلال العقلي ، وأثبت بيقين علمي أن الأرض هي التي تدور حول نفسها في كل يوم مرة ، وبذلك تفسر ظاهرة الليل والنهار ، وأنها تدور حول الشمس في كل عام شمسي ، وهو السبب في كثير من الظواهر التي تحدث في الأرض .

وهكذا لما برئت شهادة الحس البصري من علة الخطأ التي كانت واقعة فيها اتحدت النتيجة ، فكان ما أثبتته الحس عين ما أثبتته الاستدلال العقلي ، ووصل الإنسان في معرفة هذه الحقيقة إلى مرتبة اليقين .

أما النصوص الدينية في هذا المجال فلا نجد فيها نصّاً ثابتاً قاطع الدلالة على ما يخالف هذه الحقيقة التي أثبتتها الاستدلال العقلي، ثم شهدها الحس لما تحرر من منطقة الخداع البصري، بل نجد في النصوص الدينية ما يفهم من عمومها دلالات توافق ما انتهى إليه دليل العقل ثم دليل الحس، وحين نجد بعض العلماء السابقين قد فهموا من هذه النصوص فهماً مخالفاً لهذه الحقيقة فما علينا إلا أن نصح فهمهم، ونعيد النظر في اجتهادهم، لأن النصوص الدينية المبلغة عن الله بطرق ثابتة يقينية لا يمكن أن تكون دلالاتها الصحيحة مناقضة للحقيقة والواقع، وعملية المراجعة هذه لا تمس النصوص الدينية ذاتها، وإنما تمس المفاهيم الاجتهادية التي فهمها مجتهدون ليسوا بمعصومين عن الخطأ، على أن كثيراً من العلماء المسلمين السابقين قد فهموا من هذه النصوص الدينية مفاهيم تتفق مع النتيجة العلمية التي انتهت إليها وسائل الاستدلال العقلي والإدراك الحسي.

والواقع في كل الأحوال هو الحَكَم على كل وسائل الاستدلال.

(٥)

بعد أن وضحت لنا الخطوط الكلية العامة للمنهج العلمي الإسلامي، ظهر لنا تماماً زيف ادعاءات الناقد (د. العظم) إذ صور المنهج الإسلامي كما يشتهي أن يصوره للناس، لتنفيرهم من الإسلام، وأخذ يغالط في الأمور بناءً على ادعاءاته الكاذبة، ثم أخذ يصدر بناءً على مغالطاته وأكاذيبه أحكاماً تقريرية من عند نفسه يتهم بها الإسلام ومنهجه للوصول إلى المعرفة.

وما أعتقد أنه يجهل هذه الحقائق كلها أو بعضها عن الإسلام ومنهجه العلمي، ولكن المبطلين كثيراً ما يعرفون الحق إلا أنهم يراوغون عنه، ويحاولون طمس وجهه المشرق الجميل، لأنه يخالف أهواءهم ولا يحقق لهم ما يشتهون، وهذه هي علتهم النفسية.

أما الشاكون الباحثون عن الحقيقة بإخلاص فإنهم لا يغالطون ولا يكذبون ولا يتلاعبون بالحقائق، ومتى وصلوا إلى إدراك الحقيقة بأنفسهم، أو عرّفوا بها عن

طريق المناظرة، فإنهم يستمسكون بها كما لو ظفروا بكنز عظيم، ويسهل عليهم الاعتراف والتراجع عن آرائهم السابقة التي كانوا يتصورونها حقاً أو أموراً مرجحة، لأن معرفة الحق هو الأمر العظيم الذي ينشدونه ويبحثون عنه بإخلاص، ولا يبحثون عن مجرد مبررات يصنعونها بأنفسهم، لتدعيم ما تميل إليه أهواؤهم وشهواتهم، ومصالحهم السياسية أو الحزبية، بخلاف المبطلين في كل ذلك، لا سيما الملاحدة ذوو الأهداف الحزبية السياسية.

لما زعم الناقد (د. العظم) أن المنهج الذي اعتمده الإسلام للوصول إلى المعارف والعلوم والقناعات عن الكون وتركيبه وطبيعته، وعن تاريخ الإنسان وأصله وحياته خلال العصور هو الرجوع فقط إلى نصوص دينية معينة تعتبر مقدسة أو منزلة، ورتب فريته كما انتهى، وخالف فيما ادعاه حقيقة المنهج الإسلامي الذي وضحت لنا خطوطه الكلية العامة، وأدخل في كلامه مغالطات مكشوفة، أورد تعليقه التالي فقال في الصفحة (٢٣) من كتابه:

«إن الروح العلمية بعيدة كل البعد عن هذا المنطق، وهذه النظرة الدينية».

إن أي ناظر في أصول المنهج الإسلامي الذي عرضنا خطوطه الكلية العامة يكتشف بنفسه افتراءات الناقد (د. العظم) وأكاذيبه ومغالطاته، ويرى أنها مرفوضة من أساسها.

إن ما أوضحناه من منهج الإسلام في هذا المجال يقنع — بحمد الله — كل ناظر، ويسكت بالحق كل مناظر، ونضيف هنا شواهد من النصوص القرآنية، تدل على مبلغ الدفع الإسلامي للبحث عن حقائق الكون وحقائق الإنسان، عن طريق النظر في الكون نفسه، وفي الإنسان نفسه، وهذا النظر إنما يتم بوسائل البحث الإنساني، وهي وسائل الإدراك الحسي، ووسائل الاستدلال العقلي.

فمن هذه الشواهد القرآنية ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (يونس) ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ ﴿١١﴾

ففي هذا النص القرآني دعوة أمرة للبحث العلمي في السماوات والأرض عن طريق النظر، لا عن طريق تفسير النصوص .

(ب) وقول الله تعالى في سورة (الذاريات / ٥١ مصحف / ٦٧ نزول):

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

في هذا النص دعوة إلى البحث العلمي في الأرض وفي النفس الإنسانية للتعرف على آيات الله فيهما، وهذا البحث العلمي لا بد أن يعتمد على وسائل الإدراك الحسي والاستدلال العقلي .

(ج) وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

ففي هذا النص دعوة للنظر في ظاهرة التكوين عن طريق البحث العلمي ، الذي يعتمد الوسائل الحسية والوسائل العقلية ، لا على مجرد تفسير النصوص وفهم دالاتها ، كما زعم الناقد (د. العظم) في ادعاءاته وافتراءاته ومغالطاته .

وقد اندفع المسلمون فعلاً يطبقون منهج النظر العلمي في أنفسهم وفي الكون من حولهم ، للوصول إلى معرفة حقائق الأمور ، عن الكون والإنسان والحياة ، وسر المبدأ ومفاهيم النشأة ، وهذا البحث هداهم إلى تطبيق المنهج التجريبي ، في العلوم التي تخضع موضوعاتها للملاحظة والتجربة ، الأمر الذي دفع العالم الأوروبي المشهور (جب) إلى أن يقول في كتابه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام»^(١) :

«أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها

(١) نقلاً من كتاب «منهج التربية الإسلامية» ، للأستاذ محمد قطب .

الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى».

فهل بعد هذا تبقى أية قيمة لافتراءات الناقد (د. العظم)؟

إن أي ناظر منصف يعرف هذه الحقيقة عن الإسلام لا يمكن أن يلتفت إلى افتراءاته وافتراءات أمثاله، أو يتأثر بها، ولا بد أن يعلم أن من الهراء الذي ليس له قيمة فكرية قوله في الصفحة (٢٣) من كتابه:

«أما الدين فبطبيعة عقائده المحددة ثابت ساكن يعيش في الحقائق الأزلية، وينظر إلى الوراء ليستلهم مهده».

يقصد بهذا الكلام أن الدين لا يسمح بالبحث والاكتشاف، وإنما يفرض على المسلمين أن يقفوا في معارفهم عند حدود النصوص الدينية وتفسيراتها، دون أن ينظروا في الكون ويبحثوا فيه بوسائلهم الإنسانية الحسية والعقلية.

إن مثل هذا الافتراء لا يدخل إلا على الجاهلين بالإسلام، والأغرار المضللين، أما من قرأ شيئاً عن الإسلام مما كتبه كتاب مسلمون، أو من المصادر الإسلامية المعتمدة فإنه يستطيع بسرعة أن يكشف زيف هذا الكلام وما فيه من أباطيل.

(٦)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (٢٤) من كتابه:

«هناك تشابه بين الدين والعلم في أن كليهما يحاول أن يفسر الأحداث، وأن يحدد الأسباب. إن الدين بديل خيالي عن العلم، ولكن تنشأ المشكلة عندما يدعي الدين لنفسه ولمعتقداته نوعاً من الصدق لا يمكن لأي بديل خيالي أن يتصف به».

إن أي ناظر في هذا الكلام (العظمي) لا يرى فيه أي شيء من النقد العلمي، وما زعمه دليلاً فيما كتبه حول هذا الموضوع سبق أن كشفنا زيفه.

إذا كان يريد نقداً علمياً صحيحاً فما باله يعطي من عنده تقريراً يلقيه جزافاً من غير أي دليل صحيح، ويتهم فيه الدين بأنه بديل خيالي عن العلم؟ باستطاعة أي جاهل أن يقدم تقريراً لأتباعه من العميان يقول لهم فيه: إن الشمس التي يزعمها المبصرون ليست سوى بديل خيالي عن الشعلات البترولية التي يوقدها الذين اكتشفوا البترول واستخرجوه من أعماق الأرض.

ليس هذا في الحقيقة سوى شتائم باستطاعة أي إنسان محروم من الأخلاق العلمية أن يكيلها، فيسمي الحق باطلاً دون أن يقدم أي برهان، ويتهم الجميل بالقيح، ويصم العالم بالجهل، ويجعل الفضيلة رذيلة، وهكذا بلا ضابط فكري ولا ضابط أخلاقي، ولسنا نريد أن تكون معركتنا مع الملاحدة معركة شتائم، فلنقتسم معهم خطتي رشد وسفاهة، فنأخذ نحن خطة الرشد، ويأخذون هم خطة السفاهة. وخطة الرشد لا بد أن تنتصر في آخر الأمر على خطة السفاهة، لأن للحق قوة وسلطاناً على العقول، ولأن للرشد قوة وسلطاناً على القلوب. وخطة السفاهة ترغي وتزبد ولا حق يدعمها، ولا فضيلة تزيناها، أو إلى القلوب تقرّبها.

إنه لأمر طبيعي في الملاحدة — بعد أن جحدوا وجود الله تبارك وتعالى وهو مصدر الدين والمنزل لتعاليمه — أن يعتبروا ما جاء في الدين من أخبار صادقة أموراً خيالية، وأن يتهموا الدين بأنه بديل خيالي عن العلم، لكن البراهين العلمية نفسها تلزمهم بالإيمان بالله لو كانوا مخلصين حقيقة للعلم، إنهم يهربون من الدين إلى التذرع بالعلم، وحينما تردّهم البراهين العلمية إلى الدين يراوغون ويخادعون، فيترددون في منطقة مظلمة لا تشرق عليها أنوار الدين ولا تشرق عليها أنوار العلم، ويعصبون أعينهم عن الحقيقة وينادون بالإنكار، والإنكار موقف سلبي تجاه الحقيقة، لا يكلف صاحبه أكثر من كلمة: لا أعترف، أو أنكر، أو أجدد، أو هذا غير صحيح، أو العلم لا يقبله، أو العقل لا يقبله، أو نحو ذلك، وكلما جثته بديل عقلي أو علمي قال: لا أسلم، أو هذا دليل غير كافٍ، أولم يعطني قناعة كافية.

ولكن إذا لم يكلفه الإنكار غير مثل هذه الأقوال عند المناظرة فسيكلفه الكثير الكثير عند الجزاء العادل، وسيكلفه خسارة سعادته الأبدية، وحمل ثقل الشقاء

الخالد مع العذاب الأليم، دون أن يحقق لنفسه أي كسب في الحياة الدنيا من موقفه السلبي الإنكاري.

وإني أقول له ما قال الله في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ضَلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمَنْ تَحْتَهُمْ ضَلَلٌ مِّنَ النَّارِ يَخَافُ أَنَّ اللَّهَ بِهِ عِبَادَةٌ يُعْبَادُونَ
فَأَنْتَقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لقد كان من الأهون عليه يوم الجزاء لو آمن وعصى، وعرض نفسه لعقاب العصيان فقط، وحَمَى نفسه من عقاب الكفر الذي لا نهاية له، هذا إذا كان الدافع له إلى سبيل الكفر رغبته بالفجور، والانطلاق في تلبية أهوائه وشهواته. أما إذا كان العناد والكبر هما الدافع له إلى الإلحاد والكفر فهذا شيء آخر لا دواء له إلا التنازل عن الكبر والعناد، أو ليتحمل نتيجة كبره وعناده.

وحين قال (د. العظم): «إن الدين بديل خيالي عن العلم، ولكن تنشأ المشكلة عندما يدّعي الدين لنفسه ولمعتقداته نوعاً من الصدق لا يمكن لأيّ بديل خيالي أن يتصف به».

فقد اعترف ضمناً بأنه لا يمكن لأي بديل خيالي أن يظفر بالثقة التي يظفر بها الدين، بما في ذلك الآراء الإلحادية التي يجهد الملحدون بزخرفتها وتزيينها، ومد الأصبغة والطلاءات عليها.

والسر في ذلك أن الدين حق، ولا يستطيع الباطل أن يظفر بما يظفر به الحق.

وأما كون الدين يدعي لنفسه ولمعتقداته الصدق فهذه قضية خاضعة للقياس البرهاني، إذا كانت المعارف الديّنة مما تستطيع الوسائل الإنسانية الحسية أو الاستدلالية أو العقلية المجردة التوصل إليها. وهنا نجد التلاقي التام بين الثابت من العلم والثابت من الدين. أما غير الثابت من هذا أو ذاك فليس صالحاً من أساسه لأن يقف موقف اليقين والمعارضة، بل هو احتمال قد يكون راجحاً وقد يكون غير راجح.

وحينما يخبر الدين بأخبار صحيحة ثابتة يقينية عن أمور غيبية لا تستطيع الوسائل الإنسانية التوصل إليها بإثبات أو نفي، فهي أخبار ليس من حق العلم الإنساني أن ينفيها، ولكن لما ثبت أن الدين من عند الله، وثبت ببرهان المعجزات صدق الرسول، ورأينا صدق الأخبار الدينية الثابتة في كل الأمور التي استطاع العلم بوسائله الإنسانية التوصل إليها، كان كل ذلك شهادة بأن الأخبار الأخرى عن أمور الغيب حق وصدق، ويجب الإيمان والتسليم بها.

ويتابع الناقد (د. العظم) بإصرار دعائي كاذب، فيقول:
«إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليست إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين، يلجأ إليها كلما اضطرب الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية، أو كلما اضطرب لأن ينسحب من مركز كان يشغله في السابق».

ما هذا الكذب العظيم الذي لجأ إليه في هذا الافتراء؟! ألا أخبرنا عن قضية واحدة مما تنازل عنه الدين للعلم؟ وما هي المواقع التي تنازل عنها الدين وانسحب منها أو تراجع فيها؟

هل تراجع الإسلام عن عقيدة من عقائده.

هل تراجع الإسلام عن حقيقة ثابتة بنص يقين؟

إذا كان يريد تصحيح اجتهادات بعض المجتهدين من المسلمين فليست هذه الاجتهادات جزءاً من نصوص الدين، حتى يعتبر الدين مسؤولاً عنها، وحتى يعتبر تصحيحها تراجعاً في الدين. إن الخلافات في فهم النصوص الإسلامية ما زالت ولن تزال قوة حركة علمية بين علماء المسلمين.

فدعواه التراجع وتصويره له بالصورة التي راقت له قضية مفتراة لا أساس لها من الصحة، وليأتنا بواحدة منها حتى نناقشه فيها.

إنه لن يستطيع إلا بالمغالطة والتضليل، بيد أن التراجع مشاهد في النظريات العلمية لصالح الدين، وسنعتقد لهذا بحثاً منفصلاً.

(٧)

بإصرار مستميت حاول الناقد (د. العظم) إثبات ما ادعاه من وجود التناقض بين الدين والعلم، رغبةً بدعم قضية الإلحاد التي يشرُّ بها في الوطن العربي، خدمة للمنظمة الإلحادية العالمية، ومن ورائها اليهودية العالمية ذات المصالح الخاصة التي تتحقق لها متى انتشر الإلحاد في الأرض وعمَّ الفساد في الشعوب.

ولذلك فهو يصطنع أسساً وهمية لما يريد أن يثبت، ثم يبني عليها أبنية خيالية لا وجود لها إلا في رؤوس أصحابها، أو في رؤوس الذين ينخدعون بأقوالهم، ويسلمون بها دون محاكمة علمية منطقية رصينة.

قال في الصفحة (٢٧) من كتابه:

«فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشه يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات؟ وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوروبا بدأ يحتضر في كل مكان تحت وقع تأثير المعرفة العلمية، والتقدم الصناعي والمناهج العقلية في تقصي المعرفة، والاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد؟...».

ثم قال في الصفحة (٢٨):

«إن قولنا باحتضار الله في المجتمعات المتخلفة يشكل تمثيلاً رمزياً لحالة الثورة والفوران، وفقدان الجذور التي تعانيها هذه المجتمعات، في محاولاتها الوصول إلى التعايش المرحلي بين الأفكار العلمية الجديدة وتطبيقاتها العملية، وبين تراثها الديني السحيق، دون أن تتنازل كلياً ومرة واحدة عما في ماضيها من قيم غيبية».

يا عجباً، وأية علاقة للتقدم الصناعي بموضوع إثبات الله أو نفيه؟ وأية علاقة أيضاً للاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد بهذا الموضوع نفسه؟

لكنه صاحب مذهب معين أعماه التعصب لمذهبه، فصار يحشر كل العبارات التي يرددها رفاقه في كل مكان، ولو لم يكن لها أدنى علاقة بالموضوع، حتى لورأى العالم الطبيب الجراح في غرفة العمليات يجري عملية خطيرة في القلب

لقال له: ما هذه العملية الرجعية؟ إن الاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد تتطلب الرجوع قبل إجراء العملية إلى مفاهيم الحزب الثوري الذي بني على المعرفة العلمية والمناهج الثورية في تقصي المعرفة. ولورأى الأم ترضع ولدها وتحنو عليه وكان هو لا يرغب بذلك لأطلق العبارات نفسها، فقال لها: ما هذا التخلف؟ إن الاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد المبنية على المعرفة العلمية والمناهج الثورية في تقصي المعرفة تتناقض مع هذه العملية الرجعية السحيقة في القدم تناقضاً كلياً، فعملية إرضاع الأمهات أطفالهن تطبيق مناقض للعلم والاتجاهات الثورية، وهي قائمة على تصور باطل للكون والحياة والإنسان، لا سيما نظرية التطور، والثورة الفرنسية، والحقائق العلمية التي اشتمل عليها كتاب «أصل الأنواع» لداروين، وكتاب «رأس المال» لكارل ماركس.

فهو كلما رأى شيئاً يخالف مذهب الباطل أو يخالف هواه جاء بهذه العبارات نفسها فرددها دون وعي لمضمونها، ودون ملاحظة أية مناسبة بينها وبين الموضوع الذي يستعملها فيه.

وقد ذكرني هذا بقصة الثري الغني وبائع البيغاء، قالوا: مرّ ثريٌّ غني على بائع الطيور النادرة فوجده يعرض للبيع ببغاء تتكلم كل شيء، حتى إنها تتكلم بمختلف اللغات، فتعلقت نفس الثري الغني بشرائها، ولكنه أراد أن يستوثق من البائع عن صحة دعواه، فقال له البائعُ الخبيث سل البيغاء فإنها تجيبك. فقال الثري لها: يا ببغاء أحقاً أنك تتكلمين كل اللغات؟ فأجابته البيغاء: وهل أنت في شك من ذلك؟ فقال لها: فهل تتكلمين الإفرنسية فقالت له: وهل أنت في شك من ذلك؟ فقال لها: والإنكليزية؟ فقالت له: وهل أنت في شك من ذلك؟ فأنخدع بالأمر فاشتراها بثمن عظيم إذ استغل البائعُ الخبيث غفلته. ولما انصرف إلى بيته دعا أقرانه من الوجهاء والأعيان ليطلعهم على تحفته الجديدة، وأخرجها إليهم وقال لهم: كلموها تجبكن بكل شيء، فجعلوا يكلمونها فلا تجيب إلاً بقولها: وهل أنت في شك من ذلك؟ عندئذٍ قال لها الثري: لقد كنتُ غيباً جداً بل حماراً إذ اشتريتكَ ليس كذلك؟ فقالت له: وهل أنت في شك من ذلك؟

وهذا هو الجواب الوحيد الذي صدقت به، وما كان لها أن تصدق بغيره، لأن بائعها لم يُعلمها غير هذه العبارة.

وكم نشاهد في الحزبيين المتعصبين ببغاوات، لا يفقهون إلا عبارات محفوظة يرددونها بمناسبة وبغير مناسبة، حتى ولو كان أحدهم من الطلائع المثقفة التي تحمل شهادات كبيرة، فالتعصب الحزبي المذهبي أخطر عمى فكري تصاب به المجتمعات الإنسانية.

لذلك فلا عجب أن نجد من نحن في صدده متهاقناً في كلامه، متخبطاً في أفكاره، يلبس بنطاله من يديه، ويلبس معطفه من رجله، ويجري التبادل المضحك بين ألبسة الرؤوس والأقدام.

ومن تمويهاته التي أراد أن يجعل منها مشكلة خاصة من مشكلات النزاع بين الدين والعلم قوله في الصفحة (٢٩) من كتابه:

«بعد أن عالجت بشيء من التفصيل مشكلة الثقافة العلمية والاعتقاد الديني، على مستوى النزاع بين الدين والعلم ننتقل الآن إلى معالجة الموضوع على صعيد ما أسميناه بالمشكلة الخاصة. والسؤال الذي سيدور بحثنا حوله يتلخص بما يلي: كيف يكون موقف الإنسان الذي تعرض للثقافة العلمية، وتأثر بها تأثراً جذرياً من المعتقدات الدينية التقليدية والمؤسسات التي تتجسد فيها؟ أيستطيع هذا الإنسان أن يستمر في الاعتقاد بآدم وحواء، وبالجحيم والنعيم، وبأن موسى شق البحر الأحمر وحول عصاه حية تسعى؟ كيف يكون موقف الإنسان الذي نشأ نشأة دينية وتقبلها جملة وتفصيلاً من النظرة العلمية الطبيعية للحياة والكون والإنسان؟ من العسير أن نجد بيننا شخصاً يتمتع بشيء من الحس المرهف وبقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية لم يعانِ التوتر الذي تنطوي عليه هذه الأسئلة، والقلق الذي تثيره في إحدى مراحل حياته ونموه».

أكل المشكلة الخاصة التي زعم سيادة الناقد أنها تحدث القلق والتوتر هي أن يعتقد المثقف العصري بآدم وحواء، وبالجحيم والنعيم، أي بقانون الجزاء الرباني،

وبالمعجزات التي يجريها الله على أيدي رسله ليشهد لهم بصدقهم فيما يبلغون عنه؟

ما هو مدى تأثير هذه العقائد على أي تقدم في الصناعة أو في الفيزياء، أو في الكيمياء، أو في الطب والزراعة، أو في الفلك والرياضيات، أو في التكنولوجيا، أو في أي مجال نافع من مجالات الحياة؟

هل إنكار آدم وحواء يمثل قاعدة الارتقاء في المعرفة، فمن آمن بهما توقف ومن أنكرهما ارتقى؟

هل تنحل مشكلة القلق والتوتر إذا هو آمن بجذ من القروء بدل آدم، وبجدة قرءة بدل حواء؟

هل الإيمان بالآخرة وقانون الجزاء الرباني لالتزام فعل الخير وترك الشر يعتبر معوقاً من معوقات التقدم العلمي والصناعي؟ وهل الكفر بهما يعطي شحنة دافعة للتقدم العلمي والصناعي؟

ما هذا الكلام الهراء الذي لا يقوله ولا يقبله إلا السخفاء؟

أيها الملحدون ارفعوا عن قرون الجهل الفاضح والحمافة السخيفة الحجرية أقنعة العلمانية، إن العلم الصحيح الثابت لا يخدم قضيتكم الباطلة، إن العلم الصحيح بعيد عن دعوتكم ومذهبكم كبعدكم عن الله الذي تجحدونه، وعن آياته وبياناته التي تنكرونها، وعن أخباره التي تسخرون منها.

إن ما زعمه الناقد (د. العظم) فيما أسماه بالمشكلة الخاصة التي تحدث في نفس المثقف ثقافة علمية توتراً وقلقاً، حينما يحاول التوفيق بين عقائده الدينية ومعارفه العلمية يشبه مشكلة المدينة التي داهمت الجيوش الغازية أسوارها، وأهلها لا يخرجون للدفاع وصد الغزاة؛ لأنهم يعانون توتراً فكرياً وقلقاً خطيراً حول السؤال التالي: هل وجود الدجاجة كان سابقاً لوجود البيضة؟ أم وجود البيضة كان سابقاً لوجود الدجاجة؟

الحقيقة أن الملحدين هم الذين يعانون من القلق والتوتر، ويقعون تحت وطأة

التناقض بين الحقيقة وبين ما اختاروا لأنفسهم من مذهب باطل من جهة، وبين العناد والخوف من المصير من جهة أخرى، وهذا يظهر في حالات العنف الذي يبدو في تصرفاتهم، والاضطراب الشديد الذي تعاني نفوسهم منه، لأن عقولهم الباطنة وجذور ضمائمهم لا تستطيع أن تنكر الحقيقة، بينما لا تستطيع نفوسهم المجرمة وشهواتهم العارمة أن تسلم بها، فهم بذلك يقعون في حالات الصراع الداخلي العنيف، الذي لا يحلّه إلاّ العناد والإمعان في الجريمة، وتجاهل المصير الخطير المؤلم الذي يقذفون بأنفسهم إليه، ويبدو بعد ذلك صفة كالحة في وجوههم، وحقداً على الناس في معاملاتهم، ووحشية عجيبة حين يظفرون.

أما المؤمنون فهم - على العكس من كل ذلك - يظنون مطمئنين في كل أحوالهم، ولا يوجد في داخلهم تناقض بين الحقيقة وما يعتقدون، ويشعرون دائماً بالأمن تجاه مصيرهم، لأن الله قد ضمن لهم الجنة بإيمانهم، وحينما يقلقون بعض القلق من المعاصي التي قد يفعلونها تأتي مفاهيم التوبة ورجاء الغفران فتمسح عن نفوسهم القلق، وتعيد لها طمأنينتها ثقة برحمة الله وعفوه، ومشاعرهم نحو الناس تتدفق بالمحبة والرحمة وإرادة الخير والهداية للناس كل الناس. وحينما يجدون خلافاً بين ما يقوله واضعو النظريات العلمية وما يقوله المجتهدون في فهم النصوص الدينية فإنهم يقولون: إن الحقيقة واحدة، لا تتعدد، والدين لا يلزمنا باعتقاد غير الحقيقة. فلا بد أن يكون الخطأ فيما سمي نظرية علمية ونسب إلى الحقيقة العلمية نسبة غير صحيحة، أو فيما نسب إلى الدين وهو في الواقع اجتهاد خاطيء في فهم النصوص، أما ما هو يقيني في الدين وما هو يقيني في العلم فإنه لا يوجد فيه خلاف مطلقاً، ومعظم الأمور الطبيعية الكونية سكنت عنها الدين، لأن البحث الإنساني سيصل إليها بنفسه، وكثير من الأمور الغيبية الكبرى لا يستطيع البحث العلمي أن يصل إليها بنفسه، أو أن يحدد صفاتها وخصائصها، لذلك فهو يعتمد فيها على الدين ولا يستطيع أن يحكم عليها بإثبات أو نفي.

وحينما يتجاوز العلم الإنساني حدوده، ويحاول أن يصدر أحكاماً بإثبات أشياء أو نفيها لا تملك وسائله إثباتها أو نفيها، فإن المؤمنين بالدين يقولون للبحث العلمي: قف ولا تتعدد حدودك. لذلك فحينما يأتي باحث إنساني فيحكم على

تاريخ الإنسان حكماً يلغي فيه آدم وحواء وقصتهما في نشأة هذه السلالة البشرية فإن المؤمنين بالدين يقولون له: لقد تجاوزت حدود وسائلك التي تكسبك المعارف الصحيحة، ووقعت في التخييلات الذهنية التي ليس باستطاعتها أن تقدم حقائق علمية.

لست أدري ما هي الحقائق العلمية الثابتة القائمة على أدلة يقينية والتي تستطيع أن تلغي فكرة آدم وحواء وقصتهما الواردة في النصوص الدينية؟ أما الافتراضات والتخييلات والاحتمالات الذهنية فليس من شأنها أن تثبت حقائق علمية، ما دام يوجد ما يناظرها ويكافئها في عالم الافتراضات والتخييلات والاحتمالات الذهنية.

الواقع أنه لا توجد حقائق علمية تنفي آدم وحواء وقصتهما، أما الداروينية فإنها فرضية لا تمثل الحقيقة من جهة، ولا تملك أدلة إثبات صحيحة، ولا تستطيع أن تنقض خبراً دينياً، أو تقوى على ما يفهم من ظاهره حتى نلجأ إلى تأويله بما يتفق مع الحقيقة العلمية، لذلك فإن المؤمنين بالدين لا يعانون تناقضاً في هذه المسألة بين عقيدتهم الدينية ومفاهيمهم العلمية، إنهم يقولون للعلم: تابع بحثك حتى تصل إلى اليقين العلمي، وعندئذ ننظر فيما توصلت إليه. على أن المسألة من أساسها من ترف البحث العلمي، الذي لا يرتبط بتقدم في المعرفة أو في الصناعة، أو في الاختراع والإبداع، أو في الحضارة وسعادة الإنسان، وليس من شأن الخلاف العلمي فيها أن يحدث قلقاً وتوتراً، حتى يعطيه سيادة الناقد كل هذه الأهمية.

ولكن كيف يجد الملاحدة مشكلات يهزون بها واقع الصداقة المتينة بين الإسلام والعلم؟ إنهم إذا لم يجدوها في الواقع فلا بد أن يصطنعوها بالتزوير والكذب، وبإيجاد النظريات التي ينسبونها إلى العلم، والعلم منها بريء، ويسخرون لترويجها عناصر كثيرة يشترونها بوسائلهم المختلفة.

وأما اعتقاد المؤمنين بالجحيم والنعيم فهو موضوع يتصل بالإيمان باليوم الآخر، وقد شرحنا هذا الموضوع سابقاً شرحاً كشفنا فيه زيف جحود الملحدين، وأوضحنا فيه أن الملحدين لا يملكون أي دليل عقلي أو علمي يستطيعون أن ينفوا

به الحياة الأخرى وما فيها من جزاء، بيد أن المؤمنين هم الذين يملكون الأدلة لما يؤمنون به.

فلا نزاع بين العلم والدين، ولكن النزاع بين الإيمان العلمي وبين الكفر الجاهل المخادع الذي يلبس أثواب العلم زوراً وبهتاناً.

وأما معجزات الرسل فقضية تتصل بقدرة الله الخالق القادر على تغيير ما يشاء من أنظمة كونه، لإثبات قضية الإيمان لعباده وتصديق رسله فيما يبلغون عنه، وهذه قضية لا تتعارض مع العقل ولا مع العلم الصحيح.

(٨)

يتابع الناقد (العظم) إصراره المستميت على ادعاء وجود التناقض بين الإسلام والعلم، فنجدته يعرض أقوال بعض الباحثين المسلمين الذين يوضحون أنه لا نزاع ولا تناقض بينهما، ثم يعلق عليها بأنها توفيقات خطابية، أي: لا تعتمد على أدلة علمية، بينما لا يأتي هو بأي دليل علمي أو منطقي يثبت فيه ادعاءاته الباطلة، ويكتفي بالخطابيات والتقريرات، والأكاذيب والمغالطات.

إنه حينما أراد التعليق على كلام جيد للدكتور الشهيد صبحي الصالح لم يجد إلا دليلاً سفسطياً أضعف من الدليل الخطابي بكثير.

يقول في الصفحة (٣٤) من كتابه تعقيماً على ما قاله الدكتور الشيخ صبحي الصالح:

«إذا صح قول الدكتور الصالح بأن الباحث يجد في الإسلام ما يريح قلبه وأعصابه، ويرضي فكره وفلسفته، حول الإنسان وطبيعة الحياة وحرية الإرادة ضمن المشيئة الإلهية، تكون المشكلة قد انحلت أصلاً وسلفاً، ولا داعي لكل هذا المضجيج حول انسجام الإسلام مع العلم الحديث، وكل هذا الهجوم على الإلحاد والملحدين، وكل هذا الاهتمام والجدل والنقاش حول مشاكل الشباب المسلم، أمام تحديات الحياة العصرية والقرن العشرين».

لا يخفى على أي ناظر ما في هذا الكلام من سفسطة واضحة، ومغالطة مكشوفة.

إن الضجيج يأتي من غوغائية الملحدين، الذين يحاولون أن يقيموا الحرب بين الإسلام والعلم، ليفتنوا الشباب المسلم عن دينهم ولا يأتي من قبل الباحثين الإسلاميين ضد العلم الصحيح، ولئن وجد شيء من الضجيج من قبل بعض المسلمين فهو ضد النظريات المدسوسة على العلم، وهي تخالف العقائد والمفاهيم الإسلامية، على أن هذه النظريات لا يتحمل العلم اليقيني وزرها.

ومن هنا تأتي سفسطة (العظم) فبينما يكون البحث في دائرة التحليل للحقائق على مستوى النظرة المجردة، البعيدة عن الحدود الضيقة لأراء الناس، إذا به يستدل بأراء الناس المختلفة، لإثبات ما ادَّعاه حول طريقتين من طرق المعرفة، ومغالطته هنا تقوم على أساس التعميم العجيب بين الدين ومفاهيم المجتهدين على اختلافهم وجماهير المتدينين من جهة، ويجعل كل أولئك حزباً متكافلاً متضامناً، وبين العلم اليقيني والنظريات والفرضيات المنسوبة إلى العلم بغير حق، وجماهير الماديين والملاحدة من جهة أخرى، ويجعل كل هذه حزباً متكافلاً متضامناً.

والنتيجة التي يريد أن يستنتجها بهذه السفسطة هي ما يلي :

إذا حصل خلاف بين جزء من الحزب الأول، وجزء من الحزب الثاني فمعنى ذلك أن كل الحزب الأول مناقض للحزب الثاني .

فهل يقبل هذا الكلام الهراء من لديه مُسكة من عقل سوي ؟

إنه رفض الكلام الذي سماه كلاماً خطاياً وقَدَّم في استدلاله هذه المغالطة المكشوفة، والسفسطة السخيفة .

مع أن حقائق العلم هي التي تقارن بها حقائق الإسلام، ولا تقارن حقائق الإسلام بالنظريات والفرضيات ومذاهب الماديين غير الثابتة، وأهواء الملاحدة الذين يحاولون أن يتخذوا من العلم دريئة لهم، فلا يقدم لهم غير فرضيات احتمالية لا دليل عليها . هذه ليست بعلم وإن سماها أصحابها علماً، وحينما يوجد بينها وبين حقائق الدين تناقض فهو تناقض يشرِّف الدين ويرفع من قيمته، وحينما تتسبب إلى العلم فإن انتسابها إليه لا يشرفه، بل يخفض من قيمته، ويجعله مزيجاً من حقائق وظنون وأوهام .

وفي مقابل كل هذا فإن حقائق الإسلام هي التي تقارن بها حقائق العلم، ولا تقارن حقائق العلم بظنون المجتهدين، أو بأغلاط المخرفين، على أنها من جوهر الدين، ولا تقارن أيضاً بأهواء أصحاب الضلالات الذين ينتسبون إلى الدين، ويحاولون أن يتخذوا منه دريئة لهم، ليحموا أنفسهم ومصالحهم ويبرروا ضلالاتهم.

إن قضية البحث العلمي ليست بمثل السهولة التي أراد أن يصورها (د. العظم) بها، فيتخذ من التعميم الفاسد أحكاماً وهمية باطلة، إن البحث العلمي يحتاج إلى تحليل عناصر الموضوع المطروح للبحث، وبعد تحليل العناصر يحكم على كل جزء مهما صغر بالحكم الملائم له.

إن العلم لا يحمل أباطيل الملحدين ولا يُعتبر مسؤولاً عنها، ولا يحمل ظنون المخطئين ولا يُعتبر مسؤولاً عنها. وكذلك الدين فإنه لا يحمل أباطيل المخرفين، ولا يعتبر مسؤولاً عنها، ولا يحمل أخطاء المجتهدين ولا يعتبر مسؤولاً عنها.

فحينما يقام جدل بين جبهة المتدينين وجبهة غير المتدينين فإنه لا يمثل جدلاً ونزاعاً بين الدين والعلم، وإنما يمثل جدلاً ونزاعاً بين منتسب إلى العلم بالباطل وبين منتسب إلى الدين بغير حق، أو بين منتسب إلى العلم بالباطل وبين الدين الحق، أو بين منتسب إلى الدين بغير حق وبين العلم الحق. أما الدين الحق والعلم الحق فلا نزاع بينهما ولا جدال في الحقيقة.

وباستطاعتنا أن نؤيد هذا المنهج التحليلي المفصل بالأدلة والبراهين القاطعة.

أما من يلجأ إلى التعميمات السوفسطائية بقصد التضليل والمغالطة، فإننا نلجمه بلجام المنطق السديد، ونقول له: عد إلى رشد المعرفة، وإياك ومراوغة المضلين.

وباستطاعتنا أن نقرر القانون التالي:

١ - كل حقيقة من حقائق العلم الثابتة لا يمكن أن تناقض أية حقيقة من الحقائق الثابتة في الدين الصحيح.

٢ - كل حقيقة من حقائق الدين الحق لا يمكن أن تناقض أية حقيقة من الحقائق الثابتة في العلم الصحيح .

٣ - ما يبدو من تناقض بين ما ينسب إلى الدين وما ينسب إلى العلم، فإنه لا يخلو إما أن ما نسب إلى العلم أمر باطل أو ما نسب إلى الدين أمر باطل أو فهم خاطيء، أو كلُّ مما نسب إليهما فاسد النسبة غير صحيح، وفي هذه الأحوال يجب متابعة البحث لتصحيح الخطأ فيما نسب إلى العلم أو فيما نسب إلى الدين .

هذه هي قواعد الإيمان، وهذه هي مناهج المؤمنين، أما الملحد فإنه يريد أن يبحث الأمور على المستوى الذي لا تضبطه قاعدة عقلية أو علمية، مستوى المغالطات والأكاذيب والافتراءات. على هذا المستوى يسير في جدلياته ومناقشاته، ويتصور أنه بحيله وألعيه يستطيع أن يخدع الطلائع المثقفة من أبناء المسلمين، هذا هو وضعه في كل مناقشاته وجدلياته وتقريراته، في الوقت الذي يطالب فيه الباحثين من المسلمين بالتزام قواعد (ديكارت) في منهج البحث السليم!!

أين التزام قواعد ديكارت في جدلياته ومناقشاته؟! بل في أي مقطع من كلامه نجد هذا الالتزام؟!

إنها لمفارقة عجيبة، بل إنها لوقاحة عجيبة!! وهذه الوقاحة سمة كل المبطلين المصرّين على باطلهم ولوعرفوا أنه باطل .

يقول في الصفحة (٣٥) وما بعدها ما يلي :

«واضح أن كلام الموفّقين الخطّابين يبقى دوماً (عن سابق إصرار) على مستوى التعميمات الفضفاضة التي لا تزعج أحداً ولا تخرج مواقف إنسان، إذ هل يعقل أن يكون أحد ضد (الحق) و (العلم) و (المعرفة)؟ . إنه منطق المجاملات وجبر الخواطر الذي يرضي جميع الأطراف ولا يزعج أحداً، لذلك يتعد هؤلاء الموفّقون عن بحث أية مشكلة ذات طابع محدد قد تضطّهرهم إلى الخروج من مجال المفاخرة بمزايا الدين الإسلامي وحسناته العلمية للدخول في مجال التحليل الدقيق للمشكلة المطروحة .

«في الواقع يفتقر كلامهم حتى لأكثر أدوات التحليل الفكري بدائية، كما يفتقر إلى أبسط القواعد المنهجية في التمحيص والتفكير العلمي، حتى قواعد (ديكارت) في منهج البحث السليم التي وضعها في القرن السابع عشر وأصبحت أموراً بدائية وفجة جداً في عصرنا لا نجد لها أي أثر في أبحاث الموفقين الخطابيين. من قواعد (ديكارت) الأساسية: طرح المشكلة المراد حلها بالتحديد، ومن ثم تقسيمها بصورة منتظمة إلى عدد من القضايا الجزئية التي تتكون منها، ومن ثم معالجة الأجزاء الأبسط استعداداً للانتقال إلى المسألة الأكثر تعقيداً وتركيباً، إلى آخر القصة الديكارتية المعروفة حتى في المدارس الثانوية».

هذا كلام الناقد (د. العظم) عن المنهج الديكارتى، والذي أصبح في نظره من الأمور البدائية والفجة، وجاء بعده ما هو أدق منه وأكمل. ولكن ما باله في جدلياته ومناقشاته لا يطبق أدنى مستويات المنهج الديكارتى الذي يعرفه؟!

هل يقبل المنهج الديكارتى هذه التعميمات التي يسلكها؟ وهذه المغالطات التي يصطنعها؟ وهذه المفتريات التي يفترها على الحقيقة؟

إن مناقشاته لتفتقر إلى أبسط أصول الفكر الإنساني الموجودة عند الشعوب البدائية، فضلاً عن الشعوب المتقدمة حضارياً، فضلاً عن معاهد العلم والدراسة، فضلاً عن المستوى الأكاديمي، فأين هو من تطبيق ما يعرف؟.

لكن التعصب للباطل والإصرار عليه يجعلان الإنسان يخرج حتماً عن دائرة المنهج السوي، ويجعلانه متخبطاً في مناقشاته، ساقطاً في مناظراته، متهافتاً في كلامه. إن المنهج السوي لا يقدم لأقواله الباطلة أدلة إثبات، لذلك فهو مضطر إلى أن يلجأ إلى المراوغة والحيلة والكذب، وهذه لا تقع ضمن خريطة المناهج الفكرية السليمة، ولا تستقيم مع أي منطق عقلي. أين التحليل؟ وأين تجزئة المشكلة إلى عدد من القضايا الجزئية التي تتكون منها؟ ما أصدق تطبيق المثل العربي عليه «رمتي بدائها وانسلت»! فما يرتكبه هو من الخروج عن منهج المعرفة الصحيحة والمناقشة السليمة، يقذفه على أنصار الحق الذين يعلنون مفاهيمهم على الجماهير،

بالأساليب التي تفهمها هذه الجماهير، إذ ليس باستطاعة الجماهير أن تشارك في مناقشة القضايا الجزئية مناقشة البحث العلمي، وإنما تطلب من الباحثين تقديم نتائج بحوثهم.

لكن العجب كل العجب أن يأتي الناقد (د. العظم) ومن هو على شاكلته فيتصدى للجدل النقدي، ثم لا يجادل إلا من مواقع الانحراف الخطير عن المنهج الذي يدعو خصومه للالتزام، ينهى خصومه عن مستوى التعميمات الخطائية، ويستخدم تعميمات المغالطة!!! يطالب بتحليل الدقيق للمشكلة وبتقسيمها إلى عدد من القضايا الجزئية التي تتكون منها، ثم يأتي هو إلى قضايا متعددة في أصلها، فيضمها في قضية واحدة ويصدر عليها حكماً واحداً. يطالب بالالتزام قواعد ديكرات التي أصبحت في نظره أموراً بدائية وفجة جداً في عصرنا، ثم يرمي في مناقشاته بكل قواعد ديكرات وبكل القواعد المنطقية رمي النواة، فلا يلتزم شيئاً، ولا يأخذ بأي واجب من واجباتها، ويتظاهر مع كل ذلك بالغيرة على الحقيقة والأمانة العلمية، أهذه هي الأمانة العلمية لديه؟ أفلا يكون منسجماً مع نفسه ومع قواعد البحث العلمي السليم، قبل أن يدعو خصومه للالتزام قواعد البحث العلمي السليم، على أنهم في أغلب أحوالهم ملتزمون، وحينما يبصرون بالخطأ يتراجعون.

أيها الملحدون لا تلبسوا أثواب العلم فإن العلم الصحيح لن ينصر إلحادكم وكفركم بخالفكم وإنكاركم لليوم الآخر، وإنكاركم لنشأتكم الأولى، وجحودكم لمصدر وجودكم، واستهانتمكم بمسؤولياتكم في حياتكم الدنيا، إن العلم الحق نصير لقضية الإيمان لا لقضية الكفر، وأما الفرضيات التي تعتمدون عليها فأبعدوها عن مستوى الحقائق العلمية، ولا تحشروها فيها كذباً وزوراً وبهتاناً، إن العلم الحق سيطردها من قصره مهما حاولتم إدخالها فيه.

أيها الملحدون لا تصطنعوا الضجيج للإيهام بوجود النزاع بين الإسلام والعلم فالواقع الحق لا يؤيدكم.

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (٣٦) من كتابه ما يلي :

«يشدد القائلون بالتوافق التام بين الإسلام والعلم على أن الإسلام دين خالٍ من الخرافات والأساطير؛ باعتبار أنه هو والعلم واحد في النهاية. لنمحص هذا الادعاء التوفيقى بشيء من الدقة بإحالة إلى مسألة محددة تماماً. جاء في القرآن مثلاً: أن الله خلق آدم من طين، ثم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس؛ مما دعا الله إلى طرده من الجنة. هل تشكل هذه القصة أسطورة أم لا؟ نريد جواباً محدداً وحاسماً من الموفقين وليس خطابة. هل يفترض في المسلم أن يعتقد في النصف الثاني من القرن العشرين بأن مثل هذه الحادثة وقعت فعلاً في تاريخ الكون؟ إن كانت هذه القصة القرآنية صادقة صدقاً تاماً وتنطبق على واقع الكون وتاريخه فلا بد من القول: إنها تتناقض تناقضاً صريحاً مع كل معارفنا العلمية، ولا مهرب عندئذٍ من الاستنتاج بأن العلم الحديث على ضلال في هذه القضية، وإن لم تنطبق القصة القرآنية على الواقع فماذا تكون إذن (في نظر الموفقين) إن لم تكن أسطورة جميلة؟».

يا عجباً كل العجب، وهل كل معارفه العلمية منحصرة في الفرضية الداروينية، المناقضة للحقيقة الدينية التي قصَّ الله علينا قصتها وفق علمه، حتى يقول: لا بد من القول: بأنها تتناقض تناقضاً صريحاً مع كل معارفنا العلمية؟

لكننا نقول له: إن الحق ما قصه الله علينا في كتابه، ولو تناقض مع الفرضية الداروينية، وليس هذا تناقضاً بين الدين والعلم وإنما هو تناقض بين الحق الديني وبين ما نسب إلى العلم، وهذا لا يؤثر في جوهر الموضوع.

فالداروينية ليست حقيقة علمية بشهادة العلماء أنفسهم، لأنها لا تملك أدلة إثبات يقينية فيما يتعلق بتاريخ الإنسان ونشأته الأولى، ولأن العلم لا يملك أدلة تنفي وجود الجن والملائكة.

وباستطاعتنا أن نعكس السؤال عليه فنقول له: هل باستطاعة العلم المادي الحديث أن يقدم لنا أدلة يقينية قاطعة تثبت ما يدعيه حول نشأة الإنسان الأولى

وتاريخه؟ إن ما يقولونه هو مجرد احتمال افتراضي لو لم يقولوا به لَمَا وجدوا أمامهم إلا ما يقرره الدين من قضية الخلق الرباني، وهذا ما يتهرب الماديون الملحدون منه من غير دليل. حتى كتب (سير آرثر كيث) يقول:

«إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه»^(١).

لماذا لا يمكن قبوله من وجهة نظره ولا التفكير فيه؟

لأنه اتخذ لنفسه الإلحاد مذهباً، فهو لا يريد أن ينقض مذهبه، تعصباً له وإنكاراً للحقيقة الإلهية. وهكذا سائر الملحدين.

إذا حققنا في الأمر وجدنا أن الخرافة والأسطورة تتمثل في بعض مواقف من النظرية الداروينية، وهي المواقف التي تتناقض مع صريح ما جاء في القرآن عن خلق آدم، لأن الفرضية الداروينية في هذه المواقف لا تملك أي دليل غير مجرد الاحتمال الافتراضي، وهذا لا يقدم أية حقيقة علمية.

فادعاه التناقض بين الدين والحقائق العلمية في هذه القضية الخاصة ادعاء مخالف لكل القواعد المنطقية والأسس العلمية، ألا فليراجع مفاهيمه مراجعة منطقية قبل أن يتصدى لعمليات نقد كبرى.

ثم قال بعد أن عرض هذه المسألة المحددة كما زعم:

«هل يفترض في المسلم في هذا العصر أن يعتقد بوجود كائنات مثل الجن والملائكة وإبليس، وهاروت وماروت، ويأجوج ومأجوج، وجوداً حقيقياً غير مرئي باعتبارها مذكورة كلها في القرآن، أم يحق له أن يعتبرها كائنات أسطورية، مثلها مثل آلهة اليونان وعروس البحر والغول والعنقاء؟ يا حبذا لو عالج الموفقون بين الإسلام والعلم مثل هذه القضايا المحددة وأعطونا رأيهم فيها بصراحة ووضوح بدلاً من الخطابة حول الانسجام الكامل بين العلم والإسلام».

(١) اقتباساً من كتاب «الإسلام يتحدى».

يا سبحان الله!! يبدو أن الناقد (د. العظم) عالي الثقافة؟! فهو لا يفقه معظم هذه الأسماء التي يغري أبناء المسلمين بأن يجحدوها، عن طريق تساؤلاته الاستنكارية، والظاهر أنه أخذها عن مكتوبات الماركسيين غير المسلمين، ونقلها نقلاً ببغاوياً بالترجمة الحرفية، دون أن يرجع إلى المصادر الإسلامية ويعرف دلالاتها منها، ففي إيراد هاروت وماروت ويأجوج ومأجوج على أنها كائنات غير مرئية كالجن والملائكة وإبليس جهل فاضح جداً، فمن هذا الذي قال: إن هاروت وماروت ويأجوج ومأجوج مخلوقات غير مرئية كالجن والملائكة؟

إن التخطب الفكري عند الملاحدة الذين يتصدون لمعارضة الحقائق الإلهية يجعلهم يرتكبون ارتكاساً فكرياً شائناً جداً، ومن شأن الباطل أن يتخلى عن أنصاره، ويسبب لهم الهزيمة الفكرية الفاضحة، والحق لا بد أن يعلو عليهم ويجعلهم هم وباطلهم زاهقين.

نحن نعلم أن يأجوج ومأجوج^(١) من القبائل البشرية الجاهلة المفسدة في الأرض، وهم من سكان الشرق الأقصى وراء سد الصين. وكان سكان غرب الصين قد اشتكوا أمر إغارة قبائل يأجوج ومأجوج عليهم لذي القرنين، الفاتح المؤمن العادل، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبين قبائل يأجوج ومأجوج المفسدة في الأرض سداً عظيماً، يحجز عن سكان غرب الصين غارات سكان شرقها، مقابل خراج يدفعونه له، فوافق ذو القرنين على ذلك، وطلب منهم أن يعينوه على ذلك بقوة رجالهم الكثيرين، وبالمواد الموجودة في بلادهم، وفعلاً أقام ذو القرنين ذلك السد العظيم، وحجز قبائل يأجوج ومأجوج، وتعذر عليهم الظهور عليه واستئناف غارات الإفساد التي كانوا يغيرونها.

فما علاقة هذه القبائل البشرية التاريخية بالغيبات وبالكائنات غير المرئية؟.

لو أنه قرأ سورة (الكهف) أو سمعها من المذيع، أو لم يرد التضييل الديماغوجي لما سقط في هذه الفضيحة التي تعبر عن جهل كبير، في موضوع

(١) (يا غوغا ماغوغا) من القبائل المعروفة عند مؤرخي بلاد الصين.

يتصدى لنقده ومهاجمته، بغية التبشير بمذهبه الإلحادي الكافر بكل القيم .

أو لعله استغرب اسمي يأجوج ومأجوج فاعتبرهما لكائنات غير مرئية كالجن والملائكة؟ إذا كان الأمر كذلك فالأسماء الغريبة عليه كثيرة في عالم الناس، وفي عالم العلم، فليجعلها كلها أسماء لكائنات غيبية غير مرئية كالجن والملائكة .

ولكن أهكذا يخطط يخطط عشواء، ويخطط خلط عمياء، دون الرجوع إلى مصادر الدين الإسلامي ومعرفة المراد منها؟

أهذه هي القواعد المنهجية في التمحيص والتفكير العلمي التي يطالب المؤمنين بها؟

إذا كانت هذه هي قواعده فبهيات أن يصل إلى أية حقيقة من الحقائق، وعليه أن يرتطم دائماً في حفر الجهالة والضلالة، وما دام هذا مستواه فلا بد أن يسقط في حبال المؤسسات الإلحادية في العالم، وهي المؤسسات التي ترعاها وتديرها من وراء الأستار اليهودية العالمية، لغاية في نفوس اليهود يريدون تحقيقها في شعوب الأرض .

ونظير سقوطه في مسألة يأجوج ومأجوج في حفر الجهل الفاضح سقوطه أيضاً في مسألة هاروت وماروت .

إن هاروت وماروت اسمان لشخصين وجدا قديماً في بابل، وكانا على صورة آدميين يخاطبان الناس، ويعلمانهم السحر الذي علمهما الله إياه، ويأمران الناس بأن لا يكفروا بالله عن طريق تعلمهم السحر، وعنهما توارث الناس علم السحر، وقد أخبرنا الله في القرآن أنهما في حقيقة حالهما ملكان ظهرا على صورة آدميين، على أن في كونهما ملكين وفي تعليمهما الناس السحر خلافاً عند المفسرين، ومهما يكن من أمر فليسا كما زعم (العظم) نقلاً عن كتب الماركسيين أنهما من الكائنات غير المرئية، بل كانا شخصيتين مرئيتين، وكانت لهما قصة مشهورة في تاريخ الناس، وتوارث الناس عنهما أو عن غيرهما علماً ما زالت له روايب معروفة عند بعض المتخصصين بعلم السحر، وإذا كان يجهل ذلك فليسال سحرة اليهود فإنهم يخبرونه .

وقد تعرض القرآن لقصتهما في معرض الكلام على بني إسرائيل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) فقال تعالى :

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

وهكذا ظهر لنا جهل (د. العظم) الفاضح في المسألة الثانية التي يردد ألفاظها، وهو لا يعلم مضمونها، ثم يتصدى لنقدها وفق تصور خيالي لديه .

أما تساؤله عن الملائكة والجن وإبليس فهذه فعلاً كائنات غير مرئية بالنسبة إلى مستوى إدراك الناس، والملحد بالله وبالدين وبالأخبار الواردة في الدين الحق ينكر هذه الكائنات لأن العلم الحديث لا يملك حتى الآن أدلة إثبات لها .

ولكن هل استقصى العلم المادي الحديث كل ما في الوجود من كائنات وأسرار، حتى يدعي نفي وجود ما لم يشاهده بوسائله؟

لو كان الأمر كذلك لكان على العلماء الباحثين أن يتوقفوا عن متابعة البحث، الذي يضمنون أنفسهم فيه لاكتشاف مجاهيل من الطاقات والكائنات الكونية التي يدركون أنهم ما يزالون يجهلون، لكن هذا لا يدعيه عالم يقدر العلم ويحترم نفسه .

إن العلوم الحديثة لا تملك حتى الآن أي دليل تستطيع أن تنفي به وجود الجن أو الملائكة، بيد أن كثيراً من التجارب الإنسانية تثبت وجود كائنات خفية روحية غير مدركة بالحس، وغير مدركة بالأجهزة العلمية، على أن إنكار المنكرين

لها لا يؤثر على وجودها شيئاً، كما أن إنكار المنكرين لعالم الجرائم والميكروبات المرئية وغير المرئية لا يؤثر على وجودها في العالم شيئاً.

إن دليل المؤمنين على وجود الملائكة، ووجود الجن مؤمنهم وكافريهم وشياطينهم ومردتهم أخبار صادقة جاءت عن الله، بطريق الوحي، وبلغها الرسل الصادقون المؤيدون بالمعجزات، كما شاهدوهم واتصلوا بهم بتجاربهم الخاصة، فالمؤمنون بهم إنما يؤمنون تصديقاً لخبر الله الصادق، ولأخبار الرسل الصادقين، والقضية من أساسها تقع في دائرة الممكنات العقلية لا المستحيلات، فالعمدة فيها الخبر الصادق، على أن للناس تجارب كثيرة من هذا القبيل، ولكن هذه التجارب ليست هي عمدة المؤمنين، لأنها لم تصل إلى مستوى البرهان العلمي.

(١٠)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (٣٩) والتي تليها من كتابه:

«من الآيات القرآنية التي يحب الموفقون ترديدها في معرض كلامهم عن انسجام الإسلام والعلم الحديث: الوصف القرآني التالي لأصل الإنسان وتكوينه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة * فخلقنا العلقة مضغة * فخلقنا المضغة عظاماً * فكسونا العظام لحماً * ثم أنشأناه خلقاً آخر * فتبارك الله أحسن الخالقين﴾».

[سورة المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤]

ثم قال تعليقاً على هذا النص القرآني ما يلي:

«من الجلي أن عملية نمو الخلية البشرية بالنسبة إلى هذا الوصف القرآني تعتمد على التدخل المباشر والمستمر من قبل الله لنقلها من طور لآخر، أي إن نقلها من نطفة إلى علقه يحتاج إلى عملية خلق جديدة، كما أن نقلها من طور العلقه إلى طور المضغة يحتاج كذلك إلى عملية خلق أخرى... إلخ.

وخلاصة القول هو أن نمو الخلية البشرية يشكل معجزة إلهية لا تعليل لها سوى قدرته المطلقة على الخلق، وتدخله المباشر في سير أمور الكون. هل يتفق

هذا الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع، ومع ما يبينه لنا علم الأجنة حول تطور الخلية البشرية في مراحلها الأولى؟ الجواب حتماً بالنفي، لأن علم الأجنة لا يدع مجالاً للشك في أن الخلية تنمو بالتطور العضوي من طور إلى آخر، وفقاً لقوانين طبيعية معينة، بحيث تنمو المرحلة المتأخرة من صلب المرحلة السابقة عليها، وعلى أساس معطياتها الأولية، كل ذلك بصورة تسمح لنا بالتنبؤ بتطور الخلية، وبالمراحل المستقبلية التي ستمر بها، وتمكننا من التحكم بنموها، بحيث نستطيع تأخيرها أو إيسرعه أو تشويهه (إن شئنا ذلك) بتعريضها لمواد كيميائية معينة، أو لأنواع محددة من الأشعة، وكم كنت أود لو لم يكتفِ الموفقون الدينيون العلميون بمجرد الاستشهاد بالوصف القرآني لنمو الخلية، وتعدوا ذلك لإيضاح رأيهم في كيفية انسجام هذا الوصف، مع معارفنا العلمية الثابتة عن هذه الظاهرة الطبيعية».

يبدو أن سيادة الناقد ومعه سائر الملحدين الماديين محرومون من منطق التطور العلمي الذي يمكن أن يهدم جميع قواعد إلحادهم، ومحرومون أيضاً من المنطق العقلاني المتجرد الباحث عن الحقيقة.

فحينما يكتشف العلماء ارتباط الظواهر الطبيعية بأسبابها الطبيعية التي تحتاج هي أيضاً إلى تفسير، فهل يعني هذا إلغاء حقيقة الخلق الرباني الكامن وراء الأسباب الطبيعية؟ وحينما يقرر القرآن أن الله تبارك وتعالى هو الذي يخلق الأحداث الكونية، فهل معنى ذلك أن عملية الخلق تأتي بشكل مباشر، دون توسط قوانين وعلل وأسباب أوجدها الله في نظام الطبيعة، واختار أن يكون أسلوبه في عملية الخلق كذلك. إن من يرفع الشيء بيده مباشرة يقال عنه: قد رفعه، ومن يرفعه بواسطة حبل يقال: قد رفعه، ومن يرفعه بواسطة سبب غير مرئي كقوة كهربائية أو مغناطيسية يقال: قد رفعه، والخلق يكون بشكل مباشر، ويكون عن طريق القوانين والأسباب والعلل غير الفاعلة بذاتها.

فكلام (العظم) القائم على تصور أن النص القرآني لا يعترف بنظام الأسباب والعلل والقوانين الطبيعية كلام فاسد من الوجهة العقلية البحتة، لأن الخلق

لا يقتضي دائماً أن يكون عملية مباشرة، دون أن توجد أسباب اختارها الخالق ليتم عن طريقها أسلوبه في الخلق.

فليكتشف الباحثون ما شاءوا أن يكتشفوه من قوانين وعلل طبيعية وأسباب، فإن هذه كلها لا تملك الفعل الذاتي، وهي بحد ذاتها تحتاج إلى تفسير، والخالق العظيم القادر العليم الحكيم هو القوة الحقيقية الكامنة وراء جميع الأحداث الطبيعية، وإن أراد الملاحدة الماديون الوقوف عند الأسباب، وإقفال عيونهم عما وراء الأسباب التي اكتشفوها، وإن أرادوا جحود الخالق العظيم.

وبهذا يظهر لنا ما في كلامه من مغالطة وتضليل وتفسير غير صحيح للنص القرآني، وهذا من وجهة نظر المنطق العقلاني المجرد.

ثم نقول من ناحية أخرى: لقد توصل العلم الحديث إلى أن القوانين العلمية لا تملك التفسير الكامل للأحداث الكونية، وإنما تكشف عن حلقة من الحلقات السببية لا غير، وهي بحد ذاتها بحاجة إلى تفسير.

يقول العلامة الفلكي الرياضي البريطاني السير (جيمس جينز) كلاماً يعلن فيه هذه الحقيقة، وهذه مقتطفات من أقواله:

«إن الكون كون فكري. الكون لا يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديدة، وسببه — في نظري — أن التفسير المادي قد أصبح الآن فكرة ذهنية. من الصحيح أن نهر العلم قد تحول إلى مجرى جديد في الأعوام الأخيرة...»

لقد كنا نظن قبل ثلاثين سنة — ونحن ننظر إلى الكون — أننا أمام حقيقة من النوع الميكانيكي.

إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عن العالم، تلك التي كنا أقمناها على عجل. لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة».

ألا فليعد (العظم) دراسته، وليراجع أفكاره وفق ما تطور إليه العلم الحديث، وحسبه تجديدًا في المستنقعات التنتة القذرة.

أما قوله: «إن نمو الخلية يخضع لقوانين تمكننا من التحكم بنموها، بتأخيرها أو إيساعه أو تشويهه» فهو لا يتعارض بحال من الأحوال مع العقيدة الإيمانية، لأننا جميعاً في حياتنا على وجه الأرض لا في عالم الأجنة نخضع لقوانين ربانية تمكننا من التحكم بعض الشيء بنمو أجسادنا أو تشويهها أو إتلافها، نظير تحكمنا بالأجنة، والإنسان القديم يعلم هذا كل العلم، ولا يجد فيه معارضة لنظام الخلق الرباني ولا لقاعدته العامة. فالمؤمن يعلم أن لكل ظاهرة سبباً يخضع لسنة الله في كونه، ويعلم أن الخلاق الحقيقي من وراء الأسباب هو الله تعالى، إن القضية في نظره تشبه عملية إدارة زر الكهرباء التي يضيء المصباح بسببها، ولكن السبب الحقيقي في الإضاءة هي القوة الكهربائية السارية، ومن ورائها المولد الكهربائي، ومن ورائه صانع هذا المولد ومديره، ولو شاء لقطع التيار الكهربائي من عنده فلم يكن لإدارة الزر الكهربائي الفرعي أي أثر، ولانعدمت بذلك كل الظواهر، ولم يكن للأسباب الوسيطة أية قيمة.

هذا هو منطق المؤمنين، وذلك هو سخر الملقدين.

(١١)

من العجيب أن نجد الناقد (د. العظم) ينكر على الباحثين الإسلاميين دعوتهم المسلمين إلى الأخذ بأسباب العلم في كل مجال من مجالات المعرفة، ويرى أن الإسلام يدعو فقط إلى تعلم علوم الدين، أما العلوم الأخرى فإنه لا يهتم بها ولا يشجع عليها، ويرى أن الذين يقولون: إن الإسلام يحث على تعلم كل العلوم النافعة موفقون خطابيون، يحاولون أن يثبتوا الانسجام بين الإسلام والعلم بوسائلهم الخطابية، دون براهين صحيحة، ثم يزعم أن كل النصوص الإسلامية التي دعت إلى العلم والعقل والتفكير موجهة فقط إلى العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها ويتفرع عنها، لا إلى الفيزياء والكيمياء وغيرهما من العلوم الطبيعية.

يقول في الصفحة (٤٠) والتي بعدها من كتابه:

«من الأقوال التي يرددها الموفقون الخطابيون لإثبات دعواهم الحديث النبوي

القائل: «اطلب العلم ولو في الصين» والآيات القرآنية العديدة التي تحث الإنسان على التعقل والتأمل في الأشياء وطلب العلم والمعرفة، إلى آخره مما هو معروف، كل ذلك ليبينوا مدى اهتمام الإسلام بالعلم والعقل منذ القدم. بطبيعة الحال يعطي هؤلاء المفكرون معنى مطلقاً لهذه العبارات الإسلامية، وكأنها لا تنتمي إلى أي زمان ومكان، منفصلة عن الظروف التاريخية التي قيلت فيها، والمناسبات التي حددت معناها ومعناها وقتئذٍ. من ضمن هذا الاعتبار يتضح لنا أن العلم الذي حث على طلبه الإسلام هو في جوهره العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها ويتفرع عنها، وليس الفيزياء والكيمياء مثلاً (راجع كتاب العلم في الجزء الأول من «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي)، والعقل الذي طلب الإسلام من الإنسان استخدامه كان الغرض منه التوصل إلى معرفة الله من تأمل صنعه وخلقه، كما فعل حي بن يقظان في قصة ابن طفيل، وليس الغرض منه صياغة نظرية المادية الجدلية، أو نظرية دوركهايم في الطقوس والعبادات الدينية، أو نظرية الكون المحدث.

لست أدري أي شيء يزعجه إذا كان الإسلام فعلاً يحث على تعلم كل العلوم الدينية والطبيعية والعقلية؟

لكن يبدو أن هذه الحقيقة تؤثر جذرياً على دعوة الإلحاد التي تحاول أن تتخذ من العلم دريئة لها، وتحاول أن تقنع الأجيال بأن الدين والحقائق العلمية على طرفي نقيض، لتصرفهم عن الدين وتضمهم إلى جيوش الملحدين، يضاف إلى ذلك أن الملحدين يخشون أيضاً من دخول الإسلام والمسلمين إلى معادل العلم الصحيح، لأن هذا الدخول يشكل خطراً حقيقياً على قضية الإلحاد من أساسها، إذ يكشف الباحثون المسلمون عن طريق العلم الصحيح زيف المادية الإلحادية التي تستر بالعلم، وتزييف ما تستطيع تزييفه لدعم مذهبها الذي ليس له سند صحيح من علم صحيح، ولا من واقع مشهود.

وفي مناقشة كلامه القائم على المغالطة التضليلية نقول:
أما كون الإسلام قد جعل أشرف العلوم ما يصلح حياة الإنسان ويقوم سلوكه، ويقصره على طريق الخير مبتعداً عن طريق الشر لاغتنام أعظم قدر

يستطيع اغتنامه من سعادة الحياة الدنيا، وما يُعدُّه أحسن إعداد لسعادة الحياة الأخرى، فهذا حق.

وأما كون الإسلام لم يحث على تعلم العلوم الطبيعية المادية، التي من شأنها أن تحقق المنافع الحسنة للناس، وتخدم قضايا الرفاهية والجمال والقوة والراحة واختصار الزمن وتنظيم الحياة، فهذا باطل.

فمنذ النهضة الفقهية عند علماء المسلمين قرر الفقهاء أنه يجب على جماعة المسلمين تعلم جميع العلوم النافعة للناس، بما في ذلك العلوم الصناعية، فضلاً عن العلوم الضرورية كالطب والزراعة، والعلوم المتصلة بإعداد المستطاع من القوة، وقرروا أن هذا واجب على الكفاية، تقع فيه المسؤولية على جماعة المسلمين عامة، فإذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقي، وإذا لم يقوموا به أثموا جميعاً، واستنبطوا حكمهم هذا من مصادر التشريع الإسلامي، ونصوصه الرئيسية، والإمام الغزالي من الذين قالوا بهذا وقرروه، على خلاف ما أوحى به (العظم) إذ قال في غصون ما غالط به: (راجع كتاب العلم في الجزء الأول من «إحياء علوم الدين»، للإمام الغزالي).

فدعوى (العظم) باطلة في نظر فقهاء المسلمين، والإمام الغزالي في الإحياء قد وجه إلى أشرف العلوم، ولم يقل: إن طلب العلم الذي حث عليه الإسلام منحصر في العلوم الدينية والشرعية، والغزالي نفسه تتبع معظم العلوم المعروفة في عصره فدرسها، وكتب في كثير منها، وواقع حال علماء المسلمين في عصورهم الأولى يكذب هذه الدعوى التي طرحها، فقد كانوا بحق طلائع النهضة العلمية الحضارية، بشهادة أساطين علماء الحضارة الحديثة، وما أظن (العظم) أكثر فهماً منهم لنصوص الإسلام وما يستنبط منها من أحكام دينية ومفاهيم إسلامية!!.

أما كون دراسة مختلف العلوم الطبيعية هادية لهم إلى معرفة الله وعظيم قدرته وبديع صنعته فهو يمثل النظر البعيد إلى آخر حلقة في سلسلة المعارف الطبيعية، ولكن هذا النظر البعيد يجعلهم يتابعون حلقات السلسلة حتى غايتها، ضمن حدود الاستطاعة الإنسانية التي تهيأ لهم، وليس من شأنه أن يقف بهم عند الحلقات

الأولى، لأن الإسلام يحثهم على المتابعة والنظر في كل مراحل الطريق، وبذلك يستطيعون استخراج كل ما ينفع من حقائق علمية.

ومعلوم أن الإسلام يحرص دائماً على الربط بين العلم والإيمان، بين العلم والغاية المثلى منه، كما يحرص على الربط بين الدنيا والآخرة، بين العمل وغاية الخير منه، بين اللذة والمنعم بها وغاية الخير من ورائها، وبذلك يظهر كمال الإنسان.

ولست الآن في صدد إيراد النصوص الدينية، التي تثبت أن الإسلام يدفعنا بقوة إلى البحث العلمي في الكون، للتعرف على كل حقيقة علمية، لذلك أكتفي بعرض طائفة يسيرة منها.

(أ) قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ (٢١)

(ب) وقال في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَلْيَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣).

(ج) وقال في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (٢٥).

أليس في هذه النصوص دعوة إلى التعرف على خصائص الأشياء للانتفاع منها؟ وهل يمكن التعرف على خصائصها إلا بالبحث العلمي، عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنباط وكل الوسائل التي تيسر للإنسان؟^(١)

ولكن الملحدين يريدون أن يخترعوا للإسلام صورة من عند أنفسهم، لينفروا الناس منه، وليشوهوا جماله وكماله وتقدميته الرائعة، ولن يظفروا.

(١) انظر لاستكمال هذا الموضوع كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها»، للمؤلف.

حول المعجزات

أثار الناقد (العظم) أكثر من مرة موضوع المعجزات الربانية التي أجراها الله على أيدي رسله وأثبتتها الأديان السماوية، بوصفها أحداثاً تاريخية جرت في تاريخ الكون، وباعتبارها بعض مظاهر قدرة الله المخالفة بصفة استثنائية لمظاهر قدرته في سننه وقوانينه الدائمة.

وزعم أن الحديث عن هذه المعجزات حديث لا يقبله العلم وأن العلماء الماديين لا يرتاحون من وجهة نظرهم إلى الآيات القرآنية التي تروي كيف شق موسى البحر بعصاه، وكيف تحولت النار فجأة إلى برد وسلام على إبراهيم، ونحو ذلك من معجزات ربانية.

الواقع أن مشكلة (العظم) في هذا ومعه سائر الملحدون الماديين مرتبطة أساساً بقاعدة الإيمان الأولى، وبما أنهم أنكروا الحقيقة الكبرى وهي حقيقة وجود الله فلا بد أن ينكروا كل ما يستند إليها وخرق قوانين الكون وسننه لا يتم إلا بقدرة الخالق الذي وضع هذه السنن والقوانين، وإرادته التي تقتضيها حكمته، لكن الفرضية التي أقام الملحدون عليها عقيدتهم هي إنكار وجود الخالق، واعتبار هذا الكون عملاً مادياً آلياً أنتجته الصدفة التي لا تفسير لها، ولذلك فهم يرون قصة المعجزات المخالفة لنظام الكون وقوانينه الثابتة من قبيل الأساطير، وليست من قبيل الحقائق التاريخية الثابتة.

لأجل هذا فإن معالجتنا لهم يجب أن تبدأ من مستوى القاعدة الإيمانية الأولى، وهي الإيمان بالله وبكمال صفاته، وبقدرته على خلق ما يشاء، وبقدرته على خرق السنن التي جعلها هو ثابتة في كونه، ولو أنه شاء أن يجعلها على خلاف ذلك لجعلها، ولكن أسلوبه في الخلق كان على هذا الوضع القائم على نظام الترابط السببي بين الأشياء، وبين الأحداث والتغيرات فيها.

وهنا تكمن فضيلة الإيمان بالغيب القائم على الاستدلال العقلي، والانتقال من السبب الذي لا يملك تعليلاً عقلياً، إلى مسبب الأسباب كلها الذي تنحصر فيه

كل التعليلات العقلية الصحيحة، والمفسرة لكل الظواهر الكونية، بعد تجاوز سلسلة الأسباب مهما كثرت حلقاتها.

وهنا أيضاً تكمن رذيلة جحود الحقيقة الغيبية الكبرى، لأن هذا الجحود قائم على طرح الأدلة العقلية الاستدلالية والأدلة الفطرية الوجدانية، والتشبث ببعض حلقات السلسلة السببية، مع أنها لا تملك في الحقيقة أي دليل يصح أن تفسر به الظاهرة الكونية، إلا أن الملاحظة كشفت عن ارتباط الظاهرة الكونية بها، كارتباط رأس الحمار بسلسلة رسنه المعقود بذيل آخر جمل في قافلة طويلة تسير في ليل دامس، والغبي أو الأحمق أو المعاند المكابر هو الذي يقف تفكيره عند رأس الحمار، أو عند بعض حلقات السلسلة التي في رسنه، أو عند ذيل البعير.

فالنقاش المنطقي حول هذه النقطة يدعونا إلى الرجوع إلى قضية الإيمان بالله، وقد سبق أن عالجناها ببيان كاف فإليها نحيل القارئ.

على أننا نقول هنا: إن الملحدين قد جعلوا معجزة الخلق كلها ظاهرة طبيعية، وقطعوا الصلة بينها وبين الخالق، أفقبلون فكرة خرق قوانين الكون وسننه بفعل الخالق لحكمة يريد بها، وقد رفضوا الاعتراف بوجود الخالق أصلاً؟

ونقول أيضاً: باستطاعتنا أن نناقش قضية المعجزات مناقشة عقلية وعلمية، لإثبات خطأ الملحدين في رفضها بوصفها ظاهرة من الظواهر التي جرت أحداثها في تاريخ الكون، مهما يكن تفسيرهم للظواهر الكونية خاضعاً لقواعد الفكر المادي.

إن إنكار الأحداث التي جرت فعلاً في تاريخ الكون لا يسوغ من وجهة نظر العلم أو من وجهة نظر العقل لمجرد كونها مخالفة في مفاهيمنا للقوانين التي استخرجناها من مشاهدات الطبيعة وأحداثها، وإنما يجب بعد ثبوتها في الواقع محاولة استنباط تفسير وتعليل لها. أما مجرد الرفض والإنكار فليس عملاً علمياً ولا عقلياً.

إن كل ما نشاهده في الكون من أحداث وظواهر لودققنا النظر فيه ورفعنا عنه ستار الرؤية المتكررة له لكان في مفاهيم العقلاء معجزة من المعجزات، وعجبية

من العجائب، ولكن تكرر الرؤية له جعله أمراً معتاداً، واتخذ في مفاهيمنا صفة قوانين طبيعية، وسنن لا غرابة فيها، وذلك لأنه ليس بين معظم الأحداث والظواهر الطبيعية وبين أسبابها وقوانينها روابط عقلية، وحينما ندرسها ندرس أنظمتها كما هي في الواقع، ولا نستطيع أن نجد في العقل مقتضيات لها، غير أن نظام الكون سار على هذا الأسلوب، وكان من الممكن عقلاً أن يسير على أسلوب آخر ضمن سُلّم احتمالات لا نهاية لها، وتخصيص هذا النظام دون غيره ليس أمراً يقتضيه العقل.

ولو كان نظام الكون سائراً في متكرر العادة على أن الصخور متى نصبت في أشهر معينة، وبطرق معينة، تحولت نوعاً وأبقاراً وزرافات وشياهاً بحسب اختلاف أنواع الصخور، لكان ذلك هو السُنّة الثابتة في نظرنا، ولكن خلاف ذلك هو المعجزة.

ولو كان نظام الكون سائراً في متكرر العادة على أن الماء يجري من أسفل الوادي إلى أعلى الجبل بنفسه، من غير أن تكون له حافات تسنده، ولا روافع ترفعه، لكان ذلك هو قانون الماء الثابت في نظرنا، ولكن خلاف ذلك هو المعجزة التي يتشكك بها ويطلب إثباتها بالدليل.

وهذا الإمكان التصوري يدلنا على أن النظام الحالي ليس نظاماً فرضته الضرورة العقلية، والارتباطات الفكرية، ولكن أوجدته السلطات ذات الإرادة المختارة، ومهما يكن من أمر فإن الإمكان العقلي الذي لا يرى مانعاً من قبول نظام آخر لو كان هو السائد في نظام الطبيعة، هو نفسه دليل كافٍ على أنه ليس بين القوانين الطبيعية وأحداثها الظاهرة ارتباط عقلي يوجبها وحدها، ولا يسمح بمخالفتها، فقبول احتمال التغيير لا يتوقف إلاً على ثبوت وقوع الحادثة التي كان التغيير فيها، وإلاً كان رفضاً للإمكان العقلي بدون سند من العقل، ورفضاً للواقع بدون سند من الواقع.

لو أخذنا منطق الأحياء البحرية لكانت الحياة بنظام غير نظامها معجزة من المعجزات، ولو أخذنا معتاد الحياة الأرضية لكانت الحياة بغير إمداد بالنظام الغذائي المعروف أمراً من المعجزات، مع أنه ليس في أي شيء من ذلك ارتباط عقلي

يوجب العقل، ولكن هذا هو الأسلوب الذي جرى عليه نظام الكون، ولو جرى أسلوب الكون على غير هذا النظام لما وجد العقل مانعاً من ذلك، ولما وجد أنه يتنافى مع أي أصل عقلي منطقي أو رياضي، وهذا البرهان يثبت لنا أن رفض المعجزات بدليل من واقع القوانين والسنن الطبيعية رفض فاسد عقلياً وعلمياً، ولا سند له، وتبقى قضية المعجزات من وجهة نظر العلم والعقل احتمالاً إيجابياً بالإمكان العقلي، ولكنه لا يسلم به واقعياً إلا أن يقترن بأدلة إثبات يقبلها العلم والعقل.

وأدلة الإثبات في هذا المجال منحصرة في الأدلة الحسية والأدلة الخبرية.

وقد توافر للذين عاصروا الرسائل دليل المشاهدة الحسية لمعجزات الرسل، فكان ذلك بالنسبة إليهم برهاناً حسيّاً، وأما بالنسبة إلى غيرهم فعمدتهم في إثبات المعجزات دليل الأخبار الإنسانية المتواترة عند جميع أمم الأديان السماوية، وهذه الأخبار تقطع بوجود معجزات أو آيات من خوارق العادات قد أجزاها الله على أيدي رسله، منها معجزات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، وكذلك سائر النبيين، وجحود الأخبار المتواترة الصادقة مع وجود الإمكان العقلي، ومع وجود المبرر العقلي لها، ضرب من العناد الذي لا يفعله باحث عالم يدرس الظواهر ويحاول تفسيرها.

والتفسير العلمي للمعجزات الربانية ظاهر فيما يوضحه الدين، من أنها أدلة ربانية يصدق الله بها رسله فيما يبلغون عنه.

ومن العجيب أن الملحدين الماديين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينية، ولا سند لها إلا الحدس والخيال، ويرفضون المعجزات الربانية التي يجريها الله على أيدي رسله، وهي معجزات ثابتة تاريخياً بشهادة الأخبار المتواترة المقطوع بها، مضافاً إليها الشواهد العقلية والأثرية المؤيدة لها!!

لكن هذا هوشان الملحدين، إنهم يتناقضون بين ما يقبلون وبين ما يرفضون، تعصباً لإلحادهم، ومعاندة لخالقهم ومكابرة على الباطل.

(١٣)

حول الشهب

قال (د. العظم) (٥٢) من كتابه:

«كما أن علماء الفلك (وليس التنجيم) سوف يجدون بعض الصعوبة، لا شك، في التوفيق بين معلوماتهم العلمية عن النيازك والشهب من ناحية وبين الآيات القرآنية التي تعلمنا أن الشهب هي لرجم الشياطين والجنّ، حين تحاول الصعود إلى السماء واستراق السمع (أي: الاستماع إلى أحاديث الملائكة) من ناحية ثانية. لكن أصحاب الفكر التوفيقي عودونا دوماً على إطلاق الأحكام الشاملة والتعميمات البديعة بدون التدقيق بالمسائل المحددة التي تخرجهم وتخرج دعواهم».

تعليقاً على هذه الفقرة من كلامه نرى أنه من المستبعد جداً أنه لم يطلع بعدُ على مكتوبات الباحثين المسلمين المؤمنين بالله وكتابه، الذين لم يقتصروا على مجرد إطلاق التعميمات الشاملة البديعة، التي تعلن وجود التوافق التام بين الصحيح الثابت من المفاهيم الإسلامية، وبين الحق الثابت من النظريات العلمية، بل تابعوا معظم المسائل بالدراسة والبحث والمناقشة للموضوعات بشكل موضوعي محدد.

ولكن شأن الأخذين بالمذهب الإلحادي محاولة طمس الحقائق، وطرح المغالطات والمفتريات، واستغلال أقوال بعض أصحاب المقالات، والأقوال العامة التي يطلقها بعض الباحثين المسلمين بصفة عرضية غير مقصودة، وإلقاء الستور على سائر البحوث العلمية الرصينة التي تتناول كل جزئية بالبحث والدرس والتحقيق، بغية إيهام الأجيال الناشئة من أبناء المسلمين أن المسلمين لا يملكون غير إصدار الأحكام التقريرية والتعميمات الخطابية.

أما ما أثاره حول موضوع الشهب فإننا نجد أنفسنا بالنسبة إليه أمام قضيتين:

القضية الأولى: تتناول الجانب المادي المدروس من الشهب.

القضية الثانية: تناول الجانب الذي لم يصل العلم بعد إلى اكتشافه ودرسه .
وكل من هاتين القضيتين تتطلب نظراً خاصاً .

أما القضية الأولى التي تناول الجانب المدروس من الشهب فلا يبدو فيها تناقض بين ما أعلنه أو أشار إليه القرآن ، وبين ما توصل إليه العلم بالبحث المادي والدراسة النظرية ، ولتبيين لنا هذا الأمر لا بد من عرض النصوص القرآنية في هذا الموضوع ، ومقارنة ما جاء فيها بما يقوله العلماء الماديون ذوو الاختصاص في هذا الموضوع أيضاً .

فمن النصوص القرآنية في هذا الموضوع قول الله تعالى في سورة (الحجر) / ١٥ مصحف / ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ ۖ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۖ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ۖ ﴿١٨﴾﴾ .

ومنها قول الله تعالى في سورة (الصفات) / ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول):

﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ ﴿٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۖ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۖ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۖ ﴿١٠﴾﴾ .

ومنها قوله تعالى في سورة (الملك) / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۖ ﴿٥﴾﴾ .

ومنها قوله تعالى في سورة (الجن) / ٧٢ مصحف / ٤٠ نزول):

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۖ ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ ۖ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۖ ﴿٩﴾﴾ .

فهذه نصوص قرآنية تحدثت عن الشهب، وفيها من الدلائل المادية التي يمكن للعلم المادي أن يدرسها ويكتشفها ما يلي :

١ - وجود (شهب) ظاهرة تنقض، وحينما تنقض باتجاه الأرض تكون ثابتة ملتصقة مضيئة .

٢ - وجود (رجوم) أي : قطع من الحجارة مصدرها النجوم أو الكواكب، وهذه النجوم والكواكب هي المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا، أما الرجوم (وهي الحجارة) فقد نشرت في السماء مع الحرس الذين ملئت بهم السماء، وهذه الحجارة المختلفة الحجم تنطلق شهباً مُبَيَّنَةً ثابتة .

٣ - إن هذه الرجوم المنبثة في السماء (أي في الفضاء العالي) لم تكن قبل بعثة محمد ﷺ، ثم وجدت بعد ذلك .

هذه هي عناصر القضية الأولى، وهي القضية المادية التي يمكن أن تقارن بالعلم المادي وما توصل إليه من معارف في هذا الشأن .

ولدى المقارنة نجد أن العلماء الماديين يقولون ما يلي :

١ - يقولون عن انتشار الكتل الصخرية والحجرية ذات الأحجام المختلفة والتراكيب المختلفة، والتي يسمونها بالمتيورات وبالنيازك، وهي منتشرة في السماء فوق الغلاف الأرض ما يلي :

إن الهواء الجوي يحمينا من أسلحة السماء المخيفة، فأسرع مقذوفاتنا النارية ينطلق خلال الهواء بسرعة أقل من نصف ميل في الثانية، على حين يندفع خلال الفضاء العالي عدد لا حصر له من المتيورات الحديدية المختلفة الأحجام، من حجم الهباءة إلى حجم جبل عظيم، بسرعة هائلة تختلف من عشرين إلى مئة ميل في الثانية .

فمن هذا نلاحظ أن النصوص الدينية قد قررت هذه الحقيقة، قبل أن تكتشفها الوسائل الإنسانية للبحث العلمي، ويوم كان العلم الإنساني جاهلاً بوضع السماء .

٢ — يقول العلماء الماديون: إن أصل هذه النيازك من الكواكب والنجوم، وهذا عين ما أشار إليه القرآن.

يقولون: إن النجوم يحدث فيها انفجارات من وقت لآخر، وبقوة هائلة، فيطير منها في كل انفجار مئات الأطنان من التراب الناعم، ثم يتجمع بعضه على بعض فتتكون منه النيازك والمذنبات.

٣ — ويقول العلماء الماديون عن حالات حدوث هذه الرجوم في السماء وتكاثرها بين حين وآخر:

«إن مذنب بيلا ظهر منشقاً إلى جزأين في عام (١٨٤٦م) ثم ظهر هذان الجزآن في عام (١٨٥٢م) على صورة مذنبين منفصلين، ثم اختفيا بعد ذلك، وظهرت بدلاً منهما جموع حاشدة من متبورات مضيئة صغيرة في جو الأرض».

أليست هذه هي الرجوم التي مصدرها نجوم السماء وكواكبها، وقد حدثت في فترة نعرفها، وهذا يقرب إلى التصور ما حدث في عصر الرسالة المحمدية.

من كل هذا يتبين لنا أن الحقائق العلمية المادية تتفق مع ما جاء في القرآن، وهذا ما يتعلق بالقضية الأولى.

وأما القضية الثانية وهي كون الشهب رجوماً للشياطين تلاحقهم وتحرقهم، فهذه لم يتوصل العلم المادي إليها، لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه ومدى وسائله، فهو لا يستطيع من عنده أن يثبتها ولا يستطيع أن ينفيها، ويجب عليه بالنسبة إليها أن يترك الحديث عنها إلى ما يقرره الدين، وما ثبت فيه بالنصوص الصحيحة القاطعة.

فكان الأولى بالعظم حول هذا الموضوع أن يعتصم بالصمت إذا لم يشأ أن يدعن للدين وما جاء فيه.

حول المعرفة الدينية والمعرفة بمعناها العقلي والعلمي

قال (د. العظم) في الصفحة (٧٢) من كتابه :

«ورد معنا ذكر طائفة من المفكرين يقولون: إن المعرفة الدينية تختلف اختلافاً جذرياً وكلياً عن المعرفة بمعناها العقلي أو العلمي، لذلك نجدها دائماً مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل».

قبل أن أتابع ذكر بقية كلامه حول هذه المقدمة، لا بد من التنبيه على أن هذا الكلام كذب على الإسلام والمسلمين لا أصل له مطلقاً. إنه لا يوجد واحد من علماء المسلمين يقول: إن المعرفة الدينية تختلف اختلافاً جذرياً وكلياً عن المعرفة بمعناها العقلي، ولذلك نجد المعارف الدينية مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل.

فلست أدري من أين جاء بهذه الفرية على الإسلام والمسلمين على المعارف الدينية الإسلامية؟!

إن الذي يقوله جميع علماء المسلمين يقضي بأن جميع ما ثبت في الدين يتفق مع مفاهيم المنطق السليم، والعقل الصحيح، والعلم الثابت.

وقد سبق أن بيّنا أن التناقض أو التنافي لو وجد فهو ليس بين ما ثبت في الدين بشكل قاطع وما ثبت في العلم أو العقل بشكل قاطع، وإنما بين ما نسب إلى الدين وهو ليس منه وبين الحقائق العلمية الثابتة، أو بين ما نسب إلى العلم وهو ليس منه وبين الحقائق الدينية الثابتة، أو بين ما نسب إلى الدين وما نسب إلى العلم وكل منهما لم تصح نسبته إلى صاحبه.

ولكن قد توجد أمور ثبتت في الدين والعقل لا يستطيع مستقلاً أن يثبتها، كما لا يستطيع أن ينفيها، فهي لا تناقض أصول العقل والمنطق ولا تنافي مع العلم، إنما عجزت الوسائل العلمية عن إدراكها والوصول إلى معرفتها، وعجزت التصورات العقلية عن إدراكها وتحديدها، وهذا شيء يُعزى إلى قصور وسائل المعرفة والإدراك، وليس من التناقض ولا من التنافي حتماً. ونظير هذا يحدث في

مجال الدراسات العلمية الإنسانية البحتة. إن العلماء قد استنبطوا من الظواهر المادية كثيراً من القوانين، منها مثلاً قانون الجاذبية، مع أن أية وسيلة علمية لا تستطيع أن تحدد كنه هذه الطاقة التي تظهر آثارها، ولا يستطيع العقل أيضاً أن يتصور صورة مادية لها، ولا أحد يقول مع ذلك: إنها مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل.

ولكن يبدو أن (د. العظم) لا يعرف في الأصول الفلسفية والأحكام العقلية فروق الحقائق، فهو لا يعرف ما هما المتناقضان؟ ولا ما هما المتضادان؟ ولا ما هما المتخالفان؟ ولا يعرف الفروق بينها، ولا يعرف أيضاً أنه توجد معارف كثيرة مجهولة، ولا يعني الجهل بها أنها تتنافى مع المنطق والعقل. وربما كان يعرف ولكنه يغالط في الحقائق لغرض التضليل. فهو إما جاهل أو محروم من الأمانة العلمية.

وبعد هذه المقدمة التي افترهاها على الإسلام والمسلمين، قال في متابعة كلامه:

«يقول أصحاب هذا المذهب: إن العقل الإنساني قاصر عن أن يعرف طبيعة الإله، وعن أن يحيط به ولو إحاطة جزئية. إنه عاجز عن تصوره وعن التعبير عن طبيعته، وعبر البعض عن هذا الرأي بقولهم عن الله: (كل ما يخطر في بالك فهو خلاف ذلك).

وقبل أن نتابع بقية كلامه نقول: هذا كلام لا علاقة له بالمقدمة التي افترهاها، فكون العقل الإنساني قاصراً عن تصور ذات الخالق جلّ وعلا، وعاجزاً عن معرفة كنه هذه الذات، لا يعني بحال من الأحوال أن ذاته سبحانه مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل. جُلّ ما في الأمر إثبات العجز للجهاز المدرك، علماً بأن العقل عاجز عن إدراك أو تصور كثير من الحقائق العلمية الشابتة في الكون المادي المدروس، حتى إن العقل لم يستطع إلى يوم الناس هذا أن يدرك كنه ذات نفسه، فهل جهله بذات نفسه ينفي وجوده، باعتبار أن هذا الجهل مناقض للمنطق ومتنافٍ مع العقل بحسب دعوى (د. العظم)؟

هذا كلام فارغ وسخيف ومتهافت لا يقبله من لديه مثقال ذرة من عقل، وهو في حقيقته يسخر من قائله ولا يخدع قارئه.

ثم إن (د. العظم) بعد أن وضع المقدمة المفتراة، وبني عليها مسألة غير ذات علاقة بها مطلقاً بقصد المغالطة والتضليل، قال موجهاً اعتراضاته:

«توجد عدة اعتراضات على هذا الموقف. أولاً: هل بإمكانني أن أقيم علاقات جدية بيني وبين هذا الإله، الذي تتجاوز طبيعته تجاوزاً مطلقاً منطقي ومشاعري وأفكاري ومثلي وآمالي؟ هل بإمكانني أن أجد عزاء في إله جُلُّ ما أعرفه عنه أنه مهما خطر في بالي من أفكار وصفات فهو يختلف عنها اختلافاً مطلقاً؟ إن وجود مثل هذا الإله وعدم وجوده سيان بالنسبة إليّ. إن هذا الإله ليس إلا تجريداً فارغاً من كل معنى ومحتوى، ولا يمكن لإرادة إنسان أن تتعلق بتجريد محض، تتجاوز بمراحل التجريد الذي وصفه أرسطو باسم (المحرك الأول) فإذا كان بإمكانك أن توجه ابتهالاً أو دعاء إلى المحرك الأول فمن المؤكد أنك لن تستطيع أن توجه لإله لا يمكنك أن تصفه بشيء على الإطلاق، لأنه بطبيعته مخالف لكل ما يرد في ذهنك من أفكار وكل ما تنطق به من صفات».

هذا هو الاعتراض الأول الذي وجّهه، وهو بهذا الكلام يضيف إلى افتراءه في المقدمة ومغالطته فيما بنى عليها، فيطرح هنا كذباً جديداً ومغالطة في الحقائق ويدّعي على الفكر الإسلامي تعميماً كاذباً مخالفاً للحقيقة تماماً.

إن أحداً من المسلمين لا يقول: إن العقل قاصر عن أن يعرف شيئاً عن الله الخالق جلّ وعلا، أو قاصر عن أن يحيط ولو إحاطة جزئية بصفاته، فهذا من الكذب على المفاهيم الإسلامية.

لكن الذي يقوله المسلمون إنما هو منحصر في معرفة كنه ذات الخالق، والذات شيء والصفات ذات الأفعال والآثار شيء آخر، فقول المسلمين: «كل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك»، قول منحصر في معرفة كنه ذات الخالق، لا في معرفة صفاته، وذلك لأن تصورات الأفكار كلها مقتبسة من صور الكون

الحادث، وهذه الصور المادية لا تليق بكمال الله جَلَّ وعلا، إذ ليس كمثله شيء، ولا يتوقف على معرفة كنه ذات الخالق شيء من الإيمان ولا من العلاقة به.

إننا نتعامل مع كثير من طاقات الكون دون أن نعرف كنه ذاتها. عقولنا لا نعرف كنه ذاتها. معظم ما هو داخل في أجسامنا لا نعرف كنه ذاته. أفيؤثر هذا على إيماننا بها وتعاملنا معها؟

ولا بد أن يلاحظ القارئ حشد المغالطات التي صنعها (د. العظم) ويكتشفها ويعرف ما فيها من زيف لا يحتاج كشفه إلى كد ذهني.

لقد جعل الشيء الذي يعجز العقل عن إدراكه وتصوره شيئاً مناقضاً للمنطق ومنافياً للعقل، وهذا باطل بداهة كما أوضحنا، إن أموراً كثيرة جداً يعجز العقل عن تصورها وتحديد ذاتها وهي واقعة فعلاً، وحينما يدركها العقل لا يرى فيها مناقضة للمنطق ولا منافاة للعقل. الأعمى يعجز عن تصور الألوان، مع أن الألوان لا تناقض المنطق ولا تتنافى مع العقل، لا في مفهوم المبصرين ولا في مفهوم العميان.

ليكن واضحاً لدينا تماماً أن قصور الجهاز المدرك عن إدراك بعض الحقائق لا يعني بحال من الأحوال أن هذه الحقائق مناقضة لمنطق الأشياء. هذه بديهية ولكن (د. العظم) أراد أن يغالط بها، وأراد أن يموه بها على السذج من المخدوعين المفتونين بعبارات (أصول البحث العلمي) و(قواعد المنطق الحديث) و(ما توصلت إليه الحقائق العلمية) وأمثالها من العبارات التي غدت شعارات للتمويه والتضليل فقط يستعملها بعض أصحاب المذاهب ذات الأغراض الخاصة، كسائر الشعارات الجميلة، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية، إن هذه الشعارات تحمل بريقاً لفظياً يسر السامعين ويعجبهم، ولكن ليس لها عند مستغليها مضمون عملي تطبيقي.

وبعد أن بنى (د. العظم) هذا البناء الوهمي على المقدمة الكاذبة الأولى، وجّه عدة اعتراضات عليه، وهذه الاعتراضات وجهها على اعتبار أن من نسب إليهم هذا المذهب من المفكرين المسلمين يرون أنه لا يمكن إدراك أي شيء عن ذات الخالق ولا عن صفاته.

وهنا تكمن مغالطته الثانية، وهي مغالطة تعتمد على تعميم تمويهى كاذب لقضية خاصة، وذلل لأن عبارة: «كل ما يخطر في بالك فالله بخلاف ذلك» عبارة خاصة بتصور كنه ذات الله، وليست شاملة لذاته وصفاته، ولكن (د. العظم) عمّم في دلالتها وفي مفهومها تعميماً باطلاً، ليوجه اعتراضه على منطقة التعميم التي ادعاها زوراً وبهتاناً.

إن صنيعه يشبه صنع من قال: إن الماء صخر جامد، والذين يقولون: إن السفن الشراعية تجري بالهواء لا بد أن يسلّموا بأن هذه السفن تجري في الجبال والصخور والرمال، وكلامهم هذا معترض من وجوه:

الأول: أن الماء ليس صخراً جامداً.

الثاني: أن السفن البحرية لا تجري في الجبال والصخور والرمال.

الثالث: أن السفن البحرية قد تجري بالمحركات الآلية.

هذا لون عجيب جداً من المغالطات التي تصطنع الأكاذيب، والتعميمات، وتضع الأشياء في غير مواضعها، ومع ذلك فإن المنطق (العظمي) يقبله، ويقبله معه سائر الملحدون!!

وعلى مثل هذا المنطق يريدون أن يصنعوا جيلاً عربياً تقدماً.

من الطبيعي بعد أن أخذ المجال التعميمي الذي ادعاه كذباً على الفكر الإسلامي أن يصل إلى منطقة تجريد مطلق لا يفهم منه شيء، فبينما كان أصل الموضوع منحصرأ في كنه ذات الله، إذا به يجعله شاملاً للذات والصفات كلها وسائر المفاهيم، وهذا ما لا يقول به أحد في الوجود، ولمّا وصل في أكذوبته إلى هذا المستوى وجه اعتراضه كما راق له فقال: «هل بإمكانى أن أقيم أية علاقات جدية بيني وبين هذا الإله... إلى آخر كلامه».

من الطبيعي أن إلهأ لا يفهم عنه شيء من ذات ولا من صفات مطلقاً أن يكون تجريداً فارغاً من كل معنى ومحتوى. لكنّ أحداً من المؤمنين بالله لا يقول بمثل هذا الكلام الباطل.

إن المؤمنين يثبتون لله صفات كثيرة من صفات الكمال، بل هم يثبتون له كل صفات الكمال، وينفون عنه كل صفات النقصان، ويستطيعون أن يتصوروا من صفاته على مقدار عقولهم، ويطلقون الحدود دون حصر، إنهم يؤمنون بصفة وجوده الواجب سبحانه، ويحسنون تصور هذه الصفة على مقدار عقولهم، ويؤمنون بصفة قدرته الكاملة القادرة على خلق كل ممكن، ويحسنون تصور هذه الصفة على مقدار عقولهم، ويؤمنون بصفة إرادته واختياره التي تختار من الممكنات ما تشاء، ويحسنون تصور هذه الصفة على مقدار عقولهم، ويؤمنون أيضاً بصفات علمه وسمعه وبصره وصفات أفعاله، ويستطيعون أن يتصوروا من هذه الصفات على مقدار عقولهم، وهكذا إلى كثير من صفاته سبحانه.

فهل هذا هو التجريد المطلق الذي ادَّعاه (د. العظم) كذباً وبهتاناً؟!

ألا يسوغ في منطق العقل أن نؤمن بموجد نعلم كل صفاته التي لها آثار متصلة بنا، من خلق ورزق، وإحياء وإماتة، وعدل وجزاء، ورحمة وعقاب، وغير ذلك، دون أن نعلم كنه ذاته وطبيعتها الخاصة؟

إن العلماء الماديين يؤمنون بالجادبية، وهم لا يعلمون من خصائصها إلا أنها قوة تجذب. إنهم يعتقدون بها، ويتعاملون معها، لمجرد معرفة صفة من صفاتها، دلت عليها آثارها، فكيف بمن علمنا من صفاته أشياء كثيرة متعلقة بنا؟

يا عجباً لمنطق الملحدين!! إنهم يقيمون علاقات جدية مع أوهام إلحادية، وعلاقات جدية مع قوانين طبيعية لا يعرفون كنه ذاتها، وإنما تظهر لهم بعض آثارها التي تدلهم على بعض صفاتها، ثم يستكبرون عن أن يقيموا علاقات جدية مع الله، الذي يظهر لهم من آثاره أنه قادر عليم، عادل حكيم، خالق رازق، محيي مميت، سميع بصير، نافع ضار، يجازي المسحنيين والمسيئين.

وإن تعجب فعجب قولهم وعجب منطقهم.

ثم إن (د. العظم) وجَّه اعتراضاً ثانياً على البناء الفاسد نفسه الذي بناه فقال: «ثانياً: إذا كان الإله لا يوصف ولا يدرك بالنسبة إلى البشر فما معنى قولنا إذاً

بأنه (رحيم وبأنه عادل). عندما ننتع الله بالرحمة والعدل ماذا نعني بهذه الصفات؟
أليس هناك من شبه على الإطلاق بين الرحمة والعدل عندما نطلقهما على الله،
وبين تصورنا الإنساني لهاتين الصفتين؟ إذا كان الجواب بالنفي هل تكون إذن
أذهاننا فارغة من كل معنى وتصور؟ عندما ننتع الله بالرحمة والعدل، هل ننسب
إليه كلمات لا معنى لها على الإطلاق بالنسبة للبشر؟ في الواقع إننا في موقف حرج
حيال هذا الموضوع، فإما أن ننتع الله بالعدالة وفقاً لتصور يشبه إلى حد ما وبصورة
غامضة تصورنا الإنساني لهذه الصفة، وإما أن يكون قولنا بعدالته كلاماً فارغاً من
كل معنى ومحتوى. أي: إننا مرغمون إما على التشبيه وما يترتب عليه من عواقب،
أو على التنزيه التام وما يستتبع من نتائج.

يوجد حل تقليدي لهذه الكتلة من التناقضات والمشكلات، وهو الأخذ بظاهر
المعنى والتصديق به مع تفويض معرفة حقيقته إليه تعالى، أي التصديق دون
معرفة، والإيمان على طريقة العجائز.

مرة ثالثة يلجأ في هذا الموضوع بالذات إلى المغالطة والتمويه عن طريق
التعميم الفاسد.

فبعد المغالطة السابقة التي اعتمد فيها على تعميم العجز البشري في واقعهم
الديني عن إدراك ذات الله وكنهها، بالنظر إلى أن الأبصار لا تدركه سبحانه، وبعد
أن جعل هذا العجز البشري شاملاً للذات والصفات وهو ما لم يقل به أحد، قفز
قفزة جديدة إلى مغالطة جديدة، تعتمد على تعميم خلط فيه جميع ما نسب إلى الله
من صفات في النصوص، ليعطيها حكماً واحداً عاماً، باعتبار أن بعضها مما يوهم
التشبيه بالمخلوقات قد ثار حوله حوار في فهم المراد منه بين المفكرين من علماء
المسلمين.

ويبدو أن علمية المغالطة القائمة على تعميم الخاص أهم عناصر مغالطاته،
كما أنها أهم عناصر مغالطات (فرويد) أحد قاداته المثاليين في نظره، إذ كان
(فرويد) يأخذ من الحالات الشاذة النادرة أحكاماً عامة مطلقة، مخالفاً بذلك كل
منهج علمي.

إن ادعاء (د. العظم) بأننا لا نفهم شيئاً عن صفات الله تعالى وإلاً وقعنا في التشبيه ادعاء باطل، ونستطيع بالتحليل العلمي أن نكشف بطلانه.

إن الطاقة الفكرية تستطيع أن تأخذ منطلقاتها في الاتجاه غير المحدود (اللانهائي) مهما كانت الحواس تشدها إلى الواقع المدرك المحدود، فالفكر يشاهد مثلاً عن طريق الحواس الموجودات الحادثة، فيأخذ صورة صحيحة عن معنى الوجود الحادث، وينطلق منها عن طريق أحكام النقائص العقلية إلى تصور معنى الوجود الأزلي، وهو يُحسن أن يتصور من معنى الوجود الأزلي على مقدار وعائه، فيثبت لله تعالى ويطلقه من حدود المدركات بالحس، ويلاحظ الفكر الإنساني القدرات المادية التي ترفع الأبطال والقناطير وما هو بوزن الجبال، والقدرات غير المادية التي تفعل الأفعال العجيبة، فيأخذ صورة تجريدية صحيحة عن معنى القدرة أو الطاقة، ثم ينطلق منها في سلسلة التكامل الارتقائي إلى تصور قدرة فوق قدرة، وطاقة فوق طاقة، حتى يصل إلى تصور قدرة تخلق السماوات والأرض وتفعل كل ممكن، دون أن تعجز أو تضعف، فيثبت هذه القدرة لله، ويطلقها من حدود المدركات بالحس، بمقتضى أحكام سلسلة التكامل، التي لها في العقل أصول يمكن أن تبني عليها مدركات غير محدودة، والعقل يحسن أن يتصور من معاني القدرة الكاملة على مقدار وعائه، وما زاد عن وعائه يقف دونه عاجزاً مسلماً، فهو بذلك قد فهم وأدرك على مقداره، وكان لوصف الله بأنه قدير معنى صحيح واضح في فكره وتأملاته.

ونقول نظير ذلك في الإرادة، وفي العلم، وفي السمع، وفي البصر، وفي الرحمة، وفي العدل، وهكذا.

ومغالطة التشبيه التي جاء بها (د. العظم) إنما جاء بها من الصفات الواردة في النصوص مما يوهم ظاهره التشبيه الجسدي، كالصفات التي تثبت لله وجهاً ويداً ونحو ذلك، فهذه هي التي جرى حوار بين علماء المسلمين حول المراد منها، بين الإثبات من غير كيف، والتأويل والتفويض، ولكن هذه لا تؤثر على سائر الصفات التي لا خلاف في فهمها وإدراك معانيها.

وناقدا (د. العظم) لم يجد سبيلاً إلا أن يغالط عن طريق التعميم الذي أصّل له .

وحين يتصور (د. العظم) أنه بلغ ما يريد طرح حول الموضوع نفسه مسألة القضاء والقدر، فقال:

«وأفضل مثال على هذا الموقف المشكلة الكلاسيكية التالية: يفترض في المؤمن أن يسلم بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، وأن يؤمن بالعقاب والثواب، وأن يؤمن أيضاً بالعدالة الإلهية، رغم ما في هذه الموضوعات من تناقضات عقلية وأخلاقية. ويبرر أصحاب هذا الرأي موقفهم بقولهم: إن العقل الإنساني عاجز تماماً عن إدراك طبيعة العدالة الإلهية، وعلاقتها بالحساب والقضاء والقدر، وبما أن هذه المواضيع لا تخضع للمنطق البشري، لذلك تبدو متناقضة ومغايرة لمعاييرنا الأخلاقية وغير منصفة».

يبدو أن الناقد أخذ فكرة القضاء والقدر في الإسلام من أفواه جهلة العامة الجبريين، ولم يقرأها في كتاب علمي معتمد من كتب العقيدة الإسلامية^(١).

وربما يكون قد قرأها في كتاب علمي معتمد إلا أنه طمس مذهب أهل الحق في هذا الموضوع، وأخذ رأي الجبريين الذين كذبهم القرآن فيما ادّعوه، ورفض مذهبهم جمهور علماء المسلمين، وبعد أن أخذ رأي الجبريين جعله هو الرأي الإسلامي، وأخذ يوجه عليه اعتراضاته لما فيه من تناقض، وغرضه هدم الإسلام كله من خلال رأي فاسد قاومه القرآن، ورفضه علماء المسلمين.

أما تكذيب القرآن لرأي الجبريين فيما ذهبوا إليه، باعتباره معارضاً لمبدأ امتحان الإنسان وتكليفه جزائه بالعقاب أو بالثواب فنجدته في قول الله تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ

(١) لقد أوفيت بحث هذا الموضوع في كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها».

لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ .

ونجده أيضاً في قول الله تعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول) :
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ .

فهؤلاء مشركون وجبريون يزعمون أن الله قد شاء لهم أن يشركوا، فأعلن الله أنهم يكذبون في دعواهم .

إن قول المشركين : ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا، ولا حرماً من دونه من شيء﴾ ، مستند إلى ادعاء جبري يتضمن أن الله قد شاء لهم الإشراك به، وشاء لهم عبادة غيره، ولذلك كانوا مشركين به في عقيدتهم وفي عبادتهم، ولذلك كذبهم الله في هذا الادعاء، وأوعدهم بالعذاب فقال : ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ وأمر رسوله بأن يطالبهم بالدليل على ما ادعوه، فقال له : ﴿قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ ، أي : هل عندكم من خبر عن الله يثبت مدعائكم هذا؟ فإن كان عندكم شيء من ذلك تحتجون به فأخرجوه لنا، ولكنكم في الحقيقة لا تعتمدون في ادعائكم هذا على أي مستند علمي، وإنما تتبعون الظنون الكاذبة التي هي أوهام بعيدة عن الحقيقة، فما أنتم في الحقيقة إلا تخرصون، أي تكذبون .

ثم علم الله رسوله أن يقول لهم : ﴿قل : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ ، أي : إن الله قد شاء أن يمنحكم الإرادة الحرة، ليمتحنكم في حدود ما وهبكم من استطاعة، ولو شاء غير ذلك، أي لو شاء أن يجعلكم مجبرين لا خيرة لكم فيما تقومون به من أعمال لكانت حكمته تقتضي أن يهديكم أجمعين، وفي هذا حجة عليهم بالغة صميم الحقيقة، والله الحجة البالغة .

فالفكر الإسلامي قائم على أن الإنسان مسؤول عن أعماله، ومحاسب عليها، ويُجازى عليها أيضاً، لأنها داخلية في حدود استطاعته إذ وهبه الله حرية الإرادة، والقدرة الجزئية على تنفيذ إرادته، وأعطاه شروط الامتحان، ووضعه في مجالات الامتحان الأمثل.

هذه خلاصة العقيدة الإسلامية التي أوضحها القرآن حول موضوع القضاء والقدر، وفهمها جمهور علماء المسلمين.

ومن هذا يتبين لنا أن ما لا سلطة للإرادة الإنسانية والقدرات الإنسانية عليه هو الذي يقع مباشرة تحت سلطان القضاء والقدر، وأن الله قد منح بقضائه وقدره الإنسان إرادته الحرة، وعقله الذي يؤهله للتكليف، وجزءاً من القدرة على التنفيذ، ليمتحنه، ثم ليحاسبه ويجازيه.

فهل في هذا المفهوم الصحيح تناقض أو إشكال في موضوع القضاء والقدر؟.

لكن الملحدين لا يروق لهم البيان الحق عن الدين، إنما يريدون مفاهيم فاسدة تنتشر بين المسلمين ليحاربوا الدين بها.

* * *

الفصل التاسع

النظورات العلمية هي التي تتراجع في اتجاه
المفاهيم الدينية

زعم (د. العظم) في نقده للفكر الديني أن الدين في نزاعه مع العلم يضطر لأن يتنازل عن مواقعه بعد صراع شديد، فقال في الصفحة (٢٤) من كتابه:

«إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليست إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين، يلجأ إليها كلما اضطر الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية، أو كلما اضطر لأن ينسحب من مركز كان يشغله في السابق. إن نمط هذه العملية معروف جيداً. إنها تبدأ بصدام شديد بين النظرة العلمية الجديدة حول موضوع ما، وبين النظرة الدينية السائدة إلى الموضوع ذاته، وبعد نزاع قد يستمر سنين طويلة تنتصر النظرة العلمية الجديدة، وتسود بين كبار المفكرين، وتنتشر بين الفئات المثقفة تماماً عندما يوشك العلم أن يتجاوزها إلى نظرة أفضل. عندئذ يقول أصحاب النظرة الدينية: إنه لم يكن من موجب لهذا النزاع أصلاً، لأن الخلاف لم يكن بين جوهر الدين وروحه من جهة وبين العلم من جهة أخرى، لذلك لا يضير الدين أن يتنازل للعلم عن أمور لا تمس روحه. ولكن الحق يقال: إن هذا النمط من التفكير يخبىء وراءه سلسلة طويلة من التراجعات الهامة والحاسمة، اضطر إليها الدين عندما وقف وجهاً لوجه أمام العلم. بالرغم من هذا الكلام الجميل عن روح الدين وجوهره لم يتراجع الدين ولو مرة واحدة أمام العلم إلا بعد معركة ضارية، أو تحت الضغط المتزايد للثقافة العلمية الحديثة، أو تحت إلحاح الضرورات الحيوية للتكيف مع موجة العلمنة والتقدم التي تفرض نفسها على حياة المجتمعات في النهاية».

لنا حول هذا الكلام «العظمي» نظرات، كل واحدة منها تحتاج مناقشة مستقلة.

(أ) ففي النظرة الأولى نلاحظ أن الناقد قد أطلق كلمة الدين وقصد كل ما يسمى بين الناس ديناً، حقاً كان أو باطلاً، وهذا الإطلاق التعميمي فيه مغالطة جدلية لا يفعلها من يحترم فكر نفسه، أو يحترم المنهج العلمي السليم لدى النقد والمناظرة، لأن الحكم الواحد لا يصح أن يحكم به على مختلفات في الحقيقة لمجرد اشتراكها في الاسم العام اشتراكاً لفظياً، فلا يصح أن يقول القائل: إن الإنسان أصفر الوجه قصير القامة بدليل أن بعض الناس كذلك، فالأحكام لا تعطي صيغة التعميم الشامل ما لم يثبت أن جميع الأفراد المختلفة في حقيقتها مشتركة فعلاً في هذا الحكم التعميمي.

فمغالطة (د. العظم) هنا قائمة على التعميم في الحكم مع اختلاف حقائق الأفراد التي يحكم عليها. وقد وضح لدينا في مواضع كثيرة اعتماده على هذا العنصر من عناصر المغالطات.

أفعلى هذا المستوى يريد أن يوجه نقده العلمي؟

أفعلى هذا المستوى يريد أن يراجع المفاهيم الإسلامية مراجعة عصرية؟
إن هذا العمل بعيد كل البعد عن الروح العلمية النقدية، لو أنه كان صادقاً في طلب الحقيقة والبحث عنها.

(ب) وفي النظرة الثانية نلاحظ أن الناقد قد أطلق كلمة الدين وقصد بها التعاليم الدينية الأساسية، والتفسيرات الاجتهادية التي يقولها أي إنسان منتسب إلى الدين، وإن كانت اجتهادات ظاهرة الفساد، وآخرون من علماء المسلمين يخالفونه فيها، وإن كانت مفاهيم باطلة لطوائف منحرفة عن الدين تقول أقوالاً شاذة مرفوضة.

وبعد هذا التعميم الباطل يطلق حكمه على الدين نفسه من خلال حكمه على هذه الآراء التي جانب أصحابها فيها وجه الصواب.

لو قبلنا هذا التعميم لكان علينا أن نقبل أي فهم يفهمه أي إنسان من نص قانوني، أو نص دستوري، أو نظام من الأنظمة، أو مذهب من المذاهب الإنسانية، ثم نجعل هذا الفهم جزءاً من القانون أو الدستور أو النظام أو المذهب، ثم نوجه

إليها النقد على أساس هذا الفهم الخاطيء. لكننا نعلم أن هذا العمل مغالطة حقيرة لا تتفق مع أصول المنهج العلمي النقدي السليم، لذلك فإننا لا نفعله، لأن الإسلام يفرض علينا التزام الأمانة الفكرية، ويفرض علينا أن نحافظ على أخلاق البحث العلمي السليم، والمنهج النقدي الصحيح.

وشبابنا المسلمون يعرفون هذه الأخلاق ويلتزمون بها، ويعرفون مداخل المغالطات فلا يتأثرون بها. وإذا شاء الملحدون أن يموتوا بغیظهم من ذلك فليفعلوا، ولتبق مغالطاتهم على أكف الرياح السافيات، مع الهشيم اليابس والقمامات.

(ج) وفي النظرة الثالثة نلاحظ أن البحوث العلمية المتطورة يوماً بعد يوم هي التي تتطور متقدمة إلى الأمام، لتجد نفسها مقتربة من المفاهيم الكلية الكبرى التي قررها الإسلام في عقائده ومبادئه.

إننا نسمي هذا تقدماً في البحث العلمي إلى المواقع الغائية التي يحتلها الدين الحق، ولو أردنا أن نجاري (د. العظم) في تعبيراته لقلنا: إن البحوث العلمية تتراجع من مواقع النظرات المادية الإلحادية إلى مواقع النظرات الغائية الإيمانية، وهي المواقع التي يحتلها الدين بثبات واستقرار، دون تحول أو تراجع، لأن الدين الحق إلهي، وهو يقف عند مواقع الحق، وحينما يصل العلم إلى الحق، تماماً يجد نفسه عند مواقع الدين.

وهذا الكلام منا يحتاج إلى أدلة من الواقع العلمي، حتى لا يكون ادعاء لا قيمة له، وسأعتمد في هذا على أقوال كبار العلماء الماديين من علماء القرن العشرين.

من المعروف في قصة الحضارة الحديثة أن معظم الأبطال الأولين الذين اكتشفوا كثيراً من القوانين الطبيعية التي اعتمدت عليها هذه الحضارة كانوا مؤمنين بالله، ولكن خلفهم قوم زعموا أن هذه الاكتشافات قد أبطلت الحاجة إلى الإيمان بوجود الخالق جلّ وعلا، وتلقف الملاحظة الذين لهم غايات خاصة من نشر الإلحاد في الأرض ذلك، وأخذوا يروجون له في مختلف المجالات العلمية وغير العلمية.

ثم اتسعت دوائر المعرفة خلال القرن العشرين، فبدأت تنهار أسس الفكر الإلحادي القائم على تفسير الكون تفسيراً مادياً ميكانيكياً بحثاً، لدى كبار علماء الباحثين في مجالات المعارف الطبيعية الكونية.

لقد حل (أينشتاين) محل (نيوتن)، كما أن العالمين (بلانك) و(هايزن برج) قد أبطلا نظريات (لا بلاس)، وفقد معارضو الدين اليوم تلك المكانة التي كانت تسمح لهم بأن يستندوا إلى العلم لنقض أسس الدين.

إن نظرية النسبية وقاعدة الميكانيكا الكمية (كوانتم) قد أوصلتا العلماء إلى الاعتراف بأنه لا يمكن الفصل بين المشاهد والموضوع المشاهد، ومعناه أنه ليس في إمكاننا إلا أن نشاهد بعض المظاهر الخارجية من أي شيء، وأننا لا نستطيع أن نشاهد حقيقته الجوهرية.

وقد أصبح من الحقائق القطعية أننا لا نستطيع أن نهتدي إلى الوجود الأصلي لأي شيء فيما يتعلق بعلم الطبيعة، وأن كل ما يمكننا عمله هو بذل الجهد لمعرفة الهيكل الرياضي لذلك الشيء، وقد سلم العلماء على أعلى مستوى اليوم بأن الزعم بأننا نستطيع أن نشاهد الأشياء في صورها النهائية لم يكن إلا وهماً وسراباً.

ويعتقد البروفيسور (آرثر إيدنجتين) «أن معرفة الهيكل الرياضي للشيء هي المعرفة الوحيدة التي يمكن لعلم الطبيعة أن يمنحنا إياها»^(١).

فقد جاء في مقال لهذا العالم ما يلي :

«... . بقطع النظر عن الجوانب الجمالية والأخلاقية والروحانية، فإن المادة والجوهر والبعد والوقت وغيرها من تلك الأشياء التي كانت تعتبر خاضعة لعلم الطبيعة وحده قد أصبح من المتعذر علينا معرفة خصائصها، بقدر ما كان متعذراً معرفة خصائص الأشياء غير المادية. إن علم الطبيعة الجديد لم يعد في وضع يسمح له بالمعرفة المباشرة لخصائص الأشياء. إن حقيقة هذه الأشياء خارجة عن

(١) اقتباساً من كتاب «الدين في مواجهة العلم»، تأليف وحيد الدين خان... . وكذلك ما جاء بعده من أقوال (آرثر إيدنجتين)، وأقوال (سوليفان)، وأقوال (السير جيمس جينز) وغيرهم.

حدود الإدراك، ونحن نصل إلى حقائقها بواسطة الصور الذهنية . وأية صورة ذهنية لا يمكن أن تعكس لنا تصوراً غير موجود البتة في الذهن . وهكذا لا يمكن للطبيعة – باعتبار مجال عملها الحقيقي – أن تتناول الخصائص الخارجة عن حدود الإدراك، بل هي لا تقوم إلا بالدراسة بواسطة الآلات التي يمكن لعلنا الإحاطة بها. صحيح أن هذه الدراسة تصور لنا بعض الخصائص لعمل الكون إلا أن معلوماتنا الأصلية تتعلق بالدراسة عن طريق الآلات، وليست بالخصائص نفسها. إن علاقة الدراسة عن طريق الآلات بالخصائص الحقيقية للأشياء تشبه علاقة رقم التليفون بصاحبه».

ما هذه العلاقة الضعيفة جداً بين الدراسات الطبيعية للأشياء وبين حقائق الأشياء؟

إن هذا العالم الطبيعي من كبار علماء القرن العشرين ليقول كثيراً من قيمة الادعاءات العريضة التي كان يدّعيها الماديون، والتي كانوا يزعمون فيها أن العلوم الطبيعية قد بلغت بدراساتها معرفة حقائق الأشياء أو كادت تصل إليها. إن علماء اليوم المنصفين قد بدأوا ينقضون هذه الأقوال ويستخفونها، ويعتبرونها تجاوزاً كبيراً للحدود التي بلغها علم الناس، وهؤلاء العلماء قد بدأوا يعلنون ما كان أعلنه القرآن عن مبلغ علم الناس بقوله الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿...وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ويقول البروفيسور (آرثر إيدنجتين) أيضاً:

«إن حقيقة «أن العلم محدود بالمعلومات عن هيكل الأشياء» حقيقة ذات أهمية قصوى. إنها تؤكد أن الحقيقة الكاملة لا تزال غير معروفة. وفي ضوء هذه الحقيقة لا يمكن الزعم الآن بأن أحاسيسنا أو تجربة اتصال النبي بالله ليس لهما مثل موضوعي (خارجي) وذلك لأنه من الممكن جداً أن يكون هناك مثل خارجي لهذه الأحاسيس، أو لتجربة النبي أو العارف بالله. ولم يعد من الممكن أن يقال عن أحاسيسنا الدينية أو الجمالية: إنها مجرد ظواهر خادعة كما كانوا يقولون بالأمس

صلافة وتبحراً، وبإيجاز: إن العارف بالله المؤمن بالدين يمكنه أيضاً أن يعيش — كحقيقة — في الدنيا».

أليس هذا تراجعاً ظاهراً في موقف العلم إلى مواقع الفكر الديني، وهذا التراجع أو التقدّم في الحقيقة نتج عن واقع تقدم البحوث العلمية الطبيعية، إن العلم الإنساني بدأ يتعرف على حدوده.

ولكن الماديين المتعصبين للنظرات التقليدية الإلحادية ما زالوا يجترّون الادعاءات التبجحية السابقة، على الرغم من أن العلم المتطور قد أظهر فسادها، وتقدم خطوات مهمة في اتجاه مواقع الدين.

وعلى هذا باستطاعتنا أن نسمي الملاحظة الماديين رجعيين، لأنهم لا يسايرون تقدم العلم الصحيح.

على أن قضية التقدمية والرجعية من القضايا النسبية، فمن ابتعد عن الحق إلى جهة الباطل ثم رجع إلى جهة الحق فهو رجعي فاضل كريم، ومن ابتعد عن جهة الباطل إلى جهة الحق ثم رجع إلى جهة الباطل فهو رجعي خسيس ذميم، ومن تابع تقدمه في جهة الحق فهو تقدمي بطل صاعد، ومن تابع تقدمه في جهة الباطل فهو تقدمي خبيث منحط، فالحق في كل ذلك نسبية، تتبع السالك والجهة معاً، وكذلك الورا والأمام، فالنازل من المعالي يكون الوادي أمامه وتكون القمة وراءه، ولو عقل لنظر إلى الورا ورجع إليه، والصاعد إلى المعالي تكون القمة أمامه والوادي وراءه، وحينما يعقل يستمر في صعوده ولا يلتفت إلى الورا ولا يرجع إليه.

وقد انتهى الرياضي والفيلسوف الإنكليزي (ألفرد نورث وهيت هيد) إلى «أن الطبيعة حية».

أي: ليست كما يزعم الماديون مجرد مادة تظهر الحياة فيها نتيجة تركيب آلي في عناصرها، وهذا اقتراب من المفاهيم الدينية التي تقرر أن الكون عمل موجود حي.

ثم إن الفلكي الإنكليزي السير: (آرثر إيدنجتين) قد استنتج من دراسة العلوم: «أن مادة العالم مادة عقلية».

وكذلك الرياضي السير: (جيمس جينز) الذي يعتبر أعظم علماء العصر قد عبّر عن الكشوف الجديدة بقوله: «إن الكون كون فكري».

إن العلماء الذين أدلوا بهذه الآراء هم علماء على درجة كبيرة من الأهمية في دنيا العلم، ويلخص البروفيسور (ج. و. ن. سُوليفان) أفكارهم في الجملة التالية: «إن الطبيعة النهائية للكون طبيعة عقلية».

أي: ليست كما يزعم الملحدون الماديون مجرد حركة عشوائية غير عاقلة ظهر عنها في بلايين القرون هذا النظام الكوني المشاهد، وهذه النتائج العلمية التي توصل إليها العلماء تلغي بكل تأكيد الركائز الخيالية التي كان يستند إليها الملحدون، وتجعل العلم يقترب من الحقائق الدينية التي تقرر أن الكون عمل موجود عظيم عليم قادر حي سميع بصير.

إن كتاب «عالم الأسرار»، للفلكي الرياضي البريطاني السير (جيمس جينز) يحتوي على أكثر المواد العلمية قيمة من هذه الناحية، وقد انتهى هذا العالم بعد مناقشة علمية بحثة إلى أن:

«الكون لا يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديد، وسببه — في نظري — أن التفسير المادي قد أصبح الآن فكرة ذهنية».

أي: وهذه الفكرة الذهنية لا يؤيدها واقع الكون. ويقول هذا العالم أيضاً: «إذا كان الكون كوناً فكرياً فلا بد أن خلقه كان عملاً فكرياً أيضاً».

هل يدرك الملحدون هذه الرجعة العلمية إلى الدين؟ أم يظلون في البقعة العمياء التي يقفون فيها فلا يتقدمون مع تقدم أضواء المعرفة؟ ويقول السير (جيمس جينز) أيضاً:

«من الصحيح أن نقول: إن نهر العلم قد تحول إلى مجرى جديد في الأعوام الأخيرة...»

لقد كنا نظن قبل ثلاثين سنة — ونحن ننظر إلى الكون — أننا أمام حقيقة من النوع الميكانيكي. وكان يبدو لنا أن الكون يشتمل على ركام من المادة المبعثرة،

وقد اجتمعت أجزاؤه بالصدفة، وأن عمل هذه المادة ينحصر في أن ترقص لبعض الوقت رقصاً لا معنى له، تحت تأثير قوى عمياء لا هدف لها، وأنه بعد نهاية الرقص ستنتهي هذه المادة في صورة كون ميت، وأن الحياة قد وجدت صدفة خلال عمل هذه القوى العمياء، وأن بقعة صغيرة جداً من الكون قد نعمت بهذه الحياة، أو على سبيل الاحتمال يمكن أن توجد هذه الحياة في بقاع أخرى، وأن كل هذا سينتهي يوماً، وسيبقى الكون فاقد الروح.

ولكن توجد اليوم أدلة قوية تضطر علم الطبيعة إلى قبول الحقيقة القائلة بأن نهر العلم ينساب نحو حقيقة غير ميكانيكية.

إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكنة عظيمة. إن (الذهن) لم يدخل إلى هذا العالم المادي كأجنبي عنه، ونحن نصل الآن إلى مكان يجدر بنا فيه استقبال (الذهن) كخالق هذا الكون وحاكمه. إن هذا الذهن بلا شك ليس كأذهاننا البشرية، بل هو ذهن خلق الذهن الإنساني من «الذرة المادة» وهذا كله كان موجوداً في ذلك الذهن الكوني في صورة برنامج معد مسبقاً. إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عن العالم، تلك التي كنا أقمناها على عجل. لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة أو مهيمنة، وهذه القوة تشبه أذهاننا إلى حد كبير، وهذا الشبه ليس من ناحية العواطف والأحاسيس وإنما هو شبه يتعلق بذلك النهج الفكري الذي يمكننا تسميته بالذهن الرياضي».

هذا كلام عالم من أعظم علماء القرن العشرين، شهد آيات الله في الكون عن طريق وسائل المعرفة الإنسانية المتقدمة، وكان منصفاً بريئاً من داء التعصب، فأعلن شهادته المستندة إلى المعرفة العلمية، وأبان بوضوح أن نهر العلم قد تحول فعلاً إلى مجرى جديد سائر في اتجاه مواقع الإيمان بالله الخالق القادر العليم الحكيم.

وتحقق بعض ما جاء في الوعد الإلهي إذ قال سبحانه في سورة (فصلت) / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَهُمْ ءَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾

وسيتحقق كامل الوعد الإلهي مع تقدم العلم الإنساني بحثاً عن خفايا الكون وأسراره.

فليَقْرَ المسلمون المؤمنون بالله أعياناً، وليمت الماديون الملحدون بالله غيظاً. إن العلم المنصف قد بدأ فعلاً يتحول عن تفسيراته المادية البحتة، التي ملأت الدنيا ضجيجاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، متجهاً إلى تفسيرات أخرى يقترب فيها من الدين اقتراباً أزعج المؤسسات الإلحادية إزعاجاً كثيراً، إذ بدأت تفقد ركائزها التي كانت تلبس ثوب العلم زوراً وبهتاناً، وتصنع مغالطاتها من الفرضيات التي لم تكن قد أخذت مستوى التحقق العلمي، وتصوغ منها مقدمات يقينية، لتدعم سياستها الإلحادية، نظراً إلى أن الإلحاد يخدم كما عرفنا مصالحها الخاصة.

إن انتصار الحقيقة الكبرى في نهاية المسيرة العلمية قضية مقطوع بها في عقيدة المسلمين، فلا خوف على الدين من العلم الصحيح. إلا أن داء الهوى وداء التعصب كثيراً ما يصيبان الباحثين في طريق العلم والمعرفة، كما يصيبان الآخرين من الناس.

يقول المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان)^(١):

«وبالرغم من هذه التغيرات في دنيا العلم لم يطرأ تغير يذكر على العقلية المنكرة للدين. بل على العكس من ذلك ينهمك معارضو الدين في تدبيح قضيتهم ضد الدين بأساليب جديدة، وليس سبب هذا الموقف اكتشافاً علمياً خطيراً، وإنما هو التعصب ولا غير. إن التاريخ ليحفل بما لا يحصى من الوقائع التي تبرهن على أن البشر رفضوا الحقيقة – رغم تجليها بوضوح – لأن تعصبهم لفكرة ما لم يسمح لهم بقبولها. وهذا التعصب الأعمى هو الذي جعل العلماء الإيطاليين قبل أربعة قرون يرفضون نظرية (جاليليو) كبديل لنظرية أرسطو القديمة، على الرغم من أن

(١) في كتابه «الدين في مواجهة العلم».

الكرتين اللتين أسقطهما (جاليليو) من قمة منارة (لينج) قد جعلتا نظريته حقيقة مرئية للعيان، وهذا هو التعصب الذي جعل العلماء في نهاية القرن الماضي يسخرون من نظرية البروفيسور (ماكس بلانك) المفسرة لطواهر الضوء، والتي أبطلت نظرية (نيوتن) وتلك هي النظرية التي تسمى اليوم بنظرية الكمية (الكوانتم)، وتعتبر من أهم أسس علم الطبيعة الحديث.

وإذا كان أحدنا يظن أن داء التعصب يمكن أن يصيب الآخرين دون العلماء فإنني سأذكره بما قاله أحد العلماء المعاصرين وهو الدكتور (أ. و. هيلز):
«إنني سأكون آخر من يدعي أننا نحن العلماء أقل الناس عرضة للتعصب بالنسبة للمثقفين الآخرين».

فنحن أمام دنيا يمزقها التعصب. فكيف لنا أن نتوقع أن نظرية ما سوف تحظى بقبول الجميع لمجرد أن المنطق أو العلم قد أثبتها؟!

إن تجربة التاريخ الطويل تدلنا على أن العواطف لا العقل هي التي كانت تقود الإنسان، وبالرغم من أن العقل هو الذي يحظى بالمقام الأرفع علمياً ومنطقياً، لكن العواطف في أغلب الأحيان هي التي كانت تستعبد العقل، وكان العقل دوماً يخترع المعاذير للعواطف». اهـ.

* * *

الفصل العاشر

صراع حول ما أسماه ^{عنه} العظم مأساة إبليس

ملاحظة قبل الدخول في الصراع

قال الناقد (د. العظم) في الصفحة (٨٣) من كتابه: «قبل أن أدخل في صلب الموضوع أريد أن يتضح للجميع بأن بحثي يدور في إطار معين، لا يجوز الابتعاد عنه على الإطلاق، ألا وهو إطار التفكير الميثولوجي — الديني الناتج عن خيال الإنسان الأسطوري وملكاته الخرافية — إنني لا أريد معالجة قصة إبليس باعتبارها موضوعاً يدخل نطاق الإيمان الديني الصرف، ولا أريد أن أتكلم عنه باعتباره كائناً موجوداً حقيقياً، وإنما أريد دراسة شخصيته باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية وطورها وضخمها خياله الخصب».

فلا يغتر القارئ ببعض أقواله الدينية في صلب الموضوع، لأنه مضطر إلى إيرادها لدراسة القصة من خلالها، على اعتبارها واعتبار كل ما يتصل بها خرافة من الخرافات وأسطورة من وضع الإنسان.

(١)

كتب (د. العظم) في كتابه «نقد الفكر الديني» فصلاً خاصاً بعنوان: «مأساة إبليس»، وكان هذا الفصل محاضرة ألقاها.

زعم فيما كتب أن قصة إبليس أسطورة خيالية من الأساطير الدينية، مثلها كمثل الأساطير الخيالية التي تنتهي بمأساة درامية، وإبليس بطل هذه المأساة قديس بحسب تفسيراته التي اعتمد فيها على آرائه الشخصية، وعلى آراء باطنية شاذة اعتمدت على المذهب الجبري في موضوع القضاء والقدر، وهو مذهب مرفوض كما علمنا، وما اشتمل هذا المذهب عليه من أفكار لا يمثل العقيدة الإسلامية الصحيحة، لذلك فإن جميع ما بناه على هذا الأساس من تفسيرات ومفاهيم وأسئلة وإشكالات ساقط مردود، باعتبار أن الأساس الذي بنى عليه أساس مرفوض دينياً، وما بني على فاسد فهو فاسد.

ولم يكتفِ باعتبار قصة إبليس الواردة في القرآن قصة أسطورية، بل هو يعتبر سائر القصص الدينية الصحيحة من قبل القصص الأسطورية، فقصة إبراهيم وأمر الله له بذبح ولده أسطورة مأساة درامية خيالية في نظره، وقصة أيوب وبلائه أسطورة مأساة، وهكذا، ولكن أعظم بطل ذي قصة مأساوية في نظره هو إبليس، لأنه تحدى الموقف المأساوي ببطولة.

من الطبيعي أن ينكر القصص الدينية بعد أن أنكر وجود الله، وأنكر الشرائع السماوية كلها، وأنكر القرآن وصحة نسبه إلى الله جلّ وعلا.

إن العقيدة الإسلامية بكل أركانها وفروعها مبنية على أصل واحد هو الإيمان بالله، فمن اجتث من فكره وقلبه ووجدانه هذا الأصل فكل كلامه في الفروع كلام جدلي محض لا أساس له، ولا بد أن تكون مناقشته فيه متسمة بالمغالطات

والأكاذيب والمشاغبات والعمل على طي الحقائق وكتمانها، والاقتصار على الجوانب التي تفيده في المعركة الجدلية، مثله في ذلك مثل المصارع الذي يصنع بيده وعلى وفق هواه دميةً لخصمه، ثم يدخل معها إلى حلبة الصراع على أنها هي خصمه الحقيقي، ويصارعها كما يشاء، ويلعب بها كما يشاء، ثم يظهر انتصاره عليها. أو كمثل المصارع الذي يستخدم بعض المرتزقة من المصارعين، ويطلب منه أن يلبس قناع خصمه الحقيقي، وينزل بدل الخصم في حلبة المصارعة، على أن يصارع مصارعة ضعيفة، ينهزم في أعقابها عند حلول الزمان المعلوم، ووفق صورة مرسومة متفق عليها سابقاً.

وما أكثر هؤلاء المقنعين من الذين يتظاهرون بالدفاع عن الدين، ويصارعون أعداءه بضعف ظاهر، ثم ينكشفون بعد محاولات باردات، لا يستخدمون فيها أية قوة من القوى الدينية الصحيحة، ويقعون أخيراً في الزوايا مهملين، ويبقى أعداء الدين في الحلبة بعدهم يجولون.

وبعض هؤلاء يقدمون ما يلزم من حركات ليستخدمها الطرف المقابل الذي رسم له النجاح مقدماً، وليقوم بحركات بهلوانية تعجب الناظرين، وتلفت إليه الانتباه كله، وتصوره في نفوس المشاهدين بصورة البطل المصارع الذي لا يُغلب.

ولقد غدت هذه اللعبة الخداعية لعبة مكشوفة لدى الجماهير، في حلبات الرياضة البدنية، وفي حلبات السياسة، وفي حلبات المذاهب الفكرية المختلفة، وفي حلبات المعارك الحربية أيضاً، وهي في حلبات الصراع ضد الدين كثيرة جداً، ومتعددة الوجوه والصور والأشكال، ومختلفة السمات والملامح.

ومن عجيب أمر (د. العظم) أنه أقام من نفسه عارضاً للصورة الإسلامية كما يهوى، ومدعيّاً على الإسلام وفق الصورة التي رسمها هو، ومحامياً عنه كما يشتهي، ومحامياً ضده كما يريد، وقاضياً مشاركاً في دراسة الدعوى، وأخيراً جعل من نفسه حاكماً لا يقبل حكمه الاستئناف ولا التمييز، وهو قبل كل ذلك الخصم الذي يدبر المكائد، ويصنع الأكاذيب، ويلفق الحيل لهدم الإسلام هدماً كلياً، ولا يألو جهداً

في توجيه أي حرب ضده وضد المسلمين، خدمة للماركسية، ومن ورائها اليهودية العالمية.

وحينما يستشهد بأقوال بعض المسلمين فإنه لا يستشهد إلاً بالأقوال الشاذة، والآراء المنحرفة، ويتصيدا تصيداً من ضمن الآراء الصحيحة السليمة، ويقدمها على أنها هي وحدها الممثلة للفكرة الإسلامية في موضوع البحث الذي يناقشه، ويطوي ما عداها من الآراء والمفاهيم، أو يشير إليها إشارة خفيفة دون بيان، وعلى طريقته التي عرفناها فيه يغالط في الحقائق، فيعمم الخاص، أو يخصص العام من عنده، أو يكذب في النسبة، أو يؤول من عنده تأويلاً فاسداً، أو يحرف في المراد من المعاني، إلى غير ذلك من أصول المغالطات.

نقل شطحات الحلاج الشاذة القائمة على العقيدة الجبرية، وعلى التفسيرات الباطنية، والتعبيرات الرمزية، واعتبرها هي الممثلة للفكرة الإسلامية في موضوع إبليس وقصته، مع أن هذه الأقوال مخالفة للنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية مخالفة صريحة، ولا تحتمل هذه النصوص تلك المعاني الباطنية الشاذة، لا في أسلوبها العربي، ولا في دلالتها الفلسفية، وما هي إلاً تحريف في الدين بآراء فلسفية لاهوتية دخيلة على الفكر الإسلامي.

واعتمد آراء عز الدين المقدسي في كتابه «تفليس إبليس» لأنها في مضمونها تتضمن مع الشطحات الحلاجية الباطنية، الجانحة عن المفاهيم القرآنية، بالآراء الدخيلة على الفكر الإسلامي، والتي أفسدت بعثها نقاء الحقيقة الدينية الظاهرة من النصوص الإسلامية، وهي الحقيقة التي فهمها أصحاب رسول الله ﷺ والعلماء والأعلام من بعدهم، ثم دخلت من بعد ذلك المذاهب المشبوهة في غاياتها، فأفسدت ما أفسدت. وتتابع المضللون من بعدهم يعتمدون أقوالهم ويبنون عليها لمحاربة الإسلام والمسلمين.

لكن الله يحمي دينه من المخربين من داخل الصفوف، والمحاربين من خارجها، ويحق الله الحق ويبطل الباطل، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(٢)

إبليس في الفكر الإسلامي

إبليس هو واحد من الجن، والجن مخلوقات غير الملائكة، وهما جميعاً غير الإنس، ولكل صنف من هذه المخلوقات خصائص وسمات. فالملائكة خلقهم الله من نور، والجن خلقهم الله من مارج من نار (أي: من أخلاط من النار)، والإنس خلقهم الله من طين كما هو معلوم (أي: من عناصر مختلفة من الأرض ترابها ومعادنها ومائها).

وقد دل على هذه الفوارق في عناصر التكوين ما رواه مسلم عن عائشة، عن الرسول - ﷺ - أنه قال: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

وقد أثبت القرآن الفرق بين عنصري الإنس والجن وفق الصورة نفسها التي وردت في هذا الحديث، فقال الله تعالى في سورة (الرحمن) ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

وفي احتجاج إبليس إذ رفض أمر الله له بأن يسجد لآدم قال فيما يحكيه الله عنه في سورة (الأعراف) ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾﴾.

والملائكة مخلوقون قبل الإنسان، بدليل أن الله عرض على الملائكة قبل خلق آدم قضاؤه بأنه خالق بشراً من طين.

والجن أيضاً مخلوقون قبل الإنسان، بدليل قول الله تعالى في سورة (الحجر) ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٦٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴿٦٧﴾﴾ .

الصلصال: هو الطين اليابس الذي يصلصل إذا نقرته .
والحمأ: هو الطين الأسود المتغير .
والمسنون: هو المصور .

فهذه الحقائق المستفادة من النصوص الإسلامية توضح تماماً اختلاف العناصر التكوينية بين الكائنات الثلاثة : (الملائكة – الجن – الإنس)، وتوضح أن الملائكة والجن مخلوقون قبل الإنسان .

وإبليس هو من الجن لا من الملائكة على خلاف ما زعم (د. العظم)، وزعم أن الملائكة ليسوا بمنجاة من الغواية، كما أراد أن يفهم من النصوص الإسلامية، وإن كان هو بالأساس لا يؤمن بوجود الملائكة ولا بوجود الجن أصلاً، والدليل على أن إبليس من الجن لا من الملائكة قول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ... ﴿٥١﴾﴾ .

فهذا يوضح لنا أن عنصره كان من عنصر الجن لا من عنصر الملائكة، يضاف إليه ما ثبت في النصوص من أنه مخلوق من مارج من نار، أما الملائكة فهم مخلوقون من نور.

إذن فقد كان إبليس بين الملائكة عنصراً دخلياً، وقد كشفه الامتحان، والذي سمح له بأن يدخل بين صفوف الملائكة وجود التشابه الصوري، والمشاركة في بعض الخصائص بين الجن والملائكة، حتى كان إبليس يعبد مثل عبادة الملائكة ويخالطهم في بعض أعمالهم، وهذا ما يظهر من تفسير دخوله في عموم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، ويحتمل أن يكون الأمر بالأساس موجهاً للملائكة وللجن

معاً بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر، والله أعلم بالحقيقة، لكن كون إبليس من عنصر الجن لا من الملائكة أمر محقق بصريح النص الذي لا يحتمل التأويل.

ويؤكد هذه الحقيقة ظهور المعصية منه بعد الامتحان، وذلك لأن الملائكة من خصائصهم التكوينية أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد دلت على هذه الحقيقة نصوص قرآنية كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ
﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ أَكْثَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ووصفهم الله بقوله أيضاً في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وظاهر أن إبليس قد استكبر على طاعة الله إذ أمره الله بالسجود لآدم، ولم يعمل بأمره تعالى، فهو عنصر مغاير لعنصر الملائكة، له إرادة حرة، ودوافع نفسية تدفعه إلى المعصية، ولديه شروط التكليف كاملة.

ولكن (د. العظم) غلط في هذه الحقائق وتلاعب بمفاهيم النصوص كما راق له، ليبني بناءاته الفاسدة على الصورة التزييفية التي صنعها.

وبيان هذه الحقائق أخذاً من صريح النصوص سقط ادعاؤه الفاسد أن النصوص تفيد أن إبليس ملك من الملائكة، وقد عصى لأن الملائكة عرضة لفعل الخير والشر والهداية والغواية كالإنسان.

وإذ عصى إبليس وهو من الجن فليس معنى ذلك أن الجن كلهم عصاة، بل هم كالإنس، بعضهم مؤمنون مطيعون، وبعضهم عصاة، وبعضهم كافرون، ومردة كفار الجن هم الشياطين وهم ذرية إبليس وجنوده.

ولما عصى إبليس ربه وأصر على عصيانه ولم يتب إلى بارئته، وإنما جادل وعاند فطرده الله من رحمته، تحدى فآلى على نفسه أن يغوي الإنسان، وأن يتخذ

جنوداً من الجن للإغواء، بعد أن أخذ من ربه وعداً بأن ينظره إلى يوم الدين، فقال الله له: إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، أي: إلى يوم إنها ظروف هذه الحياة الدنيا لا إلى يوم الدين.

وفي الناس شياطين أيضاً، والشياطين من الناس هم الكفرة بالله، الذين يقومون بوظيفة إغواء الناس وصددهم عن سبيل الله، فهم مرده كفار الإنس، وهم وشياطين الجن يتولى بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، ويكمل بعضهم بعضاً، في أعمال الإفساد والوسوسة والتضليل، قال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ... ﴿١١٢﴾﴾

وقد ذكرني هذا بالناقد (د. العظم)، إذ دافع عن إبليس بما لم يدافع به إبليس عن نفسه بين يدي ربه، فتم له بعد أن نفذ فيه حكم الطرد من رحمة الله بنود الدفاع التي كان قد نسيها وهو بين يدي المحاكمة الربانية، وما أظن أن المحاكمة ستستأنف، لورود حيثيات جديدة تنبئ إليها (د. العظم) ولم يكن قد تنبئ إليها المدعى عليه إبليس يوم رفض السجود لآدم.

لقد تلاعب «سيادته» بمضامين القصة، وهو غير مؤمن بها أصلاً، ليشوش على المؤمنين مفاهيمهم وعقائدهم.

إن إبليس مؤمن بربه، إلا أنه عاص معاند متمرد، مستكبر على أمر به، وبذلك كفر كفر تمرد على الطاعة، ثم لما طرد من الرحمة تصدى لإغواء الناس وإفسادهم.

أما «سيادته» فهو يحمل كل هذه الصفات مضافاً إليها الجحود بالله والكفر به وإنكاره وجوده أصلاً، فهو بهذا أكثر إغوالاً في الكفر، وأكثر عناداً وتمرداً، وأقدر على المجادلة بالباطل.

وصدق الله العظيم . لقد وصف الإنسان بقوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿...وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾.

(٣)

قال (د. العظم) في الصفحة (٩١) من كتابه:
«برر إبليس رفضه السجود لآدم تبريراً منطقياً واضحاً إذ قال: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)».

من العجيب أن يؤمن «سيادته» وهو ماركسي المذهب بالفوارق العنصرية، فيرى أن من كان أصل تكوينه من النار هو أشرف وأكمل تكويناً عنصرياً ممن كان أصل تكوينه من الطين.

لو قال هذا الكلام واحد من المصابين بداء الكبر الطبقي العنصري الأرستقراطيين لكان كلامه منسجماً مع مذهبه، أما أن يقوله ماركسي يحارب الأرستقراطية والكبر الطبقي العنصري فهو شيء عجيب، لكن ما دام مثل هذا الكلام يخدم قضية الإلحاد فلا مانع لديه من أن يتبناه ويجعله أصلاً منطقياً، ويدافع به عن إبليس؛ ويجعل حجته فيه حجة منطقية، ويسهب في شرحها وتأييدها، فيقول في دفاعه عنه:

«عند إمعان النظر بحجة إبليس الأولى التي تتألف من مفاضلته بين جوهره (النار) وبين جوهر آدم (الصلصال) نجد أنها لم تكن استكباراً وفخاراً، بقدر ما كانت استذكراً لحقيقة أساسية شاءها الله وأوجدها على ما هي عليه. وهذه الحقيقة هي أن الله لم يخلق الطبائع على درجة واحدة من السمو والكمال وإنما ميز بينها، ليس من حيث خصائصها الطبيعية والمادية فحسب بل من حيث درجات كمالها ورفعته أيضاً. وبناءً عليه ففي إمكاننا أن نصنّف الكائنات والأنواع في نظام تقديري معيّن يبدأ بالكمال المطلق ذاته، ثم يتدرج بالأنواع هبوطاً كل حسب درجة كماله التي أسبغها الله عليه، إلى أن نقترّب من العدم باعتباره الحد الذي نقف

عنده، ولا ريب أن النار بطبيعتها وجوهرها تحتل مرتبة أسمى وأرفع في هذا الترتيب من المرتبة التي يحتلها الصلصال. بعبارة أخرى تنطوي مفاضلة إبليس بين جوهره وبين جوهر آدم على نظرة فلسفية معينة لنظام الكون وترتيب الطبائع وفقاً لدرجات الكمال التي تتصف بها. لذلك كان إبليس على حق في جوابه، لأن الخالق جعل الأشياء على ما هي عليه من درجات الكمال والسمو، وأمر السجود لآدم بشكل مخالف صريحة لهذا النظام وخروجاً على الترتيب الذي شاء الله وأوجده. فإذا كان جوهر إبليس أرفع في سلم الكمالات من جوهر آدم فلن تستطيع النار عندئذ أن تذلل للصلصال إلاً بالسير في اتجاه مضاد لطبيعتها ومنافٍ لدرجة الكمال التي أسبغها الله عليها، وهذا أمر محال ما لم يطرأ تحول جذري على المشيئة الإلهية فتغير ترتيب الطبائع عما كانت عليه منذ أن أوجدها الله.

هذه الحجة الإبلسية التي شرحها (د. العظم) منقوضة من عدة وجوه واقعية وفلسفية، وليس لها سند إلاً الكبر العنصري.

أولاً: من أين له بأن يحكم حكماً قاطعاً للنار المتلفة المحرقة بأنها أرفع عنصراً من الماء والتراب المنبتين المخصبين اللذين فيهما الخير الكثير، وهما مادة الحياة فيها كمال عجيب، وهما وفق نظرية النسوء والارتقاء التي يعتقدها اتباعاً للداروينية يقعان في درجة أرقى وأرفع من الدرجة التي تحتلها النار، لأن الأرض كانت ناراً فبردت فصارت على ما هي عليه بعد أن مرت بدرجات ارتقائية متعددة، فكان منها الحيوان ثم كان منها الإنسان.

فأين منزلة النار من التراب على هذا وفق مذهبه؟

ثانياً: هل العبرة بأصل العنصر، أم العبرة بما نتج عنه وخلق منه وظهر فيه؟

أهان على سيادته أن يهدم كل مذهبه الديمقراطي لأن ذلك يخدم في نظره معارضة الدين فيما جاء فيه من مفاهيم وحقائق، فأخذ يؤيد الأرستقراطية الطبقيّة العنصرية؟

هذا مع أن الإنسان بعد تكوينه من الطين ظهر أنه أسمى في خصائصه

العلمية الاستنباطية من الجن المخلوقين من النار، فهو بعد التكوين أكمل وأسمى مرتبة من الجن، بتكوين الله .

حتى الآن ظهر لنا أن «سيادته» قد ناقض نفسه مرتين في قضية واحدة، ليدافع عن موقف إبليس، ويدعم رفضه أن يسجد كما أمره الله .

في المرة الأولى : ناقض نفسه في نظرية النشوء والارتقاء التي يعتقدها .

وفي المرة الثانية : ناقض نفسه في المذهب الديمقراطي الذي يتبعه .

ثالثاً: لو كان سجود إبليس لآدم أمراً منافياً لطبيعته المخلوقة من النار لكانت الملائكة بذلك أخرى منه، لأنهم مخلوقون من عنصر هو أرفع من الطين ومن النار، ألا وهو عنصر النور، ومع ذلك فإنهم قد سجدوا كلهم أجمعون ولم يعص الله منهم أحد، فظهر أن إبليس لم يكن له عذر مقبول في رفض السجود، وأن هذا السجود، ما كان ليضاد طبيعته التي فطره الله عليها .

رابعاً: حينما رفض إبليس أن يسجد لآدم إنما رفض أمر التكليف الرباني له، وأمر التكليف في مجال الامتحان لا بد أن يشتمل على عنصر مخالفة للنفس، واجتياز عقبة من عقباتها، وإلا لم يكن تكليفاً كاشفاً للطاعة أو للمعصية لدى الإرادة الحرة، ولو كان التكليف موافقاً لأهواء النفس وشهواتها لما كان في الحقيقة امتحاناً للإرادة بين طريقي الطاعة والمعصية . وهذه العقبة في إبليس كانت كبر نفسه، فعلمته الحقيقية هي مرض الكبر العنصري الطبقي الأرستقراطي، وحين امتحن في مجال هذه العقبة النفسية سقط في الامتحان، ثم أصر ولم يتراجع .

وهذا ما دمغه الله به في قوله له كما جاء في سورة (الأعراف) / ٧ مصحف /

٣٩ نزول):

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٤﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

فكانت عقوبة التكبر الذي تكبره صغاراً وذلةً، ولم يدافع إبليس عن نفسه بأنه لم يتكبر، أو بأن السجود كان منافياً لطبيعته التي فطره الله عليها، وإنما أصر وعاند .

وأوضح الله أيضاً عنصر استكبار إبليس وعناده في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وأوضح الله عناصر محاكمته لإبليس في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجَدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُا بِلَيْسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

فهذه النصوص كلها تحقق أن علة رفض إبليس السجود إنما كان عنصر الاستكبار في نفسه .

فمن أين للناقد (د. العظم) أن يزعم أن هذا الرفض لم يكن استكباراً وفخاراً بقدر ما كان استذكراً لحقيقة أساسية شاءها الله وأوجدها على ما هي عليه، ما دام يحلل القصة من نصوصها تحليلاً لغوياً وهو لا يؤمن بها أساساً، كما لا يؤمن بأية حقيقة دينية؟

ولدى المقارنة بين الامتحان الذي أجراه الله لإبليس، والامتحان الآخر الذي أجراه الله لآدم، نلاحظ أن ابتلاء إبليس قد كان في مخالفة جرثومة الكبر في نفسه فسقط في الامتحان بعد أن كان قائماً بالطاعات التي لا تصادم هوى في نفسه ثم أصر على الاستكبار والعناد والتمرد، أما ابتلاء آدم فقد كان في مخالفة جرثومة الشهوة في نفسه فسقط في المعصية، فعوقب، ولكنه لم يصبر ولم يعاند، بل رجع وأناب، واستغفر الله وتاب، ففتح الله له باب القبول ونجح في الدور التكميلي .

وحين نمعن النظر في العناصر الحقيقية التي تقتضي تفضيل بعض الكائنات على بعض، فلا بد أن نلاحظ أن الله قد فضل الإنسان المخلوق من الطين على الجن المخلوقين من النار، بما وهبه من خصائص علمية استنباطية، ليست موجودة لدى الجن، ويرى كثير من الباحثين أن الله فضله بهذه الخصائص على الملائكة أيضاً، بدليل أن الله أمر الملائكة بالسجود له، وبدليل أن الله علّم آدم الأسماء كلها في حين أن الملائكة أعلنوا عجزهم فقالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.

وبعد أن درسنا الخصائص الإنسانية وعرفناها تبين لنا أن الإنسان قادر على إدراك الأشياء الغائبة عنه، عن طريق الاستنباط من سماتها وآثارها القريبة أو البعيدة، فهو يستطيع بالتأمل والاستنتاج أن يدرك بعقله ما لا يدركه بحواسه إدراكاً مباشراً.

فلعل هذا هو ما امتاز به آدم أبو البشر على الملائكة الذين أعلنوا أنهم لا يعلمون إلا ما يعلمهم الله إياه بطريق مباشر، أما أن يعلموا سمات الأشياء وخصائصها عن طريق الاستنباط العقلي فهذا أمر لا يملكونه، ولما وضع الله آدم موضع الامتحان أظهر براعته بهذا الشأن، وبذلك ظهرت للملائكة حكمة الله الجليلة في خلق الإنسان وإبداعه.

وقد يشهد لهذا قول الله تعالى في سورة (التين / ٩٥ مصحف / ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فهذا النص يشعر بامتياز الإنسان على سائر ما خلق الله وسائر من خلق الله بأنه مخلوق في أحسن تقويم.

ولا ينقض هذا الامتياز كون الملائكة والجن أقدر من الإنسان في كثير من الأعمال الجسدية المباشرة، بحسب تصورنا للملائكة والجن المقتبس من دلالات النصوص الدينية، لأننا حينما نلاحظ الجوانب الفكرية والنفسية للإنسان يظهر لنا أن الإنسان باستطاعته أن يستخدم كل الطاقات الكامنة في الكون بالبحث عن سماتها وخصائصها، والحيلة في النفاذ إليها وتسخيرها تسخيراً هائلاً ضمن أغراضه

ومصالحه، وهذا ما تعجز عنه الجن والملائكة، وهو يدل فعلاً على أن الإنسان مخلوق في أحسن تقويم.

ولكن هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم سيهبط إلى أسفل سافلين إذا كفر بربه ووجد وجوده أو أشرك به أحداً، وذلك إذ وجّه ما لديه من قدرة استنباط وبحث لمعرفة خصائص الطبيعة وكوامنها، ثم أقام بينه وبين الحقيقة الكبرى حقيقة وجود الله سداً من الجحود والعناد والكبر، فراراً من طاعة الله وعبادته، وتطاولاً إلى مقام الألوهية إذ تنزع نفسه إلى تأليه ذاته، صرح بذلك أو لم يصرح، وأخلاقيته هذه هي التي تردّه إلى أسفل سافلين، بعد أن كان في أحسن تقويم.

وينجو من هذا الرّدّ الشائن المهين الذين آمنوا بربهم وبما جاءهم من لدنه، وعملوا الصالحات في حياتهم، فهؤلاء يحافظون على بعض مستويات الامتياز الذي وهبه في أصل الخلق، ومن هؤلاء من يحافظ على المستوى الرفيع، فيبقى أفضل من الملائكة، ومنهم من ينزل عنه على قدر معاصيه وتقصيراته، ولذلك قال الله تعالى في سورة (التين / ٩٥ مصحف / ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾

أي: فلهم أجر غير مقطوع.

فدلائل النصوص تؤكد أن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر منسجم مع منطق الأفضلية، على أنه لو لم يكن آدم قد فضّله الله بأية ميزة، ثم أمر الملائكة بالسجود له، لكان عليهم أن يسجدوا امتثالاً وطاعة للأمر الإلهي، لا عبادة لآدم، ويكون آدم قبله سجودهم، كما أن أمكنة خاصة من الأرض هي قبله العابدين، حينما يتوجهون لله بالصلاة، توحيداً للجهة وتوحيداً لصفوف المؤمنين.

وباستطاعتنا أن نلتمس حكمة أخرى لهذا الأمر بالسجود لآدم، إذ نستعرض قصة خلق آدم كما قصها الله علينا.

تشتمل هذه القصة على عرض سابق من الله للملائكة بأنه سيخلق بشراً،

وعلم الملائكة بأن هذا المخلوق الجديد سيزود بخصائص نفسية وإرادية وفكرية تجعله يفسد في الأرض ويسفك الدماء ويعصي الله تعالى، فوجهوا إلى الله تساؤلاً فيه رائحة الاعتراض على حكمة الله في الخلق، فكان الجواب الأولي لهم يتضمن أن الله يعلم ما لا يعلمون، وكان الجواب الثاني لهم جواباً تطبيقياً عملياً، إذ ميز الله آدم بعلم الأسماء كلها، أي: بمعرفة سمات الأشياء وخصائصها واستنباط ما في بواطنها، وهذا أمر أعلن الملائكة عجزهم عنه، وكان لا بد من تكفير على التساؤل الذي بدت منه رائحة الاعتراض على حكمة الله في الخلق، فأمر الله الملائكة بالسجود لهذا المخلوق نفسه الذي تساءلوا عن الحكمة من خلقه، فسجدوا له، وكفروا بسجودهم هذا عن سابق تساؤلهم، ولم يكن أي سجود آخر دليلاً على الإذعان والتكفير في هذا الموضوع بالذات، لأن الملائكة ساجدون لله، عابدون له، مسبحون بحمده، مقدسون له دائماً، فلو قال لهم اسجدوا لي لكان أمراً بتحصيل الحاصل الذي لم ينقطعوا ولن ينقطعوا عنه، وكان هذا الأمر نفسه اختباراً لإبليس، وكشفاً لهويته الحقيقية، إذ لم يكن عنصره نورانياً ملائكياً وإنما كان نارياً جنياً، وكان بين الملائكة دخيلاً، ولم يكن فيهم عنصراً أصيلاً.

وبهذا البيان يتضح لنا مبلغ التحويرات والمغالطات والمفاهيم الفاسدة التي قدمها الناقد (د. العظم).

(٤)

قال الناقد (د. العظم) في الصفحة (٩٠) من كتابه:

«١ - لا شك أن إبليس خالف الأمر الإلهي عندما رفض السجود لآدم، غير أنه كان منسجماً كل الانسجام مع المشيئة الإلهية، ومع واجبه المطلق مع ربه.

٢ - لو وقع إبليس ساجداً لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد، وعصى واجبه المطلق نحو معبوده».

ما شاء الله!! فهم غريب لم يفهمه إبليس نفسه، لذلك فهو لم يذكره في حجته، ولم تفهمه الملائكة فسجدت فأشركت بالله من حيث لا تدري، ثم جاء

نصيره من أبناء القرن العشرين ومن قبله باطنيون شوهوا صورة المفاهيم الإسلامية بأباطيلهم وفلسفاتهم، ووضعوا من عندهم قصصاً خرافية، أفسدوا فيها حقائق الإسلام الصافي، فاكتشفوا فهماً جديداً لم يستطع أن يتوصل إليه أصحاب العلاقة أنفسهم.

ثم تابع سيادة الناقد شرح فكرته، فقال:

«أراد الله للملائكة أن يقدسوه وأن يسبحوا باسمه؛ لذلك كان السجود لآدم وقوعاً فيما يضيفه أهل الشرك إلى الذات الصمدية مما هي منزّهة عنه، إذ إنّ السجود لغير الله لا يجوز على الإطلاق لأنه شرك به. في الواقع يثير اختيار إبليس سؤالاً هاماً جداً هو: هل تكمن الطاعة الحقيقية في الإذعان للأمر؟ أم في الخضوع للمشيئة؟ هل يكمن الصلاح في الانصياع للواجب المطلق أم لواجب الطاعة الجزئية؟ لو كان الجواب على هذا السؤال بسيطاً وواضحاً لما وجدت المأساة في حياة الإنسان، ولما وجد إبليس نفسه في هذه المحنة، ولما وقع بين برائن الأمر والمشيئة. نستنتج إذن أن موقف إبليس يمثل الإصرار المطلق على التوحيد في أصفى وأنقى تجلياته».

مغالطات الناقد هنا تعتمد على التلاعب بالمفاهيم الإسلامية لتشويه صورتها، وترتيب النقد ترتيباً يناسب هذه الصورة المشوهة.

ولنا في كشف مغالطاته هذه وجهان:

الوجه الأول: أن أوامر الله لا تتناقض، فلا يمكن أن ينهى عن عبادة غيره في الوقت الذي يأمر فيه بعبادة غيره، ولا يمكن أن يأمر بعبادة غيره في الوقت الذي ينهى فيه عن عبادة غيره.

إذا تقررت لدينا هذه الحقيقة علمنا أن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ليس أمراً بعبادته قطعاً، لأن الله نهى عن الشرك به.

ويمكن تفسير أمر السجود بعد هذا بأنه سجد احترام لا سجد عبادة، ويمكن تفسيره أيضاً بأنه سجد عبادة الله تعالى، وكان آدم في هذا السجود قبله التوجه الجسدي فقط، كما أن الكعبة قبلتنا حينما نعبد الله في الصلاة.

الوجه الثاني : أن أصل الشرك بالله هو اعتقاد أنه يوجد إله غير الله ينفع أو يضر أو يستحق العبادة لذاته ، ولهذا الشرك تعبيرات قولية أو عملية .

والتعابير القولية تدل بوضعها اللغوي الاصطلاحي على مدلولاتها، فإذا قالها قائل قاصداً لمعانيها وفق مصطلحاتها اللغوية دل على أنه قد أشرك بالله في عقيدته .

والتعابير العملية تدل أيضاً بوضعها الاصطلاحي المتعارف عليه على مدلولاتها الاصطلاحية، فإذا فعلها فاعل قاصداً مدلولاتها الاصطلاحية المتضمنة معنى الشرك بالله في العبادة دل على أنه قد أشرك بالله .

وهنا نلاحظ أن حركات العبادة لله تعالى حركات لا تختص في الاصطلاح بمعاني العبادة ما لم تقترن بما يدل على أنها عبادة، من نية في النفس، أو هيئة تركيبية خاصة في صورة معينة، ذات مراسيم وأقوال خاصة، كالصلاة ذات الركوع والسجود والقراءات والأذكار والأدعية، وكالطواف حول الكعبة، وكالسعي بين الصفا والمروة، ونحو ذلك .

وقد كان الركوع والسجود عند كثير من الأمم والشعوب القديمة تعبيراً عن الاحترام والتقدير، وليس تعبيراً عن عبادتهم لمن يسجدون أو يركعون له، كما تكون صورة الركوع أو السجود لأعمال عادية بحته، أو أعمال رياضية .
ومن سجدوا الاحترام والتقدير سجود إخوة يوسف له .

ومن هذا يظهر لنا بوضوح أن عملية السجود ليست تعبيراً ملازماً لمعنى العبادة في كل الأحوال، أو في كل المصطلحات، ولذلك كان من يسجد صورة لله وهو في قلبه ونفسه غير ساجد له فإنه لا يكون لله عابداً .

فلا بد في التعبير المادي من أن يكون مقترناً بالنية التي تحدد القصد منه، والملائكة لم يقترن سجودهم لأدم بنية عبادة له مطلقاً، وإنما كانوا يعبدون الله الذي أمرهم بالسجود، ولا يشركون بعبادته أحداً، ولو سجد إبليس لكان سبيله سبيلهم .

نعم لا نجيز في الشريعة الإسلامية السجود لغير الله، ولو على سبيل الاحترام لا على سبيل العبادة، لأن الشريعة الإسلامية التي جاءت خاتمة الشرائع الربانية قد منعت من ذلك، فنحن نتبع أحكامها، وسر المنع دخول مفاهيم الشرك بالله في الواقع الإنساني الجاهلي، واتخاذ هذا الشرك طابع عبادة غير الله بالسجود والدعاء والقرايين ونحو ذلك، فلما نزلت شرائع الإسلام منعت هذه المظاهر كلها سداً للباب، ولم يكن هذا الشرك ولا تعبيراته ولا مصطلحاته معروفة لا عند الملائكة ولا عند إبليس، حتى يجعله سيادة الناقد واقعاً في تصور إبليس، ولذلك رفض السجود لآدم.

وهكذا تظهر لنا مغالطته في نقل مصطلحات حديثة إلى زمن لم يكن فيه للشرك وجود مطلقاً، والمغالطة هنا تعتمد على تعميم المصطلحات الزمنية وجعلها مصطلحات ثابتة من الأزل إلى الأبد.

مع أن لكل زمن مصطلحاته، ولكل أمة مصطلحاتها، والثابت إنما هي المعاني الحقيقية التي يُدَلُّ عليها بأي مصطلح قولِي أو عملي، أو أي وسيلة أخرى من الوسائل التي تدرك بالسمع أو بالبصر أو باللمس أو بغيرها.

لقد تأكد لدينا بعد هذا البيان أن التناقض في الأوامر الإلهية مستحيل بداهة، وممنوع قبوله في المفاهيم الدينية، ولا يقع هذا التناقض إلا في ذهن جاهل أساء الفهم، أساء التصور، أو في أقوال مضلل هدفه أن يشكك الناس بدينهم.

(٥)

ويدعي الناقد (د. العظم) وجود التناقض بين الأمر الإلهي والمشية الإلهية، فيقول في الصفحة (٨٩) من كتابه:

«لقد شاء الله وجود أشياء كثيرة غير أنه أمر عباده بالابتعاد عنها، كما أنه أمرهم بأشياء ولكنه أرادهم أن يحققوا أشياء أخرى، لذلك باستطاعتنا القول بأن الله أمر إبليس بالسجود لآدم، ولكنه شاء له أن يعصي الأمر، ولو شاء الله لإبليس أن يقع ساجداً لوقع ساجداً لتوه، إذ لا حول ولا قوة للعبد على رد المشية الإلهية».

هذا كلام يخدع بظاهره، ولكنه يتضمن مفاهيم فاسدة مأخوذة من مفاهيم الجبريين، ومذهب الجبريين مذهب فاسد استغله «سيادة» الناقد هنا، ليظهر أن الصفات الإلهية في مفاهيم المسلمين قد تتناقض، وأن المسلمين يقبلون فيها هذا التناقض، ثم ليتخذ كل ذلك ذريعة لنقض قضية الإيمان من أساسها.

لقد أوضحنا فيما سبق أن المشيئة الإلهية لا تتناقض مع نفسها بحال من الأحوال، فلا يمكن أن تتوجه مشيئتان متناقضتان لشيء واحد في وقت واحد. فإذا تتوجه المشيئة الإلهية لإيجاد الكون في وقت معين، يستحيل عقلاً وواقعاً أن تتوجه هذه المشيئة نفسها لعدم إيجاد الكون في ذلك الوقت، والمشيئة النافذة هي المشيئة وغير النافذة ليست بمشيئة.

وإذا تتوجه المشيئة الإلهية لمنح الإنسان حرية الإرادة في اختيار سبيله في الحياة، يستحيل عقلاً وواقعاً أن تتوجه هذه المشيئة لسلب هذا الإنسان حرية الإرادة، وجعله مجبراً على اختيار سبيله في الحياة.

وهكذا في كل مشيئة كلية وجزئية، ولكن لا بد من ملاحظة ضوابط التناقض المنطقية، حتى يتحقق الامتناع العقلي، ويتحقق الاستحالة المذكورة، وذلك بأن يتوارد السلب والإيجاب على حكم اتحد فيه الموضوع والمحمول والزمان والمكان وسائر الوحدات المنطقية التي لها صلة أساسية في وحدة الموضوع والمحمول، وحين ينعدم هذا الاتحاد يسقط التناقض أصلاً.

وذلك كأن نقول: الإنسان ممنوح حرية الإرادة في أعماله التي يعتبر مسؤولاً عنها، مسلوب حرية الإرادة في أعماله غير الإرادية التي لا يعتبر مسؤولاً عنها، كالعرشات، وحركاته وهو نائم، وما يجري فيه من تغيرات وتطورات حياتية لا تتحكم إرادته بها، فهذا ليس بتناقض، لأنه لم يتوارد السلب والإيجاب على متحد الوحدات المنطقية.

ومعلوم في الأوليات المنطقية أنه متى انفكَّت الجهة واختلَّت ضوابط الوحدة انحَلَّ التناقض.

ولنفي الرأي الجبري، وإثبات أن الله منح الإنسان حرية الإرادة في كل

أعماله الإرادية التي يعتبر مسؤولاً عنها ومحاسباً عليها، وفي كل وجوه نشاطه الذي هو ساحة تكليفه في الحياة، وساحة اختباره وامتحانه، تتضح لنا الأدلة التالية :

أولاً: كل مخلوق يوضع موضع الامتحان فلا بد أن يكون حر الاختيار بين أكثر من طريق، أو أكثر من عمل، وإلا لم يكن للامتحان مغزى، وكان عبثاً من العبث، ولا يفعل هذا عالم حكيم.

ثانياً: يستحيل عقلاً أن يتوجه أمر التكليف الإلهي لكائن لا يملك في نفسه القدرة على اختيار الطاعة، وذلك لأن الله جلّ وعلا حكيم، ولا يوجه أوامر التكليف لمجرد العبث، إنه تعالى منزّه عن العبث.

ثالثاً: ثبت في النصوص القاطعة أن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، ولا يكلف نفساً إلاّ ما آتاها، ومن لا يملك حرية الإرادة في اختيار عمله لا يكون هذا الاختيار من وسعه، ولا يكون هذا الاختيار مما آتاه الله، فالله لا يكلفه لو كان كذلك.

ولما ورد التكليف علمنا أن هذا الاختيار من وسعه ومما آتاه الله إياه، فسقط ادعاء الإجبار.

رابعاً: ليس من العدل ولا من الحكمة أن يؤاخذ الله مخلوقاً على عمل لم يكن هذا العمل مظهراً من مظاهر اختيار المخلوق وإرادته، ولذلك نلاحظ في النصوص الدينية أن المؤاخذة والجزاء مقرونان بالأعمال الإرادية، ومتى سلبت الإرادة عن عمل من الأعمال ارتفع التكليف، وارتفعت المسؤولية.

وقواطع النصوص تبين هذه الحقائق.

منها قول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ
حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥)

أي: يؤاخذكم بما حلفتُم من أيمان ناتجة عن كسب قلوبكم، وكسب القلوب هو توجه الإرادة، فارتفعت المؤاخذة عما كان من لغو الألسنة ولم يكن من كسب القلوب.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

ومن هذا يظهر لنا ارتفاع المؤاخذه عن الأخطاء التي تخرج عن دائرة سلطة
الإرادة، مما لا يملك الإنسان دفعه، وأن المسؤولية رهن بما تعمدت القلوب من
أعمال، وما تعمدته القلوب هو ما توجهت الإرادة لفعله .
فإذا أضفنا إلى هذا قول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف /
٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . .﴾ (٣٨٦) .

وقول الله تعالى في سورة (الطلاق / ٦٥ مصحف / ٩٩ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا ۖ﴾ .

وقوله الذي تكرر في (الأنعام والأعراف والمؤمنون):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ .

تبين لنا أن ورود التكليف يستلزم وجود الاستطاعة حتماً، وأول عناصر
الاستطاعة وجود الإرادة الحرة، وتبين لنا أن المؤاخذه ترتفع متى سلبت الإرادة،
لأن التكليف يرتفع حكماً عند سلبها، فلا يمكن أن يوجد في الواقع تناقض بين
مقتضيات المشيئة الإلهية، وبين مقتضيات أمر التكليف الإلهي .

والرأي الجبري الفاسد يدّعي سلب الإرادة مع أن التكليف متوجه، وأن
المؤاخذه بعد ذلك متوجهة، وهذا معارض للنصوص القرآنية، ومعارض لمنطق
العقل وبديته، وهذا الرأي الجبري هو ما استغله سيادة الناقد لنقض قضية الدين،
مع أنه ليس هو الإسلام، ولا فهم جمهور المسلمين، وإنما هو رأي مرفوض تماماً .

فكل نقاش بناء «الناقد» على هذا الرأي المرفوض نقاش ساقط لا قيمة له .

وكل الأقوال التي استشهد بها من أقوال الجبريين أقوال ساقطة مرفوضة، لا تمثل الحقيقة الإسلامية في هذا الموضوع، فلا حاجة إلى استعراضها وبيان فساد مضامينها، لأنها مبنية على فاسد، وكل ما بني على فاسد فهو فاسد.

ويسأل الجبريون فيقولون: هل يفعل العاصي إذن معصيته معانداً لإرادة الخالق أم موافقاً لها؟

ونقول في الجواب: إن تصوير السؤال على هذا الوجه فيه مغالطة، فالقضية لا تقع فقط بين احتمالين اثنين، ولكنها تقع بين احتمالات ثلاثة وهي:

الاحتمال الأول: توجيه المشيئة الإلهية لإجبار المخلوق على الطاعة.

الاحتمال الثاني: توجيه المشيئة الإلهية لإجبار المخلوق على المعصية.

الاحتمال الثالث: توجيه المشيئة الإلهية لجعل المخلوق ذا إرادة حرة غير مجبرة.

وقد توجهت المشيئة الإلهية فعلاً إلى اختيار الاحتمال الثالث بالنسبة إلى الناس والجن، فاستحال أن تتوجه إلى أضدادها.

وحينما يختار المخلوق أمراً مما جعل الله له فيه سلطة الاختيار فإن اختياره لذلك الأمر لا يعتبر بحال من الأحوال معانداً لإرادة الله في شيء، لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يمنحه سلطة الاختيار ليمتحنه، كما أنه لا يقتضي أن يكون الله جلّ وعلا هو الذي أجبره على أن يختار هذا الاختيار، ولا يقتضي أيضاً أن يكون الله جلّ وعلا راضياً عن كل ما يختاره المخلوق ذو الإرادة الحرة.

ويظهر لنا هذا الموضوع تماماً في تجاربنا الإنسانية، فإن من منحه حرية التصرف في عمل ما، قد يفعل ما يسرنا ويرضيها، وقد يفعل ما يسوؤنا ويغضبنا، مع إمكاننا أن نعزله عن ذلك العمل، ونسلبه حرية التصرف فيه، ولا يكون عمله معانداً لإرادتنا، بل قد نمد له، ونبقي له طاقة العمل وساحة التنفيذ بين يديه، لنمتحنه ونختبره، وقد نوبخه ونؤدبه، وقد ننذره ونحذره، حتى يحين وقت مؤاخذته، ونحن في كل ذلك نشاهد سوء تصرفه، وقد نرى من الحكمة أن لا نعارضه، وأن لا نضع

العراقيل في طريقه، أو نكفه عن العمل الذي منحناه فيه حرية التصرف، وقد نرى من الحكمة أن نملي له، ليصلح من تصرفه ويقوم من سلوكه، حتى يجتاز الامتحان بنجاح، وعملنا هذا لا شيء فيه من التناقض، بل هو من مقتضيات الحكمة التي تقتضيها ظروف الامتحان الأمثل.

(٦)

بعد أن صنع (د. العظم) التزييف الذي أراده، واستند إلى المفاهيم الجبرية والباطنية الباطلة الفاسدة، ووضع المقدمات التي أقامها على الكذب والمغالطة، انتهى إلى شتيمة الخالق جلّ وعلا، ووصفه بالمكر والمخادعة والاستهزاء، وفق الصور والمفاهيم القبيحة التي لا تليق بالمخلوق فضلاً عن الخالق، وتلاعب بمفاهيم النصوص الواردة في هذا المجال وفق خطته التي عرفناها في كل جدياته ومغالطاته.

وفي الرد عليه أكتفي هنا بعرض المفاهيم الإسلامية الصحيحة ليظهر منها فساد كل ما انتهى إليه، وفساد كل ما استند إليه.

لقد استشهد بطائفة من النصوص القرآنية وفسرها على ما يهوى، تفسيراً مخالفاً لدلالاتها الحقيقية.

فمن النصوص التي استشهد بها قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ۝٥٤﴾

وقول الله تعالى في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ۝٣٠﴾

وقول الله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿وَلِإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفَةٌ أَيَّا إِنَّا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا
إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

أورد هذه النصوص واستغلها لينسب إلى الله تعالى صفة ذميمة قبيحة يريد أن يفهمها هو من لفظة المكر.

وإذا أردنا أن نحقق تحقيقاً لغوياً في أصل معنى المكر، وجدنا أن معناه هو تدبير أمر في خفاء عمن دبر له أو عليه، وهذا التدبير هو بحد ذاته ليس فيه ما يذم، وإنما هو لون من الحكمة الداعية إلى كتمان الأمور وإخفائها، ولكن قد يكتسب المكر الذم من غايته، فإذا كانت الغاية منه شراً كان مكرراً مذموماً، وإذا كانت الغاية منه خيراً كان مكرراً محموداً، وهو يدل على الحكمة في التصرف.

فهو على هذا المعنى وسيلة من الوسائل التي تستعمل في الخير فتكون خيراً، وتستعمل في الشر فتكون شراً، كسائر الوسائل التي لا شر فيها لذاتها، وإنما تكتسب الشر حينما تستعمل في الشر، وتكتسب الخير حينما تستعمل في الخير.

فالمكر قد يكون مكرراً محموداً إذا كان الأمر الذي دبر فيه مؤدياً إلى نتيجة محمودية، وقد يكون مكرراً مذموماً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة مذمومة، وتدبير الأمر في الخفاء لا يوصف لذاته بحسن أو قبح، بل ربما كان أصله أقرب إلى المدح منه إلى الذم، لأنه من الكتمان الحكيم.

ونستطيع أن نصور المكر المحمود الذي يستعمل في الخير بأمثلة كثيرة.

حينما تدبر أجهزة مطاردة المجرمين أموراً في خفاء وكتمان وسرية تامة، لتظفر بالقبض على المجرمين الذين يتوارون في جرائمهم عن أعين السلطة الحاكمة العادلة، ويدبرون مكائدهم الشريرة في الظلمات، ثم تقبض عليهم من حيث لا يشعرون، وتمكر بهم حتى تأخذهم وهم متلبسون بالجريمة، أفيكون مكر هذه الأجهزة مكرراً في الخير أم مكرراً في الشر؟

وحينما يرى الأب أن أحد أولاده جنح عن طريق الهداية، وسلك مسالك الشر والفساد، مسالك هلاكه وشقائه، ولم تجد فيه النصائح والمواعظ ووسائل

التربية الظاهرة، أفلا يرى من الخير لإصلاح ولده أن يدبر له وسيلة تربوية خفية يتعظ فيها بنفسه، حتى يستقيم ويرتدع؟

إن الأب في ذلك يمكر بولده مكرّاً محموداً، وهو بذلك يفعل خيراً.

وباستطاعتنا أن نصور المكر المحمود والمكر المذموم في قصة نتخيلها.

إنسان عنده قصر عظيم، طمع به اللصوص، فدبروا أمراً في الخفاء أن يأتوا بليل، ويحتفروا أحد جدران القصر ويدخلوا إليه، ويسطوا على ما فيه من مال ومتاع، ويقتلوا من فيه.

وعلم صاحب القصر بما دبروا، وعرف الجدار الذي عزموا على نقبه، فدبر خطة في الجدار يهلكون فيها بأيديهم دون أن يقاتلهم أحد من رجال القصر.

ولما حان الوقت المقرر فيما بينهم جاءوا متسللين ظانين أن أحداً لا يشعر بهم، ولكن صاحب القصر وأعوانه يراقبون كل حركة من حركاتهم، وهم في مكان يرون فيه اللصوص من حيث لا يرونهم، وأخذ اللصوص ينقبون الجدار حسب الخطة المدبرة، ولما زعموا أنهم كادوا يظفرون بما يريدون انقضّ عليهم الجدار فهلكوا تحت أنقاضه.

لقد مكروا بزعمهم ومكرهم شر، ولكن المكر في الحقيقة لصاحب القصر ومكره خير، لأن غرضه من مكره أن يمنعهم من فعل الشر، وأن يجازيهم عليه بأيديهم ويريح الناس من شرورهم.

وكذلك مكر الله، وهو خير الماكرين، لأنه لا يمكر إلا بخير، وسبحان الله وتعالى عما يصفون.

هذا ما يتعلق بصفة المكر، أما صفة الاستهزاء، فقد استشهد الناقد

(د. العظم) لها بقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥).

واقطع هذا النص اقتطاعاً عن سياقه، وطوى الكلام الذي قبله ليضل به، بعد أن يشوه المعنى المراد، ولو كان باحثاً منصفاً يريد أن يفهم المراد من النص

حقاً لما اقتطع الكلام بعضه عن بعض، ولظل محتفظاً بالأمانة العلمية والنزاهة، لأنه يعلم أن مثل هذا الاقتطاع خيانة علمية تؤدي إلى التشويه وإفساد المعاني، حتى ولو كان هذا الباحث غير مؤمن بالكلام ولا بقاتله، فأخلاق البحث العلمي لا تسمح بالتلاعب بالنصوص، لا بتغييرها، ولا بتحريف ألفاظها، ولا باقتطاع المترابطات وتجزئتها، ولا بتحريف معانيها وتشويهها، وتحويلها عن دلالاتها الأصلية المقصودة، ولا بأي شيء آخر مفسد لها.

فإذا قرأنا سوابق هذا النص الذي استشهد به (د. العظم) تغير المعنى القبيح الذي أراد أن يصوره، وحل محله معنى جميل دل عليه النص في واقع الأمر.

لقد تحدث الله عن المنافقين وعرض طائفة من صفاتهم وأفاض في بيان هذه الصفات، حتى أبان من صفاتهم صفة الاستهزاء بالذين آمنوا، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾﴾

فالمنافقون هم الذين يعاملون الحق بالاستهزاء، فيتظاهرون بأنهم مع المؤمنين وهم بالحق وبالمؤمنين يستهزئون، لأن قلوبهم مع الكافرين.

وبما أن أعدل الجزاء وأوفاه هو ما كان من جنس العمل كانت الحكمة تقضي بإعلان أنهم معاقبون بالاستهزاء، جزاء استهزائهم، فقال تعالى:

﴿اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

أي: يجازيهم جزاء استهزائهم فيعاقبهم عقاباً من جنس عملهم، وهذا غاية في العدل.

وهنا لا بد أن يلاحظ القارئ كيف شوّه سيادة الناقد ما هو غاية في العدل في ميادين الجزاء، فجعل الاستهزاء صفة من صفات الله تعالى في معاملة عباده، واقتطع النص عن سوابقه ولواحقه ليموّه على قارئ كلامه، فيتشكك بالحقائق الدينية.

ونظير ذلك استشهاده بقول الله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ...﴾ (١٤٢)

ففي هذا النص يبين الله تعالى أن عقاب هؤلاء المخادعين هو من جنس عملهم، وفيه معنى آخر صرحت به الآية التي في أوائل سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩١)

وهذا المعنى يتلخص بالحقيقة التالية: إن من يخدع من لا يُخدع إنما يخدع نفسه، فالمنافقون يتصورون بنفاقهم أنهم يخادعون الله، لكن الله تبارك وتعالى لا تنطلي عليه حيلهم، ولا تجوز عليه مخادعتهم، إنه يعلمهم تماماً ظاهراً وباطناً، ولكنه بحكمته يمهلهم ويملي لهم، فيظنون أن خديعتهم قد نفذت، وأن حيلتهم قد انطلت، فيتابعون مسيرتهم الأثمة في الخداع، ثم يأخذهم الله بعقابه، ويجازيهم بعدله، وعندئذ يتبين لهم أنهم لم يخدعوا الله، ولكنهم كانوا يخدعون أنفسهم، فأسلوب الله في معاملتهم جعل خديعتهم تنقلب عليهم، وفي هذا غاية العدل في الجزاء، وهو أن يكون عقاب الإنسان بيد نفسه، وأن يكون السلاح الذي قذفه على غيره ظالماً له ارتد عليه فأصابه بمثل القوة التي قذفه بها.

واستشهد الناقد بقول الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦)

وقال في شرح هذا النص في الصفحة (١٢٢) من كتابه:
«كان قد شاء تدمير القرية، ولكن لئلا يكون للعباد عليه حجة فيما شاء لجأ إلى المكر، فأمر مترفيها أن يفسقوا حتى يبدو للجميع وكأن القرية استحقت ذلك التدمير. بينما الحقيقة غير ذلك»... .

هكذا حوّر النص تحويراً شائناً، وحرّف معناه تحريفاً مناقضاً تماماً لأصل معناه، وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: إن الله تعالى لا يأمر المترفين بأن يفسقوا، ولكنه يأمرهم بأن يؤمنوا ويعملوا صالحاً، فيفسقون ويخالفون أمر الطاعة، فمن صفات أمر الله ونهيه أنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فمن أين أدخل «الناقد» المحرّف أن الله يأمر المترفين أن يفسقوا، والله قال: ﴿أمرنا مترفيها﴾ ثم قال: ﴿ففسقوا فيها﴾، ومعلوم بداهة مثل هذا الكلام يفيد أنهم عصوا الأمر ففسقوا، لذلك استحقوا العقاب على عصيانهم.

وإذا أردنا أن نقدر في النص محذوفاً فأى قارئ عربي يستطيع بداهة أن يعرف أن المأمور به المحذوف هو ما أمر الله به في شرائعه من الإيمان وعمل الصالحات.

وليس ما حرّفه سيادة «الناقد» من تقدير (أن يفسقوا) بدل (أن يؤمنوا ويعملوا الصالحات).

ثم إن ترتيب الجزاء إنما يكون على عصيان الأمر كما هو معلوم بالبديهة، لا على طاعة الأمر.

فلا يستهن بالقارئ العربي هذه الاستهانة، وليعلم أن ما يتلاعب به مكشوف للجميع!

ثانياً: جاءت هذه الآية تعقيباً على قوله تعالى:

﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۖ﴾.

أي: لا يهلك الله القرى الظالمة التي استحققت الإهلاك بجرائمها حتى يبعث الله إليها رسولاً، فيأمرهم هذا الرسول بالطاعة، فيعصي مترفوها والملا منهم. ويتبعهم حكماً وتقليداً من دونهم، فيحق عليهم قانون الجزاء، فيهلكهم الله تبارك وتعالى جزاء وفاقاً.

وهكذا ظهر لنا بوضوح تلاعب «سيادة الناقد» بمعاني النصوص الدينية،

وبالحقائق كلها، ليؤيد مذهبه، ويدعم قضية الإلحاد والكفر بالله، محارباً قضية الإيمان والاستقامة على الخير والفضيلة.

وأترك القارئ الحصيف الواعي أن يحكم له أو عليه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فعند الله جزاء لمن آمن وجزاء لمن كفر.

الفصل (الطائوي عشر)

الكف والكاف ون

اقتباساً من الفاهيم الدينية، ودلالات النصوص القرآنية كتبت هذا الفصل عن الكفر والكافرين لأكشف به حقيقة الكفر، وواقع حال الكافرين، وأسباب كفرهم ودواعيه، ومناخ نمائه ونشاطه، وموقف المؤمنين منهم، وموقفهم من المؤمنين، وجدلياتهم، وأنواع عقوباتهم العاجلة والأجلة التي حذرهم الله منها إذا استمروا على كفرهم.

(١)

ما هو الكفر؟

أصل معنى الكفر في اللغة التغطية الكاملة والستر التام، يقال للابس السلاح الذي غطاه السلاح تغطية كاملة: كافر، لأنه ستر جسمه به سترًا كاملاً، ويقال للزارع: كافر، لأنه يدفن الحب في الأرض فيغطيه بالتراب تغطية كاملة، ومنه قول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ... ﴾

ويقال لليل المظلم: كافر، لأنه يستر بظلمته كل شيء، ويقال: كفر الليل الشيء وكفر عليه إذا غطاه، ويقال للبحر: كافر، لأنه يستر ما فيه، وهكذا تدور الكلمة في اللغة حول الستر والتغطية.

واستعملت هذه الكلمة في الاصطلاح الديني للدلالة على ما يقابل الإيمان، والداعي إلى تسمية إنكار الحق الديني كفرًا، أنه قائم على ستر أدلة الإيمان العقلية والفطرية الوجدانية.

فالإيمان هو التصديق، والكفر عدم التصديق، وكل إيمان بشيء يستلزم كفرًا بنقيضه، لذلك فكل مؤمن بالعقيدة الإسلامية الصحيحة كافر بنقيضها وبكل

مستلزمات هذا النقيض، ولذلك كان الإيمان بالله يقتضي الكفر بالطاغوت اقتضاءً حتمياً. وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٥٦) .

فلا يتم إيمان المؤمن حتى يكفر بكل الطواغيت ويؤمن بالله، ولذلك اشتملت عبارة التوحيد على السلب والإيجاب (لا إله إلا الله)، فهي تشتمل على الكفر بكل إله سوى الله وعلى الإيمان بالله وحده لا شريك له.

أما غير المؤمنين بالعقيدة الإسلامية إيماناً صحيحاً فقد عكسوا القضية، فأمنوا بالباطل وكفروا بالحق، سواء أكان ذلك بصفة كلية لجميع أركان العقيدة الإسلامية، أو بصفة جزئية، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿... أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) .

ويقول الله تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿... أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) .

وحين تطلق كلمة الكفر ومشتقاتها في الاصطلاح الديني فالمراد منها الكفر بما يجب الإيمان به، أو يجب الإذعان والخضوع له، إلا أن توجد قرينة تصرف إلى معنى أخرى تتصل بالمعنى اللغوي ككفر النعمة، وكفر العشير، ونحو ذلك.

فمن أنكر الإسلام ولم يقبل ما جاء فيه من حق فهو كافر، ومن أنكر أي شيء ثابت في الإسلام بصفة قطعية فهو كافر، لأنه جاحد دين الله مكذب لرسوله فيما جاء به عن ربه.

فبحود بعض اليقينيات الدينية يكفي للحكم بالكفر، ولا يتوقف الحكم بالكفر على إنكار الدين كله، لأن العقيدة الإسلامية متماسكة الأركان، متماسكة العناصر تماسكاً كاملاً من جميع الأطراف، وهي كلٌّ لا يقبل التجزئة، فمن أنكر بعضها مما هو ثابت بيقين فهو بها كافر، ومن كذب الرسول بشيء فقد ثبت عنه يقيناً فقد كفر بنبوته، ومن كفر بنبوة الرسول فقد كذب شهادة من أرسله، وهكذا تتسلسل نواقض عناصر الإيمان، حتى تصل إلى الجذر الأساسي فتنقضه وهذا هو الكفر الأكبر.

والكفر درجات بعضها أشد من بعض، وبعضه أقيح من بعض، والإلحاد القائم على إنكار الخالق إنكاراً كلياً أشد وأقيح أنواع الكفر.

● أصناف الكافرين:

إذا أحصينا أحوال الكافرين وجدناهم أصنافاً لا صنفاً واحداً.

الصنف الأول: الضالّون فكرياً، وهم الذين ضلّوا سبيل المعرفة الإيمانية الحقّة، وأعماهم التعصب عن رؤية الحق وإنّ بين لهم، فهم لا يستجيبون لداعي الحق مهما لفت أنظارهم إليه، لأنهم غير مستعدين نفسياً لتغيير عقائدهم الضالّة، ويظلّون يؤمنون بالباطل ويزعمونه حقاً.

فهؤلاء هم الكافرون الضالّون، وهم على مستويات بعضها أخس من بعض.

الصنف الثاني: المنحرفون نفسياً والجانحون جنوحاً أخلاقياً، وهم الذين يعرفون الحق، ولكنهم يصرون على مخالفته، بدافع من الكبر، أو الهوى، أو التعصب، أو بدافع من ضغط البيئة الاجتماعية وخوف انتقادها ولومها، أو ضغط القادة المضلين، أو خوف فوات منافع جارية ومصالح قائمة، أو نحو ذلك، فهم من أجل ذلك يصرون على الكفر أو يسرون في ركب الكافرين.

وهؤلاء هم الكافرون المغضوب عليهم، وهم شرّ مكاناً وأقيح كفراً، لأنهم يعرفون وينحرفون فلا يعترفون، وهم على مستويات بعضها أخس وأقيح من بعض.

الصنف الثالث: منافقون من فئة الضالّين فكرياً.

الصف الرابع : منافقون من فئة المنحرفين نفسياً الجانحين جنوحاً أخلاقياً .

والمنافقون مخادعون جبنا يتظاهرون بالإسلام نفاقاً، ويطنون كفرهم القائم على الضلال، أو القائم على الانحراف والإصرار على الباطل، وهؤلاء في الدرك الأسفل من دركات الكفر، لأنهم قد جمعوا قبح الكفر وقبح النفاق وما يلزمه من صفات الكذب والخداع والاستهزاء وغير ذلك من صفات المنافقين .

والنصوص القرآنية والنبوية قد أوضحت أصناف الكافرين، واشتملت فاتحة الكتاب على ذكر الضالين والمغضوب عليهم، وهو يعم منافقي هذين الصنفين، وبسط القرآن أحوال أصناف الكافرين في مواضع كثيرة، وكشف صفاتهم وأعمالهم ببيانات مستفيضة .

● من يُحكم عليهم بالكفر؟

تطبيقاً للمفاهيم السابقة التي تحدّد مواقع الكفر نستطيع أن نحكم بالكفر حكماً إسلامياً على من جحد بذات الله أو بصفاته الثابتة بيقين، أو جعل مع الله إلهاً آخر، أو أنكر رسالة محمد - ﷺ - أو جحد بآيات الله وكتابه أو بشيء منه ثابت فيه بيقين، أو كذب الرسول بشيء مما بلغه عن ربه وثبتت نسبته إليه بيقين ثبوتاً قطعياً، أو أنكر شيئاً من أركان الإيمان، أو أركان الإسلام، أو جحد بحقيقة ثابتة في الإسلام ثبوتاً قطعياً .

لذلك حكم الله بالكفر على الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم، فقال تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ .

أي فالذي لا يستطيع دفع الهلاك عن نفسه إذا أراد الله أن يهلكه كيف تدّعي له الإلهية، والإلهية هي للرب الخالق لا للعبد المخلوق .

والمسيح عيسى عليه السلام أمر قومه في دعوته لهم بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأوضح لهم أن الله ربه وربهم، خلقه كما خلقهم، وأوضح لهم أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه جهنم بسبب كفره وظلمه الكبير، قال الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سَرَايِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَنَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ .

وحكم الله بالكفر على الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة لأنهم جحدوا إحدى الحقائق الكبرى من حقائق الإيمان، وهي حقيقة أن الله واحد وليس مركباً من ثلاثة، فقال تبارك وتعالى عقب الآية السابقة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ .

وناقش الله أصحاب عقيدة التثليث بقوله بعد ذلك:

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَاقُوتَانِ الطَّعَامِ أَنْظَرَ كَيْفَ بَيَّنَّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَأَنْفُ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ .

وهذه المناقشة تقوم على إثبات البشرية للمسيح وأمه، استناداً إلى بعض أوصافهما البشرية المعروفة فيهما، إذ كانا يأكلان الطعام، ومن يأكل الطعام لا يمكن عقلاً أن يكون إلهاً، ومن كان بشراً مخلوقاً فإنه لا يملك لمن يعبد ضراً ولا نفعاً، ومن لا يملك نفعاً ولا ضراً فإنه لا يستحق أن يتقرب إليه بالعبادة.

وحكم الله بالكفر على الذين كذبوا بالقرآن، فقال تعالى في سورة (فصلت/

٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزُونَ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ .

فجعل سبحانه تكذيبهم بالقرآن كفراً، وناقشهم في السورة نفسها بقوله تعالى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ نُفٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِّنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ .

وحكم الله بالكفر على من كذب الرسول محمداً أو غيره من رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، ففي شأن المنافقين قال الله لرسوله في سورة (التوبة) ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ .

فجعل تكذيبهم للرسول، كفراً لأنه في حقيقته تكذيب لله وكفر به وكفر بآياته .

وحكم الله بالكفر على من كذب يوم الدين، فقال تعالى في سورة (العنكبوت) / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُونَ رَحِمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ .

فالعقيدة الإسلامية لا تقبل التفريق في الإيمان بين أركان الإيمان، أو بين عناصر الركن الواحد، والإيمان غير قابل للتجزئة والتفريق، بأن يؤمن الإنسان ببعض العناصر ويكفر ببعضها؛ ومن فعل ذلك كان كافراً غير مؤمن، وهذا ما أعلنه القرآن بقول الله تعالى في سورة (النساء) / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

ففي هذا دليل واضح جداً على أن الإيمان لا يقبل التفريق بين أركانه .

وخاطب الله بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وفي هذا النص دليل واضح أيضاً على أن عناصر الإيمان لا تقبل التفريق .

فالإيمان وحدة متماسكة متى انفكت عروة من عراها انحلت سائرها وانفطرت عقدها .

(٢)

حرص الإسلام على إيمان الناس

وإنقاذهم من الكفر وشروره

من روائع مضمون رسالة الإسلام أنها تحرص أشد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم ، رغبة بإنقاذهم ونجاتهم وسلامتهم وسعادتهم .

وقد حث الإسلام المؤمنين به على إرشاد الناس ودعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، وسلوك سبيل الحق والخير والفضيلة ، وعلى قتالهم في بعض الأحوال لإزالة الموانع من نفوسهم ، أو لإزالة الموانع من طريق إيمانهم ، لإنقاذ من صفوفهم ، حتى يكونوا مع المؤمنين من أهل دار النعيم سعداء راضين مرضيين ، لا من أهل نار الجحيم أشقياء مطرودين من رحمة الله .

فالدوافع لهداية الناس إلى الإيمان وفعل الصالحات تنبع من منابع الحب وإرادة الخير للناس أجمعين .

ولو أن الناس كلهم كفروا بالله وعصوه لما كانوا يضرّون الله شيئاً، ولو أنهم جميعاً آمنوا به وأطاعوه لما نفعوا الله شيئاً، ولما زادوا في ملكه شيئاً، ولكن الله يحب لعباده أن يؤمنوا ويصلحوا حتى يسعدوا، ويكره لهم أن يكفروا ويفسدوا حتى لا يكونوا من أهل الشقاوة والعذاب .

وقد جاء في الحديث القدسي الثابت في الصحيح ، أن الله تعالى قال : «يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخِيط إذا أدخل البحر . يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» .

وما تضمّنه هذا الحديث القدسي نجده في نصوص عدة من القرآن الكريم .

فمنها قول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) :

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ .

فالله تبارك وتعالى يخفف عن رسوله صلوات الله عليه حالة الحزن التي كانت تعتريه ، حين يشاهد بعض قومه يسارعون في الكفر ، ويبيّن له أن وظيفته في الناس التبليغ والدعوة إلى الله ، وليست وظيفته تحويل الناس إلى الهداية ، فإنهم هم المسؤولون عن أنفسهم وعن سلوك سبيل الهداية ، ويبيّن له أيضاً أن الذين يسارعون

في الكفر والذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرُوا الله شيئاً .
أي : فالحرص على إيمانهم خدمة لهم وغيره عليهم وربة في نجاتهم
وسعادتهم .

ومنها قول الله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ .

فهؤلاء الذين اختاروا الكفر، وأضافوا إليه الصد عن سبيل الله . ومعادة
الرسول، من بعد ما تبين لهم الهدى، إنهم في أعمالهم هذه كلها لن يضرُوا الله
شيئاً، وما يعملونه من أعمال للصد عن سبيل الله ومناهضة الرسول ومقاومة الإسلام
والمسلمين فسيحبطها الله وسينصر أوليائه .

فلن يضرُوا الله شيئاً، ولن يضرُوا أوليائه وحمله رسالته إذا صدق هؤلاء
مع الله، ولن ينالوا منهم إلا أذى قد يصيبهم في الدنيا في أنفسهم أو أموالهم
أو أرضهم، وعاقبة الظفر والنصر ستكون لهم بتأييد الله ونصره المبين، وهذا
ما بيّنه الله بقوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين في
معرض الحديث عن اليهود:

﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذَىٰ بَارِئُكُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ .

وأوضح الله تبارك وتعالى أنه غني عن عباده، ولكن لا يرضى لعباده رجس
الكفر ورذائل الفسق والعصيان، بل يحب لهم طهارة الإيمان، وفضائل الاستقامة
والطاعة، ثم يجازيهم على أعمالهم بالعدل . فقال الله تعالى في سورة (الزمر/
٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عِنْدَهُ
بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾ .

ومن كفر فعليه كفره، ولا يزيده كفره عند ربه إلا مقتاً وخساراً، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

ويقابل هذا أن من آمن وعمل صالحاً فلنفسه يقدم الخير، وهذا ما بينه الله تعالى بقوله في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

من كل ذلك تتضح لنا الحقائق التالية:

- ١ - أن الله غني عن إيمان عباده وطاعتهم.
- ٢ - أن الكافرين لا يضرهم الله شيئاً.
- ٣ - أن أعمال الكافرين لن تضر المؤمنين الصادقين مع الله إلا أذى.
- ٤ - أن من كفر فعليه كفره.
- ٥ - أن من آمن وعمل صالحاً فله عمله.

(٣)

أسباب الكفر والضلال

يتبين لنا بالتأمل وبالتتبع العلمي في تقصّي الواقع الإنساني طائفة من أسباب الكفر والضلال في الناس، ونذكر فيما يلي أسباباً وعوامل رئيسية تتضمن أسباباً وعوامل فرعية كثيرة.

● السبب الأول - الانحراف الفكري عن منهج التفكير السديد:

وفي تتبع هذا السبب وظواهره نلاحظ أن كثيراً من الناس يقبلون في حياتهم الفكرية أن تتحوّل أوهامهم وتخيلاتهم أو ظنونهم إلى حقائق علمية وعقائد ثابتة،

دون أن يكون لها نصيب من الحقيقة، ودون أن تمر في مراحل الطريق المنطقي السليم للمعرفة، وبذلك يقعون في ضلالات فكرية ذات نتائج خطيرة.

وزاوية الانطلاق في هذا السبب تبدأ من اتباع الظن الضعيف الذي هو دون مستوى الرجحان، لافتقاره إلى دليل عقلي أو علمي يقوّيه ويرجّحه، وهذا الظن التوهمي الكاذب هو الذي اتبعه من جعلوا لله شركاء بغير حق، وفيهم قال الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء حقيقيين، لأن الله واحد لا شريك له، إن يتبعون إلا الظن التوهمي الكاذب، وإن هم إلا يخرصون، أي: وإن هم إلا يكذبون على الحقيقة بالتوهم الكاذب والظن الضعيف الذي لا قيمة له في تحصيل المعارف.

وقد يكون الباعث على قبول الظن الذي لا قيمة له في مجال اكتساب المعرفة كونه موافقاً لهوى النفس، وهذا الهوى يزيّن ضعيف الظنون ويحسنه لدى النفوس ويكبّره ويجسّمه بالوهم وبالتخيل الكاذب، ولا يزل ينفخ فيه حتى يسيطر على المشاعر، ويستحوذ على الفكر أخيراً، وعندئذ يتبع صاحب هذا الظن الضعيف ظنه معتقداً أنه حقيقة، وهو في أصله خرس من نسيج الخيال وحياسة الوهم الكاذب، وهذا الرديف من الهوى هو الذي ساعد على دفع المشركين الوثنيين إلى ضلالاتهم، ولذلك خاطبهم الله بقوله عن معتقاداتهم في سورة (النجم / ٥٣ مصحف / ٢٣ نزول):

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٢﴾﴾

ولما كان أكثر الناس تسيطر الظنون الضعيفة والأوهام السخيفة على أفكارهم

ونفوسهم فيتبعونها ويعتقدونها، حذر الله من أتباع أكثر من في الأرض، فقال تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَأِنْ تَطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ .

أي: يرحمون بالخرص التخيلي أو التوهمي، ويقررون ما يقع عليه خرصهم على أنه حقيقة، ويبنون على ذلك عقائدهم وأعمالهم.

ولهذا السبب الرئيسي عوامل فرعية متعددة داخل النفوس الإنسانية منها العوامل التالية:

١ - الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي:

فقد تلمع في نفس الإنسان بارقة من فكرة تمر في خياله أو توهمه، فيأتي الغرور بالنفس فيلبسها ثوباً لماعاً مزركشاً، فتحلوا في نفسه وتزدان، ثم يتجسم توهمه بها حتى تصبح لديه فكرة ثابتة أو عقيدة راسخة دون أن يعالجها بالحجة والبرهان، والمناقشة المنطقية السليمة.

وقد يسعى مبشراً بها بين السدج وضعفاء التفكير والجاهلين، مزيئاً حجته بزخرف من القول، أو مستخدماً قوة شخصيته أو قوة نفوذه، ثم يكون له مؤيدون وأنصار يتابعونه على ضلالته التي انخدع هو بها بعامل الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

وقد نشأ في التاريخ فرق متعددة تحمل مذاهب فكرية باطلة، وذلك بسبب إصابة واحد من الناس أو مجموعة منهم بمرض الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي، ثم كان منه ومن عوامل أخرى ضلالات موروثية، استمسكت بها أجيال متلاحقة، بات من العسير التخلص منها إلا في ظروف معالجات فكرية ونفسية مؤثرة.

٢ - الجهل العام الذي يسمح بتقبل كثير من المفاهيم الباطلة:

وهنا نلاحظ أنه قد تشيع في مجتمع متخلف فكرياً أو ثقافياً أفكار باطلة منحرفة عن منهج التفكير السليم، وتجند هذه الأفكار الباطلة قبولاً في هذا

المجتمع، وذلك بسبب تخلفه العلمي، ثم يتناول الأمد فتسمي هذه الأفكار عقائد قومية متوارثة، وتقاليدها متبعة ثابتة، كأنها من الحقائق البديهية التي لا تقبل أية مناقشة فكرية أو أي تغيير.

ومن هذه المفاهيم الباطلة مفاهيم يلقيها بين المجتمع الجاهل ماكرون مضللون من شياطين الإنس، لهم مصالح وأغراض وشهوات خاصة من بث هذه الأفكار الباطلة، والخرافات والأوهام وتزيينها في نفوس القوم، وذلك ليكون لهذه الانحرافات والخرافات ثمرات ممتعة لأولئك الشياطين يستغلونها، ويستثمرونها، ويقضون شهواتهم وملذاتهم على مصائب القوم من مفاهيمهم الباطلة.

٣ - التقليد الأعمى:

من الملاحظ أن الإنسان ينشأ في بيئة من البيئات الاجتماعية فيكتسب منها معارف ومهارات وعادات وأخلاقاً كثيرة، ومن هذه المكتسبات ما هو حق، ومنها ما هو باطل، ومنها أيضاً ما هو صالح، ومنها ما هو فاسد، وبمقتضى نشوئه في هذه البيئة الاجتماعية يتكوّن لديه بدافع الأنانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه، والتعصب لجميع ما هو في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق، لأنه يتصور أنه بتعصبه هذا يدافع عن كيانه الذاتي، ولكنه دفاع ليس في محله، إذ هو دفاع عن الانحراف. ولو أنه سمح لقواه العقلية المتجردة عن مؤثرات البيئة أن تبحث وتناقش وتمييز بين الحق والباطل والخير والشر والصالح والفساد، لوجد أن دفاعه عن ذاتيته إنما يكون بتقويمها وإصلاح عوجها، وهجر الموروثات الباطلة، والاستمسك بالحق منها.

وبالتبّع نلاحظ أن كثيراً من الناس ليس لهم فيما يستمسكون به من مفاهيم وعادات باطلة أية حجة، إلا أنها أشياء ورثوها عن أسلافهم من قومهم، فاقصدوا بهم، وتعصبوا لهم، وساروا على آثارهم دون بصر فيها أو نظر.

٤ - المبالغة في تعظيم بعض العظماء من الناس:

نظرة تأمل في التاريخ الإنساني تكشف لنا أنه قد يظهر بين حين وآخر في كل أمة من الأمم أفاذاً منها، يبلغون درجة عالية في سُلّم الكمال التي تعتبره تلك

الامة، كالتقوى والاستقامة، أو العلم والعبقرية، أو الإخلاص لأمتهم وبلادهم، وقد يكتب الله على أيديهم بعض الظفر والازدهار والنجاح الباهر، والتوفيق العظيم، وما إلى ذلك من رغائب، فيعظمهم الناس، ويمجدونهم، ويلبسونهم ثوباً من الكمال ليسوا أهلاً له، حتى يعتبروا كل عمل من أعمالهم، وكل خلق من أخلاقهم حسناً وإن كان قبيحاً، وخيراً وإن كان شراً، وحتى يعتبروا كل قول من أقوالهم حقاً وإن كان باطلاً، ويبالغ بعضهم في ذلك حتى يخلع عليهم صفة التنزيه عن النقص والخطأ، والعصمة من كل إثم.

ويسري هذا الداء إلى نفوس الرعاع السذج أو الجهلاء أو ناقصي التفكير، فيبلغون في تقديسهم إلى حد توهم الألوهية أو جزء منها فيهم، وينحرفون بذلك عن منهج التفكير السليم، ويتجاوزون كل حد مقبول في العقول الصحيحة، وقد يشجعهم على ذلك بعض الأذكى الذين يستطيعون استغلالهم واستثمارهم من خلال حماقاتهم وانحرافاتهم في الأفكار والعادات، أو من خلال تخلفهم عن مواكبة ركب العلم الصحيح والحضارة النافعة.

ومن المنغمسين في هذه الضلالة وثنيو القرن العشرين الذين يلحدون بالله، ويتخذون لعظمائهم أوثاناً يقدسونها، ويفدون إلى زيارتها، ويمنحونها الأكاليل، ويهدونها طاقات الورود، ويعتبرون مخالفة تعاليمهم من أكبر الكبائر التي توجب الإعدام أو السجن المؤبد، أو الإبعاد والطرْد، أو توجب حروباً طاحنة تهلك الحرث والنسل.

٥ - فلسفات ناقصة أو أصول فكرية فاسدة:

من الملاحظ أن العامل في كثير من ألوان الضلالات الفكرية فلسفات ناقصة أو أصول فكرية فاسدة، وفي المجتمعات الإنسانية مظاهر متعددة لهذه الفلسفات الناقصة والأصول الفكرية الفاسدة.

ومن مظاهرها الفلسفات التي تؤدي إلى تعطيل دلائل الاستنتاج العقلي القاطع، وتؤدي إلى الوقوف عند حدود المادة المدركة بالحس المباشر أو عن طريق الأجهزة، وتؤدي إلى إنكار الوحي، وإنكار أية حقيقة من حقائق الغيب التي تأتي

بها النبوات، بدعوى أنها غير مدركة بالحس فلا يصح في نظرهم القاصر التسليم بها.

وهذه النظرة القاصرة إلى الوجود والتي يشهد ببطانها كل عقل واعٍ مدرك هي مصدر شر كبير أفضى ببعض الناس إلى اعتناق فكرة المادية الملحدة، التي لا تعترف بشيء إلا باللذة والغريزة وحدود الظواهر المادية.

● السبب الثاني - الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم:

نلاحظ لدى دراسة أحوال الناس أن فريقاً كبيراً من ذوي الضلال في الأرض لم يضلوا لجهلهم بالحقيقة بسبب عامل من عوامل الانحراف الفكري عن منهج التفكير السليم، وإنما ضلوا أو أجمروا بسبب هروبهم من وجه الحقيقة لإرضاء لشهوة من شهوات نفوسهم، ورغبة من رغائبها.

ومتى هرب الإنسان من وجه الحقيقة سعى يتحل لنفسه مبادئ أخرى باطلة ليحلها في محلها، ثم يكدح كدحاً شديداً ليقنع نفسه وغيره بصحتها وسلامتها، وضرورة الأخذ بها.

وذلك لأن الفكر السوي يصعب عليه أن يسلم بالمفاهيم الباطلة مهما أغرت الأهواء والشهوات بزخرفها، ولكن سلطان الأهواء والشهوات يأسر النفوس فيجعل بينها وبين العقل السليم غشاوة، ومتى طال أمد الغشاوة الحاجبة للعقل عن عمله السديد تبلد الفكر، وفسدت طريقة البحث لديه.

وزاوية الانطلاق في هذا السبب تبدأ من اتباع الأهواء والشهوات.

إن الأهواء والشهوات في الأنفس تميل في أغلب أحيائها إلى اغتنام اللذات العاجلة، ولو كان من ورائها مضار وآلام كثيرة آجلة، وتميل إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها وتفآخرها ولو كان في ذلك شقاء أبدي بسخط الله.

فمن طبع أهواء النفوس وشهواتها أنها تؤثر العاجلة، وتذر الآخرة، ما لم يضبطها ضابط من العقل الصحيح الراجح، المقرون بالإرادة الحازمة، أو ضابط من الإيمان الراسخ والدين المهيمن على النفس والمتغلغل في أعماق القلب والوجدان والمقرون بتقوى الله جلّ جلاله.

لذلك كان اتباع الأهواء والشهوات من الأسباب المضلة المبعدة عن صراط الله المستقيم، والمفضية بالإنسان إلى مواقع تهلكته.

ولذلك كانت الأهواء والشهوات من الوسائل التي تستغلها الشياطين للإغواء، فتدغدغها وتثيرها وتوجهها للانحراف عن صراط الله، ولا تزال تسيطر عليها شيئاً فشيئاً، حتى تكون أسلحة فتاكة في أيديها، وقد تستدرج الإنسان عن طريق أهوائه وشهواته حتى تصل به إلى مواقع الكفر بالله وبكل فضيلة إنسانية.

ولذلك حذرنا الله تبارك وتعالى من اتباع الأهواء والشهوات على غير هدى من الله.

فقال تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ففي هذه الآية يبين الله أن من الأسباب الموصلة إلى الظلم والموقعة فيه اتباع الأهواء، وقد ضل الظالمون بسبب اتباعهم أهواء نفوسهم فحكم الله عليهم بالضلالة حكماً عادلاً، فمن يهدي من أضل الله؟ أي: حكم عليه بالضلالة، ومن ينصره من عقاب الله؟ إنه لا أحد يحكم له بالهداية بعد أن حكم الله عليه بالضلالة، ولا أحد ينصره من عقاب الله.

وخاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله في سورة (القصص / ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

وقال تعالى في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾

وهكذا وصف الله الكافرين والمنافقين في مواضع عديدة من كتابه بأنهم اتبعوا أهواءهم، إشارة إلى أن سبب ضلالهم هو اتباعهم أهواءهم. ومن فروع اتباع الأهواء اتباع الشهوات بإفراط وتجاوز لمنهج الاعتدال والحق.

وقد أوضح الله أن اتباع الشهوات كان سبباً في ضلال ذرية الصالحين، فقال تعالى في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول): ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾. أي: فسوف يلقون جزاء غيهم.

وحذرنا الله من مكائد الذين يتبعون الشهوات ومن تضليلاتهم، فقال تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول): ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

أي: يريدون أن تنغمسوا معهم في تناول الشهوات بانحراف مسرف، ويتخذون ما لديهم من وسائل لتحقيق مرادهم هذا. ومن اتباع الأهواء والشهوات اتباع وسائل الترف بإفراطٍ مُطغٍ وسرف مفسد للنفوس، وباعث على الكبر والعجب، ومسبب للغفلة عن الحق والخير، ونسيان العواقب وعدم النظر إليها.

قال الله تعالى في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول):

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ولهذا السبب الرئيسي (وهو الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم) عوامل فرعية متعددة داخل النفوس الإنسانية، نذكر منها العوامل التالية:

١ - الحسد القبيح :

إن الحسد القبيح مرض خبيث من أمراض النفوس، يغري صاحبه أن يغمط الحق وينكره ويجحد به، مهما كان ظاهراً مؤيداً بالحجج والبراهين.

وإذا تصفحنا التاريخ القديم والحديث وجدنا أمثلة كثيرة على ذلك من الواقع الإنساني، ومن أمثلته حسد اليهود للعرب إذ جاء الرسول المنتظر منهم لا من بني إسرائيل كما كانوا يودون ويهوون.

٢ - الأنانية الضيقة :

والأنانية حب الإنسان لنفسه فقط أو لمحيطه الضيق، مع قصر نظر عن العواقب، وهي تولد في المجتمعات الإنسانية حب الإثرة، واحتكار كل خير وممتعة، وادعاء كل فضيلة وشرف، وذلك يؤدي إلى التنازع والتشاحن والبغضاء، وتبديد طاقات الجماعة تبديداً داخلياً بدل تجميعها ضد عدوها وعدو الحق والخير والفضيلة والجمال.

وكم كان لهذه الأنانية الضيقة من نتائج سيئة شنيعة، قوضت كثيراً من أبنية حضارية شامخة، ورمت بأمم كثيرة من قمم المجد إلى حضيض المذلة والمهانة، وورثتها مفاهيم فاسدة، وجعلتها تتخلف أجيالاً وقرونًا عن مواكب ركب الحضارة والتقدم، ونور العلم والخير والفضيلة.

٣ - النوازغ النفسية الرامية إلى تحقيق مطالبها بشذوذ:

في ظل تهاون تربوي وبعد عن منهج الإسلام القويم قد تنمو في الإنسان بعض دوافعه النفسية نمواً غير طبيعي، شبيهاً بنمو الأورام الخبيثة في الجسد، حتى تكون لهذه الدوافع صفة السيادة العامة على كل مقومات الإنسان، وعند ذلك يفقد هذا الفرد توازنه الإنساني السوي، ومتى بلغت في الإنسان دوافعه النفسية إلى هذا الحد من الشذوذ غير الطبيعي أمست نوازغ شر وضر وفساد.

وعندئذٍ تنطلق هذه النوازغ في كيان الإنسان محاولة أن تستبد به استبداداً خطيراً، فإذا تخاذلت إرادة الإنسان أمام نازغة من نوازغ الشر فيه تبلد فهمه العميق للأمور، وانحجب عقله الواعي الذي يعقله عن الشر، وأخذ ذكاؤه يتشاغل بظواهر

الأمر وسطوحها القريبة، ويتعمى عن بواطنها وعواقبها، ثم يحاول هذا الذكاء الغبي السطحي أن ينسج الحيل بمكر ودهاء ليقدّم لنازغة الشر مطالبها الدنيئة الحقيرة، ولو عن طريق الإفساد والجريمة وإنكار الحق.

عندئذ تبدأ صور الفساد والجريمة تظهر في سلوكه الشاذ المنحرف، كما تبدأ صور تبرير هذا الانحراف تظهر في المفاهيم والآراء التي يبثها، ويحاول إقناع الناس بها بغية المحافظة على مركزه الاجتماعي، وحماية نفسه من غضب الجماهير الذين ينالهم شره وضره.

فهو — مثلاً — يذبح الفضيلة مرتدياً مسوح التقوى، ويمارس الجريمة حاملاً شعار الإنسانية، ويقوض دعائم الحق والهدى باسم محاربة الباطل والضلال، ويهدم أبنية الخير الفاضلة باسم التخلص من الفساد، ويحاول محو شرائع الله الحقّة التي تحمل للناس السعادة والمجد باسم الإصلاح الديني أو الإصلاح الاجتماعي.

فإذا وقفت في سبيله نصوص الشريعة الثابتة أنكروا أو أولوها، وإذا أرهبته في طريق جريمته معتقداته عن وجود الله وعدله وجزائه يوم الدين ألحد بالله وأنكر العدل والجزاء، وسعى يقتنص لإلحاده أدلة واهية ليخدع بها نفسه ومن لديه نفس شاذة مثل نفسه، وليخدع بها الدهماء من الناس. لثلا يثوروا عليه، فإذا انطلت حيلته على جمهور من الناس انطلق داخلاً في كل نفق شيطاني خبيث، خشية أن تنكشف خبيثة نفسه المجرمة، وفراراً من النور إلى الظلمات، وهروباً من وجه الحق المبين، والعلم المنير، والخير والفضيلة، إلى معاقل شياطين الباطل والشر والرذيلة.

ومن هذه النوازع الشاذة ما يسمى بجنون العظمة، والرغبة بالسلطان، ومنها الإفراط الشديد بحب المال والفتنة الشديدة بجمعه ومنعه، ومنها شهوة الظلم والقتل والاعتداء على الآخرين، ومنها الدوافع الجنسية الشاذة المفرطة، إلى غير ذلك من نوازع.

٤ - الكبير:

وكثيراً ما يكون الكبير عاملاً ذا أهمية من العوامل الصارفة عن الاستجابة للحق، والباعثة إلى التمرد عليه، والخروج عن دائرة الطاعة للخالق جلّ وعلا، وعاملاً أيضاً في تكوين معتقدات ومفاهيم باطلة وتقاليد وعادات فاسدة، ومتى نفخ الكبير في أنف صاحبه واستولى على إرادته غشّى على عقله وساقه بعنف إلى غمط الحق وطمس معالمه، وانتحال صور من الباطل يعمل على تزيينها وتحسينها بالحجج التافهة التي لا تقوى على النهوض أمام قوة الحق لدى ذوي العقول السليمة.

وقديماً كان الكبير هو الصارف لإبليس عن طاعة الله، كما كان الصارف لبعض زعماء العرب عن الدخول في الإسلام أيام نزول الرسالة، والكبير هو الصارف لكثير من المترفين عن الانخراط مع جماعة المسلمين، حتى يظلوا مترفعين في أبراجهم الذهبية، فهم لا يشعرون بمشاعر العامة، ولا يشاركون في مختلف مظاهر وحدتها وتكاتف صفها.

٥ - الأحقاد السوداء:

من العوامل ذات الأهمية الكبرى التي تصرف عن الحق، وتدفع صاحبها لإعلان الحرب عليه الأحقاد السوداء التي تغلي نيرانها في قلوب الذين انحرفت نفوسهم عن منهج الخلق القويم.

لقد امتدت دولة الإسلام بقوة الحق والعدل والجهاد، واكتسحت عقائد بالية، وصهرت شعوباً كبرى، وقوضت إلى الأبد دولاً ذات شأن قديم، فألقى كل ذلك أحقاداً سوداء على الإسلام والمسلمين في قلوب بعض المتعصبين لقوميّاتهم ومعتقداتهم ودولهم التي جرفها الإسلام بنوره المبين فيما جرف، أو نال منها نيلاً، فأفقدتهم بذلك زعاماتهم الدينية والسياسية في الأرض، ونشأ من جراء هذه الأحقاد السوداء مؤامرات عديدة مقنعة وسافرة على الإسلام والمسلمين، في أحقاب التاريخ الإسلامي المتتابعة، وما زال العالم الإسلامي يكتوي بنيران هذه المؤامرات المختلفة في أشكالها وألوانها وأساليبها، فمنها ما يحمل حرباً فكرية مسلّحة بألوان شتى

من المكر والخديعة، ومنها ما يحمل حرباً مادية مسلحة بكل قوة مادية مريعة، بغية تهديم الحق الذي جاء به الإسلام، فكان به مجد العرب وسائر الشعوب التي استجابت لدعوته، وبغية تفتيت وحدة المسلمين المتماسكة التي كان فيها سر قوتهم العظمى التي أذهبت الأمم والشعوب حقبة من الدهر، فهم ما يفتأون يخشون أن تعود هذه القوة الكبرى للمسلمين، وأن يعود ذلك الإيمان الصادق إلى قلوبهم.

وفي طليعة هذه المؤامرات المستمرة على الإسلام والمسلمين المؤامرة اليهودية العالمية الكبرى التي استطاعت أن تسخر الأحزاب السرية، وكلاً من المذاهب الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المتصارعة في العالم، واستطاعت أن تسخر لتحقيق أغراضها الاستعمار والصليبية وأركانها السياسية والتبشيرية والاستشراقية، وأن تسخر الإلحاد والشيوعية الدولية العالمية.

وتوجد عوامل أخرى لكل من السببين السابقين وهما: الانحراف الفكري عن منهج التفكير السديد، والانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم.

ومن هذه العوامل ما يلي:

١ - الافتتان بمظاهر التقدم المادي والانسياق مع ألوانه الخادعة للنظر، وتقبل ما يرافقه من منحرفات فكرية وخلقية وسلوكية.

وقد استخدم أعداء الإسلام في العصور الحديثة هذه الوسيلة من وسائل التضليل على أوسع نطاق، وأثمرت لهم في المجتمعات الإسلامية ثمرات جمّة، وكان ذلك عن طريق دمج الوافدات البوذية الخطيرة على العقائد والأخلاق والنظم الإسلامية في صادرات منجزات بلادهم المادية المرضية بتقدمها المادي، وبهذا الدمج الماكر عُسِرَ على الجماهير التمييز بين الغث والثمين، والنافع والضار.

٢ - طاعة القادة المضللين واتباعهم:

فكثير من الانحراف الفكري والانحراف النفسي يأتي عن طريق اتباع القادة المضللين، ذوي السلطان والجبروت في الأرض.

ويكون هذا الاتباع لهم إما فتنه بهم ، أو طمعاً باسترضائهم لتحصيل المنافع عن طريقهم ، وإما خوفاً من عقوباتهم .

والقادة المضلُّون إما مستكبرون ، أو أصحاب أهواء ، أو متَّبِعُونَ للشهوات بجنوح وطمغيان ، أو مقلدون متَّبِعُونَ لأسلافهم ، أو مقلدون مفاخرون متَّبِعُونَ لنظرائهم من ذوي السلطان في الأرض .

وقد حذَّر الله من اتِّباع القادة المضلِّين بأسلوب بيان واقع حال بعض الظالمين الذين عصوا رُسُل ربهم . فمن ذلك ما ذكره الله تعالى في شأن عاد قوم هود من أن سبب ضلالهم أنهم اتَّبَعُوا أمر كل جبار عنيد ، فعصَّوا رسل ربهم وجحدوا بآياته ، فقال تعالى في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول) :

﴿وَتِلْكَ عَادُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الله في شأن اتباع فرعون الذين كانوا ملأه ومنفذي أمره وأكابر قومه ، إذ اتَّبَعُوا أمره فجحدوا بربهم وبرسله ، وبالآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام ، قال الله تعالى في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول) :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝١٧﴾ .

وقال تعالى في شأن فرعون في سورة (الزخرف / ٤٣ مصحف / ٦٣ نزول) :

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّاءَ اسْفُونا أَننَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ۝٥٦﴾ .

(٤)

مناخ غناء الكفر ونشاطه

قد يبدو لكل عاقل بعد أن يرى الحق في جانب الإيمان ، ويأتيه خبر الوعد بالسعادة الخالدة للمؤمنين ، وخبر الوعيد بالشقاء الدائم والعذاب الأليم في نار

جهنم للكافرين، أنه لا يوجد أي داع للإنسان حتى يختار لنفسه سبيل الكفر على سبيل الإيمان، لا سيما حين يلاحظ أنه لا توجد في مواقع الكفر مزايا من متاع الدنيا يصيبها الكافر ولا يستطيع أن يصيبها المؤمن، علماً بأن بمقدوره أن يصيب ما يريد من شهوات محرمة عن طريق المعصية، لا عن طريق الكفر بالوجود أو برفض الإذعان للطاعة، فطريق المعاصي ليس فيه خلود في العذاب والشقاء، أما طريق الكفر فهو طريق الخلود في العذاب والشقاء الأبدي.

والتساؤل الوارد في هذا المجال قد أجاب القرآن عنه، فبين أن الكافرين واقعون في الكفر بسبب مؤثرات نفسية شتى جانحة خُلِقُوا، إلا أن الذي غشى على منطقتهم في الحياة أمران: زينة وغرور، وهذان الأمران هما المناخ الذي تنشط فيه بواعث الكفر ودواعيه.

فالزينة: حسنت للكافرين الحياة الدنيا، وحسنت لهم سوء عملهم، وصبغت بالأصباغ الخادعة، وجعلت له المبررات المزورة.

والغرور في أنفسهم ساقهم عمياناً لا يبصرون إلا الزينة وما فيها من بهارج، فأعينهم مثبتة في أشكالها وألوانها، وأذانهم لا تسمع إلا رنات أوتارها وأصوات أجراسها، وشهواتهم مشدودة إليها، وقلوبهم معلقة بطلبها والسعي وراءها، وهم يتخبطون في اتباعها، لا يدرون أين تقع أقدامهم، ولا يعرفون إلى أي مصيرهم صائرون، وأما أفكارهم وعقولهم فقد ألقيت عليها الغشاوة، فهم لا يفكرون إلا في حدود منطقة الزينة.

والزينة هي المجال الذي يفتتن به الإنسان فيغتر به، وهي تكون فتنة للعين أو فتنة للأذن، أو فتنة للفكر، أو فتنة للنفس، أو فتنة لما سوى ذلك من داخل الإنسان وخارجه.

والزينة طلاءات وزخارف خادعة في مظهرها، ولا دلالة لها على الحقيقة الجوهرية، إنما تخدع بحلاوة مظهرها، فيتصور الجاهل المتسرع أن ما ظهر له عنوان ما بطن وخفي عليه، فيعطي للباطن حكم ما بدا له في الظاهر، لذلك نلاحظ أن القرآن حين يلفت أنظارنا إلى حقيقة ما في الحياة الدنيا يبين لنا أنها من قبيل

الزينة فقط، فهي لا تحتوي على جوهر حقيقي ثابت، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿١١٢﴾ .

فهم مع أنهم مخدوعون بزينة الحياة الدنيا وساقطون في الغرور يتصورون المؤمنين مضيعين لذات حياتهم، ومتعلقين بالأوهام وبرؤيا خيالية عن الدار الآخرة، فيسخرّون منهم، وكان الحق يقضي بأن يسخرّوا من أنفسهم، إن عفّ عن السخرية منهم الذين آمنوا.

ولكن ينعكس الأمر يوم القيامة فيقتص منهم الذين آمنوا سخرية بسخرية.

والغرض من جعل الحياة الدنيا هكذا زينة تفتتن النفوس بها توافر ظروف الابتلاء الأمل، وهذا ما بيّنه الله بقوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ .

أي: سيأتيها يوم تفقد فيه زينتها فيغدو سطحها صلداً يابساً لا نبات فيه ولا زرع، قد احترق كل ما عليها من خضرة ونضرة، وتهدّم كل ما عليها من قصر مشيد.

وأخطر ما في الأمر أن يغتر الإنسان بزينة الأقوال والأفكار الباطلة، وبزينة الأعمال السيئة، فيرى الباطل حقاً، ويرى السيء حسناً، فيندفع وراء الباطل مؤيداً له وناصرأً، ويعمل الأعمال السيئة متعاضماً بها ومفاخراً، زاعماً أنه من المحسنين، وهنا تكون المحنة الكبرى، والفتنة العظمى.

ونقيض هذا من كان على بينة من ربه، يرى الحق حقاً فيتبعه ويعمل بموجبه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه ويحذر من العمل بما يفضي إليه.

والى هذين الموقفين المتناقضين جاءت الإشارة في قول الله تعالى في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾

فمن كان على يتيئة من ربه فإنه يكون صحيح التصور للأمور، مستقيم العمل غالباً، انسجاماً مع تصوراته الصحيحة، ومن زُيِّنَ له سوء عمله فلا بد أن يكون فاسد التصور فاسد العمل متبعاً أهواءه المنحرفة الجانحة، متخبطاً في ظلمات البغي والفساد، والظلم الطغيان.

ولذلك تكرر في القرآن التحذير من السقوط في الهاوية التي يُزَيَّن فيها للمسيء سوء عمله، وتكرر فيه توبيخ الذين زُيِّن لهم سوء أعمالهم.

ففي سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) أثبت الله تبارك وتعالى أن الكافرين قد زين لهم سوء عملهم، ذكر هذا بعد مثل ضربه للمؤمنين والكافرين فقال تعالى:

﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَآخِيَيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾

فالكافرون مثلهم كمثل من هو في الظلمات ليس بخارج منها، فلا يعرف شيئاً عن النور، لذلك فهو يستحسن الظلمة التي هو فيها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون، فهم يستحسنون أعمالهم السيئة، فيفعلونها بقوة وجراءة ومفاخرة.

ويوبخ الله الذين زين لهم سوء عملهم، فكفروا بربهم، فأضلهم الله بذلك، قال تعالى في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۖ﴾ ﴿٧﴾ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۖ﴾

ففي هذا النص نلاحظ أن الله يخاطب رسوله بقوله: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي: فلا تهلك نفسك حزناً على الكافرين الذين زين لهم سوء عملهم، فهم قد اختاروا بأنفسهم سبيل الكفر على سبيل الإيمان، فحق عليهم عذاب شديد من الله، وكان بمقدورهم أن يختاروا سبيل الإيمان والهداية، فقد بين الله لهم الحق في كتبه وعلى ألسنة رسله، فلا عذر لهم بجهل وعدم بيان.

وقال الله تعالى في وصف الإنسان في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/

٥١ نزول):

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فمن خلائق الإنسان أنه إذا مسه الضر رجع إلى ربه، فالتجأ إليه داعياً أن يكشف عنه ضره، على أية حالة كان مضطجعا أو قاعداً أو قائماً. إنه في حالة ضره تنبسط فطرة الإيمان في داخله، فيرجع إلى ربه مستغيثاً، ولكنه حينما يكشف الله عنه الضر ويعود إلى ما كان فيه من متاع الحياة الدنيا وزينتها ينسى ربه، ويمر في حياته غير معترف بخالقه، كأنه لم يرجع إلى ربه في ساعة ضره، فيدعوه ويلتجئ إليه، وهكذا حال المسرفين يعملون الأعمال السيئة القبيحة ويرونها حسنة، اغتراراً بزينتها في نفوسهم وأهوائهم.

ومن أمثلة الأفكار الفاسدة التي زُيّنت في قلوب المنافقين ظنهم أن الرسول والمؤمنين في أيام صلح الحديبية سيهلكون، ولن يعودوا إلى أهلهم أبداً، وظنوا بالله ظن السوء، ولكن الله فتح على رسوله والمؤمنين فتحاً مبيناً، وخيب ظن المنافقين، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وكنتم قوماً هلكى بنفاقكم.

ومن أمثلة الأحكام الباطلة التي زينت لدى الكافرين تلاعبهم في الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير، ليبيحوا لأنفسهم في الأشهر الحرم ما هو محرم عليهم، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وهكذا تفعل الزينة فتسقط الظالمين والمسرفين والكافرين في الغرور.

فالكافرون في غرور بما زين لهم في الحياة الدنيا.

ولذلك قال الله تعالى في سورة (الملك / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول):

﴿...إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ما الكافرون إلا ساقطون في غرور، فهم مخدوعون بما خدعوا به أنفسهم، من أفكار مزينة، وأهواء مزينة، وشهوات مزينة وأماني مزينة، وأقوال مزخرفة مزينة، إلى غير ذلك مما في الحياة الدنيا من زينة.

أما جوهر الحقيقة فهم عنه معرضون، وبينهم وبينه غشاوات على قلوبهم وأفكارهم وأسماعهم وأبصارهم، فالغرور متى استولى على إنسان أعماه وأصمه عن كل بيان يكشف له زيف ما هو مغرور به.

أما الأشياء التي زينت لهم فاغترروا بها، فإنها تأتي في نطاق العناصر التالية:

١ - أول ما زين لهم فغرَّهم وجذبهم إليه متاع الحياة الدنيا، وما فيها من شهوات وأهواء وجاه ومال وسلطان ولهو ولعب.

٢ - ثم غرَّتهم الأماني.

٣ - ثم غرَّتهم زخارف الأقوال المزورة التي توحى بها شياطين الجن والإنس.

٤ - ثم غرتهم مفترياتهم وأكاذيبهم التي كانوا قد افتروها، لستر انحرافاتهم، فمر عليها الزمن فصدقوها، وحسبوها أموراً صحيحة، ونسوا أنهم هم الذين اختلقوها.

٥ - ثم انغمسوا في الغشوات الكثيرة، وحجبوا أنفسهم عن الحقيقة، ونسوا الله وعميت أبصارهم وبصائرهم عن آياته.

● الغرور بمتاع الحياة الدنيا وزينتها:

نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد بين للناس أن الحياة الدنيا متاع الغرور، فأوضح لهم أنها متاع يغتر به الجاهلون قصيرو النظر، فقال في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرِيهِ مُصَوِّراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

فعلى الإنسان أن يعقل أمره ولا يغتر بزخرف الحياة الدنيا وزينتها. ولذلك حذر الله الناس جميعاً من الاغترار بذلك فقال تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُجَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

والغرور: هو الشيطان.

وقال تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

ثم بين الله تبارك وتعالى أن الكافرين مغرورون بالحياة الدنيا، فقال لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿٧﴾﴾.

وفي موقف الحساب يوم القيامة يخاطب الله الظالمين الكافرين من الجن والإنس، فيقول لهم كما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

وبعد أن يدخلهم الله دار العذاب يخاطبهم بمثل ذلك كما جاء في قوله تعالى في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْدَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَدَأَهُمُ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا يَوْمَ هَذَا وَمَا بَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كَانُوا يَتَّخِذُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُولًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ولا هم يستعقبون، أي: لا يقبل منهم توبة ولا استغفار ولا استقالة من

ذنوبهم، فقد مضى زمن التوبة والندم والاستغفار، وأصل الاستعتاب طلب رفع العتب وطلب حصول الرضا.

وبعد أن يذوقوا عذاب جهنم وتشتد عليهم الآلام فيها، ينادون أصحاب الجنة يرجونهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله، فيقولون لهم: إن الله حرم الجنة وما فيها على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغرتهم الحياة الدنيا، ويصف الله هذا المشهد من مشاهد الآخرة فيقول تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥١﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا... ۝٥١ ﴿

وهكذا ظهر لنا أثر الغرور بالحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، وظهرت لنا نتائجه الوخيمة.

● الغرور بالأمانى:

لكل فئة من فئات الكافرين مجموعة من الأمانى الكاذبات الضائعات، تناسب حالة كفرهم، فهم ينخدعون بها، وينجذبون إليها، ويسعون وراءها.

فالمشركون تتعلق أمانيتهم بالآلهة التي يعبدونها من دون الله، فتخبى أمانيتهم التي تعلق بها هذه الآلهة، لأنها تعلق بأوهام لا حقيقة لها، يدعونهم فلا يستجيبون لهم.

وأهل الكتاب الكافرون بالإسلام تتعلق أمانيتهم بتصورات باطلة وعقائد فاسدة.

والملاحدون الدهريون تتعلق أمانيتهم بحدود الحياة الدنيا، فيسعون وراءها، ويكدون لاهئين، ثم لا تتحقق أمانيتهم.

ففي الحديث عن أهل الكتاب قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ .

وخاطب الله المشركين بقوله في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَحِدْ
لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١١٢﴾﴾ .

ويوم القيامة يخاطب المؤمنون المنافقين والمنافقات فيقولون لهم ضمن حوار
طويل: ﴿وَعَرَّزْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ، أي الشيطان .
ويصور الله لنا هذا الحوار بقوله في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف /
٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا
وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴿١١٣﴾
يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ
حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١١٥﴾﴾ .

● الغرور بوساوس شياطين الجن والإنس :

وساوس شياطين الإنس والجن تدغدغ في الكافرين ما لديهم من الأماني
الكاذبة ، وتشيرها وتغذيها ، وتعدُّ وتمني ، ولكنها ما تعد ولا تمني إلا غروراً ، وفي
ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا
مُّبِينًا ﴿١١٦﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١١٨﴾﴾ .

إنها الخطة التضليلية التي رسمها إبليس لإغواء بني آدم، والتي بينها الله لنا بقوله في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مَوْفُورًا ﴿١٨﴾ وَأَسْتَفِرُّ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَنْ يَتَّبِعْ بَصَوْتِي وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ مَا يُعَدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٩﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

لأحتنكن ذريته، أي: لأستأصلن بالإغواء ذريته، وأصل المادة مشتقة من الحنك، يقال لغة: احتنك الجراد الزرع إذا أكله، والجراد يأكل بحنكه أكلًا مستأصلًا فلا يبقى ولا يذر. أو لأقودن ذريته كيف شئت، يقال لغة: حنك الرجل دابته إذا شد حبلًا في حنكها الأسفل ليقودها كيف شاء، فهو شبيه باللجام الذي يجبر الدابة على طاعة من يقودها، ولعل هذا المعنى هو الأقرب للمراد والله أعلم.

وقد امتحن إبليس التفرير بآدم وزوجه، وحلف لهما أنه من الناصحين، فأوقعهما بمخالفة الله، وتسبب لهما بالخروج من الجنة، وكانت وسيلته التفريرية تشتمل على تدرج مكر، وقد عبّر الله عنه بقوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي: أنزلهما في هوة المعصية كمن يدلي إنسانًا في بئر ليشرب من مائها، ولكن هذه البئر لا ماء فيها، التدلية مشتقة من إنزال الدلو في البئر، ومعلوم أن هذا الإنزال يكون شيئًا فشيئًا، فالتدلية تتضمن معنى التفرير بتدرج.

وقد أوضح الله قصة هذه التدلية الشيطانية في سورة [الأعراف، الآيات:

١٩ - ٢٣].

وخطة شياطين الإنس في التفرير بالمواعيد الكاذبة ودغدغة الأمانى أخطر وأفعل من خطة شياطين الجن، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا،

ويتولى شياطين الإنس إغواء الناس وتغريهم بأقوالهم المزخرفة وأباطيلهم المنمقة، فيوقعون من يستجيب لهم بالغرور، قال الله تعالى في سورة (الأنعام) ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَنَصْنَعَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْنَهَا وَمَا هُمْ بِمُقْتِرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

فيتعاون شياطين الإنس والجن على وضع الضلالات المغررة التي يغتر بها من يستجيب لهم، ممن تميل أفئدتهم إلى ضلالاتهم، إذ إنهم لا يؤمنون بالآخرة، ثم إنهم حين يغترون بهذه الضلالات يرضونها، ويقتربون ما يقتربون من آثام، ويقتربون ما يقتربون من شرور.

ويعد الظالمون بعضهم بعضاً مواعيد لا تخرج عن دائرة الغرور، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (فاطر) ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤١﴾﴾

● غرور الكافرين بمفتريات أنفسهم:

قد يبدو غرور الإنسان بما يفتره هو نفسه غروراً عجبياً، ولكن قد يحصل بمؤثرات عدة، منها الهوى الطاغي، والغضب المفقود للصواب، والخوف المضيق للرشد، والطمع الذي يغشي على البصيرة.

وهذا يذكّرنا بطمع أشعب واغترابه بما كان يفتره هو للصبيان من ولائم ليصرفهم عنه، حتى إذا انصرفوا عنه إلى جهة الوليمة التي اختلقها لهم لحقهم طمعاً بأن يجد تلك الوليمة فعلاً، وينسيه طمعه أنه هو صانع الأكذوبة.

مثل هذا من أشعب وأضرابه قد يكون طريفاً مضحكاً، أما أن يوجد نظيره في قضايا الإنسان الكبرى، لا سيما ما يتعلق بالعقائد الكبرى وأمور الدين فهو العجب العجيب، إنه لعب بالمصير، وتورط خطير في شر مستطير.

وقد تمثل قصة اللّصّين والشيخ زنكي اغترار الإنسان بمفتريات نفسه .

يُحكى أن لصين تعاونوا على اللصوصية وقطع طريق الناس حقبة من الزمن، ولكن جلب لهما هذا العمل تشرداً في الأرض ومتاعب كثيرة، فأوحى لهما الشيطان أن يقيما ضريحاً كاذباً بالقرب من بلدة يعتقد أهلها بالخرافات، وأن يكونا قَيِّمين على هذا الضريح، ويفتريا له عند الناس الكرامات، حتى يفد إليه الجهلة والوثنيون ويقدموا له القرابين والأموال تقرباً إليه وتبركاً به، وفَعَلَا ذلك بعد أن دفنا في القبر كلباً ميتاً، وأطلقا على صاحب الضريح اسم الشيخ زنكي .

كانا لصين فقط، فصارا لصين مضللين شيطانين .

وبدأ ناقصو العقول من الرجال والنساء يفدون إلى هذا الضريح للتبرك، ويبدلون له القرابين والأموال، ويستولي عليها هذان اللسان، ثم طمع أحدهما بما جمعه قرينه من مال فسرقه منه، فاختصما، فأنكر السارق، فاستحلفه خصمه، فحلف له بالشيخ زنكي أنه لم يسرق منه شيئاً، فقال له قرينه : ما هذا القسم؟ كلب دفناه معاً، أفصدّقت الفرية التي افتريناها معاً؟ أم تريد أن تحتال عليّ وتخدعني، واقتتلا فقتل كل منهما صاحبه .

وكثيراً ما يفترى الناس الفِرى، ثم ينخدعون بها هم أنفسهم، ويتصرفون تصرف الساقط في الغرور، لا سيما إذا وجدوا من يصدقهم بها، وطال عليهم الأمد، ومرت بهم مصادفات تدعم ما افتروه في ظنّ الجاهلين .

إن القبيح شديد القبح إذا زعم أنه جميل واستطاع بحيلته أن يخدع فئة من الأغبياء، فأخذ هؤلاء يثنون على جماله، فإنه كثيراً ما يسقط في الغرور فيعتقد نفسه جميلاً جداً، مع أنه في نظر غير هؤلاء الأغبياء قبيح جداً .

وكثير من المذاهب المصنوعة للتضليل يصدرها أصحابها افتراء ويزيّنونها بالأقوال المزخرفة، ثم إذا طال الأمد وصدقها فريق من الناس اغتر بها مصدروها أنفسهم، فاعتقدوها إيماناً بعد أن كانوا قد أطلقوها افتراء .

فالكافرون قد يقعون فريسة الغرور بما كانوا قد افتروه هم، وقد أشار القرآن

إلى هذا النوع من الغرور فقال الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

فهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب قد افتروا على ربهم فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، ثم صدقوا فرية أنفسهم، واتخذوها عقيدة من عقائدهم، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون من أكاذيب على ربهم.

وما أكثر الأكاذيب التي يفتريها الناس في العقائد، ثم تتحول هذه الأكاذيب بتطاول الزمن واستجابة الجهلة لها وبعض المصادفات المؤيدة، إلى عقائد راسخة في الدين، حتى في نفوس واضعيها ومخترقيها، وهذا أقبح الغرور أن يغتر الإنسان بما افتراه هو.

(٥)

الطبع على قلوب الكافرين

من فطرة الإنسان إذا هو عاند وأصرَّ على الباطل بعد معرفة الحق المبين، وأعلن تكذيبه وكفره بالحق، أن يصاب قلبه بالصمم، وأن يتبدل حسه تجاه الحق والخير، فإذا ألقى عليه الهدى أعرض عنه ولم يستمع إليه، ولم يدرك جوانب الحق فيه، ولم يتحرك وجدانه وضميره بعاطفة إيجابية نحو الخير، ويكون كالصخر الأصم الذي لا يقبل ندى معرفة، ولا يندى بعاطفة، فإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فإنه يكون مغلف القلب مسدود المنافذ محجوباً بحجاب غليظ، حتى يكون بمثابة البيت الذي أغلق بابه، وضرب عليه بالأقفال، ثم ختمت الأقفال بطابع الطين أو الشمع، إشعاراً بوصولها إلى غاية إقفالها، أو بمثابة المعدن الذي يعلوه الصدأ حتى يغشيه تغشية تامة، ويحجبه حجباً كاملاً،

وهذا هو الرّان الذي يغشّي قلوب الكافرين المكذبين، وهو ما ورد في قول الله تعالى في شأنهم في سورة (المطففين / ٨٣ مصحف / ٨٦ نزول):

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

فالطبع على القلوب كناية عن بلوغها مستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فهي لا تتأثر ببيان، ولا تستجيب لموعظة، فكأنها بيوت مقفلة مطبوع عليها، أو قطعة من المعدن قد علاها الصدأ فغشاها.

دل على هذا جملة من النصوص القرآنية، ويظهر لنا أيضاً من واقع حال الكافرين المعاندين المكذبين، إذ تكون قلوبهم في حجاب كامل عن قبول أية معرفة تتصل بالحق الذي كذبوا به وجحدوه، وتكون ضمائرهم ميتة لا تحس بمشاعر الخير الذي يدعوهم الحق إليه.

وسبب هذا الطبع الذي تصاب به قلوبهم كفرهم وتماديهم في الغي، واستغراقهم في معاصيهم وذنوبهم، وهذه النتيجة هي من السنن الكونية التي حذّر الله أهل القرى منها، فقال - تعالى - في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ شَاءَ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾ تِلْكَ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأوضح الله تعالى في هذا النص أن من سنن كونه الطبع على قلوب الكافرين، فهو نتيجة تحصل بسبب ما يكسب الكافرون بكفرهم وجحودهم من ذنوب، وبسبب طول الأمد عليهم وهم مكذبون.

وفي نص آخر بين الله تبارك وتعالى أن سبب الطبع على قلوب اليهود إنما هو كفرهم ، فقال تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):
﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ شَايَنَتِ اللَّهُ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ .

فالطبع على قلوبهم قد كان بسبب كفرهم ، وكان نتيجة له ، ولكن النتائج الطبيعية السببية والسنن الكونية إنما تتم بخلق الله ، ولذلك تنسب إلى الله تبارك وتعالى خلقاً وتقديراً ، مع أنها نتائج طبيعية لأعمال يكسبها الناس .

وتحدث الله عن المنافقين فبين أن تحولهم من الإيمان إلى الكفر قد كان سبباً في الطبع على قلوبهم ، فقال تعالى في سورة (المنافقون / ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول):

﴿... إِنْهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ .

ففي هذه الآية دلالة على أن الطبع على قلوبهم قد جعلها محجوبة عن تقبل المعارف الربانية ، فهم لا يفقهون منها ما يهديهم .

وقد تكرر في القرآن بيان الطبع على قلوب المنافقين ، وأنهم بذلك لا يفقهون ما يلقي إليهم من هداية ، ولا يعلمون ما يضرهم وينفعهم في عاقبة أمرهم ، فقال تبارك وتعالى في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿... وَقَالُوا أَذْرَانَا كُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ .

وقال تعالى فيها أيضاً:

﴿... رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

أي: تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، أي: مع النساء، وطبع على قلوبهم بسبب نفاقهم ومعاصيهم، فهم لا يفقهون ولا يعلمون.

وأكد الله هذه الحقيقة عن المنافقين، وذكر أنهم يتبعون أهواءهم، وطبيعي أن من لا يفقه الحقيقة ولا يعلم العاقبة فلا بد أن يتبع هواه، قال تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ (١٦)

وخصَّ المنافقين بهذا الاهتمام في موضوع الطبع على قلوبهم لأنهم مخالطون للمؤمنين، يستمعون أقوال الهداية باستمرار.

والطبع على القلوب يقترن به الطبع على الأسماع والأبصار، لأنها أهم منافذ القلوب إلى مواد المعارف التي تأتي من خارج كيان الإنسان، ولذلك قال الله تعالى في شأن من شرح بالكفر صدراً في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٩﴾

● الأسباب المؤدية إلى الكفر فالطبع على القلوب:

وقد أشار القرآن إلى الأسباب الباعثة على كفر الكافرين والتي يتولد عنها الطبع على قلوبهم ضمن سنن الله الثابتة، وهي ثلاثة أسباب:

السبب الأول: النفسية العدوانية، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿...كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

السبب الثاني: النفسية الجاهلة المنساقة مع الهوى، والتي لا تريد أن تعلم الحق خشية أن تنغص عليها المعرفة ما هي فيه من استغراق في الفجور، وفي

الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩)

السبب الثالث: النفسية المستكبرة الجبارة، وهذا أخطر الأسباب، ولذلك يكون الطبع بسببه على كل قلب متكبر جبار، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى في سورة (غافر / ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥)

أي: لا يقتصر الطبع على بعض قلبه، بل يكون عليه جميعاً.

● تنوع التعبيرات القرآنية للدلالة على حقيقة الطبع على القلوب ومنافذها: لقد جاء التعبير في القرآن عن هذه الحقيقة التي شرحناها بعبارات مختلفة، فكما رأينا جاء التعبير عنها بلفظ الطبع، ثم جاء التعبير عنها بالأقفال على القلوب، وجاء التعبير عنها بالختم إلى غير ذلك من ألوان في التعبير وكلها تحمل دلالات متقاربة لمدلول عليه واحد أو متقارب.

(أ) فالتعبير بالأقفال على القلوب قد جاء في معرض الحديث عن المنافقين في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٢) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ
أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)

ففي هذا النص تعبيران:

تعبير مباشر بأن نفاقهم قد سبب لهم الصمم عن قبول أقوال الهداية، والعمى عن رؤية آيات الله البينات في أنفسهم وفي الكون من حولهم.

وتعبير غير مباشر، وذلك بالنسبة إلى قلوبهم، فقال تعالى: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾، وهذا كناية عن الحجب التي تحجب بها قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم.

(ب) والتعبير بالختم نجده في قول الله تعالى في أوائل سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ .

فهؤلاء الذين كفروا بعد بيان الحق لهم وأصروا على كفرهم وعنادهم قد وصلوا إلى حالة من انطماس البصيرة وتبُّد الحس لا ينفع معها الإنذار بسوء المصير، لأنهم جحدوا اليوم الآخر وما فيه من جزاء، فالإنذار وعدمه بالنسبة إليهم سواء ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، وظاهر أن السبب في ذلك هو ما وصلوا إليه من الختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وما جَلَّلَ أبصارهم من غشاوة حجبها عن رؤية آيات الله ودلائل وجوده، وحكمته وعدله. وهذا الختم وهذه الغشاوة هما من النتائج الطبيعية لما هم فيه من الكفر المعاند، بعد بيان الحق لهم بمختلف الوسائل.

ونجد التعبير بالختم في قول الله تعالى في سورة (الجاثية) / ٤٥ مصحف / ٦٥ نزول):

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢) .

فهذا فريق من الناس قد اتخذ إلَّهه هواه، فهو يعبد أهواء نفسه، فيطيعها في أوامرها ونواهيها، ويسارع في تحقيق مطالبها وشهواتها، ولو كان في ذلك أذاه وضره وهلاكه، ومن اتخذ إلَّهه هواه فقد ضلَّ سواء السبيل، ومن ضلَّ بجنوحه واتباعه أهواء نفسه أضله الله، فحكم عليه بالضلال حكماً مبنياً على علم بواقع حالة الضال، وإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من الضلال واتباع الهوى قسا قلبه، وران عليه ما كسب من إثم، فحُجِبَ عن إدراك الحقائق الدينية الربانية، وغُلِّف بغلاف شامل، وختم على هذا الغلاف، وكان شأن أدوات المعرفة لديه كشأن قلبه، فيختم على سمعه أيضاً، فلا يستمع إلى نصيحة، ولا يتقبل موعظة من مواعظ

الهداية الربانية، ويُجعل على بصره غشاوة، فلا يرى آيات علم الله وحكمته وعدله المنبئة في الوجود.

ولهذا نَسَبَ تصيب صغراها العصاة من المؤمنين، وتصيب كبرائها الكافرين والمنافقين.

وقد يصغي المختوم على قلبه وسمعه إلى المواعظ إصغاءً صورياً، إلا أن هذا الإصغاء الصوري ليس له أثر في النفس، فوجوده كعدمه، ويبقى بعده الإصرار والاستكبار، كأن السامع لم يسمع من الهداية شيئاً، وهذا المعنى قد بينه الله تعالى بقوله في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَلِكُلْ أَفْأَكُ أَثِمِرِ ﴿٦٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦٩﴾ ۞

فهذا الأفأك الأثيم يسمع آيات الله تتلى، ويظل مصراً على كفره، مستكبراً في نفسه، فكأنه لم يسمع شيئاً، إن بينه وبين الاستماع الحقيقي المؤثر حجاباً من كبر نفسه واتباعه الهوى، فهو مختوم على قلبه وسمعه.

فالتعبيرات قد جاءت في هذا المجال بالأقفال وبالختم وبالطبع، ولعلها مستويات ثلاثة، تبدأ بالأقفال، كأقفال الأبواب، ثم يكون الختم كالختم بالطين أو الشمع على الأقفال، ثم يكون الطبع، كالطبع على الطين أو الشمع بالخاتم المنقوش بصورة متميزة، وهذا الطبع يكون في آخر عمليات أحكام الغلق وتثبيتته، وهو كناية عن الانحجاب الكامل الذي تصل إليه قلوب الكافرين والمنافقين، بعد مراحل من العناد والاستكبار.

وقبل الأقفال تتوارد النكت السوداء على القلوب نكتة فنكتة^(١) بسبب

(١) النكتة: النقطة السوداء.

المعاصي القلبية حتى يجعلها الران، وهذا قد تتعرض له قلوب المؤمنين ولكن في مستوى ما دون الران.

(٦)

وصف الكافرين بأنهم كالأنعام بل هم أضل

لقد عطل الكافرون بالله ما وهبهم الله من عقل، وما منحهم من وسائل استنباط واستنتاج، فوقفوا بها عند حدود ظواهر المادة وأسبابها القريبة ولم يؤمنوا بالحقيقة الكبرى التي تدل هذه الظواهر عليها، كما أنهم لم يستجيبوا لمشاعرهم الفطرية نحو هذه الحقيقة الكبرى.

وبما أنهم عطلوا ما وهبهم الله عما يجب عليهم أن يستعملوه فيه، كانوا هم وفاقد هذه المواهب سواء بحكم النتيجة.

لقد خلق الله فيهم عقولهم ووسائل إدراكهم لينظروا في الكون ويدرسوا خصائصه، وليستدلوا منه على خالقه ومبدعه ومدبر أمره، لكنهم نظروا في الكون فوقفوا عند حدود الظواهر وأسبابها القريبة التي لهم بها مصلحة في حياتهم الدنيا، ثم أنكروا خالقه ومبدعه ومدبر أمره، فكانوا بالنسبة لهذا القطاع الفكري كالأنعام، بل هم لدى التحقيق أسوأ حالاً وأضل سبيلاً، لأن فاقد الشيء أصلاً وهو لا يملك وسيلة لتحصيله واكتسابه معذور بفطرته. فالحيوان الذي لا عقل عنده ولا بصيرة تهديه معذور بضلالته إذا ضل، وربما تلجمه غريزته عن الإمعان في الضلال. بخلاف الإنسان الذي يعطل عقله عما خلق من أجله فهو غير معذور، والمسؤولية تلاحقه على مقدار ما وهبه الله من قوة إدراك معطلة، ومؤاخذته تكون أشد، ومسؤوليته تكون أعظم حينما يسخر عقله ومواهب فهمه وإدراكه في خدمة أهواء نفسه الجانحة الجامحة، وعندئذ ينطلق في ميادين الشر والفساد بذكاء وحيلة، ولا يقف عند حدود محدودة، فلا لجام من غريزته، ولا ضابط من عقله، ومواهبه الذهنية مسخرة لأهواء نفسه في الضلال والفساد والشر، فهو بذلك أضل سبيلاً من الأنعام، ويصح أن يحكم عليه بأنه شر الدواب عند الله.

فإذا ذكّر بالله والخير وفعل الصالحات لم يسمع من ذلك شيئاً، لأن قلبه مقفل بأقفال الأهواء والشهوات، مطبوع عليه، ولو سمع بأذنيه الكلام المذكّر بالله فإن قلبه وفكره في حجاب غليظ عن سماع مضمونه.

وإذا عرضت عليه آيات الله البينات في نفسه وفي الكون من حوله لم يرَ منها شيئاً، لأن بصيرته محجوبة بحجب الأهواء والشهوات ومصالح الدنيا ولذاتها، فلا يرى من الآيات إلا ظواهرها الدنيوية، أما دلالاتها الحقيقية الربانية فلا يرى منها شيئاً، وتظل بصيرته في عمى عنها، بسبب كفره بربه وبجزائه واليوم الآخر، وبسبب انحصار كل تصوراته في حدود الحياة الدنيا ومتعتها وزينتها وهمومها وأحزانها.

فمن أجل ذلك صحّ وصف هذا الفريق من الناس بأنه أصم أبكم أعمى، وبأنه لا يعقل.

فما قيمة سمع لا يؤدي وظيفته الأساسية؟ وما قيمة بصر لا يؤدي وظيفته الأساسية؟ وما قيمة فكر لا يهدي صاحبه إلى رشد وسعادته؟ إن وجودها وعدمها سواء في حكم النتيجة العاجلة، ووجودها شر وبلاء على صاحبها في حكم النتيجة الآجلة والعاقبة الوخيمة يوم الجزاء الأكبر.

وقد تظاهرت النصوص القرآنية في الدلالة على هذه الحقيقة، منها قول الله تعالى في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾

فالكافرون بالله الذين اتخذوا أهواءهم آلهتهم لا يسمعون إلى نصائح الهداية، ولا يعقلون نفوسهم عن مواقع الضلالة، وما هم في حياتهم إلا كالأنعام يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون كما تتمتع الأنعام، بل هم أضل منها في الحياة سبيلاً، لأن الأنعام تلجمها غرائزها، أما الكافرون من الناس فليس لديهم ما يلجمهم عن الشر الكبير والفساد العريض.

ومنها قول الله تعالى في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۖ﴾ (١٢)

ومنها قوله تعالى في سورة (الحجر / ١٥ مصحف / ٥٤ نزول):
﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۖ﴾ (١٤) ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ۖ

فهم في تمتعهم في الحياة كما تتمتع الأنعام تلهيهم آمالهم، حتى إذا جاءت
آجالهم قطعت كل آمالهم.

ومن البديع أن الله تبارك وتعالى قد أثبت لهم قلوباً وأعيناً وآذاناً، ولكنه أثبت
أيضاً أنهم لا يفقهون الحق بقلوبهم، ولا يبصرون آيات الله بأعينهم، ولا يسمعون
أقوال الهدى بأذانهم، لذلك فهم كالأنعام بل هم أضل وهذه الغشاوات على
مداركهم إنما تراكبت عليها بسبب غفلتهم وانشغالهم بمتاع الحياة الدنيا، قال الله
تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ ۖ﴾ (١٧٩)

ومن أجل ذلك كانوا شر الدواب عند الله، وهذا ما أعلنه الله بقوله تعالى في
سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَانْتُمْ تَسْمَعُونَ ۖ﴾ (١)
تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١﴾ ۖ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ
الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ۖ

فبين الله أن سبب كونهم شر الدواب عند الله أنهم صم عن سماع الهدى، بكم عن قول الخير والاعتراف بالحق، لا يعقلون نفوسهم عن أهوائها الجانحة، وبذلك كانوا كافرين بالله واليوم الآخر، ولو علم الله فيهم خيراً من إيمان أو إرادة للخير لأزال الغشاوات التي تراكت عليهم فأسمعهم، ولكن لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، فلم ينتفعوا لأنهم هم السبب في هذه الغشاوات الحاجبة لهم.

وأوضح الله في آية أخرى أن شر الدواب عند الله الذين كفروا، فدل ذلك على أنهم هم الصم البكم الذين لا يعقلون، فقال تعالى في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ووصف الله الكافرين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول) بأنهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون، فقال تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً يُصِمُّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

ووصف المنافقين بمثل ذلك فقال فيها أيضاً:

﴿صُمُّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

(٧)

موقف الكافرين من المؤمنين

عرفنا أن موقف المؤمنين من الكافرين هو موقف الرغبة بهدايتهم وإرادة الخير لهم، ليظفروا بالحياة الطيبة في الدنيا والسعادة الخالدة يوم الدين.

أما موقف الكافرين من المؤمنين فهو موقف كراهية وعداء، وإرادة تكفير ومحاولات تضليل، ويرافق ذلك حقد وتغيظ كلما رأوا خيراً أصاب المؤمنين، ومع

الكراهية والعداء والحقد والتغيظ تأتي مكايدهم الظاهرة والخفية، وألوان حروبهم الساخنة والباردة، المادية والمعنوية .

وقد تعرضت البيانات القرآنية إلى كل ذلك، وحذرتنا من الركون إليهم، ومن الانزلاق في مزالقهم، والوقوع في حبائلهم، والاستجابة لوساوسهم ودسائسهم التي يقدمونها لنا على صفة نصائح، لنعرف خصومنا وأعداءنا، فنكون على حذر من مكائدهم ودسائسهم، ونستطيع أن نواجه كل مكيدة بما يدفعها، ونملأ الثغور التي يمكن أن ينفذوا منها بالحراس الأسود اليقظين .

● البيانات القرآنية :

أما البيانات القرآنية في هذا المجال فمتعددة، منها البيانات التالية :

(أ) يقول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥) .

فهذا النص يكشف موقفاً من مواقف الكافرين تجاه المؤمنين، فهم ما يودون (أي فهم يكرهون) أن يصيب المؤمنون خيراً، سواء أكان خيراً مادياً أو خيراً معنوياً، وذلك لأن كفرهم قائم على الأنانية والحسد، وكراهية الحق، والتعصب الأعمى للعقائد الموروثة، وهذه العوامل تجعلهم يكرهون الخير للمؤمنين الذين يخالفونهم في عقيدتهم وفي منهج حياتهم .

إن الكافرين في كل هذا على عكس المؤمنين، وذلك أن المؤمنين يحبون الخير للناس أجمعين، وأول ما يحبون للناس النجاة والسعادة بالإيمان والإسلام وطاعة الله والرسول، وقيادة الخلق إلى الحق، ثم يحبون انتشار السلم والأمن والسعادة في الناس أجمعين، ومشاركة الناس لهم فيما هم فيه من سعادة ومجد وخير عظيم .

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا

مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَىٰ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَسْسَكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْعًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ .

ففي هذا النص يكشف الله عدداً من العناصر التي يشتمل عليها موقف الكافرين من المؤمنين، بعد أن ينهى المؤمنين عن أن يتخذوا بطانة من دونهم.

١ - ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾، أي: لا تتخذوا أقواماً من غيركم من الكافرين والمنافقين بطانة يداخلونكم ويخالطونكم، ويطلعون على أسراركم، ويقدمون إليكم نصائحهم ومشوراتهم.

وبطانة الرجل أهل سره ممن يسكن إليهم ويثق بهم، والكلمة مستعارة من بطانة الثوب التي تكون مداخله مخالطة، وتكون أقرب إلى ملازمة الجسد.

٢ - ﴿لا يألونكم خبالاً﴾، أي: لا يقصرون في إفسادكم وتدمير المكايد ضدكم.

٣ - ﴿ودوا ما عنتكم﴾، أي: ودوا عنتكم، والعنت المشقة والشدة والضيق والضرر الشديد، فهم يتمنون كل ذلك لكم، وهذا غاية العدا.

٤ - لذلك فلا بد أن تبدو البغضاء من أفواههم فيما يقذفون عليكم من أقوال، رغم تكتمهم، ورغم تصنعهم ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾.

٥ - وهذا يدلنا على أن ما يخفون في صدورهم أكبر بكثير مما يظهر على ألسنتهم، أو يبدو في أعمالهم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾، فهم في الظاهر قد ينافقون ويدهنون، ولكنهم إذا خلوا كشفوا ما في صدورهم من غيظ ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل: موتوا بغيظكم﴾ إن الله عليم بذات الصدور.

٦ - هذا الموقف العدائي من الكافرين للمؤمنين يلزمه طبعاً أن يسوؤهم

ما يسركم وأن يسرهم ما يسوؤكم، فإن تمسسكم حسنة من خير الدنيا ولو مساً خفيفاً ساءهم ذلك، وإن تصبكم سيئة إصابة بالغة سرهم ذلك ففرحوا بها ﴿إن تمسسكم حسنة تسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾.

٧ - ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾، أي: فلا تكونوا مغفلين بعد أن عرفتكم موقفهم العدائي منكم أيها المؤمنون.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (الحج / ٢٢ / مصحف / ١٠٣ / نزول):

﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمْ أَتَارَوْعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

طبيعي أن من كان بهذه النسبة من العداوة المبيّنة في النص السابق أن يكون على نار من الغيظ، فمتى سنحت له الفرصة لیسطو بعده سطا بعنف وقسوة، فحاله حال قابع منتظر يتربص الدوائر، حتى إن أمارات الرغبة بالسطو تظهر على وجوههم، فيقرأ المتفرس الخبير هذه الرغبة المنكرة في وجوههم.

فالحذر منهم يجب أن يكون حذراً بالغاً، حتى لا يسقط المؤمنون في مكيدة من مكائدهم، وحتى لا يقعوا فريسة سطو مفاجيء منهم، إن هذا أقل ما يجب بالنسبة لأعداء مبغضين لا يألون جهداً في ضر المسلمين.

(د) ويقول تعالى في سورة (المتحنة / ٦٠ / مصحف / ٩١ / نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالشُّوَءِ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

نزل هذا النص لتربية المؤمنين بمناسبة ما فعل حاطب بن أبي بلتعة، إذ حاول أن يرسل إلى مشركي مكة خبر عزم الرسول على التوجه إليهم، وكان ذلك قبيل فتح مكة.

وقد اشتمل هذا النص على بيان موقف الكافرين من المؤمنين، ليقف المؤمنون منهم موقف الحذر وعدم الموالاة.

١ - فالكافرون يعادون الله ويعادون المؤمنين، فهل يليق بالمؤمنين العقلاء أن يتخذوا من الكافرين أولياء يلقون إليهم بالمودعة؟ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾.

٢ - وسبب عدائهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، فهم مخالفون لكم في أصل العقيدة، والخلاف في العقيدة يمثل تبايناً جذرياً بين المتخالفين ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾.

٣ - ومن مظاهر عدائهم لكم أنهم قد أخرجوا الرسول وأخرجوكم فعلاً من دياركم وأموالكم في مكة، ويخرجون كل مؤمن، لأنهم وجدوكم قد آمنتم بالله ربكم، فنقموا عليكم ذلك، واعتبروكم أعداء للخلاف الاعتقادي الذي خالفتموهم فيه منذ آمنتم بالله ربكم وكفرتم بآلهتهم وعقائدهم الباطلة.

٤ - وقلوبهم مملوءة بالغيظ والحنق عليكم ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾.

إن رغبتهم ببسط الأيدي والألسن بالسوء إليكم رغبة متربصة، تنتظر فرصة سانحة حتى تتحول إلى تنفيذ مادي وتطبيق عملي.

وبسط الأيدي بالسوء يكون بالحرب والقتال، وبسط الألسنة بالسوء يكون بالطعن والتجريح والهزء والسخرية والسباب والشتائم ونحو ذلك.

٥ - ﴿وودوا لو تكفروا﴾، وهذه هي الرغبة الأساسية التي تحل مشكلة نفوسهم ضدكم، فهم ما نقموا منكم إلا أن تؤمنوا بالله العزيز الحميد.

(هـ) ويقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَلَا تَصَيِّرُوا ۝٨٩﴾ .

فالكافرون يحرصون أشد الحرص على تحويل المؤمنين من الإيمان إلى الكفر، ويبدو أن رغبتهم هذه تعبر عن نفسها بمحاولات كثيرة يتخذونها لإفساد أحوال المسلمين، وإخراجهم من الإيمان إلى الكفر.

(و) ويقول الله تعالى في سورة (العنكبوت / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ۝١٢٤ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا مَعْ أَثْقَالَهُمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝١٢٥﴾ .

فالكافرون لا يقفون عند حدود الرغبة بتكفير المؤمنين، بل يدعونهم لاتباع سبيلهم، ويزينون لهم هذه الدعوة، ويزعمون لهم أنهم يحملون عنهم آثامهم، إن كان في الكفر وفي اتباع سبيلهم آثام.

(ز) ويقول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢١٧﴾ .

فهم لا يكتفون بالتبشير اللساني من أجل تكفير المؤمنين، بل يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم ويعيدوهم كفاراً.

وبين الدعوة اللسانية التبشيرية والقتال من أجل التكفير، تأتي مختلف الوسائل التي تزيد على التبشير اللساني وتقل عن القتال.

(ح) من أجل كل ذلك حذر الله الذين آمنوا من طاعة الذين كفروا، فقال تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ
أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ .

وقال فيها أيضاً:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَافِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ .

● خلاصة ما اشتملت عليه هذه البيانات القرآنية :

باستطاعتنا أن نلخص موقف الكافرين من المؤمنين اقتباساً من البيانات القرآنية بالعناصر التالية .

- ١ — ما يود الذين كفروا أن يُنزل على المؤمنين أي خير من ربهم، وهذا العداء يرجع إلى جذور نفسية قائمة على الأنانية والحسد والتعصب الأعمى .
- ٢ — لا يآلو الكافرون في إفساد أحوال المؤمنين وتدبير المكائد ضدهم .
- ٣ — يود الكافرون للمؤمنين كل عنت ومشقة وشدة وضيق وضرر .
- ٤ — الكافرون يبغضون المؤمنين بغضاً شديداً يطفح على تصرفاتهم، حتى تبدو البغضاء من أفواههم، وطبيعي أن ما تخفي صدورهم أكبر .
- ٥ — قد يداهن الكافرون في الظاهر بمقتضى نفاقهم، ولكنهم إذا خلوا عضواً على المؤمنين الأنامل من الغيظ .
- ٦ — من سمات الكافرين أنهم يستأوون إذا مست المؤمنين حسنة، ويفرحون إذا أصابت المؤمنين سيئة .
- ٧ — ملامح إرادة الشر بالمؤمنين تظهر على وجوه الكافرين، فيعرف أهل الفراسة في وجوه الذين كفروا المنكر، ويقرؤون فيها رغبة السطو والاعتداء، كلما ظهر الذين آمنوا بإيمانهم، وبالدعوة إلى ربهم .
- ٨ — الكافرون يعادون الله ويعادون المؤمنين .

- ٩ — سبب عدائهم للمؤمنين أنهم مخالفون لهم في أصل العقيدة .
 ١٠ — لعدائهم للمؤمنين مظاهر شتى ، منها إخراجهم من ديارهم وأموالهم .
 ١١ — إن يثقفوا المؤمنين يسيطروا إليهم أيديهم وألستهم بالسوء .
 ١٢ — يودون لو يكفر المؤمنون فيكونون سواء معهم عقيدة وسلوكاً .
 ١٣ — يتخذون وسائل شتى لتحقيق رغبتهم بتكفير المؤمنين ، أدناها الدعوة اللسانية التبشيرية ، وأعلىها الحرب بكل صورها وأشكالها .

* * *

- لكل ذلك حذر الله المؤمنين مما يلي :
 ١ — حذرهم من أن يتخذوا الكافرين أولياء .
 ٢ — حذرهم من أن يتخذوا بطانة من دونهم (كافرين أو منافقين) .
 ٣ — حذرهم من أن يلقوا إليهم بالمودة على حساب العقيدة أو على حساب مصلحة المسلمين .
 ٤ — حذرهم من أن يغفلوا عنهم ، وأمرهم بأن يكونوا على يقظة تامة ، حتى لا تدخل عليهم مكائد الكافرين من حيث لا يشعرون .
 ٥ — حذرهم من طاعة الكافرين ، لأنهم إذا أطاعوهم ردوهم عن إيمانهم فانقلبوا كافرين خاسرين .

(٨)

جدليات الكافرين

(أ) الجدل بالباطل إحدى صفات الكافرين الكبرى :
 وقد وصف الله الكافرين بأنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، أي :
 ليزيلوا به الحق من مواقع ثباته واستقراره في العقول والنفوس ، كما هو مستقر وثابت في الواقع والحقيقة ، فقال تعالى في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول) :
 ﴿ وَجَادِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا إِلَيْنِي مآً أَنْزِلُوا هُزُوا ﴾ (٥٦) .

إنهم لا يقتصرون على الجدل بالباطل، بل يضيفون إليه عمليات الهزاء والسخرية لتغطية فساد أسلحتهم التي يستعملونها في الجدل.

والجدل بالباطل صفة ملازمة للكافرين في كل عصر، قال الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ۚ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ ﴾

فالذين كفروا من قوم نوح والذين كفروا من بعد قوم نوح إلى مشركي قریش وكفار أهل الكتاب إلى غيرهم كل أولئك قد جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أعطى الله الكافرين هذا الوصف، وجعله وصفاً مستمراً في كل الكافرين، ومتجدداً ما تجدد في الناس كفر.

وهذا شيء طبيعي فيهم ما داموا ملتزمين جانب الباطل، إنهم يريدون أن يبرروا سلوكهم، ويدعموا آراءهم ومذاهبهم بأية وسيلة، لكن شيئاً من الحق لا ينصرهم ولا يدعم ما هم فيه، ولا يبرر سلوكهم، فافتضى واقع حالهم أن يزينوا الباطل ويزخرفوه ويجادلوا به، ليدحضوا به الحق القوي الثابت.

ومرض نفوسهم آتٍ من قبل داء الكبر، إنهم يستكبرون عن أن يعترفوا بالحق، وهم ملتزمون جانب الباطل بتأثير أهوائهم، ويجادلون بالباطل المزخرف، ليعطوا لأنفسهم صورة الكمال بين الناس، ولْيُغْشَوْا على بصائرهم حتى لا تنزل مكانتهم في نفوسهم، وهذا ما نبه الله عليه بقوله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۚ ﴾

فهؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، أي: بغير حق

ولا حجة منه، هم من المتكبرين الجبابرة، الذين طبع الله على قلوبهم، إذ حججوها عن رؤية الخير والهدى، بما جمعوا في نفوسهم من كبر متجبر.

ولما أكثر الكافرون على الرسول محمد ﷺ من جدلياتهم الباطلة كشف الله له داء نفوسهم هذا، وأمره بأن يستعِذ به، ليقوى على الصبر عليهم، وليفتح الله له من الحجج ما يدمغهم به، فقال الله له في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٥٥ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦﴾.

أي: ما في صدورهم من كبر ناشيء عن أوهامهم حول أنفسهم لم يكونوا ليلغوه في واقع حالهم، فهم يجادلون بغير سلطان أتاهم، والأمر الخطير أنهم يجادلون في آيات الله.

وحينما يجادل الكافرون يذهبون مذاهب متهافئة شتى، ويخطبون بغير علم خبط عشواء، ويقررون أموراً باطلة، ويلجؤون إلى الكذب تارة، وإلى المراوغة تارة أخرى، ويغالطون في الحقائق بالتعميم أو بالتخصيص أو بالحذف أو بالإضافة أو بالتمويه والإيهام، أو بنحو ذلك، ونجد الإشارة إلى ذلك في قول الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿الْمُرَّ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُصْرِفُون ۝٦١﴾.

أي: فهم يصرفون إلى سبل شتى من سبل الباطل والزيف، ويتعلقون في جدالهم بما ليس فيه حجة مقبولة.

والعجيب في الأمر أن الكافرين يجادلون في الله وفي آيات الله دون أن يكون لهم سند من علم صحيح، أو من عقل منطقي سليم. وهم قسمان: أتباع وقادة.

أما الأتباع فقد ذكرهم الله بقوله في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

فهؤلاء يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون في جدالهم القادة الشياطين المردة، الذين يضلونهم ويسوقونهم إلى عذاب النار.

وأما القادة فقد ذكرهم الله بقوله في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَفِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾.

فهؤلاء يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وهم يستكبرون بين الناس متعاليين بموقفهم القيادي، ويعرضون إعراض كبر وترفع، ليحافظوا على منزلتهم في نفوس أتباعهم وفي نفوس الآخرين، ويزيد ذلك حينما تنكشف أو تبدأ تنكشف ثغرات الضعف في حججهم التي يسوقونها، فيلاحظ أن أحدهم كلما شعر بضعف موقفه في النقاش ثنى عطفه استكباراً ليضل عن سبيل الله، ومن أجل ذلك كان له عند الله عقابان، فله في الدنيا خزي، وله في الآخرة عذاب الحريق.

أمام هذا الواقع الذي عليه الكافرون اقتضت ضرورة حماية الدعوة وتثبيتها وتأييدها مقارعة السلاح بنظيره. فكان على المؤمنين أن يقاوموا الجدل بالجدال، ويقارعوا الحجة بالحجة، ويدحضوا الباطل بالحق، ولكن جدال المؤمن يجب أن يكون جدالاً بالتي هي أحسن، وهذا ما أمر الله به رسوله إذ قال له في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِ لَهُمُ بَالَتِيَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وما خوطب به الرسول ﷺ فهو خطاب عام لكل المؤمنين ما لم يكن من خصوصيات الرسول بدليل خاص .

(ب) أصول جدليات الكافرين حول الحقائق الدينية :

لقد جادل الكافرون في قضايا الإيمان الكبرى: في قضية التوحيد، في قضية الرسول والرسالة، في قضية الإيمان باليوم الآخر، في قضية الكتاب المنزل من عند الله، في قضية القضاء والقدر، إلى غير ذلك.

وكانت جدلياتهم في كل ذلك تعتمد على ما يلي :

١ - الاحتجاج بما كان عليه آبائهم، وظاهر أن هذا ليس بحجة مقبولة عند العقلاء، لأنه تعبير عن التقليد الأعمى .

٢ - جحود الحقائق والأدلة الظاهرة بالمكابرة، والإصرار على اعتبارها من قبيل السحر أو الكذب أو الباطل، أو أساطير الأولين، وظاهر أن مثل هذا ليس بحجة، وإنما هو فرار من الإذعان إلى إطلاق الشكائم وتكذيب للحقائق بالأوهام .

٣ - الاحتجاج بالاستغراب والاستبعاد، دون سند من العقل الصحيح، والاستغراب والاستبعاد حجة مرفوضة، لأنها تعتمد على عدم الألف للموضوع، وأنه لم تسبق فيه مشاهدة حسية، وليس شيء من ذلك بمقبول منطقياً، فما كل حقيقة يجب أن تكون مألوفة، أو يجب أن تسبق فيها مشاهدة حسية للناس، كلهم أو بعضهم .

٤ - الاحتجاج بامتياز الكافرين على المؤمنين بوسائل الرفاهية والترف في الحياة، واعتبار ذلك دليلاً على فساد عقيدة المؤمنين ومنهجهم، لأنهم لو كانوا على حق لأغناهم الله وزادهم رفاهية وترفاً، وهذه حجة ساقطة، لأن أي عاقل يدرك أسس الإيمان وأهداف الحياة الدنيا، يعلم أن الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء، وأن إحدى مواد الامتحان في هذه الحياة الابتلاء بالغنى أو بالفقر، بحسب حالة كل إنسان، وأن الابتلاء بالغنى ليس تكريماً، وأن الابتلاء بالفقر ليس إهانة، حتى إذا انتهت فترة الامتحان وجاء دور الجزاء الأكبر في الآخرة،

ظهر تمييز المؤمنين على الكافرين، فللمؤمنين دار النعيم الخالد، وللكافرين دار الشقاء الأبدي.

٥ - الاحتجاج بتعلّات القضاء والقدر، وفق المفاهيم الجبرية المرفوضة في الدين، وظاهر أن مثل هذا ليس بحجة أصلاً، ما دام الدين - الذي هو مصدره الوحيد - يرفضه ولا يقبله، وذلك لأن مفاهيم القضاء والقدر الصحيحة إنما نأخذها من الدين، فمن تعلل بعلّة دينية يرفضها الدين نفسه، فقد كذّب على الدين ليحتج عليه بما ليس فيه ولا منه.

٦ - جدال لا أساس له إلاّ الكبر الطبعي، كقول الكافرين عن فقراء المؤمنين: «لو كان خيراً ما سبقونا إليه» وهذه حجة مضحكة للعقلاء، وقد زيّنها في أذهانهم اغترارهم بأنفسهم، واستكبارهم بما لديهم من متاع الحياة الدنيا.

٧ - اللجوء إلى عمليات الصدّ عن استماع الحق، والشتم والهزء والسخرية ونحو ذلك، مما يفعله المبطلون حينما تنهأوى حججهم، وتتساقط أدلتهم، وينقطعون فلا يستطيعون مجازاة الفكر بالفكر، والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان.

(ج) نظرات تفصيلية حول جدلياتهم:

ونلقى في هذه الفقرة نظرات تفصيلية حول طائفة من جدليات الكافرين في قضايا الإيمان الكبرى، لتبيّن مدى ما هم فيه من سقوط فكري فاضح حينما يعالجون قضايا تتعلق بعقائدهم ومناهجهم في الحياة، مخالفين فيها حقائق الدين وشرائعه.

● جدالهم حول قضية التوحيد:

لقد جادلت عاد قوم هود رسولهم هوداً عليه السلام في آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، مع أن معبوداتهم هذه لا تزيد في واقع حالها على أنها أسماء سموها هم وآباؤهم، لا يؤيد استحقاقها للعبادة سند من علم أو عقل، ولا سلطان من دين صحيح، وقد حكى الله جدالهم لهود عليه السلام في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا
تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَاءٍ سَمِيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطٰنٍ
فَأَنْظِرُونِي إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

فهم قد اخترعوا من عند أنفسهم أسماء وجعلوها آلهة يعبدونها، وجادلوا فيها
بغير قاعدة علمية، واكتفوا بحجة التقليد الأعمى .

وجادل كفار قريش رسول الله محمداً صلوات الله عليه في قضية التوحيد،
ولم يكن لهم حجة إلا التعجب من جعل الآلهة إلهاً واحداً، واتهام الرسول ﷺ
بالاختلاق والافتراء على الله، وقد وصف الله حالهم ومقاتلهم في سورة (ص/
٣٨ مصحف / ٣٨ نزل) فقال تعالى :

﴿ وَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْاِلٰهَةَ اِلٰهًا
وَاحِدًا اِنْ هٰذَا اِلَّا شِقْءٌ مُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلٰٓئِكَةُ مِنْهُمْ اَنْ اَمْشُوا وَاَصْبِرُوا عَلٰٓى اِلْهٰتِكُمْ اِنْ هٰذَا اِلَّا شِقْءٌ
يُرٰدُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْاِلْمَةِ الْاٰخِرَةِ اِنْ هٰذَا اِلَّا اَخْلٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

وليس في تعجبهم ولا في اتهام الرسول بالاختلاق حجة مقبولة عند العقلاء،
فالتعجب لا ترفض به الحقائق، والاتهام بالكذب والاختلاق لا يمثل حجة ذات
وزن مطلقاً لدى العقول السليمة، باستطاعة أي إنسان أن يتهم كل الناس بالكذب
والاختلاق، وأن يطلق كلمة الباطل على أية حقيقة، ولكن هذا شأن الذين
لا يحترمون نفوسهم وعقولهم .

● جدالهم في قضية الرسول والرسالة :

جادل الملأ من قوم نوح لرفض رسالته التي أرسله الله بها، وإثبات أنه مفتبر
كذاب، ولكنهم لم يأتوا بأية حجة منطقية مقبولة لدى العقلاء، وكانت حججهم مجرد
توجيه التعجب والاستغراب والاستبعاد، إذ تعجبوا أن يكون الرسول بشراً مثلهم،
وافترضوا أن الواجب يقتضي بأن يكون ملكاً من الملائكة لو أن الله شاء أن يرسل
رسولاً .

هذه كانت حجتهم مع أن الحكمة تقتضي بأن يكون الرسول إلى البشر من البشر أنفسهم لا من الملائكة .

ويحكي الله لنا مقالة الملائكة من قوم نوح في سورة (المؤمنون) / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَصَّ صُورًا لَهُ حَتَّىٰ جَاءَ مِنْهُ ﴾

فهؤلاء بعد أن قدموا التعجب كحجة لهم انتقلوا إلى الاحتجاج بأنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين، وفي هذا تبرير للتعجب من جهة، واحتجاج بالتقليد الأعمى من جهة أخرى، ثم انتقلوا إلى إطلاق الشتائم، وكل هذا ليس له في مجال الاحتجاج المنطقي نصيب، ولكن دافع الكبر كان حجاباً لهم على الاستجابة له، أو ما إلى ذلك قولهم «يريد أن يتفضل عليكم».

ومثلما قال قوم نوح قال أيضاً من بعدهم قوم هود، يقول الله تعالى حكاية لقولهم في سورة (المؤمنون) / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٦﴾ أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ مِنْهَا حَيَاتٍ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وهكذا نلاحظ أنهم لم يقدموا دليلاً في جدالهم حول قضية الرسول وقضية الآخرة غير مجرد الاستغراب والاستبعاد، وإيراد عبارات التعجب، وأنت خير بأنه ليس في التعجب شيء يصح أن يحتج به أصلاً، ولكنها تعلات الكافرين .

ودرج مشركو قريش وسائر كفار العرب على طريقة أسلافهم في الاحتجاج لرفض رسالة الرسول محمد ﷺ، ويقص الله علينا أنباء جدلياتهم فيقول جلّ وعلا في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا أَفَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ .

هذه مقالات قالوها رداً على دعوة الرسول لهم، وهي كما رأينا تشبه مقالات الأمم قبلهم، وهي تمثل صورة الجدل المتعنت، الذي اشتط في مطالبه، زاعماً أنه يريد أن يستوثق من صحة رسالة الرسول وصدق نبوته .

لقد تعجبوا من أن يكون الرسول بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، زاعمين كما زعم الذين كفروا من قبلهم أن الرسول الذي يتلقى عن الله ويبلغ الناس ينبغي أن يكون ملكاً، حتى يصلح لاستقبال الرسالة الربانية وتلقي الوحي الإلهي، أو يكون هذا الملك مرافقاً للرسول من البشر.

هكذا طرحوا مقالاتهم على هذا الأساس الضعيف الذي لا يشتمل على حجة صحيحة .

وقد جاء الرد القرآني على مقالاتهم هذه في قول الله تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

وفي قول الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩١﴾ قُلْ

لَوْكَاتٍ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴿٩٦﴾

فإذا أردنا أن نحلل هذا الرد القرآني إلى عناصره وجدنا فيه بياناً كافياً مفحماً.

إنه يتضمن بيان فساد ما زعموه من ضرورة كون الرسول ملكاً، وبيان أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول إلى البشر من البشر لا من الملائكة، فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل الله عليهم ملكاً رسولاً، لكنهم بشر، فالحكمة تقتضي أن يكون الرسول إليهم من جنسهم، لأن الرسول مبلغ رسالة ربه، وقائد أمته، وأسوة لهم في كل الشؤون التي يعظّم بها، فلو كان الرسول إلى البشر من الملائكة لا من الناس لكانت حجة الناس عليه أنه لا يشعر بمثل مشاعرهم، وليس له من الغرائز والشهوات والأهواء مثل ما لهم، لذلك فهو لا يصلح أن يكون أسوة لهم، ثم لا يكون حجة عليهم في استقامته والتزام شريعة ربه، ولو كان ملكاً لكان أبسط جواب يردون به عليه أن يقولوا له: لو كان لك مثل غرائزنا وأهوائنا وشهواتنا لعصيت مثلنا، ولما استقمتم على صراط الله، ولكنه لما كان كامل البشرية مستجمعاً لكل عناصرها وخصائصها كان حجة عليهم في سلوكه، وأسوة لهم في جميع الأمور.

وكان للكافرين مطلب آخر أخف من مطلب كون الرسول ملكاً، فقد طالبوا أن يكون مع الرسول شاهد من الملائكة يراه الناس ويبلغ عن الله، ثم يقوم الرسول من البشر بوظائف الرسالة.

وقد جاء الرد القرآني على هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾.

وهذا الرد يتضمن بيان طبيعة الملائكة، وأنهم إذا نزلوا وظهروا للناس بهيئتهم الحقيقية فإن أمراً خطيراً من أمور الغيب ينكشف عندئذٍ للناس، وعندئذٍ لا يبقى للكافرين أي عذر يعتذرون به، ولا يبقى للإمهال أي معنى، فإذا أصرروا على الكفر بعد ذلك فإن أمر إهلاكهم لا بد أن يقضى في الحال، وعندئذٍ فهم لا ينظرون،

فليس بعد كشف الغيب مجال للإمهال، كما أنه ليس بعد انكشاف الغيب عند الموت مجال للتوبة، وليس بعد ظهور الآيات الكبرى كطلوع الشمس من مغربها مجال للتوبة أيضاً، فمن رحمة الله بهم أن لا ينزل إليهم الملائكة بصورهم وهيئاتهم الحقيقية، ليتروك لهم مجالاً للتوبة والإيمان بعد روية وأناة وتبصر بالحقائق الكبرى. وجاء في الرد القرآني أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا، وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾.

ويتضمن هذا الرد أن الله لو استجاب لهم فأرسل لهم رسولاً ملكاً في حقيقته لكان مقتضى الحكمة يلزم بأن لا ينزل إليهم بصورته وهيئته الملائكية، وعندئذ فإن أفضل صورة ملائمة يحسن أن يتمثل بها هي صورة رجل من الناس، ولو أنزل الله ملكاً على صورة رجل من الناس لالتبس عليهم الأمر، ولما علموا هل هو بشر أو ملك؟ ولانتهى بهم الأمر إلى مثل ما هم فيه من لبس، إذ يلبسون على أنفسهم الحقائق، فيكفرون بالرسالة.

إنهم كفروا برسالة محمد ﷺ وهم يعلمون أمانته وصدقه، ويشاهدون الآيات التي آتاه الله إياها، فكيف يكون حالهم مع ملك يأتيهم على صورة رجل وهم لا يعرفون شيئاً عنه؟! إن التباس الأمر عليهم سيكون أشد وأبلغ.

من كل ذلك يتضح أن الحكمة تقتضي من كل الوجوه أن يكون الرسول المرسل إليهم بشراً لا ملكاً.

ولكن من حقهم أن يطالبوا بآيات صدق نبوته ورسالته، وقد آتى الله كل رسول من الآيات ما يكفي لإثبات أنه رسول الله حقاً، وهنا تنقطع حجة الكافرين، وتدمغهم حجة الحق، ولا يبقى لهم إلا العناد.

أما اقتراحهم أن يُلقي إلى الرسول كنز أو أن تكون له جنة يأكل منها فهو اقتراح تعنتي عنادي ليس له قيمة جدلية ولا منطقية، على أنهم لم يقتصروا على المطالبة بأن يلقى إليه كنز أو تكون له جنة، بل أضافوا إلى ذلك مقترحات أخرى مشابهة، منها ما تضمنه قول الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٨٩ ﴾
 وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ
 وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا
 أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ
 لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ٩٣ وَمَا مَنَعَ
 النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ٩٤ ﴾

باستطاعتنا أن نحصي من النصوص السابقة مطالبهم ومقترحاتهم التعنيتية التي
 علقوا إيمانهم بالرسول على وجود بعضها بما يلي :

الاقتراح الأول: أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً، وهذا هو المطلب الأساسي
 الذي ينم عن كبر نفوسهم عن اتباع بشر مثلهم، ولو اصطفاه الله عليهم واختاره
 لحمل رسالته.

الاقتراح الثاني: أن ينزل إلى الرسول ملك يؤيده ويشهد له ويدعو إلى الله
 معه، يراه الناس ويخاطبونه.

الاقتراح الثالث: أن يلقي إليه كنز عظيم فيكون أغنى قومه.

الاقتراح الرابع: أن تكون له في الدنيا جنة كبيرة من نخيل وعنب تتفجر
 الأنهار خلالها تفجيراً، فإذا اكتسب مجد الثراء والغنى والرفاهية مثل عظماء الأرض
 اتبعوه.

الاقتراح الخامس: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً يجري في مكة
 أو ما حولها كأنهار الشام ومصر والعراق.

الاقتراح السادس: أن يكون له بيت عظيم من زخرف (أي: من ذهب) يرتفع
 به ارتفاع الملوك العظماء.

الاقتراح السابع: أن ينزل عليهم العذاب الذي أنذرهم به، فيسقط السماء

عليهم كسفاً (أي قطعاً تهلكهم) وهذا إمعان منهم بتكذيبه، وليس طلباً حقيقياً للعذاب.

الاقتراح الثامن: أن يأتي بالله والملائكة قبلاً (أي: طرفاً سماوياً) يحاربهم وينصر الرسول إن كان صادقاً، وهذا أيضاً إمعان منهم بتكذيب رسالته.

الاقتراح التاسع: أن يرقى في السماء، ومع ذلك فلن يؤمنوا به لمجرد رقيه، بل لا بد من أن ينزل عليهم من السماء كتاباً مسطوراً يقرؤونه.

ولدى التحقيق نجد أن الباعث لكل هذه المطالب المتعنتة كبر في صدورهم وهوى في نفوسهم، لقد رفضوا اتباع بشر منهم، واستكبروا أن يكون الرسول إنساناً ليس له ملك ولا ثراء، وليس له جاه عريض عند الناس، وقد صرحوا بكبرهم هذا، وقص الله علينا تصريحهم بقوله في سورة (الزخرف / ٤٣ مصحف / ٦٣ نزول):

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... ﴿٣٢﴾﴾

على أن الله تعالى لو استجاب لهم فأنزل عليهم كتاباً من السماء فلمسوه بأيديهم لما آمنوا به، لأنهم متعنتون، وقد بين الله واقعهم هذا بقوله تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

وأما مطالبهم التي تستند إلى عنصر الكبر الطبقي فهي مطالب لا تستحق الإجابة أصلاً، لأنها فاسدة في قواعدها الفكرية والأخلاقية والدينية، وما كان الامتياز بالمال والثراء وامتلاك الجنت ليؤهل للتكريم عند الله ولا عند العقلاء من الناس، فليس من شأن دين رباني ولا من شأن أي مبدأ صحيح أن يعترف بمثل هذا الامتياز الذي ليس له أساس مقبول، ولا أن يستجيب للمطالب التي تتعلق به، فالاستجابة توحى بالاعتراف، وهذا يخالف أصل المبدأ، وقد اختار الله لخاتم أنبيائه أن

لا يكون من أهل الغنى والثراء الكبير، وأن لا يكون ملكاً من الملوك، لتصحيح مفاهيم الناس عن عناصر التفاضل الصحيح، لذلك فلا ينقض الله حكمته هذه، وقضية الرسالة تحتاج إلى خصائص لا يدخل المال والثراء وامتلاك الجنات فيها، والاصطفاء بالرسالة فضل من الله ورحمة، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء.

بقي ما طلبوه من الآيات المادية كتفجير الأنهار في مكة وما حولها، وإزاحة جبالها وتوسيع أرضها، وغير ذلك من آيات تشبه الآيات المادية التي أجراها الله على أيدي موسى وعيسى وصالح وغيرهم من النبيين، وهذا المطلوب قد أكدوه وألحوا عليه، وذكره الله في مناسبات متعددة، منها قوله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾ (٧) و (٧).

وقد يبدو للنظر الأول تساؤل يتضمن الميل إلى تلبية طلبهم الآيات، إلا أن واقع حالهم ما كان ليفتقر إلى إقامة الأدلة للاقتناع بصدق رسالة محمد - ﷺ - ، فقد أنزل الله من الآيات ما فيه الكفاية لمن أراد أن يقتنع بالحق، وفي مقدمة هذه الآيات معجزة القرآن، وإنما كانوا يطالبون بالآيات المادية على سبيل التشهّي والتعنّت، والله تبارك وتعالى لا يتخذ خرق سننه الدائمة العوبة في أيدي المتعنتين أو المتفكّكين المتشهين، إنما يخرقها بمقدار حاجة الناس إلى إقامة الدليل الذي يدلهم على صدق رسالة الرسول، على أن الله لو أنزل هذه الآيات التي طلبوها لكذبوا بها، فقد كذب بها من قبلهم من الأمم، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآئِنَّا مُّودُّ النَّاقَةِ مُبْصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩).

وبعد أنواع ذات مراحل من جدال الذين كفروا حول رسالة الرسول وإقامة الحجة عليهم بأدلة مختلفة، لم يكن من فريق منهم إلا الإصرار على موقف الإنكار، ولم تُجدِ فيهم حجج ولا براهين، وموقفهم هذا قد أعلنه الله في آخر سورة

(الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ٤٣ .

ولما لم تنفع فيهم ألوان المعالجة بالحجة المقنعة، ولم تُجد فيهم البراهين،
كان من الخير حسم الأمر معهم، وقطع أطراف الجدل، وإعلان الاستغناء عنهم
فقال الله لرسوله: ﴿قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾،
وفي هذا إشعار بنفض اليد من رجاء إصلاحهم، وبإنهاء معالجتهم والصبر على
مجادلتهم، وفيه أيضاً إعلان أن الرسول ليس بحاجة إلى شهادة منهم على أنه
رسول الله، وإنما غرضه هدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والأخذ
بأيديهم إلى السعادة الخالدة، أما الشهادة له بأنه رسول الله حقاً فيكفيه منها
شهادتان:

الأولى: شهادة الله له بها، وذلك فيما أتاه من آيات عظيمة، وفي مقدمتها
القرآن المعجز في لفظه ومعناه.

الثانية: شهادة من عنده علم الكتاب، وهم الذين عرفوا من كتبهم صفاته
فأمّنوا به، وشهدوا له بأنه رسول الله حقاً، والذين رأوا في معجزة القرآن ما يثبت
لهم أنه رسول الله فشهدوا له بذلك.

وبهذا يحسم الأمر وينقطع الجدل، ويصبح الموقف موقف انتظار حكم الله
في أهل الكفر.

ومن قبل محمد — ﷺ — جاء عيسى عليه السلام قومه بطائفة من الآيات
البيّنات والمعجزات الباهرات، فقال الذين كفروا من قومه: ﴿إن هذا إلا سحر
مبين﴾ وأخذوا يجادلون في آيات الله على هذا الأساس الفاسد، وهذا ما بيّنه الله
بقوله في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْأَنْحِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي
وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ
عَنْكَ إِذْ جَحَّتْهُمْ بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ .

هذا مع أن الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام آيات عظيمة، وهي حق
وليست بسحر، لكن المصيرين على الكفر بالمكابرة لا يجدون سبيلاً إلا أن يجادلوا
بالباطل، فيجعلوا ما هو حق واضح مشاهد ملموس سحراً من السحر.

وهذا اللون من ألوان جدال الكافرين لون يعتمد على جحود الواقع الملموس
واعتباره وهماً من الأوهام، وسحراً من السحر الذي تنخدع به الأبصار، دون أن
يكون له في الواقع حقيقة تطابق ما أدركه الحس بالتوهم أو بالتخيل، وما دام
الكافرون مصيرين على موقف الجحود والإنكار مهما ظهر لهم وجه الحق، فليس
لهم حجة أمام البينات المادية المدركة بالحس إلا أن يقولوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ﴾ .

وقد أوضح الله هذه الحيلة الجدلية من حيل الكافرين بقوله لرسوله في سورة
(الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ .

● جدالهم في قضية الآخرة:

وجادل الكافرون في قضية الآخرة والبعث بعد الموت، وكان أهم ما اعتمدوا
عليه من حجة لإظهار التعجب، والإنكار على أساس الاستغراب والاستبعاد، وظاهر
أن مثل هذا لا يمثل حجة مقبولة عند العقلاء.

لقد عرض القرآن جدلياتهم في هذا الموضوع، فمنها قول الله تعالى في
سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا

فَنَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٨٢﴾
وَلِنْ رَبِّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٨٣﴾ .

فقد اشتملت مقالة الكافرين الجدلية لإنكار الآخرة والبعث بعد الموت
للجزاء يوم الدين - كما جاء في هذا النص - على عنصرين :

العنصر الأول: الإنكار القائم على الاستغراب والاستبعاد .

العنصر الثاني: الإنكار القائم على بعد أجل يوم الدين ومرور أجيال من
الآباء والأجداد دون أن يأتي وقت تحقيق الموعود به، وهذا ما جعلهم يتوهمون أن
قضية الآخرة أسطورة لا تتحقق .

وظاهر أن هذا التصور فاسد من أساسه، لأن نظام هذه الحياة الدنيا لا يكفي
له عشرات الألوف من السنين، حتى إذا طال أمد بقائه كان ذلك دليلاً على
استمراره بلا نهاية، وأنه ليس وراءه نظام آخر أو حياة أخرى .

إن هذا النظام الكبير الذي تقوم عليه الحياة الدنيا، وما رتب له من خلائق،
وما جعل فيه من ظروف امتحان لذوي الإرادات الحرة، ومن قضي لهم أن يمروا
في هذا الامتحان، كل ذلك لا يكفي ألف مؤلفة من القرون، ولا يستكثر عليه طول
زمن مهما طال، فالآخرة حياة خلود وبقاء دائم، ومهما طال عمر الدنيا فإنه بالنسبة
إلى الآخرة يسير جداً، ولكن الإنسان قصير النظر يقيس الأمور على نفسه وحدود أجله،
ولا يتصور الأبد الخالد تصوراً صحيحاً، حتى يتضاءل في نظره عمر الدنيا مهما
طال، وآجال الحوادث تقاس بواقع نظام تكوينها، وبمقادير وظائفها في الوجود،
ولذلك نشاهد أن عمر بعض الجرائم قصير جداً يناسب مقدار وظيفته في الحياة،
بينما يطول نسبياً عمر بعض الحشرات ذات الوظيفة السنوية، ثم يطول عمر بعض
الحيوانات الأخرى، وهكذا ضمن سلم تصاعدي، ويزيد طولاً عمر بعض حيتان
البحر، والنظام العام الذي يحوي كل ذلك لا بد أن يستوعب كل ما ربت له أن يمر فيه .

أما الحياة الأخرى فهي دار الخلود، والدنيا بالنسبة إليها كلمحات عابرات من دهر مديد.

فما قدمه الكافرون لإنكار الآخرة لا يصح أن يعتبر حجة صحيحة مقبولة عند العقلاء، وإنما هو تكذيب بالآخرة من غير دليل، والباعث عليه الإخلاق إلى الأرض والاغترار بزيينة الحياة الدنيا، وأما استطالة أمد ظروف هذه الحياة الدنيا فتعلة جدلية ليس لها أساس منطقي.

وكانت طريقة القرآن في الرد عليهم تشتمل على لفت نظرهم إلى مظاهر عدل الله في الذين كذبوا بيوم الدين من أهل القرون الأولى، وكيف أنزل الله بهم معجلاً من عقابه في الحياة الدنيا قبل يوم الحساب، ليقيم البرهان بتنفيذ معجل الجزاء على صدق مؤجله، وأحالهم على دليل المشاهدة في واقع الأرض، وما جرى فيها من أحداث عقاب مدمر على الذين كفروا وكذبوا بيوم الدين، فقال الله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾، ثم قال لرسوله: ﴿ولا تحزن عليهم، ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾، وذلك لأنهم لا يستحقون أن تحزن من أجلهم، إذ اختاروا لأنفسهم سبيل الجحود والتكذيب بالحق، ورضوا لأنفسهم مصير هذا التكذيب، وأما مكرهم بك وبدعوتك فلا تكن في ضيق منه لأن الله ناصرك.

ثم إنهم في جدلهم يتساءلون عن الزمن الذي يتحقق فيه الوعد، فيقولون للرسول: (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟).

وبما أن الله قد أخفى عن عباده أجل قيام الساعة كما بين لهم ذلك في نصوص متعددة، فإن أحسن جواب لهم على سؤالهم تهديدهم بأنهم سيأتيهم بعض الجزاء الذي وعدوا به، فليستظروه معجلاً في ظروف هذه الحياة الدنيا، إذا أصروا على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم، فقال تعالى لرسوله: ﴿قل: عسى أن يكون رَدِف لكم بعض الذي تستعجلون﴾.

ففي هذا تلويح تهديدي بقرب أجل عقابهم المعجل في الدنيا، إنهم يستعجلون الآخرة، وهذا يعني أنهم يستعجلون عقابهم، فقل لهم: (عسى أن يكون

رَدَفَ لكم بعض الذين تستعجلون)، ومعنى رَدَفَ لكم: تبعكم^(١)، واستعمال الفعل الماضي في (رَدَفَ) يدل على أن الشيء قد صار قريب الحصول جداً، حتى كأنه قد وقع فعلاً، فهو نظير قول المؤذن قد قامت الصلاة، مع أن المباشرة بها لم تحدث فعلاً، ولكن الاستعداد التام للمباشرة بها والاتجاه للتنفيذ يجعل الصلاة كأنها قد قامت فعلاً، فيصبح بهذا الاعتبار الفعل الماضي الموضوع أصلاً للدلالة على أمر قد وقع فعلاً، دالاً على أن الأمر قد صار قريب الوقوع.

وربما يكون تعبيراً عن أن أمر عقابهم قد قضي في السماء كما تطلق القذيفة، فهي في طريقها لتصل إلى هدفها.

ثم بين سبحانه وتعالى أن تأخير عقابه فضل منه على عباده، ليرك لهم فرصة للتوبة، لكن أكثر الناس لا يشكرون، فقال تعالى: ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾.

ومما عرّض القرآن من جدلياتهم في موضوع الآخرة والبعث بعد الموت للحساب والجزاء، قول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿قَبَّ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَمْ دَامَتْنَا وَكُنَّا رَأْبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

فالأمر الذي صدهم عن الإيمان واحتجوا به تعجبهم من أن يأتيهم رسول منهم، وتعجبهم من خبر الرجوع إلى الحياة بعد الموت للحساب والجزاء، مع أن مجرد التعجب من الأمر دون أساس عقلي أو علمي لا يصلح دليلاً للنفي ولا يصح الاحتجاج به لإنكار الحق.

ولما أنكروا الآخرة بحجة الاستغراب والاستبعاد وإطلاق عبارات التعجب تصوروا أنهم قد ملكوا حجة مقنعة، فأخذوا يتساءلون عن حال الرسول فيقولون:

(١) يقال لغة: ردف له وردفه إذا أتبعه فكان رديفاً له، أي: تابعاً مباشراً له في الحقوق، فهذا التعبير يلوح لهم بأن عقابهم المعجل سيأتيهم سريعاً لأنه سيردّهم.

هل هو يفترى على الله كذباً؟ أم به جنة؟ نسوا خلقهم الأول، وعموا عن الحقيقة الظاهرة التي تشهد بأن من بدأ الخلق قادر على إعادته.

وقد ذكر الله تساؤلهم هذا بقوله في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَعِىَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ دُسِقَتْ عَلَيْهِمْ كَيْسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

ففي هذا تنبيه قوي على الدليل الكبير الدال على أن الله قادر على أن يخلقهم خلقاً جديداً، فالذي خلق السموات والأرض قادر على إعادة خلقهم بعد فناء أجسادهم، فلا مجال لاستغرابهم واستبعادهم.

وبعد أنواع ذات مراحل من جدال الذين كفروا حول الآخرة والبعث بعد الموت للحساب والجزاء، وبعد إقامة الحجة عليهم بأدلة مختلفة، لم يكن من فريق منهم إلا الإصرار على موقف الإنكار، ولم تجد فيهم حجج واضحة ولا براهين دامغة، وقد عرض الله موقفهم المتمتع هذا في أوائل سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ عَلِيمًا الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

وموقف الرسول هنا موقف إصرار على الإيمان في مقابل إصرار الكافرين على الكفر.

ولما كان الموضوع هنا يتعلق بعقيدة الآخرة ولا يتعلق بشخص الرسول كان موقف الرسول متسماً بعنف الإصرار المقرون بالقسم ﴿بلى وربى لتأتينكم﴾ .
ولما كان موقفهم في موضوع الرسالة يتعلق بشخصه صلوات الله عليه إذ قالوا له : ﴿لست مرسلًا﴾ كان موقفه هناك يتسم بلين المتبرئ من المصلحة الشخصية ، إذ علمه الله أن يجيبهم بقوله : ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ .

● جدالهم في قضية الكتاب المنزل من عند الله :

وجادل الكافرون في القرآن ، فأنكروا نسبته إلى الله ، واتهموا الرسول - ﷺ - بافترائه على الله ، ولم يكن لهم من حجة إلا الرفض ، وادعاء أنه أساطير الأولين ، اكتتبتها الرسول عن الكتب السابقة ، أو هو من قبيل السحر ، وليس شيء من ذلك بحجة مقبولة عند العقلاء .

من الطبيعي أن الكافرين ليس لهم ما يقولونه عن القرآن بعد أن كذبوا به إلا أنه أساطير الأولين ، أو أن الرسول وضعه من عنده وافتراه على ربه ، وأن يتهموا قوة تأثيره على العقول والنفوس بأنها من قبيل السحر ، وقد ذكر الله مقالاتهم هذه في عدة مواضع من القرآن ، منها قول الله تعالى في سورة (الفرقان) / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول) :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا آفَاكُ أَفْتَرَيْتَهُ وَاعَانَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤١ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٤٣﴾ .

ومنها قول الله تعالى في سورة (سبا) / ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول) :

﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِهْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكُ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٤٢﴾ .

ومنها قول الله تعالى في سورة (الأحقاف / ٤٦ مصحف / ٦٦ نزول):

﴿وَإِذَا نُنَادِيَنَّهُمْ أَيْنَ نَارِيَنَّتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَجَاءٌ هُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيَهُ قُلْ إِنْ أَفَرِيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُوْنَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾

وهكذا كان جدلهم حول القرآن متردداً بين ثلاث حجج باطلة، هي في حقيقتها دعاوى وليست بحجج .

الأولى: ادعاؤهم أن الرسول قد افتراه، وهو ادعاء مرفوض لما فيه من ظلم وزور، والواقع القرآني يكذبه، وذلك أن إعجاز القرآن دليل كافٍ على أنه ليس عملاً إنسانياً، وإنما هو تنزيل من عند الله، وقد تحدّى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله فما استطاعوا، وبذلك سقط ادعاء افترائه على الله .

الثانية: ادعاؤهم أنه أساطير الأولين اكتبها الرسول عن الكتب السابقة، وهذا ادعاء مرفوض بداهة بشهادة واقع حال الرسول المعروف في تاريخ حياته، وبشهادة الواقع القرآني العربي المعجز بعربيته، والمعجز بكل مضامينه .

وقد أطلق المشركون إشاعات زعموا فيها أن محمداً يتلقى القرآن عن رجل أعجمي كان في مكة له علم بكتب أهل الكتاب، فرد الله عليهم بقوله في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝﴾

إن البديهة تقضي برفض ادعائهم الذي يحمل تكذيب نفسه بنفسه، إن هذا القرآن كلام عربي معجز ببيانه العربي وأساليبه العربية، فكيف يزعمون أنه يعلمه إياه رجل أعجمي، وهم العرب بفصاحتهم وبلاغتهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل سورة منه .

الثالثة: ادعاؤهم أن القرآن هو من قبيل السحر، أي: إن قوة تأثيره على

القلوب والنفوس مستمدة من قوة سحرية، وهذا ادعاء يمثل الهروب من وجه الحقيقة الناصعة، ذات التأثير المستمر.

وليس من شأن مثل هذه الدعوى أن يكون لها نصيب من الثبات حينما تستمر قوة تأثير القرآن. إن السحر وفق مفاهيم مدعيه عمل عارض يخدع ولا حقيقة له، وواقع القرآن حقيقة مستمرة باقية، لذلك فليس من شأن مثل هذه الدعوى الباطلة أن تنفع في جدال نظري، ما دامت ساقطة سقوطاً ذاتياً بشهادة الواقع.

والكافرون الذين كفروا بالقرآن لم يكفروا به إلاّ تعتياً وعناداً، وما كانت تنقصهم الأدلة التي يرون فيها أن هذا القرآن من عند الله، والمتعنت لا سبيل إلى إقناعه، وهذا ما كشفه الله من حالهم في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

فهم يفرّون من التصديق به إلى باطل جدلي لا أساس له من علم ولا من عقل، لأن واقع حال القرآن يكذب ما فرّوا إليه، فهو حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إنهم ما داموا مصرين مكابرين فإنهم لن يؤمنوا ولورأوا كل آية، ويفرّون إلى إطلاق الأباطيل الجدلية، وهذا ما بيّنه الله بقوله في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا مَّيَّةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

وبعد أنواع ذات مراحل من جدال الذين كفروا حول القرآن، وسقوط أدلتهم وحججهم ودعائهم الباطلة، لم يكن من فريق منهم إلاّ الإصرار على موقف الجحود والإنكار، فوقفوا أخيراً منه موقف المتعنت، فأعلنوا رفضهم الإيمان به،

رغم كل البراهين التي اقترنت بالقرآن والدالة على أنه كلام الله حقاً، وقد بين الله موقفهم هذا بقوله في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فهؤلاء الذين كفروا قد انتهوا بعد الجدل الطويل حول القرآن، ودمغهم بالحجج القواطع إلى الإصرار على عدم الإيمان، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فانتقلوا من الكفر بالقرآن إلى الكفر بالذي سبقه من الكتب الربانية.

وموقف الرسالة تجاه هذا الإصرار المتعنت هو موقف المعرض الذي يتحول من موقف المجابهة بالجدال إلى موقف الإعراض، مع بيان عاقبة الإنكار بغير حق، وبيان مصير المنكرين أتباعاً ومتبوعين، وإشارة مشاعر الخوف من هذا المصير الوخيم، وهذا هو الموقف الذي لا سبيل سواه.

ومن البديع في النص القرآني هذه النقلة التي نقلهم بها إلى مشهد من مشاهد يوم الدين، إذ يتجادل الكافرون يومئذٍ، فيلقي الأتباع مسؤولية التضليل على قادتهم في الحياة الدنيا، ويتبرأ القادة منهم، ويجعلونهم مسؤولين عن أنفسهم وعن جرائمهم، والصورة الجدلية تكون بينهم على الوجه التالي:

المستضعفون: لولا أنتم لكننا مؤمنين.

المستكبرون: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين!؟

المستضعفون: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أي: مكرّم لنا في اللَّيْلِ والنَّهَارِ (إِذْ) كنتم (تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً) هو الذي جَعَلْنَا نكفر.

الحكم العادل: يحلّ كلا الفريقين المسؤولية على مقدار كسبه، ويجازي كل واحد بعمله، وتجعل الأغلال في أعناق الذين كفروا.
المستكبرون والمستضعفون: يسرّون الندامة حين يرون العذاب.

● جدالهم بالسباب والشتائم والمشاغبات والصد عن الحق ونحو ذلك:
حجج الكافرين التي قد يتصنعون فيها الهدوء، وقد يحاولون إبرازها بصورة منطقية في أول الأمر، حين تنقطع بهم وتتخاذل وتبدأ بالتصاغر والانحزام تشور ثائرتهم، ويطيش صوابهم، ويلجؤون إلى خطة السباب والشتائم والمشاغبات، وصرف أتباعهم عن سماع الهدى، وصدّهم عن مجالسه، حتى لا يتأثروا به فيتبعوه.

والدفع بالسباب والشتائم لا يدخل في نظام جدال العقلاء المتناظرين لبلوغ الحق، وإنما هو خطة السفهاء، للتغلب بأية وسيلة، ولإثبات المذهب والرأي ولو عن طريق الإكراه بالقوة، فإذا لم توجد القوة، فبالمشاغبة والشتيمة وتقطيع الناس عن داعي الحق، وهذه هي خطة الكافرين وسائر المبطلين.

● أسلوب الشتائم:

ومن الشتائم اتهام داعي الحق بأنه مبطل، واتهام الحق بأنه باطل أو سحر أو كذب أو نحو ذلك.

وقد بيّن الله لرسوله هذا الأسلوب السفه من أساليب دفع الكافرين للآيات البينات التي سيأتيهم بها، ليهيئه نفسياً لتحمل الصدمات القاسيات التي يوجهونها له، وتحمل أنواع المكابرات والافتراءات التي يفترونها عليه.

إنه سيأتيهم بالحق المبين فيقولون له: إن أنت إلا مبطل من المبطلين، فما عليه إلا أن يصبر عليهم، ويلازم نشر دين الله والدعوة إليه، فحججهم الجدلية في هذا إنما هي مقابلة الحق باتهام صاحبه بأنه مبطل، وليس هذا في الحقيقة حجة، وإنما هو دفع بالسباب، ومقابلة للحق بالشتائم.

هذا الإعداد النفسي من الله لرسوله، ولكل داعٍ إلى الحق من بعد الرسول،
نجدّه في قول الله تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾
فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

فمن الملاحظ أن الله تعالى يوصي رسوله في هذا النص بالصبر على شتائم
الكافرين، حين يتهمونونه بأنه مبطل، وهو يأتيهم بالآيات البينات والحجج الظاهرات،
ويوصيه أيضاً بالرزانة والرصانة ورجاحة النفس حتى لا يستخفه الذين لا يوقنون
بمثيراتهم وجدلياتهم الباطلة، وشتائمهم المنكرة، فالرزانة والرصانة ورجاحة العقل
والنفس من سمات كبار الدعاة إلى الحق، مهما استثيروا واستغضبوا، إن أوزانهم
الراجحة لا تستخفها المثيرات من رياح الشتائم أو أعاصير السباب المنكر.

وظاهر أن هذه الوصية التي أوصى الله بها رسوله وصية يطالب بها كل داعٍ
إلى الله، فالجدال متى بلغ حد الغضب تحول عن مقصده، وارتدى رداء التعصب
والانتصار للنفس، وسلك مسالك الهوى، وأدخل فيه الشيطان وساوسه ودسائسه،
وربما انحرف المحققون بسبب ذلك عن منهج الاستقامة.

وقد لجأ الكافرون فعلاً إلى خطة الشتائم، فأخذوا يتهمون الرسول
صلوات الله عليه بأقوال شتى، منها المقالات التالية:

ساحر كذاب - إنه لمجنون - شاعر مجنون - قد افترى على الله كذباً -
بل افتراه، بل هو شاعر - .

وقالوا عن القرآن: سحر - أساطير الأولين - شعر - مفترى - أضغاث
أحلام - إلى غير ذلك من عبارات.

وهكذا نوع الكافرون عبارات الشتائم لما عجزوا عن متابعة الجدال
المنطقي، ومقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

وقد ذكر الله في القرآن أقوالهم التي أطلقوها وفيما يلي طائفة من النصوص القرآنية التي حكى أقوالهم :

(أ) فمنها قول الله تعالى في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول) :

﴿ صَّ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَذَٰهْلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا بَرَاءَةُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلْهَ أَهْلًا وَمَوْلَا هَٰذَا الشَّقِيُّ عِجَابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ۝٥ وَأَنطَلَقُ لَمَلًا مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا خُلُقٌ ۝٧ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ ﴾ .

ففي هذا النص يحكي الله لنا مقالة الكافرين عن الرسول صلوات الله عليه ، إذ قالوا : هذا ساحر كذاب ، وإذا قالوا عن القرآن : إن هذا إلا اختلاق ، وأمام هذا التهجم بالسباب لم يبق من معالجتهم إلا الإنذار بالعذاب القريب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ .

(ب) ومنها قول الله تعالى في سورة (الصافات / ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول) :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ ﴾ .

فهم يتكلمون إعلان السخرية من الآيات الربانية ، لتغطية موقفهم الذي أصابتهم فيه الدهشة من الآيات ، ثم يوجهون اتهامهم الذي يشتمون به من جهة ، ويحاولون به تفسير ظاهرة الآيات من جهة أخرى تفسيراً يصرفها عن حقيقتها .

(ج) وقد بلغت بهم الوقاحة مداها فواجهوا الرسول ﷺ بقولهم له : إنك لمجنون ، وقد قص الله علينا ذلك بقوله في سورة (الحجر / ١٥ مصحف / ٥٤ نزول) :

﴿ وَقَالُوا يَا أَلَدِيَ نُنَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝٨ ﴾ .

وهذه الوقاحة مقرونة بالسخرية، إذ كان بدء كلامهم يصفه بأنه قد نزل عليه الذكر، فلما أتبعوه بقولهم له: إنك لمجنون دل على أنهم مستهزون بما قالوا أولاً.

إنهم لم تنقصهم الأدلة، ولكنهم متعنتون معاندون، ولورأوا أقوى الآيات لتعللوا في رفضها بأوهى التعللات، وقد بين الله هذا من واقعهم بقوله في السورة نفسها سورة (الحجر/ ١٥ مصحف / ٥٤ نزول):

﴿وَلَوْ فَحَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(د) ومنها ما قصه الله عنهم بقوله في سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول):

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرِيكَ أَوَّاهًا مُّجْنُونًا ﴿٣٦﴾﴾.

وما قصه بقوله في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول):

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْبَحْثُونُ ﴿١٤﴾﴾.

وكذلك قال فرعون عن موسى، وقد حكى الله لنا مقالة فرعون في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف / ٦٧ نزول):

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوعَهُ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونُ ﴿٣٩﴾﴾.

وما من رسول إلا قال عنه قومه مثل ذلك، قال الله تعالى في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف / ٦٧ نزول):

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُّجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

وهذه هي التعللة التي يفر إليها المكذبون بالحق، لشتيمة داعيه، وصرف الجماهير من الناس عن أتباعه.

● أسلوب المشاغبة :

ومن غريب ما لجأ الكافرون إليه في جدالهم أسلوب المشاغبة، رجاء أن يغلبوا الحق به.

لما انقطعت حجتهم حول القرآن، ورأوا أن له تأثيراً عجيباً على قلوب الناس، وأن تأثيره هذا قد أخذ يجلبهم إلى الإسلام، ويفتح بصائرهم على الحق، فتستنير بنور المعرفة الربانية، قال بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون.

فنهى القادة أتباعهم عن الاستماع للقرآن ليصرفوهم عنه حتى لا يؤثر في قلوبهم ونفوسهم، وليقفلوا قلوبهم عن مشاهدة نوره، وأمروهم باللغو فيه، مشاغبة وتشويشاً، لملء فراغ السمع، حتى لا يلتقط منه أتباعهم شيئاً، وحتى لا يلتقطوا هم أنفسهم منه شيئاً فيؤثر على قلوبهم، كما حصل لكثير من الذين أسلموا بقوة تأثير القرآن، وعللوا نهيمهم وأمروهم هذين برجاء الغلبة، فقالوا: «لعلكم تغلبون».

وخطبة المشاغبة هذه غوغائية أتقتها تماماً أحزاب الهدم والتخريب التي ظهرت في القرن العشرين.

وخطبة المشاغبة خطة تقدم الدليل ضد المشاغبين بأنهم قد غدوا خائبين مغلوبين، منهزمين من معركة البيان والبرهان، ومتحولين إلى معركة الشغب واللغو والضجيج والغوغائية.

وفي بيان مقالة الكافرين هذه قال الله تعالى في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولما لم يكن من شأن الحق أن يقابل الجنوح بالجنوح، أو يعارض الفساد بالفساد، أو يتحول من المناظرة بالحق إلى اللغو والمشاغبة، باعتبار أن ذلك من خطط الجاهلين الذين لا يملكون حجة ولا يحIRON جواباً، أعرض القرآن عن مقاتلهم هذه، ولجأ إلى بيان سوء المصير الذي سوف يلاقونه يوم الدين، باعتبار أنه

جزء من أصل بيانات الرسالة، فقال الله تعالى عقب الآية السابقة:

﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٨﴾ .

إنه لا سبيل بعد موقفهم العدائي الذي سدوا فيه كل مسلك من مسالك البحث والمناقشة والإقناع والافتناع إلا سبيل التهديد والوعيد بسوء المصير، وعليهم بعد ذلك أن يتحملوا عاقبة كفرهم بالحق، وإنكارهم لما جاء به الرسل من لدن عزيز حكيم، لا يضره كفرهم شيئاً، وهو غني عن إيمانهم وعن طاعتهم، ولكن يهديهم بما أنزل في الدين إلى طريق نجاتهم وسعادتهم الخالدة.

● جدالهم المستند إلى واقع امتيازهم بمتاع الحياة الدنيا وزينتها:

بمنطق الكبر الطبقى أورد الكافرون طائفة من جدلياتهم الباطلة، فمن ذلك ما قصه الله علينا بقوله في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول):

﴿وَإِذْ أَتَىٰ آلَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ وَلَمْ يَكُن لَكُم بَيِّنَاتٌ مِّن قَبْلِهِمْ قَالُوا نَحْنُ أَفْصَحُ الْكَلَامِ لَكُمْ إِن كُنَّا نَرَاهُ غُلَامًا نَحْنُ أَهْلُ الْبَيِّنَاتِ إِن كُنَّا نَحْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَٰكِنَّا نَحْنُ أَفْصَحُ الْكَلَامِ لَكُمْ إِن كُنَّا نَرَاهُ غُلَامًا نَحْنُ أَهْلُ الْبَيِّنَاتِ إِن كُنَّا نَحْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٧٦) .

فالكافرون يحتجون على سلامة مذهبهم بواقعهم المتميز بالرفاهية، وكثرة ما بين أيديهم من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وبارتفاع المكانة الاجتماعية على الطلائع الأولى من المؤمنين، ويتصورون أن منطقهم السليم في الحياة هو الذي جلب لهم هذا الامتياز، لذلك فلا يمكن أن يكون المؤمنون الذين هم دونهم في الثراء والرفاهية والمكانة الاجتماعية أعقل منهم وأعرف بالحق، وقد اعتبروا هذا حجة كافية لتفضيل مذهبهم على ما ذهب إليه المؤمنون فقالوا للذين آمنوا: «أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً»، أي: بما لدينا من فهم للأمر استطعنا أن نكون خيراً مقاماً في الحياة، مالاً وثراءً وأثاثاً ورياشاً ورفاهية عيش، واستطعنا أن نكون أحسن ندياً، أي: أعظم جاهاً في المجالس، وأحسن ترتيباً لها، فكيف نتبع طريقتكم وأنتم دوننا مقاماً ومجلساً.

ومع أن هذا دليل ساقط لا قيمة له إلا أن أصحاب الامتياز الطبقي يريدون أن يجعلوه دليلاً، لقد نفخ الكبر نفوسهم، فتوهموا أن ما هم عليه هو الصواب، وأن كل ما سواه خطأ، وهكذا يفعل الكبر في النفوس.

ومقاتلتهم هذه نظير مقاتلتهم الأخرى التي ذكرها الله بقوله في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ فُكَّ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فهم بدافع الكبر الطبقي يرون أنفسهم أحق بأن يسبقوا إلى كل خير، وإذا لم يسبقوا إلى الإيمان بل سبقهم إليه الذين هم دونهم في الطبقة الاجتماعية، فهو إذن ليس بخير.

وهذا غاية الغرور بالنفس، إذ يجعل صاحبه يتصور لنفسه العصمة عن الخطأ، لذلك فهو غير مستعد لأن يغير موقفه، أو يغير مذهبه، أو يتنازل عن كفره أو شركه أو سلوكه.

وإذ لم يهتد هؤلاء الكافرون بهدى الله، ولم يؤمنوا بدينه، فلا بد أن يقولوا عن الدين: هذا إفك قديم، وظاهر أن هذا جدل كلامي لا أساس له حتى يكون حجة تطرح بين العقلاء، وهو لا يعدو أن يكون لوناً من ألوان السباب والشتائم التي لا تصدر إلا عن الجاهلين.

وقد كانت طريقة القرآن في الرد على احتجاجهم بالتفوق الطبقي في متاع الحياة الدنيا وزينتها وجاهاها بتقديم براهين من الواقع، تثبت أن التفوق الطبقي لم يكن ليحمي أصحابه الكافرين بالله من سخط الله ونقمته وشديد عقابه، وهذا ما رد الله به على مقاتلتهم الواردة في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَلَمْ أَهْلِكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتَشَاوِرُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: فلم يحمر هؤلاء من نزول عذاب الله فيهم علو طبقتهم الاجتماعية التي

(١) الرئي: هو ما يظهر من هيئة وزينة وشارات.

يدل عليها حسن أثاثهم، وحسن مظهرهم وشارتهم وهيئتهم، ولم تغن عنهم مكانتهم الاجتماعية شيئاً عند الله، لقد أهلكهم الله بكفرهم ودمر عليهم تدميراً. وهذا البرهان الواقعي من أقوى البراهين الدالة على فساد حججهم التي احتجوا بها، إذ زعموا أن امتياز طبقتهم الاجتماعية يلازمه صحة رأيهم، إذ اختاروا لأنفسهم سبيل الكفر بالله على الإيمان به. وما أكثر ما يفتن الناس بزخرف هذا الدليل، فيتبعون آراء أصحاب المكانات الاجتماعية القائمة على الامتياز بمتاع الحياة الدنيا وزينتها وجاهها، معطلين أفكارهم وعقولهم عن البحث والتتبع للحقائق ببصر نافذ ومنطق سديد.

● جدالهم القائم على التعلل بالقضاء والقدر:

من جدليات الكافرين الفاسدة احتجاجهم بالقضاء والقدر لتبرير ما هو من كسبهم، ولرفض أوامر التكليف الرباني ونواهيه.

سبق معنا بيان تعللهم بالقضاء والقدر وفق المذهب الجبري الفاسد، الذي كذبهم الله به، إذ ادعوا فيه على الله ما ليس من مقاديره الجبرية، فقالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، أي: إنهم أشركوا بحكم كونهم مجبرين بالقضاء والقدر على الشرك. وقالوا: لو شاء الله ما حرمننا من شيء، أي: إنهم حرّموا أشياء مما أباح الله في شريعته لعباده بحكم كونهم خاضعين لسلطان القضاء والقدر ليس لهم في أعمالهم كسب اختياري. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، أي: إنهم عبدوا آلهتهم من دون الله بمقتضى سلطان القضاء والقدر وليس لهم في ذلك كسب إرادي، أو على معنى أن هذه الأشياء قد أذن الله بها، فلو لم يأذن بها لما مكّنّا منها، ولا استخدم قدرته في جبرنا على ما يحبّ، وتجاهلوا أنهم موضوعون موضع الامتحان في الحياة.

وقد كذبهم الله بكل ذلك وأبان أنهم يخرصون على الله، فما لهم بما زعموا من علم عقلي أو نقلي يعتمدون عليه.

فقال تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ

كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ .

أي : فلو شاء أن يسلبكم ما منحكم من حرية الاختيار في الحياة ويجبركم على نجد واحد من نجديه لهداكم أجمعين .

وقال الله تعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول) :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

ففي هذه الآية بيان أنهم قالوا هذه المقالة فعلاً ، وأنها مقالة كان مشركو الأمم السابقة يتعللون بها .

وقال الله تعالى في سورة (الزخرف / ٤٣ مصحف / ٦٣ نزول) :

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنَاءَلَيْتُهُمْ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

فهم يتعللون بالمذهب الجبري الفاسد في القضاء والقدر، وقد كذبهم الله به، ويستمسكون بحجة التقليد الأعمى لأبائهم، وبأنهم مستمسكون بالسير على آثارهم .

ومن منطقهم الفاسد في هذا المجال رفضهم الإنفاق على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، بحجة أن الله قد أراد لهم أن يبقوا فقراء محتاجين لا يجدون من يساعدهم، إهانة لهم وإذلالاً، ولو شاء الله لهم غير ذلك لأغناهم فاطعمهم، فإذا قد

جعلهم فقراء فهم لا يستحقون المعونة والمساعدة، وقد ذكر الله مقالتهم الفاسدة هذه بقوله سبحانه في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ .

وهنا نلاحظ أنهم لما تصوروا أنهم ملكوا بمقالتهم ناصية حجة مفحمة، قالوا للذين آمنوا: إن أنتم إلا في ضلال مبين، أي: إذ تدعوننا إلى الإنفاق من أموالنا للفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وإذ تنفقون أنتم عليهم من أموالكم.

وحين ندرك فلسفة الحياة وحكمة الخالق يظهر لنا فساد هذه الحجة التي ساقوها، وذلك لأنه لا يلزم من الإفقار في الحياة الدنيا أن يكون الغرض منه الإهانة، كما لا يلزم من الإغناء أن يكون للتكريم، لاحتمال أن يكون الغرض من كل منهما الابتلاء.

وقد رفض القرآن فهمهم هذا رفضاً كلياً وأبان أن الغرض الأساسي من الإغناء والإفقار هو امتحان الإنسان في أيٍّ من هذين الأمرين، فليس الإغناء للتكريم، وليس الإفقار للإهانة، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الفجر / ٨٩ مصحف / ١٠ نزول):

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ .

فالأمران كلاهما للابتلاء، إذ يتلي الله الغني بالغنى ويأمره بالإنفاق ليلوه هل يشكر نعمة الله أو يكفرها، ويتلي الفقير بالفقر ويأمره بالرضا والصبر والمشي في مناكب الأرض بحثاً عن الرزق، ليلوه هل يرضى ويصبر أو يسخط ويضجر.

ولما أورد الكافرون حجتهم: «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه»، قصدوا منها أن الله أراد فعلاً أن لا يطعم هذا الفقير، وهذا كذب على الله، بل أراد أن يمتحن

الغني بإطعامه، فالله قد أطعمه بالأمر التكليفي، إذ أمر الأغنياء بسد حاجات الفقراء، وأطعم الآخرين بتيسير سبل الرزق لهم. ولذلك زجرهم عن مقاتلتهم الكاذبة فقال تعالى في النص: «كلا»، ثم أبان تعالى أن علَّتْهم الحقيقة هي داء الشح في نفوسهم، فقال لهم: «بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين»، أي: مع أن الله قد أمركم بذلك، فأنتم تعصون الأمر الإلهي وتعللون بالقدر، تعللاً تكذبون به على الله، فتضيفون إلى معصية أمر التكليف الذي أمركم به جريمة الكذب عليه جلّ وعلا.

(٩)

عقوبات الكافرين المعجلة والمؤجلة

للكافرين عقوبات ربانية يعاقبهم الله بها جزاء كفرهم، قسم منها معجل يجري ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا، وضمن سننها ومقاديرها، وقسم آخر مؤجل إلى ما بعد ظروف هذه الحياة الدنيا.

(أ) العقوبات المعجلة :

أول ما يخسره الكافر بكفره معونة الله التي يمد بها أوليائه، ثم يصيبه مقت من الله يضيق به صدره، وتتكدّر به نفسه، فلا يكون في داخل نفسه منشراحاً ولا مسروراً، لأنه يكون محروماً من الرضا بالمقادير، وهذا يجعله فريسة للحزن والهم، فهو دائماً حزين على ما فاتته من خير، مهموم لما يطمع بالحصول عليه، وفي ذلك عذاب له يُقَضُّ مضجعه وينغض عليه حياته، ويحرّمه من التمتع الصحيح بما يصيب من لذّات، حتى إذا ضاقت به الحياة، وقلت عليه نسمات آمالها، وكثرت عليه خوائق أكارها وآلامها، وصار صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، أو كأنما يهوي منها فيتمزق فتخطفه الطير من كل جانب، عندئذٍ يحاول أن يفرّ من الحياة، بالخمّر والقمار، أو بالمخدرات أو بالانتحار.

يضاف إلى ذلك أنواع الخيبة التي تُمنى بها أعمالهم وتديراتهم التي يواجهون بها أولياء الله الصادقين العاملين بما أمرهم الله، وصور الخذلان والهزيمة

إذ ينصر الله المؤمنين الصادقين عليهم، وأنواع العقوبات المادية والمهلكات الجسدية والنفسية التي ينزلها الله بهم، ثم ما ينال بعضهم من تدمير شامل، كما حصل لبعض الأمم التي كفرت برسول ربها وكتبه واليوم الآخر وأكثر في الأرض الفساد.

والنصوص القرآنية التي بينت عقوباتهم المعجلة كثيرة. فمنها ما يبين واقع حالهم النفسي القلق المضطرب المتمزق، المشحون بالهموم والأكدار. ومنها ما يشتمل على وعيد الكافرين بأنواع العقوبات المعجلة، وهذا الوعيد قد يكون وعيداً جازماً مقطوعاً به، وقد يكون تهديداً صريحاً، وقد يكون تلويحاً وتعريضاً بالتهديد، وألوان التربية القرآنية في هذا كثيرة ومتنوعة. ومنها ما يشتمل على وعد المؤمنين الصادقين بالظفر والنصر والتأييد ضد أعدائهم، وهذا يتضمن وعيداً للكافرين بأن الله سيخذلهم ويدلهم وينصر المؤمنين عليهم. ومنها ما يشتمل على بيان قصص ووقائع تاريخية أنزل الله فيها بالكافرين عقوباته المعجلة في الدنيا، وفي عرض هذه القصص بيان لسنة الله في عباده حتى يعتبر بها الذين كفروا إن كانوا من الذين يعتبرون ويتعظون.

والعنوان الشامل لعقوبات الكافرين معلن في قول الله تعالى: ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾، أي: فكفره يكون عليه ضرراً وأذى، ولا يكون لمصلحته بحال من الأحوال، لا في الحياة الدنيا ولا في الآخرة، وحينما يتصور أن كفره سي جلب له فائدة أو مصلحة أو خيراً عاجلاً فإن كفره لا يزيده إلا خساراً، كل هذا نجده موضحاً في قول الله تعالى في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩).

والمقت الذي ينزل عليهم يملأ صدورهم ضيقاً وحرماً، وهمماً وحزناً، والخسار يلاحقهم حيثما توجهوا، كل ذلك بسبب كفرهم بما يجب أن يؤمنوا به مما أنزل الله على عباده.

● العقوبة بالضيق والحرج في صدورهم:

جاء في البيانات القرآنية أن الله يعاقب الكافرين ضمن سننه في الحياة الدنيا بضيق وحرج في صدورهم، فقال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

فالذين لا يؤمنون يعاقبهم الله بهذا الرجز النفسي، وهو ضيق وحرج في صدورهم، وهذه نتيجة طبيعية لكفرهم، وهذه العقوبة تأتيهم ضمن سنن الله الكونية؟ فمن يرد الله أن يضلّه (أي: أن يحكم عليه بالضلال) بسبب كفره وعناده يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء.

وبمقدار ضعف التصورات الإيمانية لدى المؤمنين ضعفاء الإيمان يأتيهم نصيب من هذا الضيق والحرج في الصدور.

● العقوبة بالتمزق النفسي والقلق:

وجاء في البيانات القرآنية أن حالة من التمزق النفسي تصيب الكافرين بسبب كفرهم وإشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً. فقال الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢١﴾﴾.

فحالة التمزق والضياع والانهيال والقلق التي تصيب الإنسان في كيانه الداخلي هي من العقوبات النفسية التي يعاقب الله بها الكافرين ضمن سننه الكونية، لأن الكفر بالله أو الإشراك به مما يسبب هذه النتائج في داخل النفس ضمن قوانين الأسباب والمسببات.

● العقوبة بالخذلان والهزيمة أمام جند الله :

ومن العقوبات المعجلة للكافرين خذلانهم وهزيمتهم أمام جند الله المؤمنين الصادقين القائمين بما أوجب الله عليهم، ولو كانوا أقل منهم عدة وعدداً، وإفساد تدبيراتهم ومخططاتهم ومكايدهم التي يدبرونها لمحاربة جند الله وإطفاء نور الله، وبذلك تتحقق حكمة الله ووعده في نصر أوليائه وخذل أعدائه.

قال الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٤٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

ففي هذا النص نلاحظ أن الغاية من خذلهم ونصر المؤمنين عليهم إضعاف قوتهم في الأرض بقطع طرف منهم، أو كبتهم، أي: إغاثتهم وإحزانهم، ليكون ذلك برهاناً على أن الله ولي الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم. والعاقلة متى أدرك دلالة هذا البرهان كان ذلك محرضاً له على الإيمان.

ولذلك قال الله لرسوله في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

ووسائل خذلهم ونصر المؤمنين الصادقين عليهم كثيرة مختلفة، منها إلقاء الرعب في قلوبهم. ومنها توهين كيدهم ورد مكايدهم إليهم وجعلها في نحورهم. ومنها إمداد المؤمنين ضدهم بالقوة المعنوية العالية، وبالملائكة، وبالأحداث الطبيعية، كالرياح والأمطار ومواقع الأرض وغير ذلك.

أما إلقاء الرعب في قلوبهم فيدل عليه قول الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

فإلقاء الرعب في قلوبهم قد كان بسبب كفرهم وإشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

وأما توهين كيدهم فيدل عليه قول الله تعالى في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

وطبيعي أن يولي الكافرون الأدبار حينما يقذف الله في قلوبهم الرعب ويوهن كيدهم، ولذلك خاطب الله الذين آمنوا بقوله في سورة (الفتح / ٤٨ مصحف / ١١١ نزول):

﴿وَلَوْ قَتَلْتَكُمْ لَذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُثَمَ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢)

وقد حذر الله الكافرين من عقوبة خذلهم ونصر المؤمنين عليهم، بالتلويح مرة، وبالتصريح أخرى، وبالتطبيق العملي في معاركهم ضد المؤمنين الصادقين. فمن صور التلويح بالتهديد قول الله تعالى في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥٧)

فهم مهما بلغت قوتهم في الأرض لا يعجزون المؤمنين الصادقين القائمين بما أوجب الله عليهم، لأن الله يمد أوليائه بمعونته ونصره، ويخذل أعداءه وما النصر إلا من عند الله، أما في الآخرة فمأوى الكافرين النار دار العذاب، ولبس هذا المصير مصيرهم.

وقد جاءت هذه الآية طمأننة للرسول والمؤمنين بوجهها الصريح، واشتملت أيضاً على تلويح تهديدي للكافرين بموجب دلالتها المتعلقة بهم، ولولم يكن الخطاب فيها موجهاً بصراحة لهم، لكن آية أخرى قد جاء فيها توجيه الخطاب للكافرين بأنهم غير معجزين الله، فقال تعالى يخاطب المشركين في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ٢١

وقال لهم فيها أيضاً:

﴿فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٢٢

وتحدث الله عن الكافرين عامة بمثل ذلك، فقال تعالى في سورة (الأنفال) / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ٥٩

أي: لا يظنوا أنفسهم قد سبقوا المؤمنين بعددهم وعدتهم، فإنهم لا يعجزون المؤمنين الصادقين، لأن الله مع المؤمنين بمعونته وتأييده ونصره، ولكن على المؤمنين أن يقوموا بما أوجب الله عليهم، وأن يحققوا في أنفسهم الشروط التي يستحقون بها تأييد الله لهم، ونصرهم على عدوهم، ومن ذلك أن يعدوا لأعدائهم ما يستطيعون من قوة، ومن أجل ذلك أتبع الله الآية السابقة بقوله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ٦٠

ومهما تكن مكايد الكافرين كثيرة وخطيرة وذكية فإن الله قد ضمن للمؤمنين توهين هذه المكايد، وردّها عليهم، متى صدق المؤمنون وأخلصوا الله في جهادهم، وبذلوا ما في وسعهم في سبيل الله وهذا الضمان نلاحظه في قول الله الذي ذكرناه قريباً من سورة (الأنفال) / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿ذَلِكَ وَمَأْتِيَهُمُ اللَّهُ مُوْهِناً كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ ١٨

وفي قول الله تعالى في سورة (الطور) / ٥٢ مصحف / ٧٦ نزول):

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ٤٤٢.

أي: فمكايدهم تعود عليهم، ولا ينال المؤمنین الصادقین ضررها البالغ، ولذلك خاطب الله المؤمنین بقوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا كُمْ يُؤَلَّوْكُمْ الْأَذَى بَارِئٌ لَكُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ ٣١١.

فقد جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن اليهود، وهم أكثر الناس مكاييد للمؤمنين ولسائر الناس.

فما على المؤمنین الصادقین الملتزمين بأوامر الله إلا أن يواجهوا أعداء الله بشبات وصبر، بعد أن يعدّوا لهم ما يستطيعون من قوة، وتكون نسبة عدوهم لا تزيد على ضعفهم.

لقد كان التكليف أول الأمر يلزم المؤمنین بأن يقابلوا عشرة أضعافهم، ثم خفف الله هذه النسبة إلى ضعف واحد، نظراً إلى حالة الضعف النفسي الذي عليه الناس مهما بلغ إيمانهم، إذ لا يرتقي شعورهم الجماعي العام إلى مستوى النسبة العظمى، ولو بلغ شعورهم الجماعي إلى هذا المستوى لكتب الله لهم النصر على عدوهم، وإن كانت قوته عشرة أضعاف قوتهم أو أكثر، وهذا ما بينه الله بقوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٦٤ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ٦٥.

أي: ليس لهم غاية يفقهونها فترفع قواهم المعنوية في القتال، ولا أمل لهم فيما بعد الحياة الدنيا، لذلك فهم شديداً الحرص على الحياة، وهذا هو مولد الجبن في القلوب.

وعقب ذلك جاء التخفيف في هذا المستوى من التكليف الإلزامي، فقال تعالى في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ففي هذا وعد من الله بأن ينصر المؤمنين الصادقين الصابرين على عدوهم، ولو كان عدده ضعف عددهم، على أنهم لو وثقوا بالله حق الثقة، وصبروا وصدقوا لنصرهم على عدوهم ولو كان عدده ضعف عددهم عشر مرات، فالوعد الأول لم ينقطع، ولكن التكليف بالمواجهة هو الذي جاء فيه التخفيف، ولذلك جاءت الآية مصدرة بقول الله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾.

والوقائع والأحداث التاريخية قد أيدت هذه الحقيقة، فالله قد نصر رسله بالحق على الذين كفروا وظلموا من أقوامهم، ونصر الذين آمنوا وصبروا وصدقوا واستقاموا في كل وقائعهم ضد الذين كفروا، ولم تتحول رياح النصر عن المؤمنين إلا بذنوب قد ارتكبوها، وقد حقق الله بنصره لرسله وللمؤمنين الصابرين الصادقين سنته التي وضعها، وحقق وعده الذي وعد به أوليائه، والذي أعلنه بقوله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

وبنظرة تفصيلية نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد نصر نوحاً على قومه فأغرقهم وأنجاه والذين آمنوا معه، ونصر هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً على أقوامهم، ونصر موسى على فرعون وملئه وجنوده، ونصر داود وسليمان، ونصر عيسى فأنجاه من قومه، ونصر محمداً والمؤمنين معه وتوج لهم جهادهم بالفتح المبين، ونصر المجاهدين المسلمين من بعده، ففتح لهم أبواب ممالك الأرض، وما توقف عنهم النصر إلا حينما عصوا في الواجبات والشروط التي فرضها الله عليهم، والتي كانوا يستحقون بها إمداد الله لهم بمعونته ونصره.

ولنأخذ حياة الرسول محمد ﷺ لنرى كيف نصره الله في كل مواقفه على أعدائه، وكيف خذل الكافرين.

لقد نصره الله يوم هاجر من مكة إلى المدينة، بوسائل خفية غيبية، وأخرى مشهودة ما كان الكافرون ليحسبوا حسابها، وقد تحدث الله عن هذا النصر بقوله لأصحاب الرسول في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوا بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ .

وتحدث الله عن هذا النصر أيضاً بقوله لرسوله في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ثم نصر الله الرسول والمؤمنين في غزوة بدر الكبرى على الكافرين أعدائهم وأعداء الله، وسورة الأنفال تدور حول أحداث هذه الموقعة العظيمة وما أظهر الله فيها من آيات نصره لرسوله والمؤمنين معه، رغم أنهم كانوا قلة أذلة، وقد امتنَّ الله عليهم بهذا النصر، فقال تبارك وتعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ .

أي فبعزته ينصر، وبحكمته يقضي بنصره للمؤمنين الصابرين الصادقين على الكافرين المصرين المعاندين الصادقين عن سبيل الله .

وفي غزوة أحد نصر الله المؤمنين في أوائل الأمر، ثم حول الله عنهم رياح النصر بسبب معصيتهم وأوامر الرسول صلوات الله عليه.

وفي غزوة حنين تحولت أول الأمر رياح النصر عن المسلمين، بسبب اغترارهم بكثرتهم واعتمادهم على أنفسهم، ثم نصرهم الله وأيد رسوله والمؤمنين الصادقين، وأنزل جنوداً من عنده، وخذل الذين كفروا، وبين الله هذا بقوله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

فأصاب الله المؤمنين يوم حنين بما أصابهم به أولاً ليؤدبهم ويربهم حتى لا يغتروا بأنفسهم، وحتى لا ينقطعوا عن الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، ثم تدارك القلة الباقية منهم بنصره المبين، ليثبت للمؤمنين أن النصر من عنده سبحانه، يرفعه متى شاء، ويضعه حيث يشاء.

وفي غزوة الخندق كان نصر الله للمؤمنين برد الكافرين عن حصار المدينة، وهم يعانون آلام غيظهم، إذ لم ينالوا خيراً من حملتهم الظالمة الآثمة، وقد بين الله ذلك بقوله تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

وفي غزوة بني قريظة كان نصر الله للمؤمنين بقذف الرعب في قلوب اليهود، وإنزالهم من حصونهم، واستسلامهم للقتل والأسر، وقد بين الله هذا النصر بقوله تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ^(١) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٦٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٦٧﴾﴾

وفي غزوة بني النضير كان نصر الله للمؤمنين بأن قذف الرعب في قلوب بني النضير من يهود، وتم إجلاؤهم عن المدينة، ونصر الله رسوله والمؤمنين معه، ونزل في أحداث هذه الواقعة التي تمت بنصر المؤمنين وخذل الكافرين سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف / ١٠١ نزول)، وفي هذه السورة يقول الله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾

وهكذا وضع لنا بالشواهد الواقعية كيف يعاقب الله الكافرين بأنواع من العقاب المعجل في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر وأشق، وهذا العقاب المعجل للكافرين ليس عقاباً كاملاً، وإنما هو عقاب جزئي للتذكير والتربية والاعتبار، وهو أيضاً بشرى للمؤمنين ومثوبة لهم.

● العقوبة بالقوارع الجزئية:

ومن العقوبات المادية المعجلة التي ينزلها الله بالذين كفروا وأصروا على كفرهم وعنادهم أنواع القوارع والمصائب التي تحل بهم، وقد بين الله ذلك بقوله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

(١) من صياصيههم: أي من حصونهم، والصياصي هي الحصون التي يتحصن بها المحاربون.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿٣١﴾ .

ويدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى في سورة (السجدة) / ٣٢ مصحف / ٧٥ نزول):

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣١﴾
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرْتُ بِهِ ثُمَّ أَغَرَضْتُ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ .

والعذاب الأدنى هو العذاب المعجل في الدنيا والغرض منه رجاء إصلاحهم أو الاعتاظ بهم، وقد يدخل في العذاب الأدنى عذاب ما بين الموت والبعث .

● العقوبة بالإهلاك العام والتدمير الشامل :

ويأتي في قمة أنواع العقاب المعجل للكافرين عقابهم بالإهلاك العام والتدمير الشامل، لقمع بذرة الشر التي لم تُجَدَّ فيها كل وسائل الإصلاح، ويكون هذا العقاب عبرة لغيرهم، حتى يتردعوا عن كفرهم وطغيانهم وتماديهم في الفساد، ولينصر الله بذلك رسله والمؤمنين .

لما اشتد استهزاء الكافرين برسول الله ﷺ خاطبه الله مطمئناً ومسلماً له بقوله في سورة (الرعد) / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ﴿٣٢﴾ .

فكان عقاب الله لهم بالإهلاك العام، والعذاب الشامل .

وقصَّ الله علينا في القرآن طائفة من قصص إهلاك الأولين، ليكون ذلك عبرة لأولي الأبصار، وأوضح لنا أن إهلاكهم كان جزاء لهم بسبب كفرهم وتماديهم في الغي والفساد، وانتصاراً لرسله الذين كذبوهم وسخروا منهم وكادوهم كيداً كبيراً .

فمن أمثلة ذلك إهلاك الله أهل سبأ، لقد كان إهلاكهم جزاء لهم بسبب

كفرهم وبغيهم ، قال الله تعالى في سورة (سبأ / ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول) :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خُمٌ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا
كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّذِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا
وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ (١).

فهؤلاء السبئيون في القديم قد عاقبهم الله بالسَّيل العرم ، وجازاهم بسبب
كفرهم العنيد الظالم ، بعد أن وسع عليهم في الرزق ، وعاملهم بعفوه وغفرانه (بلدة
طيبة ورب غفور) لكنهم مارعوا نعمة الله حق رعايتها ، فبدلهم الله بجنتيهما الطيبتين
جنتين ذواتي أكل خمت ، ثم أهلكهم ومزقهم كل ممزق .

وأوضح القرآن أن عقاب الكافرين يحمل غايتين :

الغاية الأولى : الجزاء بالعقاب للكافرين .

الغاية الثانية : الجزاء بالثواب للمؤمنين الصادقين .

فمن ذلك ما قصه الله تعالى من قصة قوم نوح وإهلاكهم وإنقاذ نوح ومن آمن
معه ، ليتعظ بها قوم محمد ﷺ ، فقال تعالى في سورة (القمر / ٥٤ مصحف /
٣٧ نزول) :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانصُرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ

(١) الخمط : هو كل شجر ذي شوك ، وأكله ثمره ، والأثل والسدر نوعان من الشجر معروفان في
أرض العرب .

قَدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وُدُسِرِ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ .

فعقاب قوم نوح وإنقاذ نوح بالمعجزة الربانية كان ذلك جزاء لنوح الذي كُفِرَ - أي: كفر به قومه وكذبوه - وهذا جزاء بالثواب، وكان أيضاً جزاء بالعقاب للكافرين المكذبين، إذ كانوا هم الطرف المعاقب المهلك.

ومن الملاحظ بوضوح أن ما عرضه الله في كتابه من قصص الأولين، قد كان الغرض منه إيقاظ مشاعر الاعتبار والانعاط، ولم يكن الغرض منه مجرد عرض قصص من القصص التاريخية، مهما كانت المواقف الفنية المثيرة ظاهرة فيها، ولذلك تبرز في القصة القرآنية الأحداث المشتملة على مواطن العظة والاعتبار، ويأتي فيها لفت النظر إلى الانعاط والاعتبار، في آخر عرض القصة أو في أوله أو في أثنائه.

ففي النص السابق نلاحظ في آخره قول الله تعالى: ﴿فهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟ فكيف كان عذابي ونذر؟﴾.

ونلاحظ في القرآن تنبيهاً عاماً على الاعتبار بجميع ما أجراه الله في الأمم السابقة، فمن ذلك قول الله تعالى يخاطب رسوله محمداً ﷺ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿وَأَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ .

ففي قوله تعالى: ﴿فكيف كان نكير؟﴾ توجيه ظاهر للانعاط والاعتبار بكل ما جرى للأمم السابقة من عقاب لهم على كفرهم وتكذيبهم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة (يوسف / ١٢ مصحف / ٥٣ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُم نَصْرُنَا

فَنَجَّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بِاسْتِنَاعِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ .

ففي هذا النص تصريح بأن الغرض من عرض قصص الأولين أن تكون عبرة لأولي الألباب، وهم أصحاب القلوب الواعية والأبصار المدركة.

ومن هذا نلاحظ أن القرآن يعتمد - في ضمن ما يعتمد - على التربية بالقصة، لما للقصة الواقعية من تأثير قوي في النفوس، وتنبيه قوي على الاعتبار والادِّكار، ومعلوم في الظواهر التاريخية أن تكرر النتائج للمقدمات دليل على ثبات السُّنة الكونية، فهي تدل عند ذوي العقول على أن للمستقبل حكم ما جرى في الماضي، لذلك كان من الطبيعي الاستشهاد بأحداث الماضي دليلاً على ما يجري في المستقبل، باعتبار أن ذلك من سنن الله الثابتة.

ولذلك جعل الله أنباء الأولين أدلة لأولي الألباب، يحاسبون عليها، ويلاُمون على الاستهانة بها، وعدم الاعتبار والاتعاظ بما اشتملت عليه من مواطن عظة واعتبار، وهذا ما نلاحظه في قول الله الموجه للذين كفروا بمحمد ﷺ في سورة (التغابن / ٦٤ مصحف / ١٠٨ نزول):

﴿الْمَرِيَّاتُ كُفَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ .

ففي هذا النص نلاحظ توجيه اللوم والتوبيخ لهم إذ لم يتعظوا ولم يعتبروا بأنباء الذين كفروا من قبل.

وعلى هذا الأساس التوجيهي التربوي جاءت قصص القرآن.

* * *

(ب) العقوبات المؤجلة :

الجزاء المؤجل إلى ما وراء ظروف هذه الحياة الدنيا هو الجزاء الأكبر، وربما يدخر الله لبعض الناس كل جزائهم فينالون كل نصيبهم من هذا الجزاء الأكبر.

ولما كان البحث عن واقع هذا الجزاء المؤجل من أمور الغيب التي لا يستطيع العقل المجرد أن يتحكم في صورها وأشكالها أو يحكم على مراحلها، لأن بينها وبين العقل حجاب الزمان والمكان، كان المرجع فيها النصوص الدينية الصحيحة ومفاهيمها المقبولة.

وقد دلت النصوص الدينية الصحيحة على أن أنواع العقاب المؤجل تبدأ منذ فترة الموت فما بعد الموت، ثم يكون عقاب أشد في يوم الحساب، وهي المدة التي تكون بعد البعث إلى الحياة الجسدية مرة أخرى، وتستمر حتى إصدار الأحكام النهائية، ثم يكون العقاب الأشد الأكبر في دار العذاب التي أعدها الله للمجرمين.

فهي مراحل ثلاث :

أولها: مرحلة البرزخ، وهي المدة الفاصلة بين الحياتين الماديتين.

ثانيها: مرحلة يوم الحساب، وهي تكون بعد البعث وقبل دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

ثالثها: مرحلة دار الجزاء الأكبر.

وفي هذه المراحل الثلاث أيضاً يتلقى المؤمنون المتقون أنواعاً من ثوابهم، وثوابهم الأكبر يكون في المرحلة الأخيرة، إذ يدخلهم الله جنته.

● عقاب الكافرين في المرحلة الأولى :

لقد دلت النصوص الإسلامية دلالة صريحة على وجود عقاب للكافرين في المرحلة البرزخية التي تبدأ بالموت، وتستمر حتى يبعثهم الله إلى الحياة الجسدية مرة أخرى.

والموت إنما هو انفصال الروح عن الجسد، ومفارقتها له، كما يخلع لابس الثوب ثوبه.

لقد قص الله علينا طرفاً من قصة موسى مع فرعون وآل فرعون ومن آمن من آل فرعون، ثم ختم ذلك بقوله في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

الضمير في ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ يعود على الرجل الذي آمن من آل فرعون، فوقى الله مؤمن آل فرعون سيئات ما مكر آل فرعون، ونزل بفرعون وآله سوء العذاب من الله، وجاء تفسير سوء العذاب هذا ببيان عرضهم على النار غدواً وعشياً، وهذا العرض على النار واضح أنه يكون في مدة البرزخ بين الموت والبعث بدليل قول الله تعالى عقب ذلك: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

فدل هذا على أن عرضهم على النار غدواً وعشياً يكون قبل قيام الساعة، أي: قبل البعث. ثم بعد البعث يحاسبون ويقال لملائكة العذاب: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

وفي أقوال الرسول ﷺ نصوص كثيرة تثبت ما في هذه المرحلة من نعيم وعذاب.

أما كون عذاب الروح أو نعيمها في هذه المدة ذا صلة بالأجساد الميتة أو البالية أو غير ذي صلة بها فلا شأن لنا به، وقدرة الله لا يُعجزها شيء تتعلق به مشيئته سبحانه، على أنه يكفي لتحقيق ما دلت عليه النصوص بالنسبة إلى هذه المرحلة أن يكون العذاب والنعيم للروح ولو لم يكن للروح أية صلة بأبدانها.

● عقاب الكافرين في المرحلة الثانية:

علمنا أن هذه المرحلة تبدأ بالبعث إلى الحياة بعد الموت للحساب والجزاء الأكبر.

وقد دلت النصوص الإسلامية على أن هذه المرحلة تشتمل على عذاب الموقف الطويل، في حرٍّ شمس دانية من رؤوس الخلائق، ولا ينجو منه إلا

المؤمنون الذين أكرمهم الله بأن يستظلوا في ظل عرش الرحمن يومئذ، يوم لا ظل إلا ظله، وتكون درجة عذاب هذا الموقف مناسبة لحال الواقف وكفره وكثرة معاصيه شدة وضعفاً، ويستمر هذا الموقف زمناً يعلمه الله، حتى يتمنى الكافرون أن يقضى عليهم بعذاب جهنم، لينصرفوا إليها وينتهوا من موقف الحساب.

وفي هذا الموقف أو في مرحلة من مراحل تعرض الذين كفروا على النار دار عذابهم، ويقال لهم مع هذا العرض: أذهبت طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها؟! فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، وفي بيان هذا يقول الله تعالى في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزل):

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٤٦).

ويقال لهم بعد عرضهم على النار: أليس هذا بالحق؟ فيقولون: بلى وربنا. ولكن هذا الاعتراف يومئذ لا ينفعهم، لأنهم يعترفون بما يشهدون، وهم عليه معروضون وإليه واردون، ولذلك يقال لهم: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وهذا ما بينه الله بقوله في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزل):

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٤٦).

وحين يرون العذاب قريباً منهم تكون حالتهم حالة من علم مصيره المحتوم، فغلى فؤاده بالألم، وظهرت المساءة على وجهه، وفي بيان هذا يقول الله تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزل):

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٦٧).

أي: هذا الذي كنتم به تكذبون، إذ كنتم بسببه أو في موضوعه تدعون الأباطيل والأكاذيب.

وحين يعرضون على النار يساقون إليها زمراً بحسب أنواع كفرهم وظلمهم،
أو بحسب كتلهم وزمرهم في الدنيا، وفي بيان هذا يقول الله تعالى في سورة
(الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزل):

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوْىِٰى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾﴾

إنهم يؤمرون بالدخول، وليس الدخول أمراً سهلاً، فمن الطبيعي أن
يحجموا، لذلك فهم يدعون دعاءً فيدفعون بشدة، مهانين مُذَلِّين، قال الله تعالى في
سورة (الطور / ٥٢ مصحف / ٧٦ نزل):

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَكُمْ مِّن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوَرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ
إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا
تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

وهذا الدُّعَا إلى جهنم لا بد أن ينتهي إلى كبكبتهم فيها على وجوههم كالركام
الذي يقذف بعضه على بعض، قال الله تعالى في سورة (النمل / ٢٧ مصحف /
٤٨ نزل):

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾﴾

وقال تعالى في سورة (الشعراء / ٢٦ مصحف / ٤٧ نزل):

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم
أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُنُودُ بَلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

وبعد هذا الدُعِّ وبعد الككببة في النار لا بد أن يباغتوا بمس النار فتبهتهم فلا يستطيعون ردها، قال الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فمسُّ النار يأتي مباغتاً، والدفع يأتي بعد إحجام، والأمر بالدخول يأتي قبل ذلك والله أعلم.

● عقاب الكافرين في المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة دخولهم دار العذاب، وقد جاء في نصوص القرآن لمحات تفصيلية لألوان العذاب في جهنم، إلا أن معظم النصوص تحدثت عن عذاب جهنم وشدته وشدة إيلامه بشكل عام.

● وفيما يلي طائفة من النصوص التي تتحدث عن عذاب الكافرين في النار بشكل عام:

١ - فمنها قول الله تعالى في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

فوصف العذاب هنا بأنه عذاب مُهين، أي فيه إهانة شديدة لهم وإذلال بالغ جزاء كبرهم واستعلائهم.

٢ - ومنها قول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

فهم أصحاب النار، وهم خالدون فيها لا يخرجون منها.

٣ - ومنها قول الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ ﴿٤١﴾﴾.

فجاء وصف العذاب هنا بأنه عذاب شديد.

٤ - ومنها قول الله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦ ﴾ .

ففي هذه الآية بيان أن جلود الكافرين المعذبين في نار جهنم كلما نضجت واحترقت وانقطع إحساسها خلق الله لهم جلوداً غيرها، ليدوقوا العذاب المتجدد.

٥ - ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠ ﴾ .

فقد جاء وصف النار هنا بأنها جحيم، أي موجهة مضرة شديدة الحرارة.

٦ - ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧ ﴾ .

فجاء وصف العذاب هنا بأنه عذاب أليم.

٧ - ومنها قول الله تعالى في سورة (الملك / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول):

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ٦٦ ﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسَوْفَ نَأْتِيهِمْ فَنَسُحَقُهُمْ فَلَا أَصْحَابَ السَّعِيرِ ١١ ﴾ .

وفي هذا النص وصف شهيق جهنم وفورانها من شدة حرها كأنها تتميز من الغيظ، وفيه بيان أن أصحاب النار يلقون فيها أفواجاً أفواجا، ولا يقذفون فيها دفعة واحدة، وفيه بيان أن كل فوج يسأله خزنة جهنم من الملائكة فيقولون له: ألم يأتكم نذير؟ فيقولون: بلى، ويعترفون بذنبهم ويتحسرون على أنفسهم. وهذا تطبيق

ما جاء في قوله تعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ، فما من فوج كافر يدخل النار إلا يُسأل هذا السؤال : ألم يأتكم نذير؟ فيقولون : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما أنزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير .

● أما النصوص التي جاء فيها مزيد من تفصيل عقاب الكافرين في هذه المرحلة الثالثة الأخيرة فكثيرة ، ونستعرض فيما يلي طائفة منها مقتبس من تفصيلات :

١ - لقد جاء في القرآن بيان شراب الكافرين في جهنم فقال الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول) :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مِّمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ٤٠ .

فلهم شراب من حميم ، أي : شراب من ماء حار يغلي .

٢ - وجاء في القرآن بيان طعامهم وشرابهم فيها ، فقال الله تعالى في سورة (الدخان / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول) :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ٤٢ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِءَ تَمْتَرُونَ ٥٠﴾ .

وقال تعالى في سورة (الواقعة / ٥٦ مصحف / ٤٦ نزول) :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاطُ الْكَاذِبُونَ ٥١ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ٥٢ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٥٣ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ٥٥ هَذَا نَزَمْتُ يَوْمَ الدِّينِ ٥٦﴾ .

وقال تعالى في سورة (الصفات / ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول) :

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمْ لَكَوْنُ مِنْهَا فَمَا لَتَوْنَ مِنْهَا

الْبُطُونِ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَفْقَا
ءَ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ ﴿٧٠﴾ .

فمن هذه النصوص يتبين لنا أن طعامهم في دار العذاب من شجر فيها من زقوم، وأن شرابهم على هذا الطعام من الحميم.

والزقوم شجر منتن الرائحة مر الطعم كالمهل^(١)، ينبته الله في أصل الجحيم، وإذا أكله آكله غلى في بطنه كغلي الحميم، وطلع^(٢) هذا الشجر كأنه رؤوس الشياطين، ولكن الكافرين يجدون أنفسهم في دار عذابهم مضطرين لأن يأكلوا من شجر الزقوم، فيملؤوا بطونهم منه، ثم بعد ذلك يسرعون فيشربون وهم ظامئون من الحميم، لكن الحميم لا يطفىء شدة ظمئهم، وما يغلي في بطونهم، فيستزيدون ويستزيدون ويشربون شرب الهيم، والهيم هي الإبل التي يصيبها داء يقال له: داء الهيم، فهي تشرب ولا تروى.

ثم يُعْتَل الكافر ويؤخذ إلى سواء الجحيم، ثم يصب فوق رأسه من عذاب الحميم، ويقال له على سبيل الإهانة والإذلال: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

ولهم أيضاً طعام آخر من غسلين، وهو في كلام العرب ما يخرج من الأشياء المستقدرة كالجراحة ونحوها عند غسلها، قال الله تعالى في سورة (الحاقة) / ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿ فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ هَنَاءٌ حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخِطُؤُنَ ﴿٣٧﴾ ۞ .

٣ - وجاء في القرآن بيان لباسهم في دار عذابهم، إن لهم ثياباً خاصة من نار، تُقَطَّع لهم على مقادير أجسامهم، قال الله تعالى في سورة (الحج) / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿ هَٰذَا نِ حَصَمَانِ أَخْصَمُوا فِي رِيحِهِمُ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ

(١) المهل: المعدن المذاب، أو دردي الزيت، أو القيق والصديد.

(٢) الطلع: نور النخلة، وهو أول ما يطلع من ثمرها.

مِنْ فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَمٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ .

فللكافرين ثياب من نار مقطعة مفصلة على مقادير أجسامهم، ويعذبون بسائل يغلي من شدة حرارته، يصب من فوق رؤوسهم فيصهر به ما في بطونهم، وتصهر به جلودهم، ويحاولون الخروج من عذابهم وغمهم، فتلاحقهم ملائكة العذاب بمقامع^(١) من حديد، فيضربونهم، ويعيدونهم في العذاب، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

٤ - وجاء في القرآن بيان ما يوضع في أعناق الكافرين من أغلال حامية يعذبون بها في دار عذابهم، فقال الله تعالى في سورة (سبأ) / ٣٤ مصحف / ٥٨ نزول):

﴿... وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ .

وقال تعالى في سورة (الرعد) / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿... أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٥﴾ .

٥ - ويعذب الكافرون في النار بسلاسل محمية يسلكون فيها، طول كل واحدة منها سبعون ذراعاً، قال الله تعالى في سورة (الحاقة) / ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كَذِبُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً ﴿٤٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةً ﴿٤٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خُدُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا

(١) المقامع: قضبان يضرب بها للقمع.

يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ .

٦ - وجاء في البيانات القرآنية أن عذاب الكافرين في نار جهنم عذاب دائم لا نهاية له، وأنهم لا يقضى عليهم فيموتوا، بل حياتهم فيها مستمرة، وعذابهم فيها لا ينقطع، كما أنه لا يخفف عنهم من عذابها، قال الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ .

فهم يدعون ربهم وهم في نار جهنم أن يعيدهم الله إلى دار الابتلاء ليؤمنوا ويعملوا صالحاً، ولكن الله لا يستجيب إلى طلبهم هذا، ويقول لهم: «أولم نعمركم؟» أي: أولم نجعل لكم في دار الابتلاء عمراً كافياً لاختباركم وامتحانكم، فأصررتكم على كفركم وعنادكم، ويقول لهم أيضاً: «وجاءكم النذير»، أي: وقد جاءكم رسول فأنذركم عاقبة كفركم فكذبتم وعصيتهم.

على أنهم لوردوا إلى دار الابتلاء لعادوا لما نهوا عنه، ألمح إلى هذه الحقيقة قول الله تعالى في النص: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فهو يعلم ما تنطوي عليه صدورهم من كبر وعناد، فلو أعيدوا إلى دار الابتلاء لعادوا إلى اختيار الكفر على الإيمان، لأن إعادتهم حينئذٍ سيرافقها محو ذكريات العذاب في نار جهنم، فترجع إليهم حينئذٍ نفسيتهم الأولى المستكبرة المعاندة، ويعودون سيرتهم الأولى، وليست المقادير العوبة في أيدي المتشهين المتلاعبين، وصرح بهذه الحقيقة أيضاً قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ففي هذا النص تصريح بأنهم لوردوا إلى دار الابتلاء لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر والتكذيب، إلا أن تمنيتهم العودة إلى دار الابتلاء هنا يكون حينما يوقفون على النار، ويشاهدون دار عذابهم، بينما نجد في النص السابق أن طلبهم العودة إلى دار الابتلاء يكون بعد دخولهم النار، وتقلبهم في ألوان عذابها.

ويطلب الكافر مثل هذا الطلب أيضاً إذا جاءه الموت وعلم منزله من العذاب، عندئذ يسأل ربه أن يرجعه إلى الحياة ليؤمن ويعمل صالحاً، ولكن طلبه يرفض لانتهاه زمن امتحانه، وفي بيان ذلك يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ فَاِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَّا عَلَىٰكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِدْنَا قَائِلًا ظَلِمُوا ﴿٢٧﴾ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ففي هذا النص بيان طلبهم الرجعة إلى الحياة عند موتهم، رجاء أن يعملوا صالحاً، فيرفض طلبهم.

وفيه أيضاً بيان أنهم يطلبون هذا الطلب حينما تلفح وجوههم النار وهم فيها كالاحون، إذ يقولون: ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر والتكذيب فإننا ظالمون، فيقول الله لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، أي: ابتعدوا مطرودين مُدَلِّين مهانين.

ويطلب الكافر مثل هذا الطلب أيضاً وهو في موقف الحساب، وقد دلّ على ذلك قول الله تعالى في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ومن جملة هذه النصوص يتضح لنا أن الكافرين يطلبون الرجعة إلى دار الابتلاء أربع مرات.

الأولى: عند موتهم ومشاهدتهم منازلهم في دار العذاب.

الثانية: في موقف الحساب إذ يقفون عند ربهم ناكسي رؤوسهم.

الثالثة: عندما يعرضون على النار بعد الحساب، ويرون ما في النار من عذاب.

الرابعة: حينما يكونون في نار جهنم وهم يذوقون ألوان عذابها الأليم.

وفي كل هذه المرات يُرفض طلبهم، وترد عليهم تمنياتهم.

٧ - وجاء في القرآن بيان أن الكافرين الذين ماتوا وهم كفار لا يغفر الله لهم، ولا يقبل منهم فدية، إنهم قد ختموا حياتهم في دار الابتلاء بالكفر والعناد وتحدي الحقيقة الإلهية الكبرى، وقضي الأمر، فلا رجعة ولا استئناف ولا غفران ولا فدية.

إن عفو الله وغفرانه يوم القيامة من المنح التي يختص الله بها عصاة المؤمنين، فلا يكون للكافرين منها نصيب.

أما في الدنيا فباب العفو والغفران مفتوح لهم إن آمنوا، فإذا ماتوا على كفرهم مصرّين معاندين فقد قطعوا بأيديهم عن أنفسهم حبل الرجاء، وقد أعلن الله

لهم وهم في الحياة الدنيا أنه لن يغفر لهم إذا ماتوا وهم كفار، ولن يقبل منهم أية فدية، على أنهم يومئذ لا يملكون فدية يقدمونها.

دل على ذلك قول الله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)

وقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)

وقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦)

فمن هذه النصوص القرآنية تتضح لنا القاعدة الإلهية العامة في الغفران، وهي أن الله لا يغفر ذنب الكفر به أو الإشراك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فالأمر بالنسبة إلى الذنوب الواقعة في مجال احتمال الغفران منوط بمشيئة الله تبارك وتعالى.

ولا طريق للكافرين والمشركين الذين ماتوا من قبل أن يتوبوا إلا طريق جهنم خالدين فيها، قال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٨)

أما عدم قبول الفدية منهم فقد دل عليه قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا رِضًا ذَهَبًا وَلَوْ

أَفْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

وقول الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

ويظل الكبر ملازماً لهم حتى رؤية العذاب، لذلك فهم يخفون ندامتهم.

وقول الله تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

وهكذا تؤكد النصوص أن الكافرين في الآخرة محرومون من فضل المغفرة بسبب كفرهم، وأنهم لا سبيل لهم إلى فداء يفتدون به، وأنهم لا نصير لهم، وأنهم لا مخرج لهم من العذاب.

* * *

ألا فليعلم الذين اختاروا لأنفسهم سبيل الكفر بالله عن طريق الشرك به، أو عن طريق الجحود والإلحاد هذه الحقائق، فهي نُذْرٌ لهم، ولا يلوموا بعد ذلك إلا أنفسهم.

ما على الرسول إلا البلاغ.

وما على مبلغ رسالة الرسول إلا البلاغ.

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

إن الله بصير بالعباد، يقيم فيهم عدله، ويمنح محسنهم فضله.

ولا يظلم ربك أحداً.

* * *

كان الفراغ منه في ليلة الاثنين ٢٠ من جمادى الأولى
سنة ١٣٩٤هـ الموافق لـ ١٠ من حزيران (يونيه) لسنة
١٩٧٤م بمكة المكرمة .
والله أسأل أن ينفع به ويهدي ، ومن اهتدى فإنما
يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها .

عبد الرحمن حسن جنة الميداني

الفهرس

الموضوع	الصفحة
● الإهداء	٧
● الفصل الأول: مقدمات	٩
● الفصل الثاني: الحقيقة بين الدين والعلم	١٩
● الفصل الثالث: النقد الذاتي حول مفاهيم المسلمين للإسلام	٣٩
● الفصل الرابع: مقدمة صراع	٥٩
● الفصل الخامس: صراع من أجل قضية الإيمان بالله والفكر الديني الصحيح حولها	٨٧
● الفصل السادس: صراع من أجل قضية الإيمان باليوم الآخر والفكر الديني الصحيح حولها	١٥٥
● الفصل السابع: مع (برترند رسل) و (فرويد) إمامي العظم	٢٠٥
● الفصل الثامن: صراع لنفي فرية النزاع بين الإسلام والعلم	٢٣٣
● الفصل التاسع: التطورات العلمية هي التي تتراجع في اتجاه المفاهيم الدينية ..	٣٠٩
● الفصل العاشر: صراع حول ما أسماه العظم مأساة إبليس	٣٢١
● الفصل الحادي عشر: الكفر والكافرون	٣٥١

• • •

آثار المؤلف

أولاً:

- أ - سلسلة (في طريق الإسلام).
- ١ - العقيدة الإسلامية وأسسها (مجلد كبير).
- ٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها (مجلدان كبيران).
- ٣ - أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها (مجلد متوسط).

ثانياً:

- ب - في سلسلة أعداء الإسلام:
- ١ - مكائد يهودية عبر التاريخ.
- ٢ - صراع مع الملاحدة حتى العظم.
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير - الاستشراق - الاستعمار).
- ٤ - الكيد الأحمر.
- ٥ - غزو في الصميم.
- ٦ - كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة.

قيد الإعداد:

- ٧ - النفاق والمنافقون.

ثالثاً:

ج - سلسلة (من أدب الدعوة الإسلامية) .

١ - آمنت بالله (شعر) .

٢ - ترنيمات إسلامية (شعر) .

٣ - مبادئ في الأدب والدعوة .

٤ - ديوان أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة (شعر) .

رابعاً:

د - كتب متنوعة :

١ - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة .

٢ - تفسير سورة الرعد (دراسة أدبية وفكرية ولغوية) .

٣ - روائع من أقوال الرسول ﷺ (دراسة أدبية وفكرية ولغوية) .

٤ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل .

٥ - الأمثال القرآنية .

٦ - الوجيزة في العقيدة الإسلامية .

٧ - الأمة الربانية الواحدة .

٨ - بصائر للمسلم المعاصر .

٩ - الصيام ورمضان في السنة والقرآن .

١٠ - براهين وأدلة إيمانية .

١٢ - نوح عليه السلام .

١٣ - تدبر سورة الفرقان .

تطلب جميع هذه الكتب من دار القلم

دمشق ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧

